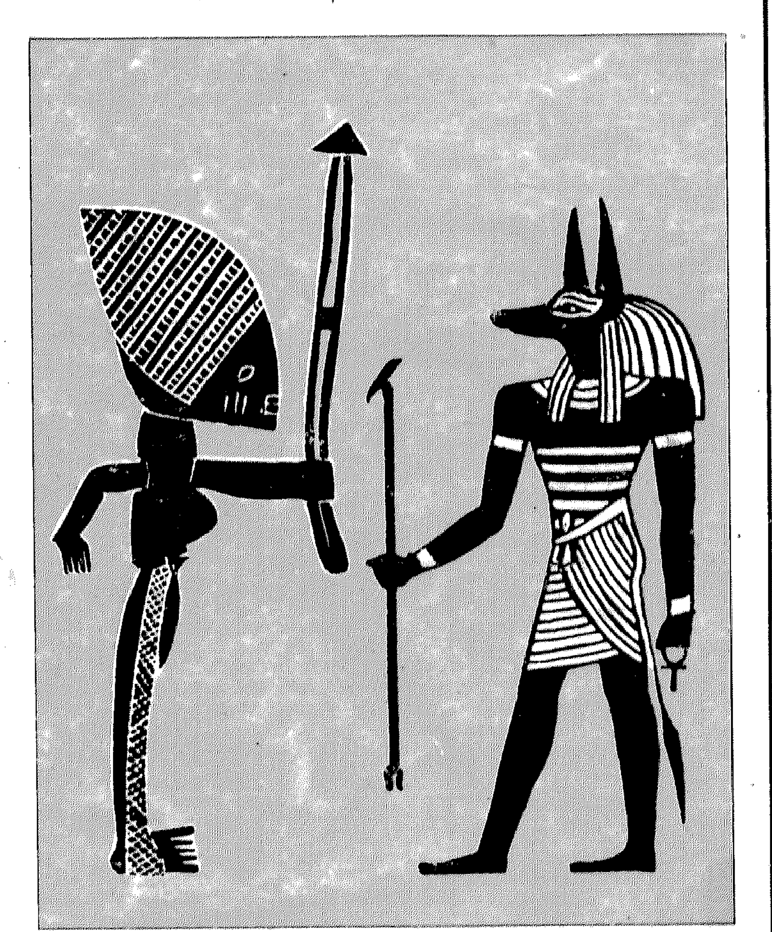
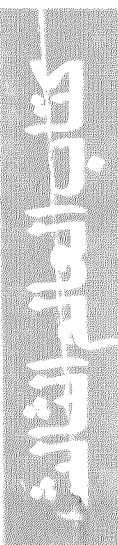
شيخ أنتا ديوب

ترجمة : حليم طوسون





الأصول الزنجية للحضارة المصرية



الأصول الزنجية للحضارة المصرية

الأصول الزنجية للحضارة المصرية

الطبعة الأولى
١٩٩٥

الناشـــر : دار العالـم الثالـث
٣٢ ش صبرى أبو علم / القاهرة
تليفون وفاكس/ ٣٩٢٢٨٠٠

هذه ترجمة لكتاب :
NATIONS NÈGRES ET CULTURE
تأليـــف :
CHEIKH ANTA DIOP

ملحوظة للناشر

استبعدنا من النصوص الواردة فى أصول هذا المؤلف الفصول المتعلقة بقضايا تطوير اللغات القومية الزنجية ونماذج الترجمات لمختلف النصوص العلمية (الرياضيات، والفيزياء، والكيمياء، وقوانين النسبية) من الفرنسية إلى لغة الولوف، وكذلك الدراسة المقارنة بين لغتى الولوف والسيرير، وترجمات النصوص الأدبية الفرنسية إلى لغة الولوف.

شيخ انتا ديوب

الأصول الزنجية للحضارة المصرية

ترجـــمة : حـليم طوســـون

دار العالم الثالث

صدر لنفس المؤلف :

Le Laboratoire du radiocarbone de l'IFAN, Dakar, IFAN,1968.
L'Unité culturelle de l'Afrique Noire, Paris, Présence Africaine, 1960.
L'*Afrique Noire Précoloniale*, Paris, Présence Africaine, 1960.
Antériorité des civilisations nègre : Mythe ou vérité historique ?, Paris, Présence Africaine, 1967.
Les fondements économiques et culturels d'un Etat fédéral d'Afrique Noire, éd. revue et corrigée, Paris, Présence Africaine, 1974.
The African Origin of Civilisation : myth or Reality, New York Westport, Lawrence Hill 7 Company, 1974.
Physique nucléaire et cchronologie absolue, Dakar, IFAN-NEA, 1974.
L'Antiquité africaine par l'image, Dakar, IFAN-NEA, numéro spécial de *Notes Africaines*, 1975.
Parenté génétique de l'égyptien pharaonique et des langues négro-africaines, Dakar, IFAN-NEA, 1977.



الأجناس البشرية كما صورها المصريون القدماء فى اللوحات الجدارية بمقبرة رمسيس الثالث (١١٩٨ - ١١٦٨ ق.م)، وهى تجسد بكل وضوح:

- صلات القربى بين المصرى (A) أو الريموتو (أى خير البشر)، والنوبى (C) أو النحاسو.
- وتميز جنسهما بجلاء عن الهندو-أوروبى (B) والليبى أو التيمهو من جهة، والسامى(D) أو الآمو من جهة أخرى.

(نقلا عن ملحق كتاب *آثار* «*DENKMÄLER*» لكارل ليبسيوس، اللوحة رقم ٤٨).



Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مقدمة
الطبعة الشعبية الصادرة فى عام ١٩٧٩

يتضح ، بعد مرور خمس وعشرين سنة، أن الأفكار الرئيسية التى عرضها كتاب الأمم الزنجية والثقافة لم يتقادم عليها الزمن، بل أصبحت جميعا الآن من المسائل المألوفة، بينما بدت فى الفترة التى ظهرت فيها هذه الأفكار، ثورية إلى الحد الذى كان يدفع عددا ضئيلا من المثقفين الأفارقة الى التجاسر والقبول بها. ويتعين علينا أن نحيى هنا شجاعة الشاعر العبقرى ايميه سيزير ونظرته الثاقبة وأمانته: فقد تردد على كافة الأوساط التقدمية الباريسية آنذاك، بعد أن قرأ طوال ليلة واحدة كل الجزء الأول من المؤلف بحثا عن اختصاصيين مستعدين للدفاع معه عن هذا الكتاب الجديد ولكن بلا جدوى! فقد أحاط به الفراغ من كل جانب.

واليكم المواضيع الرئيسية التى تناولها هذا المؤلف والتى لم تعد تثير الرجفة لدى المثقفين الأفارقة:

- استقلال إفريقيا،
- قيام دولة اتحادية على صعيد القارة الإفريقية،
- الأصل الإفريقى والزنجى للبشرية والحضارة،
- الأصل الزنجى للحضارة المصرية - النوبية،
- إسهام هذه الحضارة، وبالتالى الفكر الزنجى، فى الحضارة الغربية فى مجالات العلوم والآداب والفنون،
- تحديد تيارات الهجرة الكبرى وتكوين العروق الإفريقية،
- التقارب اللغوى بين مصر وافريقيا السوداء،
- الأصل الحقيقى للعالم السامى،
- تحديد المجال الثقافى للعالم الأسود، الممتد حتى آسيا الغربية فى وادى نهر السند،
- تحديد السمات المميزة للبنيات السياسية والاجتماعية الإفريقية،
- قيام الدول الافريقية فى كافة أرجاء القارة بعد أفول نجم مصر، وتواصل العلاقة التاريخية - الثقافية حتى فجر الأزمنة الحديثة،
- وصف عالم الفن الإفريقى ومشاكله (النحت، التصوير، الموسيقى، العمارة، الأدب.. الخ)،

- التدليل على قدرة لغاتنا على استيعاب الفكر العلمى والفلسفى، وبناء عليه أول تدوين إفريقى لا يعتمد على التصنيف العرقى لتلك اللغات، .. الخ.

بل إنه من المعروف أن اليونسكو تبنت منذ أكثر من عشر سنوات جانبا كبيرا من تلك الأفكار المتعلقة بالتاريخ الإفريقى وبتطور لغاتنا القومية.

وقد بدا لنا أنه ليس من المفيد أن نُدخل تحسينات على هذا الكتاب الذى كان بداية تلك الانطلاقة، وذلك بمناسبة صدور طبعاته المتتالية. ويتعين أن يظل على ما كان عليه كشاهد دائم على جهودنا الأولى لتحديد القضايا الإفريقية ومعالجتها والتطورات التى طرأت على هذه الأطروحات. والتحسينات المختلفة موجودة فى مؤلفات جاءت بعد ذلك ومنها: *أسبقية الحضارات الزنجية: أهى أسطورة أم حقيقة تاريخية؟*[*] *[Antériorité des civilisations nègres: mythe ou vérité historique?]*

وعلاقة القربى المتوارثة بين اللغة المصرية الفرعونية واللغات للإفريقية الزنجية *[Parenté génétique de l' égyptien pharaonique et des langues négro-africaines]*.

وإنى لأرجو أن يجد الشباب الذى سيقرأ هذا الكتاب دواعى للأمل، وهو يعيش المسافة التى قطعت منذ أن تمت كتابته.

شيخ انتاديوب

(*) مطبوعات Présence Africaine ، باريس ، ١٩٦٧

مقدمة
طبعة عام ١٩٥٤

أصبح من المعتاد فى أيامنا هذه أن نطرح على أنفسنا كافة أنواع الأسئلة؛ ولذا يتعين أن نتساءل هل كانت دراسة القضايا التى يعالجها هذا الكتاب ضرورية؟ إن النظرة السطحية للأوضاع الثقافية فى إفريقيا السوداء، تكفى وحدها لتبرير مثل هذه الدراسة.ولو أننا سلمنا بما تقوله الدراسات الغربية، لكان من العبث أن نتوغل فى أعماق الغابات المدارية للبحث عن حضارة واحدة قد تكون فى نهاية المطاف من صنع الزنوج. فعلى الرغم من الشهادات القاطعة التى قدمتها الحضارات القديمة: حضارات ايفه [IFÉ] وبنين وحوض التشاد، وغانا، وكافة الحضارات المسماة الحضارات السودانية الجديدة (مالى، جاوو..الخ) والزامبيز (مونوموتابا) والكونغو فى أغوار خط الاستواء، فإن الحضارتين الاثيوبية والمصرية كانتا، حسب مزاعم بعض العلماء الغربيين، من صنع أناس بيض، أسطوريين، اختفوا من الوجود وتركوا بعد ذلك المجال للزنوج لمواصلة الأشكال والتنظيمات والتقنيات .. الخ، التى ابتكرها هؤلاء البيض.

ولن يكون تفسير تواجد حضارة إفريقية منطقيا ومقبولا، وجادا، وموضوعيا، وعلميا - فى زعمهم - إلا إذا توصلنا، عن أى طريق كان، إلى ذلك الأبيض الأسطورى الذى لم يهتم أحد إطلاقا بتبرير قدومه واستقراره فى تلك المناطق. وبوسعنا أن ندرك بكل يسر كيف اقتضى الأمر من العلماء أن يتوصلوا فى نهاية استدلالاتهم واستنباطاتهم المنطقية والجدلية إلى فكرة «البيض ذوى البشرة السوداء» (*) الرائجة على نطاق واسع فى أوساط المتخصصين بأوروبا. وهذا النوع من النظريات لن يكتب له البقاء بالطبع لأنه يفتقر تماما الى أى أساس حقيقى. ولا يمكن تفسيره إلا من خلال التحيز المستأثر بأصحابه، وإن تظاهر بالموضوعية والتفكير المتروى.

على أن جميع هذه النظريات «العلمية» المتعلقة بالماضى الإفريقى حققت غرضها تماما: فهى نفعية وعملية. فالحقيقة تتمثل فيما يكون مفيدا. والمفيد هنا والهدف بالنسبة للمستعمر هو دفع الزنجى الى الاعتقاد، تحت ستار العلم، بأنه لم يكن فى يوم من الأيام مسئولا عن أى شئ ذى بال، ولا حتى عما يوجد لديه. وهكذا يصبح التخلى والعدول عن أى طموح قومى أمرا يسيرا لدى المترددين، ويتم تعزيز ردود الفعل الدافعة الى الخضوع لدى من عانوا من قبل من الاغتراب. ولذا يوجد العديد من المنظرين فى خدمة الاستعمار، برعوا جميعا فى الترويج لأفكارهم وتدريسها على نطاق الشعب، أولا بأول.

(*) انظر صفحتى ١٥٣ - ١٥٤.

واستخدام التبعية الثقافية كأداة للسيطرة قديم قدم العالم ذاته: فقد لجأ اليه كل شعب، فى كل مرة غزا فيها أراضى شعب آخر. ومن الجدير التنويه بأن أحفاد الغاليين الذين استخدم يوليوس قيصر هذا السلاح ضدهم هم الذين يوجهونه اليوم ضدنا.

وقد كتب يوليوس قيصر يقول: «فى مواجهة المآثر الفريدة لقواتنا، لجأ الغاليون الى اختراعات من كل نوع، فهم ماهرون وحاذقون للغاية فى محاكاة وصنع كل ما يتم إطلاعهم عليه». (قيصر، حرب *الغال*، الكتاب الثالث، الفقرة ٢٢).

ومن الواضح هنا أن الغازى الرومانى كان ينكر على الغاليين المتمردين أى قدرة على الإبداع، وهو أرفع قيمة بالنسبة للإنسان، ولا يعترف لهم إلا بالقدرة على المحاكاة التى تعتبر من الصفات الدنيا.

ونحن نواجه فى الوقت الراهن وضعاً مماثلا فى إفريقيا وفى كافة البلدان المستعمرة. ويتضح من ذلك مدى خطورة تعرفنا على ماضينا ومجتمعنا وأفكارنا من خلال المؤلفات الغربية وبلا عقلية نقدية.

وفى مواجهة هذا الموقف العام من جانب الغزاة، كان من المتوقع أن يحدث رد فعل طبيعى للدفاع عن النفس من جانب الشعب الافريقى، يرمى بالطبع الى وضع حد للإساءات اليومية التى تتعرض لها من جراء تلك الأسلحة الثقافية الماضية التى يستخدمها المحتل. ولم تكن هناك طريقتان للتعامل معها: فبناء على ماجاء من قبل، فإن هذه النظريات زائفة أصلا لأنها لا تسعى للتوصل الى الحقيقة. ولو حرصت إحدى هذه النظريات على ذلك لحرمتها التربية الغربية الزائفة منذ أجيال متعاقبة من القوة اللازمة للتوصل الى الحقيقة.

وعليه يصبح من الضرورى أن يعكف الأفارقة على دراسة تاريخهم وحضارتهم لكى يتعرفوا على أنفسهم على نحو أفضل، ويتوصلوا من خلال الدراية الحقيقية بماضيهم إلى جعل تلك الأسلحة بالية ومثيرة للسخرية، وغير فعالة بالتالى. غير أن هذه الفكرة التى كان من المفترض أن تكون مسألة دارجة وشائعة لاتزال أبعد عن أن تكون مسألة مفروغا منها بالنسبة لكافة الأفارقة، وهناك عدة اتجاهات فى هذا الصدد يمكن التمييز بينها:

أولا: الكوزموبوليتيون أدعياء العلم ودعاة الحداثة: يضم هذا الفريق كل الأفارقة الذين يفكرون على النحو التالى: إن التنقيب فى أطلال الماضى للتوصل الى حضارة إفريقية ليس سوى مضيعة للوقت إزاء الطابع الملح للمشاكل القائمة، وهو موقف عفا عليه الزمن. وعلينا أن نقطع صلتنا بكل هذا الماضى المشوش والهمجى واللحاق بالعالم الحديث الذى تندفع تقنياته بسرعة الالكترونات. والعالم فى طريقه الى التوحد، وعلينا أن نكون فى طليعة التقدم. وسيحل العلم فى

القريب العاجل كافة المشاكل الكبرى بحيث تصبح تلك المشاغل المحلية والثانوية غير ذات موضوع. ولا مجال لأن تكون هناك لغات تعبر عن ثقافة ما سوى لغات أوروبا التى أثبتت أصلا قدرتها على ذلك، مما يعنى أنها قادرة على نقل الفكر العلمى الحديث وأنها عالمية فعلا.

وهذا الفريق الذى يشمل أنماطا مختلفة هو الأجدر بالتحليل لأنه يضم الأفراد الذين يعانون أكثر من غيرهم من الانسلاخ الثقافى. ومن الواضح أن الاندماج هو المخرج الوحيد فى رأيهم. ويرجع موقفهم - عندما يكونون مخلصين - إلى قصر نظر ثقافى أو الى العجز عن اقتراح حلول ملموسة وصالحة للمشاكل التى يتعين حلها لكى يكف الاندماج عن أن يكون ضرورة ظاهرية؛ إنهم ينكرون وجود تلك المشاكل وطابعها الموضوعى، مما يذكرنا بموقف النعامة. والواقع أن هذا الموقف ليس فى صميمه سوى «محلك سر» خطير لأنه يوهم بالتقدم بخطوات عملاقة، ويخفى الميل إلى التقليل من قيمة كل ماهو نابع منا. وهذا السم الثقافى الذى يجرى تسريبه إلى العقول منذ نعومة الأظافر بكل مهارة، أصبح جزءا لا يتجزأ من جوهرنا، وهو يتجلى فى كافة الأحكام التى تصدر عنا.

وربما كان هؤلاء الأشخاص منطقيين مع أنفسهم، ولتوفرت لديهم حجة قوية فى صالح موقفهم لو أنهم تبينوا موقفا مشابها لموقفهم لدى المتحضرين للغاية الذين أصبحوا بمثابة القبلة بالنسبة لهم، أى لو أنهم وجدوا لدى الاوروبيين الغربيين ذلك الازدراء والإنكار لقيمهم الغابرة لكى يصبحوا من أنصار الحداثة. ولكن الأمر على عكس ذلك تماما، إذ أن هؤلاء المتحضرين للغاية أحرص الناس، أيا كانت توجهاتهم السياسية أو الفلسفية، على الحفاظ على ثقافتهم القومية. وهكذا يتبين لنا أن «الحداثة» ليست مرادفا لقطع الصلة مع منابع الماضى الحية. وعلى العكس فإن «الحداثة» تعنى «إدماج عناصر جديدة» لبلوغ نفس مستوى الشعوب الأخرى. ولكن «إدماج عناصر جديدة» يفترض تواجد وسط يتقبل هذا الإدماج، أى مجتمع مستند إلى الماضى، لا إلى أجزائه التى ذبلت ولكن الى الجزء الحىّ والقوى من الماضى الذى تتم دراسته بما فيه الكفاية لكى يتمكن أى شعب من التعرف على نفسه من خلاله. فتجميد الروح القومية لشعب ما فى حدود ماضٍ خلاب لاخطورة منه - لأنه مزور بما فيه الكفاية - يشكل أحد الأساليب الكلاسيكية للسيطرة. ولكن اذا كان الغرض الذهاب إلى مدى أبعد، واذا كان المطلوب محو شعب ما للحلول محله فى غضون عدة عقود، فيجب التوصل إلى تفتيت مجتمعه، أى دفع النخبة - أو من تعتبرهم الجماهير من أفرادها - إلى المشاركة بطريقة إجرامية أو بريئة فى تفتيت المجتمع وسحق النصيب الحىّ من الماضى وترك القيم الأساسية التى كانت بمثابة لحمة المجتمع (التاريخ، اللغات .. الخ) نهبا للهلاك. ولذا يحرص الماركسيون الواعون على الحفاظ بالكامل على هذه العوامل وعلى تعزيزها باستمرار، حتى وهم فى خضم المعركة المريرة من أجل ضرورات الحياة الأساسية ومن أجل تولى السلطة السياسية لأنهم يدركون أن نضالهم سيفتقد فعاليته لو أنهم لم يعملوا على حماية الثقافة الوطنية التى تؤمن بقاء المجتمع الذى يكافحون من أجله.

وبوسع أى منتم الى هذا الفريق، لكى يقتنع بذلك، أن يلجأ الى الاستدلال التالى، وهو ليس استدلالا باهرا، إلا أنه يتميز بقدرته على الوصول بنا الى حقيقة مؤكدة: «بما أننى أضع كل ثقتى فى هؤلاء المتحضرين للغاية الذين أصبحت أفكارهم فى مجموعها مرجعا لى، فإن كل فكرة صائبة تدخل فى هذا النطاق تكون كذلك بالنسبة لى أيضا. ولكنهم يولون العناية بكل دقة لتاريخهم ويمجدونه كل يوم بينما يبذلون كل جهد لتزوير تاريخى بكل دأب. فبوسعى إذن أن أستنتج من موقفهم هذا أن هناك أهمية لا تقدر بثمن لأن يعرف أى شعب تاريخه الحقيقى». يجب إلا تقوم الإنسانية على انزواء البعض لصالح البعض الآخر. فالتنكر مبكرا للثقافة الوطنية ومن طرف واحد، بغية تبنى ثقافة طرف آخر واعتبار ذلك تبسيطاً للعلاقات الدولية وتوجها نحو التقدم، معناه الانتحار. فأين هو ذلك الساذج الذى بوسعه أن يعتبر نفسه اليوم «چول ڤيرن» وأن يتنبأ، على طريقة رينان بالأوضاع فى عام ألفين وبالتقدم الذى سيحرزه العلم والمجتمع حتى ذلك الحين، وأن يتنبأ بالتالى بالطابع المرحلى لكافة مشاغلنا؟ (*) بيد أنهم ينسون فقط أن الشعب الذى لايدرك تماما أن السبيل التاريخى الوحيد المؤدى إلى قمم الكمال هذه، وإلى هذا العهد الإنسانى الذى لا لون له، سيخاطر بأن يضل الطريق ويكون غائبا فى تلك المرحلة عن محفل «الأمم».

وهكذا يتضح لنا أنه لا يمكن أن نشارك هذا الفريق فى موقفه الذى ينفى فعاليته وجدوى النضال ضد الانسلاخ الثقافى، أى إنكار وجود تلك الثقافة بينما يتوقف عليها ثلاثة أرباع مسلكنا.

ولا غرابة فى ألا تتكون أغلبية هذا الفريق من العلماء. ويتعين بالطبع على إفريقيا أن تستوعب الفكر العلمى الحديث بأسرع مايمكن؛ بل يجب أن نتوقع منها أكثر من ذلك، فالتغلب فى هذا المجال على التأخر الذى تراكم منذ عدة قرون يتطلب منها أن تخوض مسرح التبارى الدولى وأن تسهم فى تقدم العلوم الصحيحة فى كافة الفروع بمشاركة أبنائها أنفسهم. بيد أنه يجب ألا نكون واهمين: فهذا التطور لن يتحق بالكامل إلا فى اليوم الذى ستصبح فيه إفريقيا مستقلة تماما. فالسماح بتدريب كوادر تقنية بمعدلات فعالة فى بلداننا التابعة سيكون بمثابة انتحار بالنسبة للنظام الاستعمارى. وفى هذا الصدد يتم تمديد تنفيذ البرامج لفترة تكفى لكى يكون قد تم فى الوقت نفسه تغيير الوسط والنسبة بين عدد المستوطنين وأهالى البلدان الأصليين بحيث لا تعود افريقيا ملكا للأفارقة. وفى كل مرة يدعونا فيها المستعمرون إلى التعاون معهم من أجل التقدم المشترك لشعبينا، يكون قصدهم الخفى التمكن من الحلول محلنا. ولذا فإن جل مايقدمونه ليس سوى سراب واسع النطاق يضلل شعبا بأسره بتواطؤ البعض معهم. ونشهد، على أقصى تقدير، بزوغ بعض الشخصيات اللامعة؛ غير أن أندريه سيجفريد سيسارع بالقول بأنه لا يمكن الحكم على شعب بناء على إنجازات بعض الأفراد، متناسيا بذلك إلى حد ما الأسس النظرية للفردية البرجوازية الغربية التى تنسب تقدم البشرية إلى بعض العبقريات.

(*) لا يعنى ذلك بالطبع أننا نقلل من شأن رينان وچول ڤيرن أو نعتبرهما من السذج.

وهكذا يصبح من الجلى أن قيام دول افريقية مستقلة متحدة فى إطار حكومة مركزية ديمقراطية، تمتد من شواطئ البحر الأبيض المتوسط الليبية حتى رأس الرجاء الصالح، ومن المحيط الأطلسى حتى المحيط الهندى، هو وحده الذى سيتيح للأفارقة إمكانية الازدهار تماما وإثبات قدراتهم فى مختلف مجالات الإبداع، وفرض احترامهم - بل وحبهم - والقضاء على كافة أشكال الرعاية الأبوية وطى صفحة من صفحات الفلسفة، والأسهام فى تقدم البشرية بإتاحة الفرصة للتآخى بين الشعوب الذى سيكون أيسر خاصة لأنه سيكون تآخياً بين دول مستقلة بنفس الدرجة لا بين مسيطرين ومقهورين.

ولذا فإن أنصار التقدم والحداثة بشكل مجرد الذين يتحاشون إثارة القضية على هذا النحو والإشارة الى أن التقدم الذى يبدو أنهم ينشدونه ليس ممكنا فى ظل النظام الاستعمارى الذى يعيشون فيه، لا يمكنهم أن يتغاضوا عن أبعاد هذا الموقف الخطير الذى يتخذونه.

ثانيا: المثقف الذى أهمل تحسين دراسته للماركسية أو الذى درس الماركسية بسرعة وبشكل مجرد دون أن يفكر أبدا فى تطبيقها على الحالة الخاصة المتمثلة فى الواقع الاجتماعى لبلده.

وتنعت عناصر ذلك الاتجاه، موقفنا بأنه إما رجعى أو برجوازى أو عنصرى، أو نازى...

والواقع أنهم يعتقدون أن النتائج التى تم التوصل إليها تفتقر إلى الواقعية ويجدون مشقة فى الاعتراف بها.

ويتعين أن نعيد هنا الى الأذهان ما كُتب مؤخرا حول ضرورة أن يعرف أى شعب تاريخه وأن يحافظ على ثقافته القومية. وإذا كانت هذه الدراسة لم تتم بعد فمن الواجب القيام بها. ولا يعنى ذلك ان نختلق جملة وتفصيلاً تاريخا أجمل من تاريخ الشعوب الأخرى كى نخدر الشعب معنويا خلال مرحلة النضال من أجل الاستقلال الوطنى، ولكن أن ننطلق من تلك الفكرة البديهية، ألا وهى أن لكل شعب تاريخا. فمما لا غنى عنه لشعب ما لكى يوجه تطوره ، أن يكون على دراية بأصوله، أيا كانت. ولو تصادف أن كان تاريخنا أجمل مما كنا نتوقع، فلن يكون ذلك سوى تفاصيل مفرحة يجب ألا تشعرنا بالحرج مادمنا نقدم أدلة موضوعية تساند ذلك، وهو ما لن نتأخر عن القيام به هنا.

ومع أن الأدلة الواهية التى ساقها منظرو النازية لا تصمد أمام أبسط التحليلات الموضوعية للوقائع، إلا أن العديد من الإخصائيين سيتصدون للوقائع المقدمة بحجج مراوغة لن تفى بالمتطلبات الفكرية لأى هاو غير متخصص.

وبوسعنا أيضا أن نستشهد بلينين لكى يقتنع بذلك من يخشون اتخاذ موقف بورجوازى:

«غير أنكم ترتكبون خطأ إذا استنتجتم من ذلك أنه بوسع المرء أن يصبح شيوعيا دون أن يتمثل حصيلة المعارف الإنسانية. فمن الخطأ الاعتقاد بأنه يكفى استيعاب الشعارات الشيوعية واستنتاجات العلم الشيوعى دون استيعاب مجموع المعارف التى تشكل الشيوعية ذاتها أحد نتائجها...

«إن الثقافة البروليتارية لا تنطلق بأكملها من حيث لا ندرى، إنها ليست من ابتكار رجال يعتبرون أنفسهم إخصائيين فى هذا المجال، هذا عبث صرف لأن الثقافة البروليتارية يجب أن تظهر كتطور طبيعى لحصيلة المعارف التى توصلت إليها البشرية» (٢ أكتوبر ١٩٢٠).

وهذه الأفكار العامة حول الثقافة البروليتارية تنطبق على الحالة الخاصة بكل شعب.

ولنا أن نتساءل حول رأى مثقفينا فيما يتعلق بموقف الصين الشيوعية التى تلفظ فكرة إحلال الحروف الفينيقية العالمية محل كتابتها المعتمدة على الرموز، حرصا منها على ثقافتها القومية.

وبقدر مايتعلق الأمر برفض أفكار مثل : الحضارة المصرية من أصل أبيض أو أسيوى أو أوروبى، كان يتعين - لتحاشى أى التباس حول مضمون الكلمات - أن نلجأ إلى جمل مثل : لا إنها (أى الحضارة المصرية) تنحدر من أصل زنجى إفريقى. فلو أننا اكتفينا بتعبير «شعب إفريقى» لافتقرنا الى الدقة: ولذا يجب ألا يجد القارئ فى استخدام كلمة «زنجى» نية عنصرية! وليس فيها فقط حرصا من جانب المؤلف على التوضيح. فالعنصريون الواعون أو غير الواعين، هم أولئك الذين يجبروننا على دحض كتاباتهم باستخدام مثل هذه العبارات.

ثالثا: اللاقوميون الشكليون: إنهم أولئك الذين قد يسوءهم عنوان الكتاب «الأمم الزنجية والحضارة». والعنوان الأول الذى تبادر الى ذهننا - وأصبح عنوانا فرعيا نظرا لطوله فكان «من التاريخ الزنجى - المصرى القديم إلى القضايا الثقافية فى إفريقيا السوداء اليوم» - ليس مرضيا بالطبع بقدر أكبر.

وسرعان ما ينغمس البعض فى صفصطة اقتصادية ليثبتوا - أو بالأحرى ليلاحظوا - أنه من العبث التحدث عن الاستقلال القومى فى هذا العصر المتميز بالاعتماد المتبادل فى الاقتصاد. ولو كان هؤلاء مخلصين صادقين لبينوا بذلك أنهم لا يرون بوضوح طبيعة ذلك بالاعتماد المتبادل. لقد انقضى بالطبع عهد الاقتصاديات القومية الصغيرة المنغلقة على نفسها، ومن الملاحظ أيضا أنه توجد سوق دولية تتوفر فيها منتجات من كافة القارات بفضل اكتساب السرعة التى ضيقت المسافات، وتلك أفكار دارجة تتردد كل يوم.

ما هى المشكلة الاقتصادية التى يتعين أن تعالجها دولة إفريقية قوية تنبسط أطرافها لتشمل كل القارة تقريبا وتمتد حدودها من الشواطئ الليبية للبحر الابيض المتوسط حتى رأس الرجاء الصالح، ومن المحيط الأطلسى حتى المحيط الهندى؟ سيتعين عليها أن تبيع فى السوق الدولية منتجاتها الفائضة وأن تشترى منها ما تفتقر إليه إلى حد كبير مع تحاشى الوقوع تحت ضغط أى غول اقتصادى. ونظرا لمدى القوة التى ستكتسبها هذه الدولة فإنها لن تكون تابعة اقتصاديا للدول الأخرى بقدر ما لن تكون تلك الدول تابعة لها. وهذا هو مفهوم الاعتماد المتبادل الذى يجب أن نتمسك به: أن

نتحاشى، مهما كان الثمن، أن نكون أتباعا لآخرين بقدر ما لا يكونون تابعين لنا ،لأن التبعية ستؤدى آليا الى علاقات استعمار واستغلال من جانب واحد. وهكذا تكون فكرة قيام اتحاد فيدرالى يضم كافة الدول السودا ء فى القارة مسألة ضرورية للغاية.

ومن السهل أن نسترسل لكى نثبت أن استقلال مستعمرة السنغال الصغيرة، وكوت ديفوار، وتوجو، وداهومى.. الخ، لن يكون إلا وهما لأنه سيتعين على هذه المستعمرات أن تخضع فوراً لكافة أشكال الضغوط الخارجية وستدور آليا، بفعل القوى الاقتصادية، فى فلك إحدى الدول الكبرى. والحل الفيدرالى يقضى على مثل هذا الوضع.

ويجرى التساؤل أحيانا حول ما يمكن أن نتصوره كأمم فى إفريقيا. من السهل تطبيق تعريف ستالين للأمة على الاثيوبيين، والبامبارا، والولُوف، والزولو، واليوروبا.. الخ. وتوجد فى السودان، وكوت ديفوار، وتوجو، والسنغال، وغينيا، والنيجر، وكينيا، وجنوب إفريقيا، والسودان المسمى «الانجلو - مصرى» نَوَيات لأمم ستتعزز من خلال نضالها من أجل الاستقلال. ومن العبث أن نحاول اليوم تحديد ماهى بالضبط حدود هذه الأمم، وإن كان من الممكن أن نتنبأ من الآن لكل واحدة من تلك المناطق باللغات التى ستفرض نفسها - مع احتمال ضئيل فى الوقوع فى الخطأ - بينما لا يوجد مجال للشك فى وحدة الثقافة والتاريخ والطابع النفسى، وإن كان الوسط الجغرافى يمثل قدرا من الوحدة. وستحل المشكلة كما يتم ذلك الآن فى الهند: أى أن الحدود الراهنة التى رسمت من أجل تيسير الاستغلال الاستعمارى، أو حسب المصادفات، ليست بالضرورة غير قابلة للتعديل وعلينا أن نهيئ أذهاننا لكى تكون مستعدة لقبول التغير فى المستقبل.

والواقع أن الشكليين يخشون بكل بساطة ألا يكونوا مسايرين للأحداث، وينم موقفهم هذا عن نوع من التعالى الفكرى؛ ولو كان موقفهم متسقا باتجاه مصلحة الشعب لقادهم إلى التقدمية، ولكن الوضع أبعد من أن يكون كذلك.

وتشن الأوساط الاستعمارية حملة منسقة ضد القومية فى البلدان الخاضعة وتسعى مقدما لإجهاضها فى كل مكان، لأن الروح القومية، حتى وإن كانت شوفينية للغاية، لها عواقب خطيرة بالنسبة لتلك الاوساط: *فهى تقضى* على امتيازاتها وتأتى على *سيطرتها* كالسيل الجارف.

ولذا، فبوسعنا أن نلاحظ أن من يلقنوننا أن القومية قد تم تجاوزها هم:

أ) قوميون بورجوازيون من الدولة المستعمِرة ناضلوا فى بلادهم وحققوا تطلعاتهم ولكن القيام بعمل مشابه من جانبنا يقض مضاجعهم. وقد يكون بوسعهم أن يقولوا لنا أيضا: «ولكن ماذا سيحل بنا لو فعلتم نفس الشئ؟».

ب) قوميون بورجوازيون من الدول المستعمِرة يجهلون حقيقة أنفسهم؛ فهم غير

قادرين على التخلى عن فكرة وجوب احتفاظ الوطن الفرنسى بمستعمراته بطريقة أو أخرى. وهم يتساءلون أيضا عن مصير فرنسا بدون ممتلكاتها: إنهم يتصورون أنه يمكن التوصل إلى شكل للاتحاد الفرنسى يكون قادراً على البقاء، ويبحثون عن صيغة بديلة. ولكى نظهر على نحو أفضل شذوذ ذلك الترابط بين دول مستعمِرة ومستعمراتها، فلنتصور تعميم ذلك فى إفريقيا: سيكون معنى ذلك أن تظل مفتتة إلى الأبد بين [illegible]، وانجلترا، والبرتغال، واسبانيا، وجنوب افريقيا تحت قيادة الدكتاتور مالان.. الخ. ولو كُتب النجاح للتستر عى هذا التفتيت لإفريقيا تحت اسم التقدم والديمقراطية، لتحققت تلك الديمقراطية العالمية على حساب بلادنا، بمعنى أن تظل مقسمة ومستغلة من جانب طرف واحد.

هناك إذن واجب علينا أن نؤديه إزاء أوروبا: علينا أن تساعدها على التحرر من العادات القديمة التى اكتسبتها من خلال ممارستها للاستعمار، ودفعها إلى إدراك الوجهة الحقيقية لمصالحها التى لم تعد قادرة حتى على تحديدها. فأوروبا وحدها ضعيفة للغاية وفى حاجة الى المساعدة للتوصل إلى ذلك. غير أنها لن تتأخر فى الإقدام على هذا الأمر وعلى أسس ديمقراطية حقا فى اليوم الذى ستقتنع فيه بأنها فقدت إفريقيا نهائيا؛ وعندئذ سيبدو الاتحاد الفيدرالى الأوروبى الحل الوحيد بالنسبة لكل الذين كانوا يتساءلون حتى ذلك الوقت عن مصير بلادهم بدون مستعمرات.

رابعا : قد يكون هناك فريق مكون من عناصر تعتقد أن النضال من أجل لقمة الخبز اليومية هو وحده المهم وأن كل ماعدا ذلك ليس سوى هموم مثقفين ويجب أن نتحاشى الانشغال بقضايا زائفة. ويوسعنا حينئذ أن نذكر لهم مثال فيتنام الذى تعين عليه أن يحل هذه «القضايا الزائفة» فى الأدغال حيث اقتضى الأمر تأسيس تعليم باللغة الدارجة من أجل تدريب الكوادر. ومن جهة أخرى يتضح من كل ماجاء من قبل أن الاهتمام بالقضايا الثقافية هذه ليس إلا من أجل إكساب هذا النضال كل فاعليته وتحويله إلى نضال من أجل الاستقلال الوطنى.

هذا المؤلف ليس «اختراعا» حول قضايا معينة: فكل من أراد استخدام الماركسية كمرشد للتحرك على الساحة الافريقية سيتوصل بكل تأكيد إلى نفس الاستنتاجات.

ولكن، يجب أن أضع النقاط فوق الحروف: فإنى حريص على أن أوضح أننى لا ألح إطلاقا إلى صدق الدين الإسلامى أو الدين المسيحى. وأعتقد أن أى إفريقى جاد يريد أن يكون فعالا بالنسبة لبلده سيتحاشى اللجوء إلى أى انتقادات دينية. فالدين مسألة شخصية. فنحن هنا فقط بصدد مشاكل ملموسة يتعين حلها حتى يتمكن كل مؤمن من ممارسة طقوس دينه بحرية فى ظل ظروف مادية أفضل.ولذا لن يكون من الأمانة أن يُقرأ هذا الكتاب بنية خفية تريد أن تعثر فيه على أى كلمة تسمح بنبذه مع التصايح بأنه دعوة إلى الكفر.

الفصل الأول

المصريون : ما أصلهم ؟
شهادات الكتاب والفلاسفة القدامى والتوراة
وقيمة تلك الشهادات

لم يطرح هذا السؤال أبدا بالنسبة لمعاصرى المصريين القدامى الذين تركوا لنا شهاداتهم عن المصريين الذين عرفوهم.

ويجزم كل شهود العيان هؤلاء بأن المصريين كانوا زنوجا.

وقد أكد هيرودوت مرارا على الطابع الزنجى للمصريين؛ بل واستخدم ذلك للتوصل إلى استنتاجات غير مباشرة لإثبات أن فياضانات النيل لا يمكن أن تعود إلى ذوبان الثلوج، فساق لذلك عدة أسباب كان يعتقد أنها صحيحة، ومنها السبب التالى المتعلق بمصر: «والسبب الثالث يعود إلى كون الحرارة تجعل الناس سوداً...» (هيرودوت، الكتاب الثانى، الفقرة الثانية، ترجمة لارشير إلى الفرنسية).

كما أن من بين الحجج التى ساقها هيرودوت لإثبات أن وسيطة الوحى الإلهى عند الإغريق أصلها مصرى، قوله: «... وعندما يضيفون أن هذه كانت سوداء، فإنهم يقصدون بذلك أن هذه المرأة كانت مصرية...» (٢-٥٨). والحمامتان المقصودتان ترمزان إلى امرأتين مصريتين يقال إنه تم اختطافهما من طيبة من أجل إقامة الوحى الإلهى فى دودون وليبيا (واحة جوبيتر - آمون).

وقال هيرودوت لكى يثبت أن سكان كولخيس (شرقى البحر الاسود وجنوب القوقاز) كانوا من أصل مصرى وأنه يتعين اعتبارهم جزءا من جيش سنوسرت استقر فى هذه المنطقة: «ويعتقد المصريون أن هذه الشعوب سليلة جزء من جيش سنوسرت. وأنا أظن ذلك أيضا على أساس قرينتين: أولهما أنهم سود وشعرهم أكرت...»(٣-١٠٤).

وأخيرا فإن هيرودوت يميز فيما يتعلق بأهالى الهند، بين الهنود الباديين والهنود الآخرين الذين يصفهم على الوجه التالى: «إنهم جميعا من نفس اللون الذى يقارب إلى حد كبير لون الاثيوبيين..

فبشرتهم السوداء أشبه ببشرة الأثيوبين. وهذه الأصناف من الهنود بعيدة للغاية عن الفرس؛ وهم يعيشون فى الجنوب ولم يخضعوا أبدا لداريوس»(٣ - ١٠١)(*).

وكتب ديودور الصقلى يقول: «يقول الأثيوبيون إن المصريين من بين جالياتهم التى أقامها اوزيريس فى مصر. بل إنهم يزعمون أن هذا البلد لم يكن فى بداية العالم سوى بحر، ولكن النيل الذى جرف فى فيضاناته كميات كبيرة من غرين اثيوبيا ردمه فى نهاية الأمر وجعله جزءا من القارة ... ويضيفون قائلين إن المصريين أخذوا عنهم وعن مؤلفيهم وأسلافهم جانبا كبيرا من قوانينهم، وإنهم تعلموا منهم تبجيل الملوك كآلهة، ودفن موتاهم فى احتفال بمثل هذه العظمة؛ وإن النحت والكتابة نشأ عند الأثيوبيين... ويسوق الأثيوبيون أدلة أخرى مزعومة حول أقدميتهم على المصرين، ولكن لا داعى لذكرها هنا» (*تاريخ العالم*، الكتاب الثالث، ص٣٤١ ترجمة الأب تيراسون إلى الفرنسية عن اليونانية، باريس ١٧٥٨).

ولو لم يكن المصريون والأثيوبيون من نفس الجنس الأسود لنوّه ديودور باستحالة اعتبار المصريين من جالياتهم، أى أثيوبيين استقروا فى مصر فكانوا أسلافا للمصريين.

ويشير سترابون فى كتابه *الجغرافيا* إلى أهمية هجرة الشعوب فى التاريخ، وكان يعتقد أن حركة الهجرة هذه تمت فى الاتجاه العكسى فقال:

«وقد استقر مصريون فى الحبشة وفى كولخيس»(الكتاب الأول، الفصل الثالث، الفقرة العاشرة).

(*) قد يفترض البعض أن السواد مستخدم هنا بشكل مخفف للإشارة الى سحنة المصريين السامية. ولكن السؤال الذى يتبادر الى الذهن هو : لماذا خص الإغريق المصريين وحدهم من بين كل الساميين بصفة الزنجية، ولماذا لم يطبقوها على العرب، وهم ساميون على الوجه الأكمل؟

هل كانت للمصريين سمات «سامية» قريبة للغاية من سمات الزنوج، الى الحد الذى جعل الإغريق يجدون من الطبيعى أن يخلطوا بينهم بالاقتصار على استخدام نفس الصفة العرقية (ميلانوس) وهى أقوى كلمة يونانية لوصف الزنجى؟ ويُستخدم أصل هذه الكلمة إلى يومنا هذا، كلما كان المقصود الإشارة بلا لبس إلى الجنس الزنجى، ومثال ذلك:

ميلانين: الخضب الذى يلون جلد الزنجى

ميلانيزيا : مجموعة من الجزر يسكنها زنوج

الخ ، الخ..

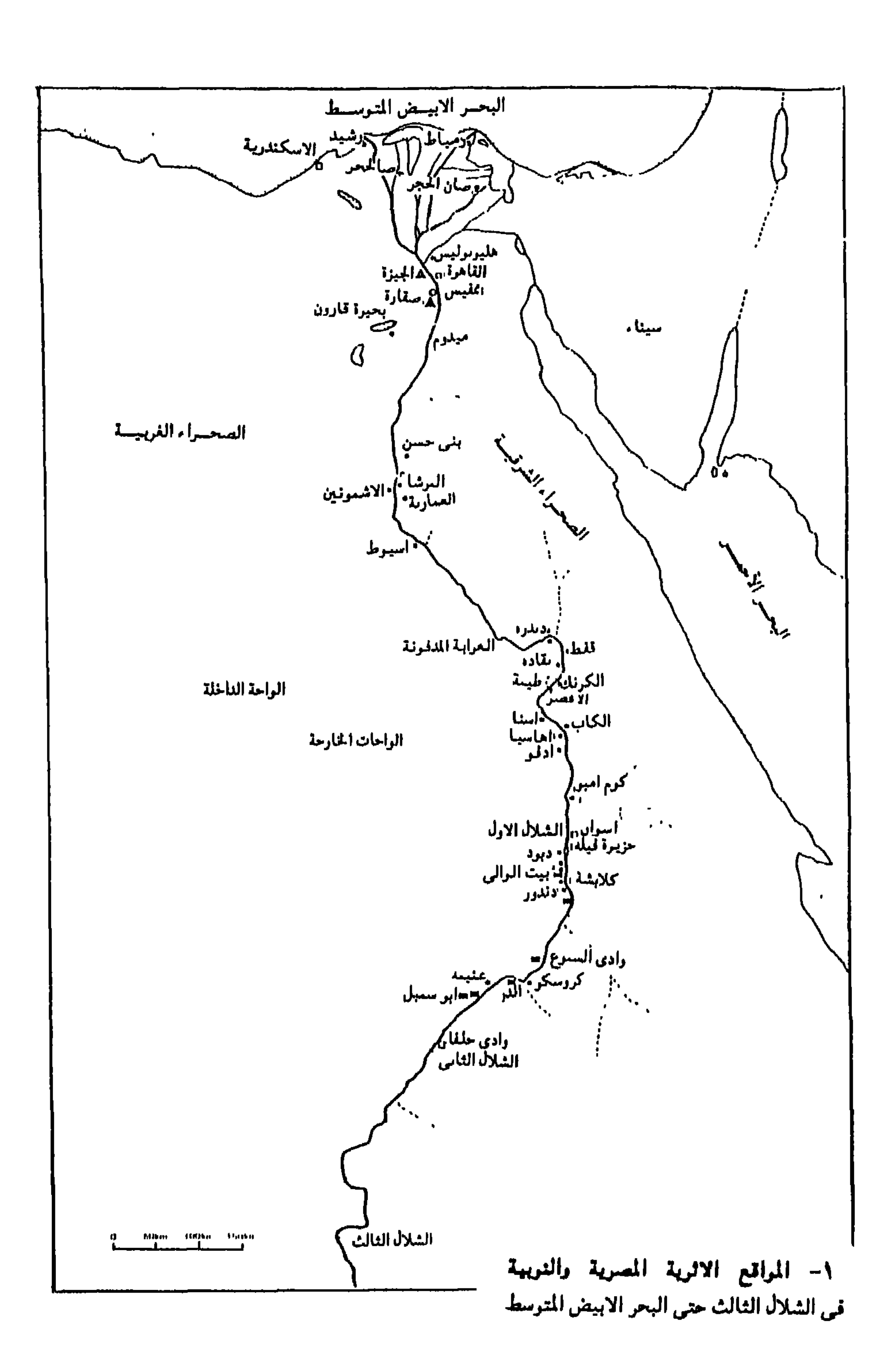
والواقع أن الإغريق كانوا حساسين للغاية إزاء تدرجات الألوان وكانوا يميزون بينها حيثما وجدت. ففي نفس الفترة كانوا يشيرون إلى الكنعانيين، الفلاسيين إلى حد كبير فى ذلك الوقت بكلمة فينيقى، وكانت تعنى أحمر ويقصد بها شخص من هذا العرق.

ويذهب سترابون إلى أبعد من ذلك فقد حاول أن يفسر فى كتابه *الجغرافيا* لماذا كان المصريون أكثر سوادا من الهنود (الجنس الأحمر الداكن المشهور عند المحدثين).

وهكذا يتبين لنا أن القدامى كانوا يميزون تماما بين الزنوج المصريين والأثيوبين من جهة، والساميين ولونهم الأحمر الداكن المزعوم.

ومن الواضح بناء على ذلك أن أى تفسير علمى للتغيرات لا يتيح الفرصة هنا للإفلات من الحقيقة بإضفاء الغموض عمدا على ماهو واضح تماما. فاللجوء إلى مثل تلك البهلوانيات لمحاولة تحاشى التهول بالوقائع البسيطة، يشير لأصحابها مصاعب لا يمكن التغلب عليها.

واخيرا فإن الساميين أنفسهم (عربا ويهودا) كانوا يعتبرون المصريين من الزنوج.



١- المواقع الاثرية المصرية والنوبية
في الشلال الثالث حتى البحر الابيض المتوسط

ومرة أخرى نجد أن إغريقيا يفيدنا، رغم أنه كان شديد التعصب، بأن المصرين والأثيوبيين والكلخيين ينتمون إلى نفس الجنس، مؤكدا بذلك ملاحظة هيرودوت حول الكولخيين(*).

وقد لخص ماسبيرو على نحو ما رأى كل المؤلفين القدامى حول الجنس المصرى (*التاريخ القديم لشعوب الشرق*، ص١٥):

«وحسب الشهادة شبه الاجماعية للمؤرخين القدامى فإنهم «ينتمون إلى جنس إفريقى» بمعنى أنهم زنوج استقروا أولا فى اثيوبيا، على شواطئ النيل الأوسط، ثم نزحوا تدريجيا نحو البحر بمتابعة مجرى النهر... ومن جهة أخرى تؤكد التوراة أن مصرايم، ابن حام وشقيق كوش الاثيوبى وكنعان، جاء من بلاد مابين النهرين واستقر مع ابنائه على شاطئ النيل».

وحسب ماجاء فى التوراة، كانت ذرية حام سلف الزنوج القدامى تسكن مصر: «وبنو حام كوش ومصرايم وفوط وكنعان، وبنو كوش: سبا وحويله وسبته ورعمه وسبتكا .. وكوش ولد نمرود الذى ابتدأ يكون جبارا فى الارض.... ومصرايم ولد لوديم وعناميم ولهايم ونفتوحيم وفتروسيم وكسلوحيم ... وكنعان ولد صيدون بكْرَه وحثا...» (*سفر التكوين*، الإصحاح العاشر)

واسم مصرايم يشير أيضا إلى مصر بالنسبة لشعوب الشرق الأوسط، كما يشير اسم كنعان (الشام) الى كل ساحل فلسطين وفينيقيا، أما شنعار (سنمار) التى كانت نقطة انطلاق نمرود نحو آسيا الغربية فلا تزال تشير إلى مملكة النوبة (انظر خريطة إفريقيا لفوجوندى،١٧٩٥).

ماهى قيمة تلك الشهادات؟ لا يمكن أن تكون هى أو غيرها زائفة لأنها شهادات شهود عيان. ولا يمكن أن يكون هيرودوت مخطئا عندما ينقل لنا عادات هذا الشعب أو ذاك، وعندما يقدم استدلالا فطنا إلى حد ما ليفسر لنا ظاهرة كانت غير مفهومة فى عهده، ولكن بوسعنا أن نقر على الأقل بأنه كان قادرا على ملاحظة لون بشرة الناس الذين عاشوا فى بلد زاره فعلا. وفضلا عن ذلك لم يكن هيرودوت المؤرخ الذى يصدق كل ما وصل الى علمه ويسجله بلا تدقيق. فهو قادر على التمييز بين الأمور، ويحرص دائما، عندما يورد رأيا يوافق عليه، على أن ينوه بذلك. وعلى سبيل المثال فقد كتب يقول بخصوص عادات السكوتيين [SCYTHES] والنور [NEURES]:

«يقال إن هذه الشعوب مكونة من سحرة. ولو صدق المرء مايقوله السكوتيون والإغريق المستقرين فى سكوتيا فإن كل نورى يتحول مرة كل سنة إلى ذئب لبضعة أيام ثم يستعيد شكله الأول بعد ذلك. ومهما قال السكوتيون فإنهم لن يدفعونى إلى تصديق تلك الحكايات الخرافية، حتى وإن أكدوها وأقسموا على ذلك»(٤ - ١٠٥).

(*) كان السكوتيون يشكلون مجموعة من الزنوج وسط الشعوب البيضاء بالقرب من البحر الأسود، ولذا كانت مسألة أصلهم مثار لفضول علماء العهود القديمة.

وهو يشير دائما بكل عناية الى الفارق بين ما رآه بنفسه وما سمعه. وهكذا فقد كتب يقول بعد أن زار قصر التيه فى مصر:

«والأجنحة مزدوجة، فهناك ألف وخمسمئة منها تحت الأرض وألف وخمسمئة فوقها، أى ثلاثة آلاف فى مجموعها. وقد زرت الأجنحة العليا وطفت بها، ولذا أتحدث عنها عن يقين كشاهد عيان. أما الأجنحة الموجودة تحت الأرض فلا أعرف عنها إلا ما قيل لى بخصوصها. ولم يسمح لى إطلاقا المصريون القائمون على قصر التيه بأن أتفرج عليها لأنها تستخدم حسب قولهم كمدافن للتماسيح المقدسة وللملوك الذين أمروا بإقامة هذا الصرح. ولذا فأنا لا أتكلم عن الأجنحة الموجودة تحت الأرض إلا نقلا عن آخرين، أما الأجنحة العليا فقد رأيتها وأعتبر أنها من أضخم ما صنعه البشر». (٢ - ١٤٨).

وهل كان هيرودوت مؤرخا يفتقد المنطق وغير قادر على محاولة تَفَهُّم الظواهر المعقدة؟ إن تفسيره لفيضانات النيل يدل على العكس على تفكير حريص على استخدام العقل، يبحث عن تفسيرات علمية للظواهر الطبيعية. وهكذا، فقد قال:

«ولكن بعد أن استبعدت الآراء السابقة، يتعين أن أفصح عما أعتقد بخصوص هذه الأشياء الخفية، ويبدو لى أن النيل يفيض فى الصيف لأن الشمس التى تُطرد فى الشتاء من مسارها القديم بسبب قسوة الموسم، تطوف حينذاك بمنطقة السماء المطلة على الجزء العلوى من ليبيا. وهذا باختصار سبب ذلك الفيضان، لأنه من المحتمل أنه كلما مال هذا الإله واقترب أكثر فأكثر من بلد، كلما زاد من جفافه ومن نضوب أنهاره.

«ولكن يجب تفسير ذلك بمزيد من التوسع: فالهواء صاف دائما فى ليبيا العليا(*). والجو حار فيها دائما ولا تهب عليها رياح باردة أبدا. وعندما تطوف الشمس فوق هذا البلد فإنها تنتج نفس التأثير الذى تحدثه عادة فى الصيف عندما تمر بوسط السماء، فتجذب الأبخرة نحوها ثم تدفعها بعد ذلك نحو الجهات العليا حيث تشتتها الرياح التى تستقبلها وتذيبها. ويبدو أن هذا هو السبب فى أن الرياح التى تهب على هذا البلد، شأنه شأن الجنوب والجنوب الغربى، أكثر إدرارا للأمطار. ومع ذلك أعتقد أن الشمس لا تعيد كل ماء النيل الذى تجتذبه سنويا وإنما تحتفظ بقسط منه».

وتدل تلك الأمثلة الثلاثة على أن هيرودوت لم يكن مجرد ناقل سلبى لحكايات لا تصدق أو لترهات، بل كان على العكس مدققا للغاية وموضوعياً وعلميا بالنسبة لعهده. فلماذا تجرى محاولات للنيل من سمعة هذا المؤرخ وتصويره على أنه كان ساذجاً؟ لماذا «يعاد صنع» التاريخ على الرغم من شهاداته القاطعة؟

(*) كانت ليبيا تعنى بالنسبة للإغريق إفريقيا مع استبعاد مصر وأثيوبيا.

يتحتم علينا أن نلاحظ أن السبب الحقيقى الذى يدفع إلى التصرف على هذا النحو، يعود إلى أن هيرودوت أفادنا كشاهد عيان، بأن المصريين كانوا زنوجا، ثم أثبت بعد ذلك بنزاهة نادرة (إذا ما علمنا أنه كان إغريقيا) أن اليونان أخذت من مصر كافة عناصر حضارتها، بما فى ذلك عبادات الآلهة وأن مصر هى التى كانت مهد الحضارة.

وعلى أى حال فإن الكشوف الأثرية تبين كل يوم أن هيرودوت كان محقا فى مواجهة مناوئية. فقد كتبت كريستيان ديروش نوبلكور تقول بخصوص أعمال التنقيب الأخيرة فى تانيس (صان الحجر): «لقد رأى هيرودوت المبانى الخارجية لتلك المدافن وترك وصفا لها (تقصد بذلك قصر التيه الذى أشرنا اليه آنفا). وأثبت لنا پيير مونتيه مرة أخرى أن أبا التاريخ لم يكذب» (*العلوم والمستقبل*، العدد ٥٦، أكتوبر ١٩٥١).

وقد يعترض البعض قائلا إن هيرودوت زار مصر فى القرن الخامس قبل الميلاد، بعد انقضاء أكثر من عشرة آلاف سنة على ظهور الحضارة المصرية، وأن الجنس الذى أقام هذه الحضارة لم يكن بالضرورة الجنس الزنجى الذى وجده هيرودوت.

غير أن تاريخ مصر بأسره يدل - كما سنرى فيما بعد - على أن اختلاط السكان الأصليين مع عناصر بدوية بيضاء، من الغزاة أو التجار، كان يتزايد أكثر فأكثر كلما اقتربنا من نهاية التاريخ المصرى القديم. ووفقا لـ م.دى پاو كانت مصر مشبعة فى العصر المتأخر بجاليات أجنبية من الأجناس البيضاء : العرب فى قفط، والليبيون فى الموقع الذى أصبح فيما بعد الاسكندرية، واليهود على مقربة من مدينة هراكليس (افاريس؟)، والبابليون (أو الفرس) فى شمال ممفيس، و«الطراواديون الفارون» فى منطقة المحاجر الكبرى الواقعة شرقى النيل، والكاريون، والأيونيون عند فرع دلتا النيل الشرقى. ودفع پسامتيك (نهاية القرن السابع ق.م) هذا الغزو السلمى إلى أقصى مداه بتكليف مرتزقة إغريق بالدفاع عن البلاد. «وارتكب الفرعون پسامتيك خطأ جسيما بأن عهد بأمر الدفاع عن مصر إلى فرق أجنبية وأدخل مختلف الجاليات المكونة من حثالات الأمم». (*أبحاث فلسفية حول المصريين والصينيين*، بقلم م.دى پاو، المجلد الثانى، ١٧٧٣، برلين، ص٣٣٧).

«وفى عهد الأسرة الصاوية الأخيرة، استقر الإغريق رسميا فى نوكراتيس (كوم الجلف)، الميناء الوحيد الذى كان يحق فيه للأجانب ممارسة التجارة». (هيرودوت، ٢-١٧٩).

وعلى أثر فتح الإسكندر لمصر، اتسع مدى انصهار اليونانيين البيض مع المصريين الزنوج ليتخذ شكل سياسة استيعاب فى ظل البطالسة.

«ولم يدلل ديونيزوس أبدا إلى هذا الحد، ولم يحظ بطقوس كلها تزلف واسراف بقدر ما تمتع بذلك فى عهد البطالسة الذين وجدوا فى عبادته وسيلة فعالة على نحو خاص لاستيعاب اليونانيين الغزاة

ودمجهم مع المصريين، سكان البلاد الأصليين» (ج.ج.باشوفن: *صفحات من اختيار ادريان تورل* «من العهد الأمومي الى العهد الأبوي» مكتبة ف. الكان، باريس، ١٩٣٨، ص٨٩).

وفيما يتعلق بشهادة التوراة، يتعين تقديم بعض التوضيحات:

ماهي قيمة شهادة التوراة؟

للإجابة على هذا السؤال يتعين أن نتدارس تكوين الشعب اليهودي. فمن هو الشعب اليهودي، كيف نشأ، وكيف أنشأ ذلك الأدب المتمثل في التوراة، والذي جاء فيه أن اللعنة حلت بذرية حام، سلف الزنوج والمصريين؟ وماهو الأصل التاريخي لتلك اللعنة؟

لقد دخل مصر أولئك الذين كانوا سيصبحون يهودا، وكان عددهم سبعين راعيا، جهلة جزعين، طردتهم المجاعة من فلسطين واجتذبتهم تلك الجنة الدنيوية المتمثلة في وادي النيل.

ومع أن المصريين كانوا يبغضون بشكل خاص الحياة البدوية والرعاة،إلا أنهم احسنوا استقبالهم في أول الأمر وذلك بفضل يوسف. وقد استقروا وفقا للتوراة في أرض جاسان وأصبحوا رعاة قطعان فرعون... وبعد موت يوسف والفرعون الذي حماهم، وإزاء تزايد أعداد اليهود نشأت لدى المصريين ردود فعل سلبية، وذلك في ظروف غير محددة المعالم. وأصبحت أحوال اليهود قاسية أكثر فأكثر؛ وقد سخرهم المصريون، حسب ماجاء في التوراة، للقيام بالأعمال الشاقة واستخدموهم كأيد عاملة لبناء مدينة رمسيس. ويقال إن المصريين اتخذوا إجراءات للحد من عدد مواليدهم والتخلص من أبنائهم من الذكور خوفا من أن تنمو تلك الأقلية العرقية وتصبح خطرا قوميا في حالة نشوب حرب، بأن تنضم إلى صفوف الأعداء.

«وأما بنو إسرائيل فأثمروا وتوالدوا ونموا وكثروا كثيرا جدا وامتلأت الأرض منهم. ثم قام ملك جديد على مصر لم يكن يعرف يوسف، فقال لشعبه هو ذا بنو إسرائيل شعب أكثر وأعظم منا، هلم نحتال لئلا ينموا فيكون إذا حدثت حرب أنهم ينضمون إلى أعدائنا ويحاربوننا ويصعدون من الأرض.فجعلوا عليهم رؤساء تسخير لكي يذلوهم بأثقالهم فبنوا لفرعون مدينتي مخازن فيثوم ورعمسيس. ولكن بحسبما أذلوهم هكذا نموا وامتدوا فاختشوا من بني اسرائيل. فاستعبد المصريون بني اسرائيل بعنف ومرروا حياتهم بعبودية قاسية في الطين واللبن وفي كل عمل في الحقل، كل عملهم الذي عملوه بواسطتهم عنفا. وكلم ملك مصر قابلتي العبرانيات... وقال حينما تولدان العبرانيات وتنظرانهن على الكرسي، إن كان ابنا فاقتلاه وإن كان بنتا فتحيا. (*سفر الخروج*، الإصحاح الأول).

وهكذا بدأت الاضطهادات الأولى التى وسمت حياة الشعب اليهودى طوال تاريخه، فظلت الأقلية اليهودية منطوية على نفسها منذ ذلك الحين وأصبحت تتوق إلى الخلاص لما عانته من آلام وإذلال. وهيأت هذه الخلفية المعنوية المتمثلة فى البؤس والأمل لنشأة أو نمو المشاعر الدينية. ومما جعل هذه الظروف مواتية تماما أن هذا الشعب المكون من رعاة بلا صناعة أو تنظيم اجتماعى (كانت الخلية الاجتماعية الوحيدة متمثلة فى الأسرة الأبوية)، والمسلح فى أحسن الحالات بعصى، ما كان يستشرف أى رد فعل إيجابى إزاء تفوق الشعب المصرى تقنيا.

وقد ظهر فى تلك الظروف موسى،أول الأنبياء اليهود، الذى كتب تاريخ الشعب العبرى منذ أصوله الأولى وقدمه لنا من زاوية دينية.

كان موسى يعيش فى عهد تل العمارنة، حيث كان امنحوتب الرابع (اخناتون، حوالى عام ١٤٠٠ ق.م) يحاول تجديد الديانة المصرية الأولى الوحدوية، التى كانت تندثر تحت وطأة المؤسسة الكهنونية وفساد ذمة الكهنة.

ويبدو أن اخناتون حاول تعزيز المركزية السياسية فى تلك الامبراطورية الشاسعة الأطراف التى كانت قد تأسست منذ عهد قريب،من خلال مركزية دينية. ولذا كانت الامبراطورية فى حاجة الى ديانة عالمية.

وقد تأثر موسى على مايبدو بهذا الإصلاح الدينى. وأصبح من ذلك الوقت بطل الدعوة للتوحيد بين اليهود.

كان التوحيد، بشكله المجرد تماما، موجودا من قبل فى مصر التى أخذته عن الحضارة المرّوية السودانية، أى أثيوبيا القدماء.

«مع أن آمون، الذى يعنى اسمه السرّ والعبادة، كان الإله الأكبر وفقا لأنقى التصورات الوحدوية باعتباره ... خالق تولد من نفسه منذ البداية وصنع كل شئ ولم يُصنع»... «إلا أنه أصبح ذات يوم مصحوبا بالشمس رع أو متحولا إلى أوزيريس أو حورس». (د.ب.دى پدرال، *آثار افريقيا السوداء*، مطبوعات بايو، ١٩٥٠، ص٣٧).

وفى ظل مناخ افتقاد الأمن الذى كان يواجهه الشعب اليهودى فى مصر، كان الإله الواعد بمستقبل آمن سندا معنويا لا غنى عنه. ومع أن هذا الشعب لم يكن يعرف، على مايبدو، التوحيد حتى ذلك الوقت، على عكس أولئك الذين يريدون أن يجعلوه مبتكره، فقد طوره إلى حد كبير، بعد التحفظات التى أبداها فى بداية الأمر.

وقد قاد موسى الشعب العبرى خارج مصر مستعينا فى ذلك بالإيمان، غير أن هذا الشعب سرعان

ما ملّ هذه العقيدة ولم يعد بعد ذلك إلى التوحيد إلا تدريجيا. (العجل الذهبى لأخيه هارون عند جبل سيناء).

لقد دخل الشعب اليهودى مصر وهو مكون من سبعين راعيا منظمين في اثنتى عشرة أسرة أبوية، بدويين بلا صناعة ولا ثقافة، وخرج منها بعد أربعمئة سنة وقد بلغ تعداده ستمئة الف نسمة، بعد أن نهل منها كافة عناصر تقاليده فى المستقبل، ومنها بالأخص التوحيد.

واذا كان الشعب المصرى قد سام الشعب اليهودى سوء العذاب كما ورد فى التوراة، وإذا كان الشعب المصرى مكوناً من زنوج من ذرية حام كما جاء فى التوراة أيضا، فإننا لا يمكن أن نتجاهل الأسباب التاريخية للعنة التى حلت بحام كما جاء فى الأدبيات اليهودية فى مرحلة متأخرة تماما بعد مرحلة الاضطهاد هذه.

ولذا فقد أسند موسى إلى الحىّ القيوم، فى سفر التكوين، الكلمات التالية التى وجهها لأبرام فى حلمه (إبراهيم فيما بعد كما جاء فى الإصحاح السابع عشر من *سفر التكوين*):

«اعلم يقينا أن نسلك سيكون غريبا فى أرض ليست لهم ويستعبدون لهم، فيذلونهم أربع مئة سنة، ثم الأمة التى يستعبدون لها أنا أدينها، وبعد ذلك يخرجون بأملاك جزيلة» (*سفر التكوين*، الإصحاح الخامس عشر) (*).

ونحن هنا بصدد الأصل التاريخى للعنة التى حلت بحام.

فليس من باب المصادفة أن لعنة حام، والد مصرايم وفوط وكوش وكنعان لم تصب سوى كنعان وحده المستقر فى البلد الذى اشتهاه اليهود طوال تاريخهم.

من أين جاء اسم حام هذا، ومن أين استخلصه موسى؟ من مصر ذاتها حيث ولد وترعرع وهرم حتى الخروج. والواقع أننا نعلم أن المصريين كانوا يسمون بلادهم كيميت، «ومعناها أسود بلغتهم. والتفسير الذى يقول إن كلمة «كيميت» التى تشير إلى أرض مصر الطينية، لا اللون الأسود، وبالاستطراد الجنس الأسود وبلاد السود، ناجم عن تخيل متعسف لمفكرين يعون ما سيترتب على التفسير الصحيح لهذه العبارة. ولذا فمن الطبيعى أن نجد أن كلمة «حام» بالعبرية تعنى: «حرارة أو أسود أو محروق»(**).

(*) استنادا الى ماجاء فى التوراة كيف يمكن أن يكون الشعب اليهودى خالصا من أى دم زنجى. لقد تحول فى غضون أربعمئة سنة من ٧٠ فردا الى حوالى ستمئة الف وسط أمة زنجية عاش تحت سيطرتها طوال تلك الفترة. واذا كانت السمات الزنجية لليهود غير ماهى عليه اليوم، فهذا يرجع على الأرجح الى اختلاطهم مع العناصر الاوروبية منذ تشتتهم. وقد أصبح شبه مؤكد حاليا بأن موسى كان مصريا، وبالتالى زنجيا -انظر موسى *والوحدوية* للرويد.

(**) پدرال، نقلا عن موريبه، ص٢٧ من كتابه: *آثار افريقيا السوداء*، مطبوعات پايو، باريس، ١٩٥٠.

وعليه، تتبدد كافة التناقضات الظاهرية ويظهر منطق الوقائع على حقيقته بكل وضوح. فأهالى مصر الذين يرمز اليهم باللون الأسود، كميت = حام فى التوراة، صُبت عليهم اللعنة فى أدبيات الشعب الذى اضطهدوه. وهكذا يتبين لنا أن نقمة التوراة على ذرية حام لها أصل مختلف تماما عن ذلك الذى يعزى إليها اليوم جهارا نهارا، بلا أى أساس تاريخى. أما المسألة التى لا يمكن فهمها، فهى على العكس، كيف أصبحت كلمة كيميت التى تعنى حامى، وأسود، وأبنوس .. الخ (باللغة المصرية القديمة ذاتها) تشير إلى جنس أبيض.

وهكذا نجد أن *حام* يصبح ملعونا وملطخا بالسواد وسلفا للزنوج عندما يكون ذلك فى خدمة الغرض المقصود، وهذا مايحدث كلما جرى الحديث عن العلاقات الاجتماعية المعاصرة.

ولكن حام هذا يصبح أبيض كلما جرى البحث عن أصل الحضارة، لأنه متواجد فى هذا البلد الذى كان أول بلد متحضر فى العالم. وهكذا تم ابتكار فكرة الحاميين الشرقيين والغربيين التى لا تعدو أن تكون سوى اختراع مُوات لحرمان الزنوج من الكسب المعنوى للحضارة المصرية وللحضارات الإفريقية الأخرى كما سنرى. والصورة رقم ٢(ص ٢٧) تمكننا من إدراك الطابع المغرض الذى تتسم به تلك النظريات.

ومهما بذلت الجهود لمحاولة فهم مفهوم الحامية كما ورد فى الكتب المدرسية الرسمية، إلا أن هناك استحالة لجعلها متفقة مع أبسط الحقائق التاريخية والجغرافية واللغوية والعرقية. ولا يوجد متخصص واحد قادر على تحديد المهد الأول للحاميين (بالمفهوم العلمى) واللغة التى كانوا يتحدثون بها والطريق التى سلكوها والبلاد التى استقروا فيها ونوع الحضارة التى خلفوها وراءهم. وعلى العكس يجمع المتخصصون على الاعتراف بأن هذه الكلمة لا تتفق مع أى مفهوم جاد، ولكن الكل لا يكف عن استخدامها كمبرر لتفسير أى ظاهرة من ظواهر الحضارة الافريقية.



٢- نموذج جميل للحامى الشرقى

(سيجلمان: *العروق فى افريقيا*، الناشر بايو، ١٩٣٥) نقلا عن نيلى بوتشيوم-"RICERCHE ANTROPOM-ETRICHE SUI SOMALI" ارشيفات الانتروبولوچيا، ١٩١١.

الفصل الثانى

منشــأ خرافــة الزنجــى

كانت مصر قد فقدت استقلالها منذ قرن من الزمن عندما زارها هيرودوت. فقد احتلها الفرس فى عام ٥٢٥ ق.م. وظلت منذ ذلك العهد تحت سيطرة الأجانب: فقد جاء بعد الفرس المقدونيون تحت قيادة الإسكندر، والرومان تحت قيادة يوليوس قيصر (٥٠ق.م)، والعرب فى القرن السابع، والأتراك فى القرن السادس عشر، والفرنسيون بقيادة نابليون، ثم الانجليز فى أواخر القرن التاسع عشر.

كانت مصر مهد الحضارة طوال عشرة آلاف سنة بينما كانت بقية العالم غارقة فى ظلمات الوحشية. ومع أنها لم تعد تقوم بهذا الدور بعد أن دمرتها عمليات الاحتلال المتتالية إلا أنها ظلت مع ذلك تلقن لأمد طويل شعوب البحر الأبيض المتوسط، الفتية (الإغريق والرومان وغيرهم) التنوير الحضارى. وقد ظلت طوال التاريخ القديم الأرض الكلاسيكية التى تحج إليها شعوب البحر الأبيض المتوسط لتنهل من منابع المعرفة العلمية والدينية والأخلاقية والاجتماعية.. الخ. التى كانت أقدم ما اكتسب البشر من معارف فى تلك المجالات.

وهكذا قامت على التوالى حول كافة شواطئ البحر الأبيض المتوسط حضارات جديدة استفادت من إسهامات عديدة هيأها لها الموقع الجغرافى للبحر الأبيض المتوسط الذى كان ملتقى حقيقيا فى خير موضع فى العالم. وقد تطورت تلك الحضارات ماديا وتقنيا بفضل العبقرية المادية للهندو- اوروبيين: الإغريق والرومان.

وفى القرن الرابع تقريبا نفدت الشحنة الوثنية التى كانت تدفع تلك الحضارة الإغريقية - الرومانية: وتدخل عنصران جديدان: المسيحية وغزوات البرابرة فى أنحاء أوروبا فتولدت عنهما حضارة جديدة، هى ذات الحضارة التى تعتريها اليوم، بدورها، أعراض الإنهاك. وقد ورثت هذه الحضارة كافة ضروب التقدم التقنى التى توصلت إليها البشرية وأصبحت مجهزة تقنيا بما فيه الكفاية فى القرن الخامس عشر للانطلاق نحو استكشاف العالم وفتحه.

وهكذا وصل البرتغاليون الى إفريقيا منذ القرن الخامس عشر عن طريق المحيط الأطلسى، فأقاموا أول اتصالات حديثة للقارة مع الغرب، لم تتوقف منذ ذلك العهد.

ماذا وجدوا فى هذا الطرف الآخر من إفريقيا؟ وماهى الشعوب التى التقوا بها: أكانت هناك منذ العهود القديمة أم كانت قد هاجرت حديثا؟ وكيف كان مستواها الثقافى ودرجة تنظيمها الاجتماعى والسياسى، أى باختصار ماهى الدرجة التى كانت حضارتها قد بلغت؟ ماهى الانطباعات التى كان بوسعهم استخلاصها من احتكاكهم بتلك الشعوب؟ وماهى الفكرة التى كان بوسعهم التوصل إليها بخصوص قدراتها الذهنية واستعداداتها التقنية؟ وماهى طبيعة العلاقات الاجتماعية التى نشأت على أثر ذلك بين أوروبا وإفريقيا؟ وفى أى اتجاه تطورت هذه العلاقات باستمرار؟

سيوفر الرد على مختلف هذه الأسئلة التفسير الكامل للأسطورة الراهنة حول الزنجى البدائى.

وتستلزم بالطبع الإجابة على هذه الأسئلة الرجوع إلى مصر فى الفترة التى وقعت فيها تحت نير الأجانب.

وقد شهد على الأرجح انتشار الزنوج فى القارة الإفريقية مرحلتين رئيسيتين:

فمن المعترف به عموما أن الجفاف الذى أصاب الصحراء انتهى قبل الميلاد بـ ٧٠٠٠ سنة تقريبا. وكانت إفريقيا الإستوائية لاتزال على الأرجح منطقة غابات كثيفة للغاية بحيث لم تكن تجتذب البشر.ولذا فإن الزنوج الذين كانوا آخر من عاشوا فى الصحراء، هجروها متجهين نحو أعالى النيل، فيما عدا بضع بقع ربما ظلت تائهة فى بقية أنحاء القارة لأنها اتجهت نحو الجنوب أو صعدت نحو الشمال(*). وربما وجد الأولون فى أعالى النيل سكانا زنوجا كانوا مقيمين هناك أصلا. وعلى أى حال فقد تولدت أقدم ظاهرة تحضر عرفها العالم من خلال التأقلم التدريجى مع ظروف الحياة الجديدة التى فرضتها الطبيعة على مختلف السكان الزنوج. وقد تطورت هذه الحضارة التى تسمى مصرية فى عهدنا، تطورت على مدى طويل فى مهدها الأول ثم انحدرت ببطء مع امتداد وادى النيل لينتشر إشعاعها حول حوض البحر الأبيض المتوسط. واستغرقت دورة الحضارة هذه، وهى أطول الدورات فى

(*) ويتبين مما تم العثور عليه فى الصحراء أن سكانها كانوا من الزنوج...

«فأجسام النساء ذوات عجيزات مكتنزة، كما يقول الانثرولوجيون، أو على حد قول جان تمبوراك «ذوات الأدبار الممتلئة واللحيمة» (ث.مونود، *المهارة: استكشاف فى الصحراء الحقيقية*، مطبوعات [JE SERS]، باريس، ١٩٣٧، ص١٠٨)

«فلاحون، وربما فلاحون زنوج، وأعداد غفيرة من الأبقار وحقول دُخن، وأوانٍ من الفخار ومياه جارية وصيد وفير وريف، تكسوه الخضرة وقوارب محكمة، كان كل ذلك جميلا ولكنه لم يدم، كانت المرحلة الرطبة قد سبقتها فترة متصحرة، وقد راحت تترك مكانها ببطء ليحل محلها جفاف جديد. . لقد استعادت (الصحراء) مملكتها من جديد فامتصت البحيرات وحققت التجهيل وأزالت الريف.

«وماذا عن أهالى الريف؟كان الأمر سيئا بالنسبة لهم، فجرت بخصوصه مناقشات حادة فى برلمانهم:هل يتعين عليهم أن يفنوا فى مكانهم أو يهاجروا أو يتأقلموا. لم يناد أحد بالانتحار ولم يحصل التأقلم على صوت واحد وتمت الموافقة على الخروج برفع الأيدى» (ث. مونود - المرجع السابق، ص ١٢٨).

إن الهياكل البشرية التى تعود الى ماقبل التاريخ والتى وجدت فى الصحراء من النوع الزنجى: إنه إنسان اسيلار،فى جنوب الصحراء.

التاريخ، حوالى عشرة آلاف سنة، وهو متوسط بين التقدير الزمنى الطويل (هيرودوت ومانيتون اعتماداً على بيانات الكهنة المصريين، الذين يرجعون تلك الحضارة الى ١٧ الف سنة)، والتقدير القصير للحديثين الذين تعين عليهم الاعتراف بأن المصريين كانوا قد اخترعوا التقويم فى عام ٤٢٤٥ ق.م.، مما يفترض آلاف السنوات من التطور للتوصل إلى مثل هذه التصورات.

وبوسع المرء أن يدرك ببساطة أن الزنوج انتشروا من جديد تدريجيا داخل القارة وشكلوا نَوَيات أصبحت فيما بعد مراكز حضارات قارية (يتناولها بالدراسة الفصل الخامس).

وظلت تلك الحضارات الإفريقية معزولة أكثر فأكثر عن بقية العالم، ومالت الى التقوقع نتيجة للمسافة الشاسعة التى تفصلها عن سبل الوصول الى البحر الأبيض المتوسط. وعندما فقدت مصر استقلالها، كان انعزال تلك الحضارات تاماً.

ولما كان الزنوج قد أصبحوا على أثر ذلك منفصلين عن وطنهم الأم الذى اجتاحه الأجانب، وانغلقوا على أنفسهم فى إطار جغرافى يحتاج إلى جهد أقل للتأقلم، وحظوا بظروف اقتصادية مواتية، فقد اتجهوا نحو تطوير تنظيمهم الاجتماعى والسياسى والمعنوى، أكثر من اتجاههم نحو البحث العلمى النظرى الذى ما كانت البيئة تبرره، بل وتجعله مستحيلا. ولما كان التأقلم فى الشريط الضيق لوادى النيل الخصب يتطلب تقنية علمية فى الرى وإقامة السدود، وحسابات دقيقة للتنبؤ بفيضانات النيل، واستخلاص العواقب الاقتصادية والاجتماعية لذلك، فقد أصبح اختراع علم الهندسة ضرورة مادية لتحديد الملكيات بعد فيضانات النيل التى كانت تزيل الحدود، كما تطلبت شرائح الأرض المسطحة تحويل المعزقة التى تعود إلى العصر الحجرى - الزنجى الجديد إلى محراث قام الإنسان بجره ثم أحل محله البهائم. وبقدر ما كان كل ذلك أمرا لا غنى عنه بالنسبة للزنجى المستقر فى وادى النيل، بقدر ما كان لا يلزم فى ظل ظروف الحياة الجديدة داخل القارة.

ولما كان التاريخ قد أخل بتوازن الزنجى فيما مضى مع البيئة، فقد توصل إلى توازن جديد مختلف عن الأول من حيث غياب التقنية التى لم تعد ذات أهمية حيوية، على عكس التنظيم الاجتماعى والسياسى والمعنوى.

كما أن الزنجى تخلى تدريجيا عن اهتمامه بالتقدم المادى نظرا لأن الموارد الاقتصادية كانت مؤمنة من خلال وسائل لا تستدعى اختراعات متواصلة.

وقد تم الالتقاء مع اوروبا فى ظل ذلك الوضع الحضارى الجديد. فعندما بدأ البحارة التجار الأوائل البرتغاليون والهولنديون، والانجليز، والفرنسيون، والدانماركيون، والبراندبورجوازيون فى إقامة وكالات تجارية على الساحل الغربى لأفريقيا فى القرن الخامس عشر، كان التنظيم السياسى للدول الإفريقية مساويا فى مستواه للتنظيم السياسى لدول هؤلاء البحارة التجار، بل وأرقى منه فى كثير

من الأحوال. كانت النظم الملكية دستورية وتشمل مجلسا للشعب تمثل فيه مختلف الفئات الاجتماعية، ولم يكن الملك الزنجى كما لم يصبح أبدا طاغية يتمتع بسلطات لا حدود لها، على عكس ما أشاعته الأساطير. وكان الشعب يتولى تنصيبه فى بعض الحالات، من خلال رئيس وزراء يمثل الرجال الأحرار. وكانت مهمته تتمثل فى خدمة الشعب بحكمة وكانت سلطته تتوقف على مدى احترامه للدستور القائم (انظر الفصل الخامس).

وكان النظام الاجتماعى والأخلاقى على نفس المستوى من الكمال. ولم تسد فى أى مكان العقلية السابقة على المنطق بالمعنى الذى قصده ليفى - برول، ولا توجد حاجة هنا للرد على هذه الأطروحة التى تبرأ منها صاحبها قبل وفاته... وعلى العكس كان التطور التقنى أقل تقدما مما كان عليه فى أوروبا للأسباب المذكورة آنفا. ومع أن الزنجى كان أول من اكتشف الحديد، إلا أنه لم يصنع المدفع، وكان سرّ البارود معروفا لدى الكهنة المصريين الذين كانوا لا يستخدمونه إلا للأغراض الدينية أثناء الطقوس الدينية الخاصة بأوزيريس (انظر: *أبحاث فلسفية حول المصريين والصينيين*، بقلم م.دى پاو.
.وبناء على ذلك كان من السهل التغلب على إفريقيا من وجهة النظر التقنية، فأصبحت بذلك فريسة مغرية بالنسبة للغرب المزود بأسلحة نارية وسفن قادرة على قطع مسافات طويلة.

وعليه، فقد شجع ازدهار أوروبا الاقتصادى فى عهد النهضة على غزو إفريقيا الذى تحقق بسرعة. وتم الانتقال من مرحلة الوكالات الساحلية إلى مرحلة الاستيلاء عن طريق اتفاقيات دولية بين الدول الغربية، أعقبها غزو الداخل بواسطة السلاح، تحت اسم إخماد الفتن وإقرار السلام.

وكان قد تم اكتشاف امريكا فى بداية هذه المرحلة على يد كريستوف كولومبوس فانصب فائض القارة الأوروبية القديمة فى القارة الجديدة. واحتاجت زراعة الأراضى البكر إلى أيد عاملة رخيصة. وبدت إفريقيا المجردة من وسائل الدفاع، خير مستودع بشرى ملائم يتعين اغتراف تلك الأيدى العاملة منه بأقل التكاليف والمخاطر. وهكذا أصبحت النخاسة الحديثة المقصورة على العبيد من الزنوج، ضرورة اقتصادية قبل ظهور الآلة البخارية، وظلت قائمة حتى منتصف القرن التاسع عشر.

وأدى ذلك الانقلاب فى الأدوار، الناجم عن العلاقات التقنية الجديدة، إلى علاقات قائمة، على الصعيد الاجتماعى، بين السيد الأبيض والعبد الزنجى. وكانت ذكرى مصر الزنجية التى أنشأت الحضارة فى العالم قد اندثرت منذ العصور الوسطى، نتيجة لنسيان التقاليد القديمة التى تم إخفاؤها فى المكتبات أو دُفنت تحت الأطلال. وقد تلاشت تلك الذكرى أكثر فأكثر على مدى القرون الأربعة التى استغرقتها تلك العبودية.

ولما كان الأوروبيون مغرمين بتفوقهم التقنى الحديث، فقد نظروا منذ البداية بازدراء لكل العالم الزنجى الذى ماكانوا يتفضلون إلا بوضع أيديهم على ثرواته. وتوفرت عوامل عديدة لتهيئة الذهن

الأوروبى تماما لتشويه شخصية الزنجى المعنوية واستعداداته الفكرية، ومنها الجهل بالتاريخ القديم للزنوج، واختلاف العادات والتقاليد، والأحكام المسبقة المتفشية بين الجنسين لتصورهما أنهما يتواجهان للمرة الأولى، وهذا علاوة على الضروريات الاقتصادية للاستغلال.

وهكذا أصبح «الزنجى» مرادفا «للكائن البدائى الأدنى ذى العقلية السابقة على المنطق». ولما كان الكائن البشرى حريصاً دائما على تبرير مسلكه، فقد ذهب إلى مدى أبعد من ذلك لإضفاء الشرعية على الاستعمار والنخاسة – لتسويغ وضع الزنجى الاجتماعى فى العالم الحديث – فأنشأ أدبيات كاملة لوصف السمات الدنيا المزعومة التى يتميز بها الزنجى.وهكذا تم تدريجيا إفساد عقول عدة أجيال أوروبية. وتبلور الرأى العام الغربى فأصبح يقبل بشكل غريزى أن «الزنجى = إنسان أدنى» كما لو كان ذلك مسألة مفزوغا منها(*).

وبلغت الوقاحة قمتها بتصوير الاستعمار كواجب إنسانى بالتذرع بالرسالة الحضارية التى يقع على عاتق الغرب الاضطلاع بها لرفع الإفريقى إلى مستوى البشر الآخرين. وهكذا أصبحت الرأسمالية مطلقة اليدين لممارسة أبشع أشكال الاستغلال تحت ستار مبررات أخلاقية.

وسيتم الاعتراف فى أحسن الأحوال بمواهب الزنجى الفنية المرتبطة بحساسيته كحيوان أدنى، وذلك هو رأى الفرنسى جوبينو ، سلف الفلسفة النازية الذى قرر فى كتابه الشهير المعنون *حول عدم التساوى بين الأجناس البشرية* ، أن الإحساس بالفن يسرى فى عروق الزنوج، ولكنه يعتبر فى الوقت نفسه أن الفن مظهر أدنى للطبيعة البشرية، وبالأخص حاسة الإيقاع المرتبطة بالاستعدادات الانفعالية لدى الزنجى.

وفى نهاية الأمر أثر مناخ الاغتراب هذا بعمق فى شخصية الزنجى، وخاصة الزنجى المتعلم الذى أتيحت له فرصة إدراك فكرة بقية العالم عنه وعن شعبه. وكثيرا ما يفقد المثقف الزنجى ثقته فى إمكاناته الذاتية وفى إمكانات جنسه، حتى أنه لن يكون من الغريب على الرغم من الإثباتات المطروحة فى هذه الدراسة، أن يجد بعضنا مشقة فى التسليم بأننا اضطلعنا حقا بالدور الأول فى حضارة العالم.

و كثيرا ما يظل زنوج ذوو مستوى ثقافى رفيع ضحايا لهذا الاغتراب إلى حد محاولة تقنين – بحسن نية – تلك الأفكار النازية المتعلقة بالأزدواجية المزعومة بين الزنجى الحساس والانفعالى

(*) جاء فى قاموس لاروس الحديث المصور (صفحة ٥١٦ – طبعة ١٩٠٥) التعريف التالى: «زنجى، زنجية (عن اللاتينية نيجر:أسود) رجل، امرأة أسود الجلد. وهو الاسم الذى يطلق بالأخص على سكان بعض بلدان أفريقيا الذين يشكلون جنسا أسود أدنى ذكاء من الجنس الأبيض المسمى الجنس القوقازى».

والخالق للفن ،والأبيض المعتمد بالأخص على التفكير الرشيد (*). وهكذا، فقد عبر شاعر افريقى زنجى بحسن نية عن ذلك فى بيت شعر رائع الجمال:

«العاطفة زنجية والعقل إغريقى».

(ليوبولد سيدار سنجور)

وقد نشأ بذلك، شيئا فشيئا أدب زنجى «استكمالى» أراد أن يكون طفليا وساذجا وسلبيا ومستسلما وبكاء. وهكذا أيضا تشكل الأعمال الفنية الزنجية الخلاقة الراهنة فى مجموعها، والتى تلقى تقديرا كبيرا من جانب الغربيين، تشكل مع ذلك مرآة تتيح لهؤلاء فرصة التطلع لأنفسهم بفخر لإيمانهم بتفوقهم، مع الاستسلام فى الوقت نفسه لأحاسيسهم الأبوية. غير أن ردود الفعل ستكون مختلفة تماما لو أن نفس هؤلاء المحكمين وجدوا أنفسهم بصدد عمل فنى زنجى ناجح تماما، لكنه خارج ذلك الإطار ومتحرر من الإحساس بالتبعية وعُقد النقص، ويضع نفسه بالطبع فى مستوى المساواة.

(*) ولو سلمنا مع الإغريق وأكفا المحكمين فى هذا المجال بأن الانطلاق والحماس هما حياة العبقرية الفنية، وأن هذه العبقرية تسرق، عندما تكون كاملة، إلى الجنون، فإننا لن نسعى إلى البحث عن سبب هذا الخلق فى أى شعور منظم وحكيم وفقا لطبيعتنا، ولكن من خلال عمق تأجيج الأحاسيس باندفاعات طموحة ترمى إلى الجمع بين الذهن والمظاهر بغية استخلاص شئ مُرضٍ أكثر من الواقع... وبناء على ذلك يتمثل أمامنا ذلك الاستنتاج الدقيق للغاية، وهو أن المنبع الذى تدفقت منه الفنون غريب على الغرائز الحضارية. إنه كامن فى دم الزنوج... وقد يقال إننى أضع بذلك تاجا جميلا على رأس الزنجى المشوهة، وإنه لشرف عظيم حقا نسبغه عليه بأن نجمع حوله جوقة عرائس الشعر المتناغمة إنه ليس شرفا عظيما. فأنا لم أقل إن كافة ربات الفنون اجتمعت هنا معا لغياب أنبلها المعتمدة على التفكير والتى تفضل الجمال على العاطفة... فلو ترجمت له أشعار الأودسة وبالأخص اللقاء بين اوليس ونوسيكا وهو آية الإلهام المتعقل، لغلبه النوم. فلكى ينطلق التعاطف لدى كافة الكائنات يتعين قبل ذلك أن يكون الذهن قد فهم، وذلك هو الأمر الصعب بالنسبة للزنجى... فالإحساس الفنى لدى هذا الكائن، وهو أقوى من كل تعبير، سيظل إذن قاصرا بالضرورة على أبأس الاستخدامات... ولذا تحتل الموسيقى لدى المخلوق الأسود المركز الأول بين كافة الفنون، وهو يفضلها لأنها تداعب أذنه عن طريق تتابع الحركات ولا تطالب الجزء المفكر من مخه بأى شئ. والزنجى يحبها إلى حد كبير ويلتذ بها بإفراط، ولكنه يظل مع ذلك غريبا عن تلك الترافقات الرقيقة التى تعلم الخيال الاوروبى من خلالها كيف يهذب أحاسيسه!

«لقد جعلنا نحن من الفن، بحكم عاداتنا المهذبة، شيئا مرتبطا بكل ماهو رفيع فى تأملات الروح وإيماءات العلم، حتى أنه يغدو بوسعنا أن نمد هذا الفن إلى الرقص من خلال التجريد وبذل بعض الجهد. وعلى النقيض من ذلك فإن الرقص بالنسبة للزنجى، هو والموسيقى، مجال لانفعالات لا يقوى على مقاومتها. وذلك لأن الحس هو كل شئ تقريبا، إن لم يكن كل شئ، فى الرقص.

«وهكذا يمتلك الزنجى إلى أقصى حد القدرة الحسية التى لا يوجد بدونها فن ممكن، وتعوزه فى الوقت نفسه الاستعدادات الذهنية، مما يجعله عاجزا تماما عن تنمية الفن بل وحتى عن تقدير ما يمكن أن ينتجه تطبيق ذكاء البشر من أعمال راقية. ويتطلب تهذيب قدراته أن يمتزج مع جنس ذى مواهب مختلفة...

«والعبقرية الفنية، الغريبة أيضا بالنسبة للأجناس الثلاثة الكبرى، لم تتفجر إلا بتزاوج البيض مع السود». (الكونت دى جوبينو: *دراسة حول عدم التساوى بين الأجناس البشرية*، المجلد الثانى الفصل السابع، الطبعة الأولى ١٨٥٣ - ١٨٥٥).

وسيبدو مثل هذا العمل الفنى على الأرجح وكأنه غرور، يثير على الأقل غيظ البعض ويرى البعض الآخر أنه أمر لا يطاق.

إن ذكرى العبودية الحديثة، التى تعرض لها الجنس الزنجى وبرعوا فى المحافظة عليها فى أذهان الناس وبالأخص الزنوج،كثيرا ما تؤثر فى وعى هؤلاء بشكل سلبى. وعلى أساس تلك العبودية الحديثة العهد جرت المحاولات، رغم كل حقيقة تاريخية بالطبع، لبناء الأسطورة التى تزعم أن الزنجى كان على الدوام مستعبدا من جانب الجنس الأبيض الأرقى، أينما عاش معه، مما يتيح له الفرصة لتبرير تواجد الزنوج فى مصر أو فى أراضى ما بين النهرين أو الجزيرة العربية منذ أقدم العصور، وبالحكم بأنهم كانوا من العبيد. وهكذا كتب شاعر آخر زنجى كبير، لعله أكبر شاعر فى عصرنا، وهو ايميه سيزير قصيدة عنوانها:

«منذ أكاد، منذ عيلام، منذ سومر

«ياسيد الطرق الثلاثة، أمامك رجل سار طويلا

«ياسيد الطرق الثلاثة، أمامك رجل سار على اليدين، على القدمين، على البطن، وعلى العجز

«منذ أكاد، منذ عيلام، منذ سومر».

وكتب فى قصيدة أخرى يقول:

«الذين لم يخترعوا لا البارود ولا البوصلة

«الذين لم يستأنسوا لا البخار ولا الكهربا»

«الذين لم يستكشفوا لا البحار ولا السماء...» (*).

وعبر تلك التحولات فى علاقات الزنجى مع بقية العالم، أصبح من الصعب يوما بعد يوم، بل وحتى من الأمور التى لا يمكن قبولها بالنسبة لمن يجهلون عظمته السابقة - وبالنسبة للزنوج أنفسهم - أن هؤلاء كانوا أصل أول حضارة ازدهرت على سطح الأرض،تدين لها البشرية بأساس تقدمها.

ومع أن الأدلة ستتراكم أمام أعين الإخصائيين إلا أنهم لن يبصروها إلا من خلال تلك الغمامة ولن يقدموا فى كل الأحوال سوى تفسيرات خاطئة. وستحاك نظريات لا يمكن تصديقها أبدا، ولكنها ستبدو لهم على أى حال أكثر منطقية من الحقيقة الواردة فى أهم وثيقة تاريخية تثبت الدور الحضارى الأول للزنوج. وقبل التعرض لمناقشة التناقضات الجارية فى العصر الحديث والناجمة عن محاولات ترمى بأى ثمن إلى إثبات أن المصريين كانوا من أصل أبيض، فلنذكر مدى الدهشة التى اعترت ڤولنى، العالم حسن النية الذى كان مشبعا بالأفكار المسبقة التى تعرضنا لها من قبل

(*) لا يقلل ذلك أبدا من إعجابى الشديد بالشاعر.

بخصوص الزنوج، عندما زار مصر بين عامى ١٧٨٣و١٧٨٥- أى فى أوج عهد العبودية الزنجية - أذ أبدى الملاحظات التالية بخصوص الجنس المصرى الذى انحدر من الفراعنة، ألا وهم الأقباط.

«... وجوههم جميعا منتفخة والعيون جاحظة والأنوف فُطس والشفاه غليظة:إنهم بعبارة واحدة صورة للخلاسى الحقيقى. كنت أميل إلى أن أنسب ذلك إلى المناخ، حتى زرت أبا الهول، فأفادنى مظهره بكلمة السرّ. فعندما شاهدت هذا الرأس الزنجى فى كافة سماته، تذكرت تلك الفقرة الجديرة بالملاحظة والتى أوردها هيرودوت: «وفى رأيى أن الكولخيين جالية من المصريين لأن بشرتهم سوداء وشعرهم مجعد مثلهم: أى أن قدماء المصريين كانوا زنوجا حقيقيين من النوع السائد بين أهل افريقيا؛ وبناء على ذلك يفسر فقدان دمائهم لكثافة لونها الأول بامتزاجهم منذ عدة قرون بدماء الرومان والأغريق، مع احتفاظهم مع ذلك بسمات القالب الأصلى. بل ومن الممكن تعميم هذه الملاحظة على نطاق واسع والإقرار مبدئيا بأن التقاطيع نوع من البناء المتميز فى العديد من الأحوال، لإقرار أو توضيح شهادات التاريخ حول الجذور الأصلية للشعوب...».

وقد قدم ڤولنى نموذجا لفكرته هذه من خلال حالة النورمانديين الذين لا يزالون يشبهون الدانماركيين حتى الآن بعد تسعمئة سنة من غزو نورمانديا، ثم استطرد قائلا:

«ولكن لنعُد إلى مصر، فما تقدمه للتاريخ يهيئ للعديد من الأفكار الفلسفية. إنه لأمر يستحق التأمل، عندما نرى الهمجية والجهل الراهنين للأقباط الذين انحدروا من امتزاج عبقرية المصريين العميقة مع فكر الإغريق اللامع، ونتذكر أن هذا الجنس من السود الذى أصبح اليوم عبدا لنا وموضع ازدرائنا، هو نفسه الذى ندين له بفنوننا وعلومنا بل وحتى استخدام الكلمة، ونتصور أخيرا أنه تم فرض أكثر النظم العبودية بربرية وطرحت قضية ما إذا كان السود يتوفر لديهم ذكاء من النوع الذى يتميز به البيض، وذلك على يدّ شعوب تزعم أنها المحبة للحرية والإنسانية!» *أسفار فى سوريا ومصر*، بقلم م.س.ش.ڤولنى، باريس، ١٧٨٧، المجلد الأول، من ص ٧٤ الى ٧٧).

الفصل الثالث

التزوير الحديث للتاريخ

إن ما أقدم عليه ڤولني يشكل خير طرح لقضية أبشع عملية تزوير لتاريخ البشرية على أيدى المؤرخين الحديثين. وليس بوسع أحد أن يرد خيراً منه الاعتبار للجنس الأسود باعترافه بدوره كأقدم مرشد للبشرية فى طريق الحضارة، بالمعنى الكامل لتلك الكلمة. وكان من المتوقع أن تفرض استنتاجات ڤولنى استحالة اختراع جنس فرعونى أبيض فيما بعد، يُزعم أنه استورد الحضارة المصرية من آسيا فى بداية المرحلة التاريخية. والواقع أن هذا الافتراض لا يتلاءم مع حقيقة أبى الهول هذا ذى الرأس الزنجى، المصور لفرعون، والذى يفرض نفسه على أنظار الكل ويصعب استبعاده باعتباره وثيقة غير نموذجية أو إلقاؤه فى مخازن متحف لإبعاده عن التأملات الخطيرة لمن قد يكونون على استعداد لقبول الوقائع الجلية.

وجاء بعد ڤولنى مسافر آخر فى بداية القرن التاسع عشر، وهو رينزى، الذى توصل إلى استنتاجات حول نفس الجنس المصرى، تلتقى تقريبا مع استنتاجات ڤولنى.

«والحق أن الجنس الأحمر - الداكن الهندى أو المصرى سيطر من خلال الحضارة على الجنسين الأصفر والأسود، بل وحتى على الجنس الأبيض، أى جنسنا الذى كان مستقرا فى أقدم العهود فى آسيا الغربية، وهو جنس كان آنذاك متوحشا إلى حد أو آخر،كما رأيته مصورا فى مقبرة أوسرع الأول فى وادى بيبان الملوك بطيبة، مدينة الآلهة». (*اوقيانوسيا* ، سلسلة الكون، المجلد الأول،١٨٣٦).

وفيما يتعلق بالجنس الأحمر - الداكن سنرى أنه بكل بساطة فرع من الجنس الزنجى كما جرى تصويره فى آثار ذلك الزمن. فلا يوجد فى الواقع جنس أحمر - داكن لأن هناك فقط ثلاثة أجناس متميزة عن بعضها بكل وضوح:الجنس الأبيض والأسود والأصفر، أما الجنس الوسيط المزعوم فليس

إلا نتاج التزاوج بين تلك الأجناس الثلاثة الأولى (*).

والتمثال المصور هنا بالأبيض والأسود (اللوحة رقم ٣) يوضح أن لون بشرة المصريين المسمى أحمر - داكنا ليس سوى اللون الطبيعى للزنجى.

وإذا كان رينزى يتكلم عن جنس أحمر - داكن فذلك لأنه كان لا يستطيع أن يتخلص تماما من الأفكار المسبقة السائدة فى عهده. وعلى أى حال فإن الملاحظة التى أبداها بخصوص الجنس الأبيض المتوحش والذى يلجأ الى الوشم، بينما كانت الأجناس الحمراء - الداكنة متحضرة من قبل، كان يجب أن تجعل كل محاولة لتفسير أصل الحضارة المصرية من خلال الجنس الأبيض، أمرا مستحيلا. وقد أسهب شامبليون بكل تواضع فى تناول ذلك الوضع المتخلف للجنس الأبيض بينما كانت الحضارة المصرية قد امتد عهدها آلاف وآلاف السنوات.

ففى عام ١٧٩٩ قاد بونابرت حملته الى مصر. وفى عام ١٨٢٢ تمكن شامبليون من فك رموز الهيروغليفية. وقد توفى فى عام١٨٣٢ تاركا «كبطاقة زيارة» قواعد للغة المصرية وسلسلة من

(*) هناك افتراض بأن الجنس الأصفر ذاته ناتج عن تزاوج بيض مع سود ولكن فى عهود قديمة للغاية من تاريخ البشرية. والواقع أن الخضاب الخاص بالصفر مماثل لخضاب الخلاسيين حتى أن التحليل الكيميائى الحيوى المقارن لا يكشف عن اختلاف كيرفى كمية الميلانين (الصبغة السمراء اللون).

ولم تتم بعد دراسة منتظمة لمجموعات دماء الخلاسيين، وقد تتيح عقد مقارنة جديرة بالاهتمام مع مجموعات دماء الصفر.

فالقسمات العرقية للصفر: الشفاه، الأنف، بروز الفكين، شبيهة بقسمات الخلاسيين ومظهر سحنتهم (الأوداج البارزة والجفون المنتفخة والغضون المنحولية والعيون المائلة وبداية الأنف المنخسفة) قد لا تكون سوى نتاج تأثير المناخ على مدى آلاف وآلاف السنوات على الوجه من جراء الرياح الباردة.

فانقباض الوجه تحت تأثير الرياح قد يكفى لتفسير بروز الأوداج وانتفاخ الجفون، إذ انهما سمتان عرقيتان مترابطتان.

والريح التى تصفع الوجه عندما يكون الجو باردا لا تستطيع أن تفلت من طرف العين إلا كمحصلة مائلة وصاعدة نتيجة لسخونة جزئيات الهواء. وقد تسببت تلك القوة الميكانيكية على المدى الطويل فى تشويه العين فى نفس الاتجاه. ويكون تأثير هذا المناخ أشد على الأجسام اليافعة كما هو الحال بالنسبة للأطفال. ويفترض هذا التفسير بالطبع توارث الصفات المكتسبة.

ومن المعروف من جهة أخرى أن القسمات المسماة قسمات منغولية تتراجع من شمال آسيا الى جنوبها وفقا لتطور المناخ.

ومن الملاحظ أنه أينما يكون هناك صُفر، تتواجد أيضا مجموعات صغيرة من السود والبيض يبدو أنها رواسب العناصر الأساسية التى نشأ عنها ذلك الجنس. وينطبق ذلك على كافة أنحاء جنوب شرق آسيا: المُوِيس فى جبال فييتنام حيث نجد بشكل يسترعى الانتباه أسماء كا، وثاى، وحام، وكذلك النجريتوس والأينو فى اليابان ... الخ.

ويقول مثل يابانى: «لكى يكون الساموراى شجاعا، يجب أن تجرى فى عروقه بعض الدماء السوداء». ووفقا للكُتاب الحوليات الصينيين، كانت هناك امبراطورية زنجية فى جنوب الصين فى فجر تاريخ ذلك البلد.

فهل نتج الجنس الأصفر عن الآريين الأوائل المختلطين بزنوج جنوب الهند (الدراڤيديين)؟



٣- تمثال لونه «أحمر داكن» أو «قاتم».

إنه اللون الذى تناولته الأقلام باستفاضة، وهو «لازمة» فى كل الدراسات حول الجنس المصرى. وبوسع كل شخص أن يحكم بأنه لون لا يختلف عن لون كافة الزنوج الأفارقة. ويتعين الرجوع الى هذه الصورة فى الكثير من الأحوال للحكم على الكتابات المغرضة للمؤلفين الذين يتخذون من ذلك حجة لتلك السمة العرقية (صورة منقولة عن المتحف البريطانى) - (انظر ص٣٧).

الخطابات الموجهة الى أخيه شامبوليون - فيجاك، أثناء زيارته لمصر (١٨٢٨-١٨٢٩). وقد نشر شامبوليون -فيجاك هذه الرسائل فى عام ١٨٣٣. وهكذا سقط جدار الصمت الذى كان يغلف الهيروغليفية فكشف عن ثروات مدهشة بكل تفاصيلها الدقيقة.

وقد ذُهل علماء الآثار المصرية لفرط إعجابهم بذلك الماضى العظيم والرائع الذى اكتشفوه، واعترفوا شيئا فشيئا بأنه ماضى الحضارة الأقدم عهدا التى تولدت منها كافة الحضارات الأخرى.

وبمساعدة الامبريالية أضحى من الأمور «التى لا يمكن قبولها» أكثر فأكثر مواصلة الإقرار بالأطروحة التى كانت واضحة تماما حتى ذلك الوقت، وهى أن مصر زنجية.

وهكذا تميز علم الآثار المصرية منذ نشأته بضرورة أن تهدم بأى ثمن وأن تُزال تماما من كل الأذهان، ذكرى مصر الزنجية. ومنذ ذلك الوقت أصبح القاسم المشترك فى أطروحات علماء المصريات يتلخص فى محاولة يائسة لإنكار أطروحة مصر الزنجية. ويجمع مقدما كل علماء الآثار المصرية تقريبا على رفض أطروحة مصر الزنجية. وتتخذ كافة محاولات هذا الإنكار الشكل التالى:

لما كان العثور على أى تناقض فى شهادات القدامى القاطعة من خلال المواجهة الموضوعية بكل الواقع المصرى، أمرا غير ممكن، وبالتالى لا يمكن إنكاره، يتم على هذا الأساس إسدال ستار الصمت على تلك الحقائق أو رفضها بغضب وجمود، مع إبداء الأسف لأن أناسا عقلاء مثل القدامى أخطأوا إلى هذا الحد وأثاروا بذلك مصاعب ومشاكل عويصة للإخصائيين الحديثين.

وبعد ذلك تبذل جهود غير مجدية للعثور على أصل أبيض للحضارة المصرية، فتنطلق على أثر ذلك التفسيرات الذاتية للوقائع والوثائق التاريخية. وينتهى الأمر بالتخبط فى التناقضات الناشئة عن ذلك، بالتغاضى عن مصاعب المشكلة بعد العديد من البهلوانيات الذهنية المعقدة وغير المجدية فى الوقت نفسه، وبالعودة إلى تكرار العقيدة الجامدة الأصلية، باعتبار أنه قد تم أمام أعين جميع الشرفاء إثبات الأصل الأبيض للحضارة المصرية.

وفى نيتى عرض مجموع تلك الأطروحات على التوالى، ولكننى مضطر، حرصا على التحلى بالموضوعية، أن أعرض كل وجهة نظر بالكامل حتى أكون أمينا فى موقفى إزاء أصحابها وأتيح الفرصة للتعرف بشكل مباشر على التناقضات وغيرها من الوقائع التى قد أشير اليها.

ولنبدأ بأقدم تلك الأطروحات التى عرضها شامبوليون فى خطابه الثالث عشر الموجه إلى أخيه. وهى تتعلق بنقوش مقبرة أوسرع الأول التى زارها أيضا رينزى. وهى ترجع إلى القرن السادس عشر قبل الميلاد (الأسرة الثامنة عشرة) وتصور الأجناس البشرية التى عرفها المصريون. ويعتبر هذا الأثرأقدم وثيقة كاملة وصلت إلينا بخصوص علم الأجناس البشرية. واليكم ما قاله شامبوليون:

« فى الوادى المسمى وادى الملوك، أعجبنا، شأننا شأن كافة المسافرين الذين جاؤوا قبلنا، بنضارة التصوير العجيبة، ورقة النحت فى عدد كبير من المقابر. وقد كلفت البعض برسم سلسلة الشعوب المصورة فى النقوش. واعتقدت فى أول الأمر، على أساس نسخ تلك النقوش المنشورة فى انجلترا، أن هذه الشعوب المختلفة الأجناس التى يقودها الإله حورس وهو ممسك بعصا الرعوية، كانت أمما خاضعة لصولجان الفراعنة، ولكن دراسة النصوص المصاحبة أفادتنى بأن هذه اللوحة لها مغزى أكثر عمومية. فهى تتعلق بالساعة الثالثة من اليوم، حيث تبدأ الشمس فى نشر حرارة أشعتها وتدفئة كافة البلدان المأهولة فى نصف كرتنا الأرضية. وكان المقصود، وفقا لما جاء فى النص ذاته، تصوير أهالى مصر وسكان البلدان الأجنبية. ولذا نجد أمامنا هنا صورة لمختلف الأجناس البشرية التى عرفها المصريون، ونتعرف فى الوقت نفسه على التقسيمات الجغرافية أو العرقية الكبرى التى تحددت فى ذلك العهد البعيد. فالرجال الذين يقودهم راعى الشعوب حورس ينتمون الى أربع عائلات متميزة، تماما كل منها عن الأخرى.. فالرجل الأول (رقم ١ فى لوحتنا) *وأقربهم الى الإله لونه أحمر داكن* وقوامه متناسق تماما ووجهه رقيق وأنفه معقوف بقدر ضئيل، وشعره طويل ومضفر ويرتدى إزارا أبيض، ويشير النص الى هذا الجنس تحت اسم *روت - ان - نى - روم، الجنس البشرى، أحسن الأجناس*، أى المصريين.

«وليس هناك أى شك فيما يتعلق بجنس الرجل الذى يعقبه (الثانى فى لوحتنا) فهو من جنس الزنوج المطلق عليهم عموما اسم *ناحاس*. ويمثل الثالث مظهراً مختلفا بكل وضوح (رقم ٣ فى اللوحة) فبشرته بلون اللحم وتميل إلى الصفار أو اللون الأسمر، والأنف معقوف للغاية واللحية سوداء وغزيرة، مدببة فى نهايتها والرداء قصير ومتنوع الألوان. ويسمى هؤلاء *نامو*.

«أما الأخير (السادس فى اللوحة) فلون بشرته هو ما نطلق عليه لون اللحم، أو لون البشرة الأبيض فى أرق تدرجاته، والأنف مستقيم أو مقوس قليلا والعيون زرقاء واللحية شقراء أو مائلة إلى الحمرة، والقامة طويلة وهو متدثر بجلد بقرة لا يزال محتفظا بفرائه، وهو متوحش حقيقى، وهناك وشم على مختلف أجزاء جسمه. ويسمى هؤلاء *تامهو*.

«وقد سارعت بالبحث عن نظير تلك اللوحة فى المقابر الملكية الأخرى، فوجدتها بالفعل فى عدد منها، واقنعتنى تماما التنوعات التى لاحظتها فيها أن الهدف كان تصوير سكان نواحى المعمورة الأربع وفقا للنظام المصرى القديم: أولا أهالى مصر التى تشكل وحدها جزءا كاملا من العالم وفقا لتقاليد الشعوب القديمة المفرطة فى التواضع، ثانيا - سكان افريقيا ذاتها: الزنوج، ثالثا - الاسيويون، رابعا- وأخيرا (وهو الأمر الذى أخجل لقوله، لأن جنسنا يمثل آخر السلسلة وهو أشدها توحشا) الأوروبيون الذين لا يقدمون فى هذا العهد صورة طيبة للعالم، لكى نكون عادلين فى حكمنا. ويجب أن نعنى بذلك هنا كافة الشعوب الشقراء وذات اللون الأبيض التى لا تسكن أوروبا وحدها، ولكن آسيا أيضا التى انطلقت منها تلك الشعوب. وهذه الطريقة فى النظر إلى تلك اللوحات صادقة للغاية

لأن نفس أسماء الأجناس موجودة فى المقابر الأخرى وبنفس الترتيب. ونجد فيها ايضا *أن المصريين والزنوج مصورون بنفس الطريقة*(*)، لأنه ماكان يمكن أن يكون الأمر خلاف ذلك: أما النامو (الأسيويون) والتامهو (الأجناس الاوروبية) فتقدم لنا تنوعات شديدة مثيرة للانتباه.

«وبدلا من العربى أو اليهودى (رقم٣) الذى يرتدى ملابس بسيطة كما هو مصور فى إحدى المقابر، يمثل آسيا فى مقابر أخرى (مقبرة رعمسيس- ميامون..الخ) ثلاثة أفراد لونهم أسمر هم أيضا أنوفهم معقوفة، وعيونهم سوداء، ولحاهم غزيرة، ولكنهم يرتدون ملابس فخمة للغاية. ويمثل أحدهم بشكل واضح تماما الأشوريين:فملابسهم تشبه تماما فى أدق تفاصيلها ملابس الأشخاص الذين نحتت صورهم على الأسطوانات الاشورية، ويمثل الآخر شعوب الميديين أو السكان الأولين فى بعض أنحاء فارس، ونجد سحناتهم وملابسهم بكل تفاصيلها على الآثار المنسوبة الى مدينة پارسا(رقم ٤ فى اللوحة). لقد كانوا يمثلون آسيا إذن بأى من شعوبها، بلا تمييز. وينطبق نفس الأمر على *أسلافنا القدامى الحقيقيين*، التامهو (رقم ٦ فى اللوحة)، وملابسهم مختلفة أحيانا وشعرهم غزير إلى حد أو آخر وزاخر بمختلف الحلى، ولباسهم الهمجى قد يختلف قليلا فى شكله، ولكن لونهم الأبيض وعيونهم ولحاهم تحتفظ بكافة السمات المميزة لجنس واحد. وقد عهدت إلى البعض بنسخ وتلوين سلسلة الأجناس هذه العجيبة. وبالطبع لم أكن أتوقع عندما زرت وادى الملوك أن أعثر على نقوش تصلح لأن تكون سجلا مصورا لتاريخ سكان اوروبا البدائيين، حتي مهما أوتى المرء من الشجاعة للإقدام على ذلك. بيد أن منظرهم يوحى بقدر من الرضا والعزاء إذ أنه يدعونا إلى تثمين الطريق الذى قطعناه منذ ذلك الوقت» (**) (شامبوليون فيجاك: مصر *القديمة*، سلسلة الكون، ١٨٣٩، ص٣٠و٣١).

لقد اخترت بالأحرى هذا المقتطف، كما نشره شامبليون - فيجاك، بدلا من اقتباسه من «الطبعة الجديدة» لتلك الرسائل التى أعدها شيرونيه - شامبليون، أبن شامبوليون فى عام ١٨٦٧، وذلك لسبب بسيط، وهو أن أصول هذه الخطابات كانت موجهة اليه بالفعل.

(*) التنويه بذلك من جانب المؤلف.

(**) يتبين لنا من كافة أقدم الآثار المصرية التى تصور جميع أجناس العالم - ومنها على سبيل المثال نقوش بيبان الملوك، أن الجنس الوحيد الذى كان يستخدم الوشم فى تلك العهود القديمة، وهو الجنس الذى يسمى حاليا الجنس الشمالى. فما كان الزنوج المصريون ولا الزنوج الأفارقة يلجؤون إلى الوشم حسب كافة الوثائق المصرية المعروفة. ولم يكن هناك معنى أصلا لوشم إلا على البشرة البيضاء نظرا لإختلاف اللون. وقد وصل إلى إفريقيا مع الليبيين البيض، ولم يحاكه الزنوج إلا فى عهد متأخر للغاية: ولما كان من المستحيل تحقيق التباين بين الأبيض والأزرق أو غيره على البشرة السوداء فقد تم اللجوء إلى التشريط.

ولم نتمكن للأسف من نشر صورة لتلك النقوش التى تناولها شامبوليون فى رسالته.

ماهى قيمة هذه الوثيقة لمعرفة الجنس المصرى؟ إنها تقدم بحكم قدمها، شهادة أساسية كان يتعين أن تجنبنا كافة التخمينات التى جرت بخصوصه. فمنذ ذلك العهد القديم للغاية (الأسرة الثامنة عشرة التى حكمت فى فترة وقعت بين عهدى إبراهيم وموسى)، كان المصريون قد اعتادوا تصوير مجموعتى جنسهم: الزنوج المتحضرين فى الوادى وزنوج بعض المناطق داخل افريقيا، بشكل لا يسمح بأى خلط بينهم وبين الجنسين الأبيض والأصفر فى آسيا وأوروبا. والترتيب الثابت لتلك الأجناس الأربعة بالنسبة لحورس، يؤكد ذلك التدرج فى المركز الاجتماعى. ويستبعد أيضا ذلك الترتيب، كما اعترف بذلك شامبوليون فى نهاية الأمر، أى فكرة تتعلق بتقليد مصطلح عليه فى التصوير يخلط بين مستويين متميزين، ويضع بذلك حورس فى نفس مستوى الأشخاص بينما كان فى الواقع فى مواجهتهم جميعا.

وإذا كان المصريون قد صوروا أنفسهم بلون يسمى رسميا «أحمر - داكن» فتلك حقيقة لها مغزاها. فلا يوجد فى الواقع جنس أحمر - داكن بالمفهوم العلمى. ولم يطلق ذلك الوصف إلا للتشويش على الأذهان. ولا يوجد لون أسود بالمعنى الصحيح للكلمة. فلون الزنجى يميل فى الواقع إلى البنى دون أن يكون من الممكن تطبيق نعت صحيح، خاصة وأنه تعرض لتدرجات وفقا للمناطق. فقد لوحظ أن لون الزنوج الذين يعيشون فى مناطق جيرية داكن بقدر أقل من لون الذين يعيشون فى مناطق أخرى.

كما أنه يصعب نقل لون الزنجى فى التصوير ويتم الاكتفاء بتدرجات أقرب إلى هذا اللون. ولون الرجلين اللذين يتبعان حورس ليس سوى تعبير عن تدرجين للون الزنوج. ولو صور حاليا أحد الوُلوف شخصاً من البامبارا أو الموُسى أو اليوروبا أو التوكولور أو الفانج أو المانجبتو أو الباووله، لاستخدم تدرجات فى اللون شبيهة بتدرجات اللون فى النقوش إن لم تكن تدرجات أكثر تباينا. ولكن هل يعنى ذلك أن كلا من الوُلوف والبامبارا والموُسى واليوروبا والتوكولور والفانج والمانجبتو والباووله ليسوا جميعاً زنوجا؟ تلك هى الطريقة المشروعة لإدراك فارق اللون بين الرجلين الأولين فى تلك النقوش. ولا يوجد فى كافة النقوش المصرية تصوير واحد عرض فيه المصريون أنفسهم بلون مختلف عن لون شعوب زنجية مثل البامبارا والآنى واليوروبا والموُسى والفانج والباتوتسى والتوكولور.. الخ .. الخ.

ولو كان المصريون من البيض لكانت كل تلك الشعوب الزنجية وغيرها التى تدفقت على إفريقيا بيضاء هى أيضا؛ وهكذا نصل إلى استنتاج عبثى وهو أن الزنوج هم فى صميمهم من البيض.

ووفقا لتلك النقوش العديدة نجد أن كافة النماذج من الجنس الأبيض فى ظل الأسرة الثامنة عشرة كانت تلى الزنوج فى الترتيب؛ وبالأخص «البهيمة الشقراء» التى ذكرها جوبينو والنازى، أى ذلك

الهمجى الموشم المتدثر بفراء حيوان، أبعد عن أن يكون أصل الحضارة بل كان لا يزال يتجنبها أساسا ويحتل الدرك الأخير من البشرية. وهذا ما لم تفت ملاحظته على شامبوليون فى النص المنشور آنفا بتعجب وتواضع، ولم يجد أى عزاء آخر سوى تقدير الطريق الذى قطعه هذا الجنس منذ ذلك العهد.

واستنتاج شامبوليون فى هذا الصدد له مغزاه، إذ أنه بعد أن قال إن تلك النقوش يمكن أن تستخدم كلوحة مصورة لتاريخ سكان أوروبا البدائيين، استطرد قائلا: «إذا كانت لدى المرء الشجاعة للإقدام على ذلك». وفى نهاية المطاف، وبعد تلك الملاحظات أدلى شامبوليون برأيه الإيجابى حول الجنس المصرى بالعبارات التالية:

«لقد جاءت القبائل الأولى التى استقرت فى مصر، أى وادى النيل ما بين شلال أسوان والبحر، من الحبشة أوسنار. وكان قدماء المصريون ينتمون إلى جنس بشرى مشابه تماما للكينو والبرابره الذين يعيشون حاليا فى النوبة. ولا توجد لدى أقباط مصر أى من القسمات المميزة لأهالى مصر القديمة.فالأقباط نتاج خليط غير واضح المعالم مع كافة الأمم التى سيطرت على مصر على التوالى. ومن الخطأ محاولة العثور لديهم على القسمات الرئيسية للجنس القديم» (شامبوليون – فيجاك، ص٢٧).

ونشهد هنا أولى محاولات ربط المصريين بأصل آخر غير الأقباط الذى أكدته ملاحظات ڤولنى. فالأصل الجديد الذى اعتقد شامبوليون أنه اكتشفه ليس موفقاً هو أيضا. فالعيب واحد من الجانبين، إذ يتم الابتعاد عن أصل زنجى (الأقباط) للوقوع فى أصل آخر زنجى هو أيضا (النوبيون والأحباش).

والواقع أن السمات الزنجية للجنس الأثيوبى، أى الأحباش، قد حددها بما فيه الكفاية هيرودوت وكافة القدماء، حتى أنه ليس هناك مايدعو إلى المراجعة. والنوبيون هم أسلاف أغلب زنوج إفريقيا، حتى أن كلمتى «نوبى» و«زنجى» مترادفتان؛ والأثيوبيون والأقباط كل منهما من أصل زنجى اختلط فيما بعد بعناصر بيضاء مختلفة فى ظل أحوال مناخية متباينة. فقد امتزج زنوج الدلتا تدريجيا مع كافة العناصر البيضاء بحوض البحر الأبيض المتوسط التى تسللت إلى مصر فى كافة العهود، مما أنتج الفرع القبطى المكون فى أغلب الأحوال من عناصر ربعة، عاشت فى منطقة عامرة بالمستنقعات. وقد تطعم الأساس الزنجى الأثيوبى بعنصر أبيض جاء من آسيا الغربية. وهو ما سنتعرض له فيما بعد. ونتج عن ذلك جنس ذو بنية أقوى نظرا لإقامته فى منطقة هضبية.

وعلى الرغم من تلك التهجينات المتواصلة والقديمة للغاية، فإن كلا منها لم يفقد القسمات الزنجية الخاصة بالجنس المصرى الأول:فلون البشرة لا يزال أسود بكل وضوح، وهو أبعد بكثير عن لون المهجن الذى تصل نسبة الدم الأبيض لديه إلى خمسين فى المئة. وفى أغلب الأحوال يكشف لون المصريين عما

يبلغ بالكاد عشرة فى المئة من الدم الأبيض وكثيرا ما لا يختلف عن لون الزنوج الآخرين فى إفريقيا. وهكذا ندرك أن الأقباط، والأثيوبيين بالأخص، كثيرا ما تبتعد قسماتهم إلى حد بسيط عن قسمات الزنوج الذين لم يمتزجوا أبدا بأجناس بيضاء. وهناك شعورهم بالأخص التى قد تكون مجعدة بقدر أقل.ومع أنهم ظلوا أساسا بارزى الأسنان مع استطالة الفك إلا أن المحاولات جرت لاعتبار بعضهم من أجناس بيضاء مزعومة اعتمادا على رقة قسماتهم النسبية. فهم من جنس أبيض مزعوم عندما يكونون معاصرين لنا وتحول حقيقة عروقهم دون اعتبارهم بيضا حقيقيين، ولكن هياكل أسلافهم التى تم العثور عليها فى المقابر لابد أن يكون أصحابها بيضا وفقا لمقاييس الانتروبولجيين. وسنرى فى صفحة ١٤٩ وما يليها كيف أن تلك المقاييس العلمية المزعومة تؤدى إلى عدم التمييز بين هيكل أثيوبى، أى زنجى، وهيكل جرمانى، واذا أخذنا فى الاعتبار الاختلاف الذى يفصل بين الجنسين فى الواقع، يتضح لنا مدى الطابع الاعتباطى لتلك المقاييس واللبس الذى يشوبها.

وقد جاء رأى شامبوليون هذا حول الجنس المصرى فى مذكرة موجهة إلى محمد على باشا، حاكم مصر، سلمها له فى عام ١٨٢٩.

ولنر الآن ما إذا كانت أبحاث فيجاك شقيق شامبوليون، ابى علم المصريات، قد حققت تقدما حول القضية، إذ أنه قدم لها بما يلى:

«الرأى القائل بأن سكان مصر القدامى كانوا ينتمون إلى الجنس الزنجى رأى خاطئ جرى تبنيه لمدى طويل باعتباره حقيقة. وكان المسافرون إلى الشرق منذ نهضة الآداب غير قادرين على إبداء تقييم صحيح للمعلومات التى كانت الآثار المصرية توفرها حول تلك القضية الهامة، فساهموا بذلك فى نشر هذه الفكرة الخاطئة التى عكف الجغرافيون على نقلها حتى وقتنا هذا. وقد أعلنت حجة كبيرة موافقتها على ذلك الرأى فروجت لهذا الخطأ. وترتب ذلك على مانشره ڤولنى الشهير حول مختلف الأجناس البشرية التى لاحظها فى مصر. وهو يقول فى كتابه *السفر* الموجود فى كافة المكتبات إن الأقباط منحدرون من قدماء المصريين؛ وأن وجوه الأقباط منتفخة وعيونهم جاحظة وأنوفهم فطس وشفاهم غليظة مثل الخلاسيين؛ وأنهم يشبهون أبا الهول المجاور للأهرامات، ذا الرأس الزنجى الواضح تماما، فاستنتج من ذلك أن قدماء المصريين كانوا زنوجا حقيقين على غرار كافة أهالى إفريقيا. ويستشهد ڤولنى لتدعيم رأيه هذا برأى هيرودوت الذى ذكر فى معرض كلامه عن أهالى كولخيس، أن بشرة المصريين سوداء وشعرهم مجعد. غير أن هاتين الخاصيتين الجسديتين لا تكفيان لتحديد سمات الجنس الزنجى، وبالطبع فإن استنتاج ڤولنى حول أصل سكان *مصر القدامى*مقحم وغير *مقبول* ». (شامبوليون - فيجاك، *مصر القديمة*، سلسلة الكون، الناشر ديدو، باريس ١٨٣٩، ص ٢٦ - ٢٧).

وبعد أن أبدى شامبوليون - فيچاك أسفه إلى حد ما لتواجد كتاب ڤولنى فى كافة المكتبات، رأى أن الحجة الحاسمة لرفض أطروحة ذلك العالم - وكافة أسلافه، أن «هاتين الخاصيتين الجسديتين»، أى البشرة السوداء والشعر المجعد - «لاتكفيان لتحديد مميزات الجنس الزنجى».

من الواضح إذن أن «تبيض» الجنس المصرى ما كان يمكن التوصل إليه إلا من خلال مثل تلك التعديلات فى التعريفات الأساسية.

وهكذا لم يعد يكفى أن يكون الشخص أسود من قمة رأسه حتى أخمص قدميه ومجعد الشعر لكى يكون زنجيا! فكأننا أصبحنا فى عالم انقلبت فيه قوانين الطبيعة، وبتنا على أى حال بعيدين تماما عن الفكر التحليلى الديكارتى.

بيد أن هذه التعريفات والتعديلات للمعطيات الأولى أصبحت فيما بعد الأساس الذى سيبنى عليه «علم المصريات».

وهكذا دُمغ علم المصريات الذى نشأ عن التعمق فى الدراسة العلمية، بعمليات تزوير فجة وواعية لسناها بأنفسنا. وهذا هو السبب فى تحاشى علماء المصريات شيئا فشيئا وبكل عناية الخوض فى أصل الجنس المصرى. ولذا فإن معالجة قضية الجنس المصرى حاليا اضطرتنا إلى التنقيب لاستخراج نصوص قديمة لمؤلفين مشهورين فى زمنهم، ولكنهم أصبحوا غير معروفين تقريبا.

ويواصل شامبوليون - فيچاك قائلا:

«والواقع أنه أصبح من المعترف به الآن أن سكان إفريقيا ينتمون إلى ثلاثة أجناس ظلت دائما متميزة كل منها عن الأخرى: أولا، الزنوج بمعنى الكلمة فى وسط القارة وغربها؛ثانيا، الكافر على الساحل الشرقى وزاوية الوجه لديهم أقل انفراجا من زاوية وجه الزنوج؛ وثالثا، المور (ومنهم جاء اسم موريتانيا) الذين يشبهون خير الأمم القائمة فى أوروبا وآسيا الغربية من حيث القامة والقسمات والشعور، ولايختلفون عنهم إلا فى بشرتهم السمراء من جراء المناخ. وينتمى أهالى مصر القدماء إلى ذلك الجنس الأخير، أى إلى الجنس الأبيض. ويكفى للاقتناع بذلك فحص الوجوه البشرية التى تمثل المصريين على الآثار وبالأخص العدد الكبير من المومياوات التى تم كشفها. فهم نفس أناس أوروبا وآسيا الغربية مع اختلاف لون البشرة إلى حد ما من جراء حرارة المناخ؛ والشعر المجعد والصوفى سمتان حقيقيتان مميزتان للجنس الزنجى، غير أن المصريين شعورهم طويلة ومن نفس نوع شعور الجنس الأبيض فى الغرب» (*نفس المرجع*، ص٢٧).

ولنسترجع تأكيدات شامبوليون - فيچاك الواحدة تلو الأخرى. فالكافر لا يشكلون جنسا، على عكس ما كان يعتقد: فهذه الكلمة أصلها عربى ومعناها وثنى، على عكس المسلم. فعندما دخل

العرب إفريقيا الغربية عن طريق زنجبار، استخدموا تلك الكلمة للإشارة إلى السكان الموجودين فى المنطقة والذين كانوا يعتنقون مختلف الديانات. أما المور (الموروس عند الاسبان) فهم السلالة المباشرة المنحدرة عن الفاتحين العرب، بعد ظهور الإسلام، والذين انطلقوا من الجزيرة العربية فى القرنين السابع حتى الخامس عشر، ففتحوا مصر وإفريقيا الشمالية واسبانيا التى انسحبوا منها فيما بعد نحو إفريقيا. ويعنى ذلك أن المور هم بالأساس عرب مسلمون استقروا فى إفريقيا منذ عهد قريب للغاية. والمخطوطات العديدة التى تحتفظ بها عائلات المور الرئيسية فى موريتانيا القائمة حاليا، والتى سجلت فيها بكل عناية وبشكل متواصل شجرات النسب منذ خروجهم من اليمن، تؤكد ذلك الأصل.

وعليه فإن المور فرع ممن تم الاصطلاح على تسميتهم الساميين. ولكن كل ما قيل عن هؤلاء الساميين (انظر صفحة ١٢١ والصفحات التالية) يقضى على أى إمكانية لاعتبارهم المؤسسين للحضارة المصرية؛ هذا عدا أن المور لم يبالوا بفن النحت شأنهم شأن البربر بينما كرست الحضارة المصرية حيزا كبيرا لذلك التعبير الفنى. وسيتم فى نفس الفصل إبراز الطابع الخلاسى للساميين، الذى يرجع إليه لون المور أكثر من رجوعه إلى المناخ. وعلاوة على ذلك فلا توجد أى مقارنة ممكنة بين بشرة المور حتى وإن عاد سمارها إلى المناخ، وبين البشرة الزنجية السوداء المميزة للمصريين سواء كانوا من الأحياء أو المومياوات.

بيد أن شامبوليون يدعونا، لاقناعنا بفكرته، إلى فحص الوجوه البشرية الممثلة للمصريين على الآثار. إن حقيقة الفن المصرى بكاملها تناقض بكل بساطة ما يقوله شامبوليون – فيجاك. ويبدو أنه لا يضع فى اعتباره ملاحظات ڤولنى حول أبى الهول، مع أنه أشار إليها. وعلى نقيض شامبوليون – فيجاك، يستحيل، اعتمادا على نفس تلك النقوش التى تحدث عنها بصفة عامة، بمتابعتها منذ مينا حتى نهاية الامبراطورية المصرية، وابتداء من عامة الشعب حتى فرعون، مرورا بوجهاء البلاط وكبار موظفى الدولة، يستحيل أن نجد شخصا من الجنس الأبيض أو السامى. فلن نجد سوى زنوج من نفس نوع أهالى إفريقيا (اللوحات رقم ٤ حتى ٣٥). وقد أوردنا لهذا الغرض سلسلة من الآثار الممثلة لمصريين من مختلف الطبقات الاجتماعية بما فى ذلك الفراعنة بالأخص، كما أدخلنا على تلك السلسلة نماذج من الجنس الأسود والجنس الأبيض لكى نبرز التقارب أو الاختلاف العرقى فيما بينهم. والجدير بالملاحظة هنا، من خلال المقارنة بين سلسلة الوجوه هذه، أن الفن المصرى كثيرا ما كان أكثر زنجية من الفن الزنجى ذاته.

وبفحص تلك الصور والمقارنة بينها، لا يسع المرء إلا أن يتساءل وهو مشدوه حقا كيف أمكنهم التوصل إلى فكرة الجنس الأبيض من خلال تلك التصويرات.

وأخيرا، فبعد أن قال شامبوليون – فيجاك إن البشرة السوداء والشعر الأكرت لا يكفيان لتحديد

الجنس الزنجى، ناقض نفسه بعد ذلك بستة وثلاثين سطرا فكتب يقول: «إن تجعد الشعر وصوفيته صفتان حقيقيتان مميزتان للجنس الزنجى» (*).

ويصل به الأمر إلى حد القول بأن شعور المصريين كانت طويلة، وأنهم كانوا بالتالى من الجنس الأبيض. وهكذا يعنى ذلك النص أن المصريين بيض بشرتهم سوداء وشعرهم طويل. ومع أنه لا يوجد أحد يعلم بوجود مثل هؤلاء البيض، إلا أننا سنحاول أن نرى كيف تمكن المؤلف من الوصول إلى مثل هذا الاستنتاج. وماقيل عن الأثيوبيين والأقباط يدل على أن شعرهم كان يمكن أن يكون أكرت بدرجة أقل من غيرهم من الزنوج. وهناك من جهة أخرى جنس أسود تماما شعره طويل: إنه الجنس الدراڤيدى الذى يعتبر زنجيا فى الهند ويريدون تبيضه فى افريقيا.

وقد صور المصريون أنفسهم فى آثارهم وقد وضعوا فوق رؤوسهم شعوراً مستعارة شبيهة بتلك التى توضع فوق الرأس فى كل أنحاء إفريقيا. وسنتعرض لها عند تحليلنا للمشاهد المنقوشة على لوحة نارمر (صفحة ١٠٤ والصفحات التالية).

ويؤكد المؤلف فى نهاية المطاف بأن شعور المصريين كانت من نفس نوع شعور البيض فى الغرب. ولا مجال أيضا للتوقف أمام تلك الملاحظة نظرا لأن شعر المصريين عندما يكون أكرت بدرجة أقل من شعر الزنوج الآخرين، يظل سميكا وأسود بحيث يستبعد أى إمكانية لمقارنته بشعر الغربيين الرفيع والخفيف. وأخيرا، فإن مما يدعو للتعجب أن يدور الحديث عن مصريين «شعورهم طويلة» بينما نعلم أن هيرودوت قال عنهم إن شعرهم كان أكرت، وإن زنوجا وبيضا وصفرا كانوا يعيشون فى طيبة منذ أيام الأسرة الحادية عشرة، كما يعيش الأجانب الآن فى باريس.

«عندما يرغب المواطن الطيبى فى أن توضع مومياؤه فى تابوت فاخر، فإنه يتخذ من جذع شجرة شكل إنسان، ويمثل غطاء التابوت وجه المتوفى ويغطى الوجه بلون أصفر أو أبيض أو أسود. ويدل اختيار اللون على أنه كان يعيش فى طيبة فى ظل الأسرة الحادية عشرة أناس صفر وبيض وسود، صُرح لهم بالحياة فيها كمواطنين ودفنوا بعد موتهم فى المقابر المصرية». (فونتان، *المصريون*، صفحة ١٦٩).

ويوسعنا أن نتساءل إذن لماذا لم تبق سوى المومياوات ذات الشعر الطويل وحدها، وما هى الأسباب التى تدعو إلى عدم إظهار المومياوات الزنجية التى تحدث عنها فونتان، أو عدم الإشارة اليها... ماهو مصيرها؟ إن شهادات هيرودوت لا تسمح بالشك فى وجودها. هل اعتبروها مومياوات أجنبية غير مهمة بالنسبة لتاريخ مصر، وبالتالى تم التخلص منها أو إيداعها فى مخازن المتاحف؟

حقا إنها لقضية جد خطيرة.

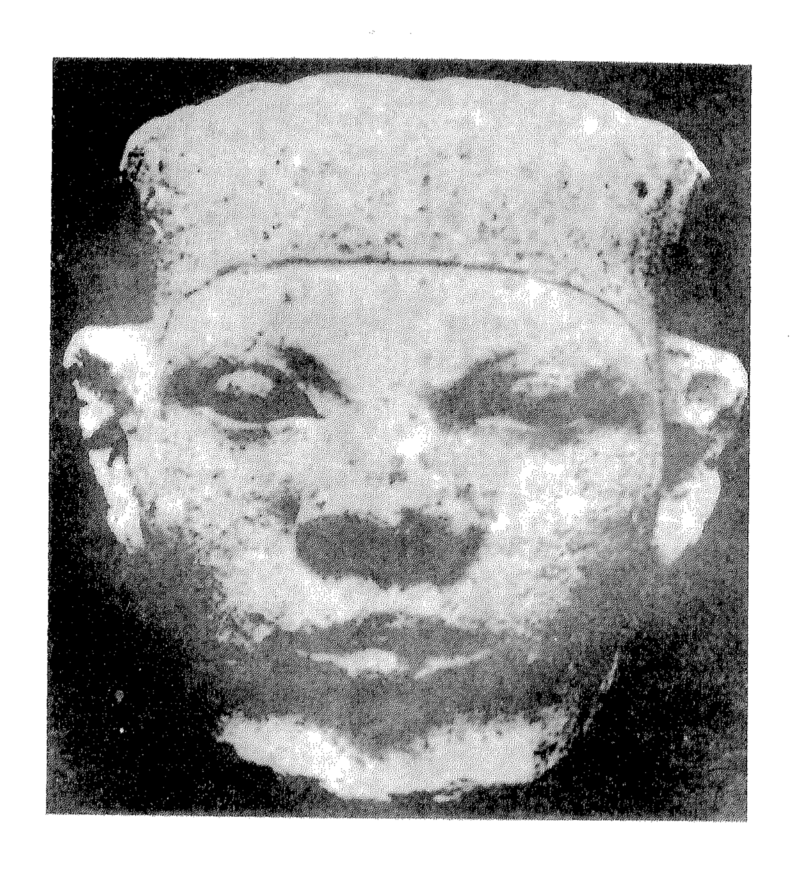
(*) كان ليجاك يجهل أن كل شعر مجعد صوفى التركيب. فالكيراتين، العنصر الكيميائى الذى يدخل فى تركيب الصوف هو الذى يجعل الشعر مجعدا. وعليه فإن هذه الحجة لا تقوم على أى أساس.



٤ - العاهل تيرا نتر

شخصية زلجية الجنس من الآنو، السكان الأوائل لمصر عند نهاية عصر ماقبل التاريخ

(بترى ،*صنع مصر القديمة*) انظر سلسة الصور من ٤ إلى ٣٥



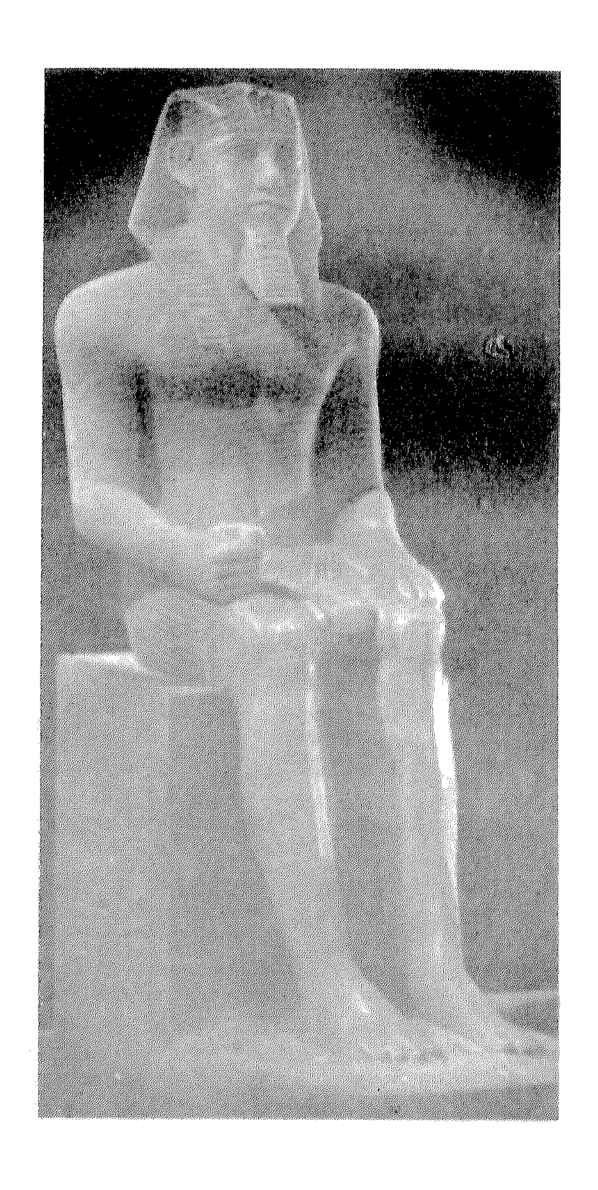
٥ - نعرمر (أو مينا)

نموذج للزنجى يمثل أول فراعنة مصر الذى وحد الصعيد والوجه البحرى لأول مرة فى تاريخ مصر. ومن الواضح بكل تأكيد أنه ليس آريا أو هندو - أوروبيا، أو ساميا، بل أسود بلا جدال.



٦ - تمثال الإله أوزيريس

(متحف متروبوليتان للفنون - مجموعة روجر)



٧ - خفرع

فرعون من الأسرة الرابعة (الدولة القديمة)، بنى هرم الجيزة الثانى. والتمثال من حجر الديوريت الاسود).



٨ - منتوحتب الأول

زلجى أصيل، مؤسس الأسرة الحادية عشره (الدولة الوسطى، حوالى عام ٢١٠٠ ق.م.).



٩ - توت عنخ آمون

(الدولة الحديثة، الاسرة الثامنة عشرة)

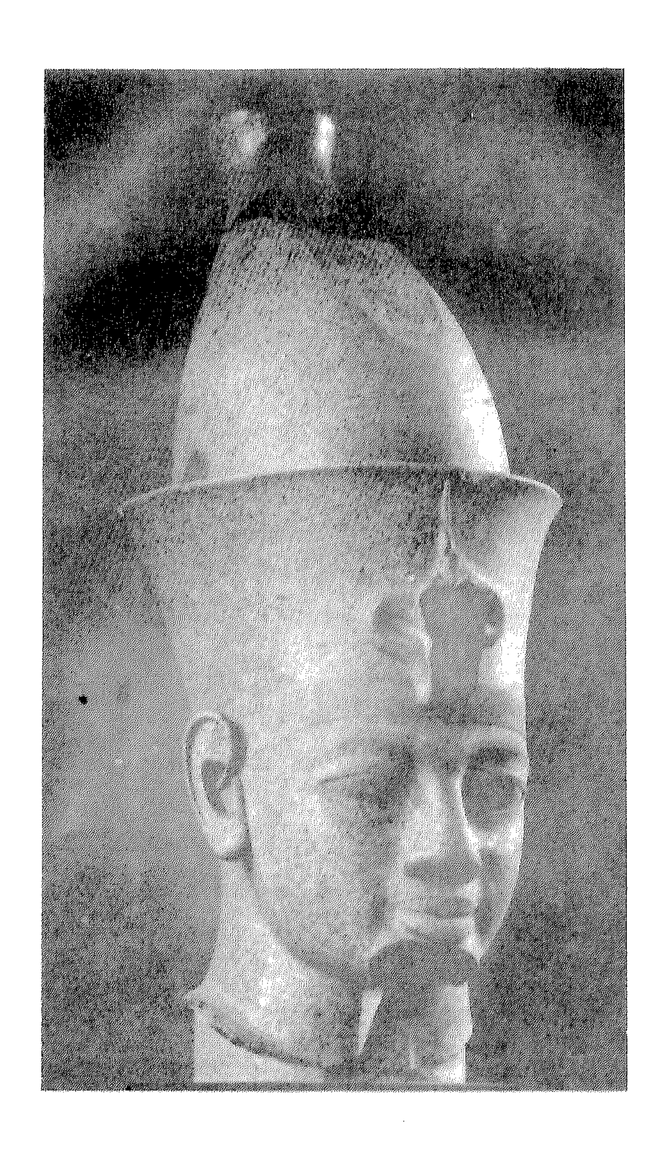
أحد تمثالين بالحجم الطبيعى كان يحرسان مدخل قاعة المدفن. وقد طليت بشرته بورنيش من الراتنج الأسود، بينما كل ما عليه وفى يده مذهب.



١٠ - توت عنخ آمون

رأس التمثال الثانى المذكور فى الصورة رقم ٩

(القسم الثقافى بالسفارة المصرية فى باريس)



١١ - تحتمس الثالث

والدته سودانية، أسس الأسرة الثامنة عشرة واستهل عهد الفتوحات المصرية. وهو يسمى أحيانا «نابليون العصور القديمة»



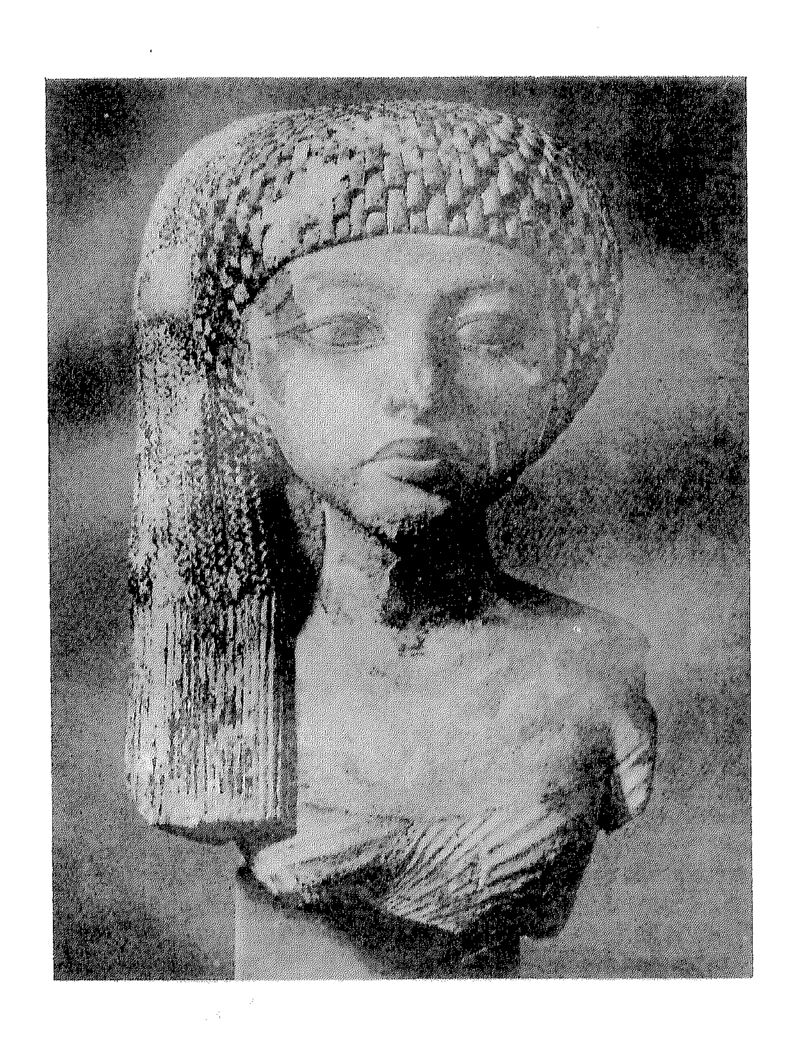
١٢ - رأس رمسيس الثانى

الدوائر الصغيرة فوق الخوذة تمثل الشعر الأكرت

(ملحوظة دينيز كاپار في REFLET DU MONDE ، ١٩٥٦)

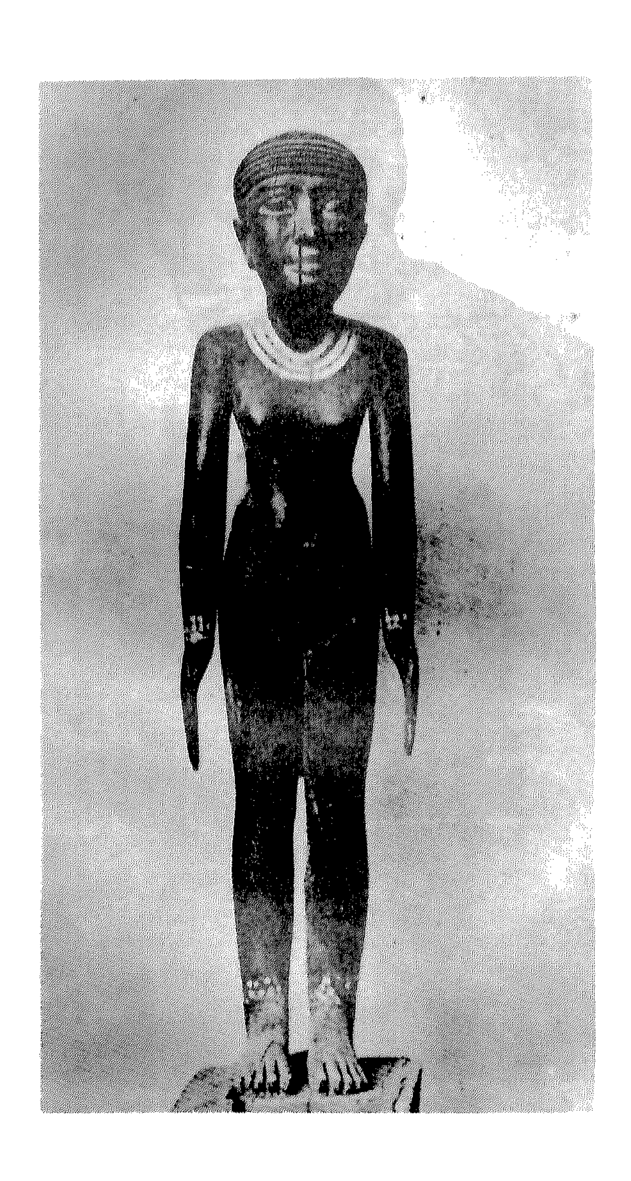


١٣ - الفرعون السودانى طهرقا



١٤ - رأس أميرة شابة

هذا الطراز فى تصفيف الشعر منتشر فى إفريقيا السوداء. والخصلة المتدلية على الأذن اليمنى تسمى ياه بالوُلوف (متحف اللوفر)



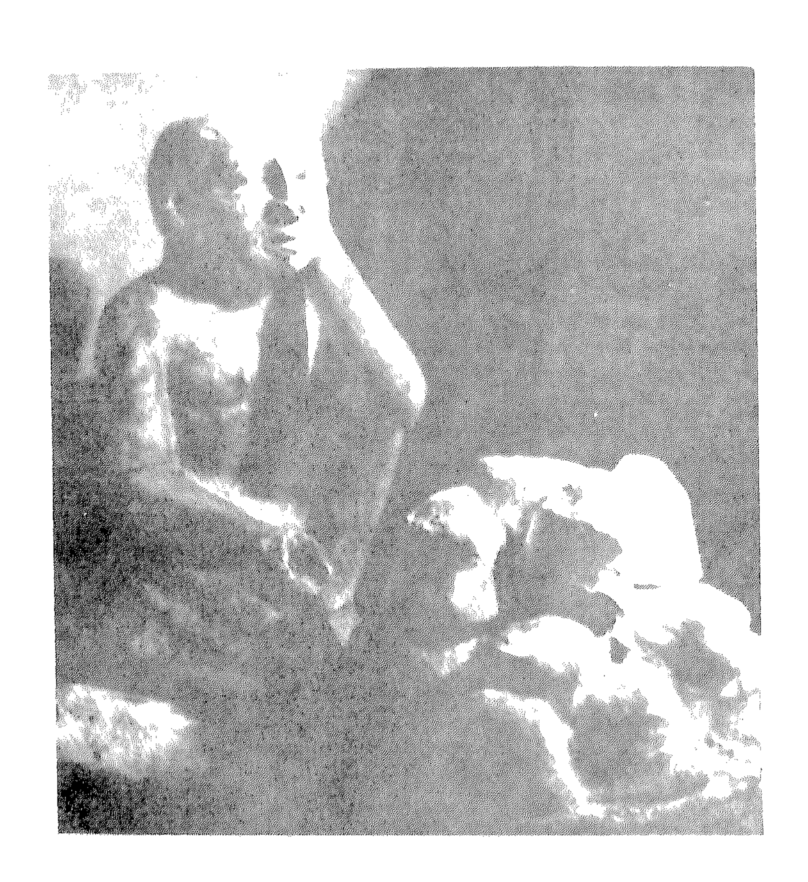
١٥ - أمرأة مصرية

السيدة ذات الإبهامين



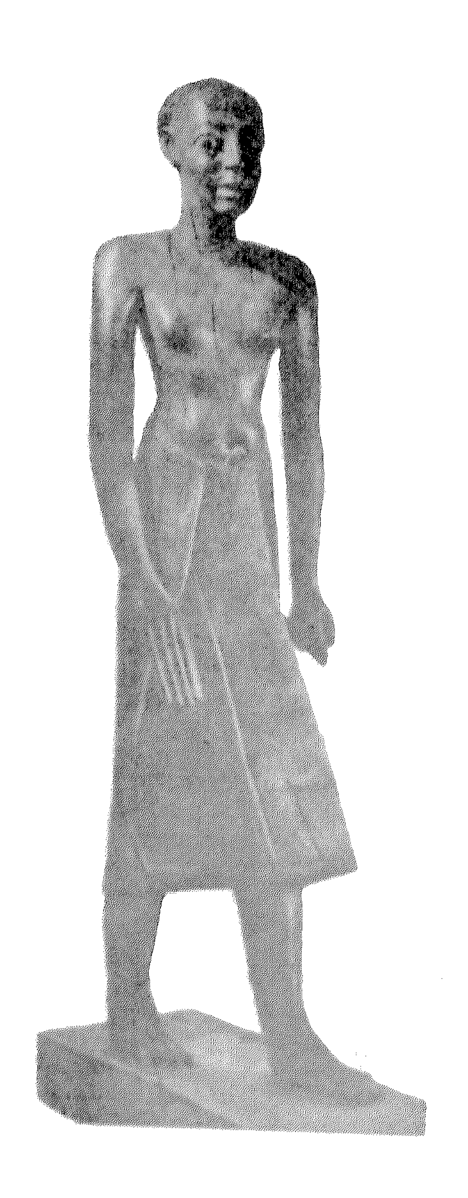
١٦ - تمثال لقصاب

من عهد الأسرة الخامسة، وجسمه مطلى بلون بنى ضارب إلى الإحمرار ويرتدى مئزرا أبيض



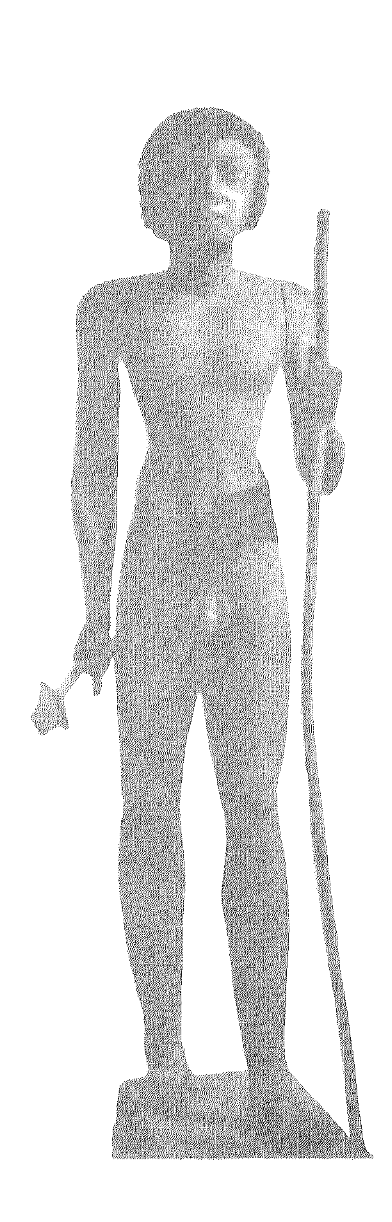
١٧ - تمثال لطاه

من عهد الأسرة الخامسة، وجسمه بنى ضارب إلى الإحمرار



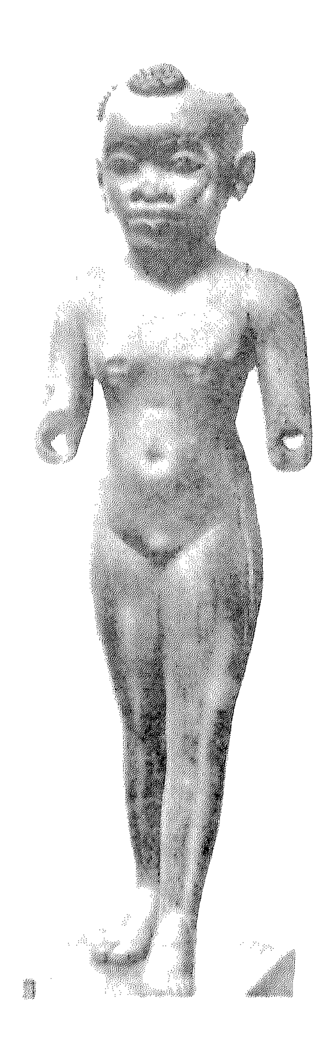
١٨ - موظف مصرى

من عهد الأسرة السادسة - يوضح ذلك لماذا تنطبق كلمة ثمردو بلغة الولوف - ومعناها ارتداء مئزر - تنطبق على كل من الرجل والمرأة



١٩ - مصرى

(تمثال من الأبنوس يعود إلى عهد الأسرة) السادسةالساعدان طويلان بالنسبة للذراع، والجزء الأسفل من الخصر حتى القدم طويل بالنسبة للجذع، والوجه مستطيل، والكتفان عريضان، والحوض ضيق. تلك هى المعايير التى تتيح التمييز بلا خطأ بين زنجى وأبيض. وهى المعايير الأكثر موضوعية وعلمية المتوفرة لدينا، وبفضلها أمكن التأكيد بأن إنسان جريمالدى زنجوى. ولكن من هو العالِم الذى يتجاسر على تطبيق تلك المعايير على هذا التمثال أو على مومياء مصرية حتى من العصر المتأخر وأن يستخلص تلك الاستنتاجات علنا؟ لقد فعل ذلك ليبسيوس من قبل(انظر ص ٨٧).

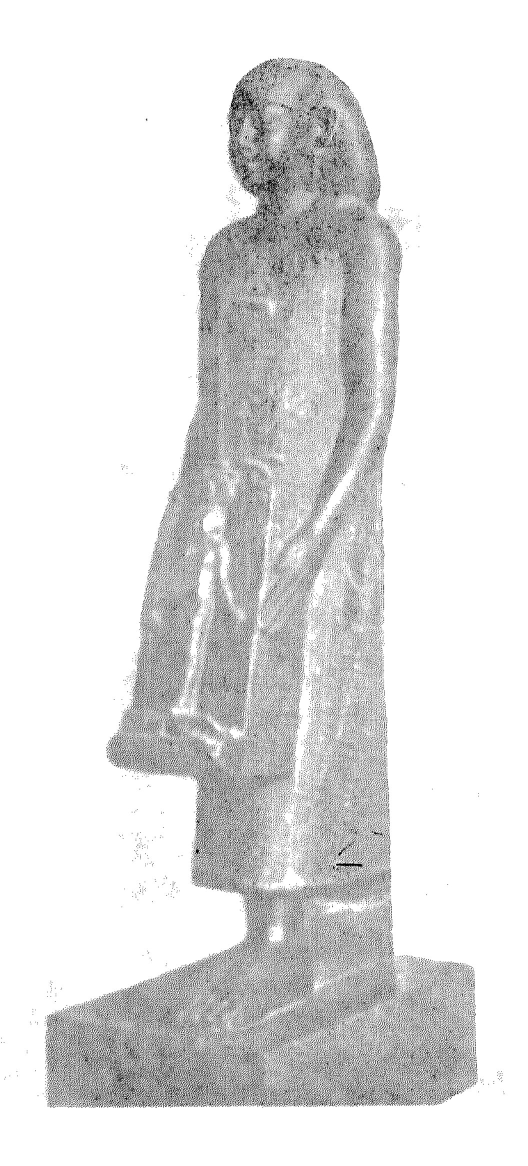


٢٠ - تمثال من الخشب لفتاة مصرية

يدل تصفيف شعر هذه الفتاة على أن المصريين كانوا طوطميين. وهذا التصفيف متبع من جانب كل الفتيات فى السنغال حتى سن البلوغ، من الواضح أن الشعر أكرت (پترى، *الفنون والمهن فى مصر القديمة*، ١٩١٥).



٢١ - تمثال رجل مصرى
(المتحف البريطانى)



٢٢ - كاهنة مصرية

كان تقليد الكاهنات منتشرا فى العهود الزنجية القديمة: كاهنات طيبة وجوبيتر آمون (ليبيا) ودودون فى قرطاجنة .. الخ. وهو تقليد لا يزال مستمرا حتى يومنا هذا، فى كينيا مثلا.



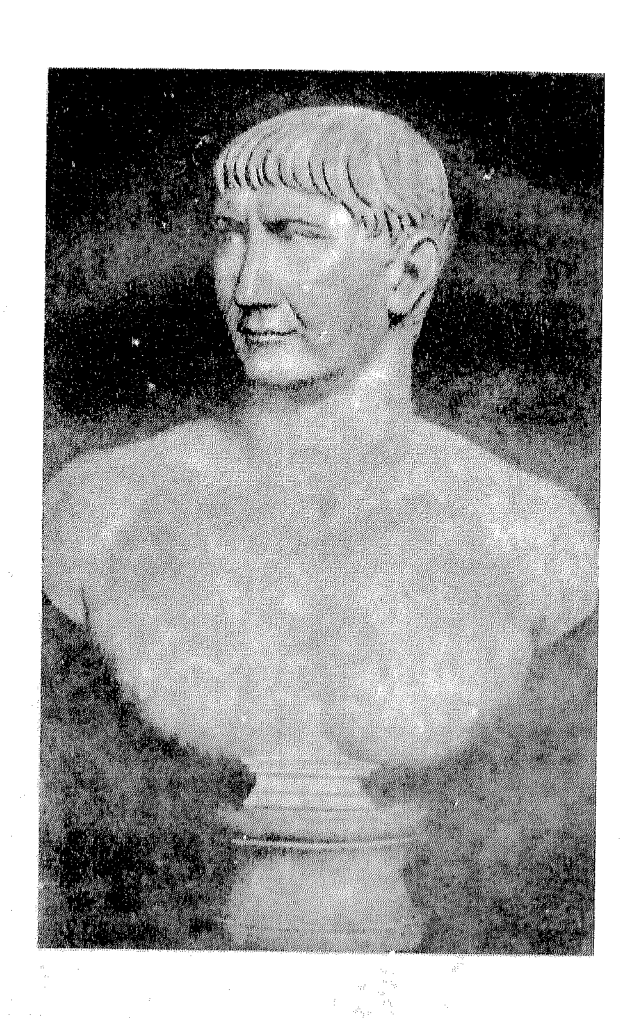
٢٣- رؤوس مصرية من الدولة الوسطى (٢)

وقد سميت «رؤوس ذات طابع أجنبى» لأن ملامحها زنجوية إلى حد كبير



٢٤ - رسم لچنايبجل

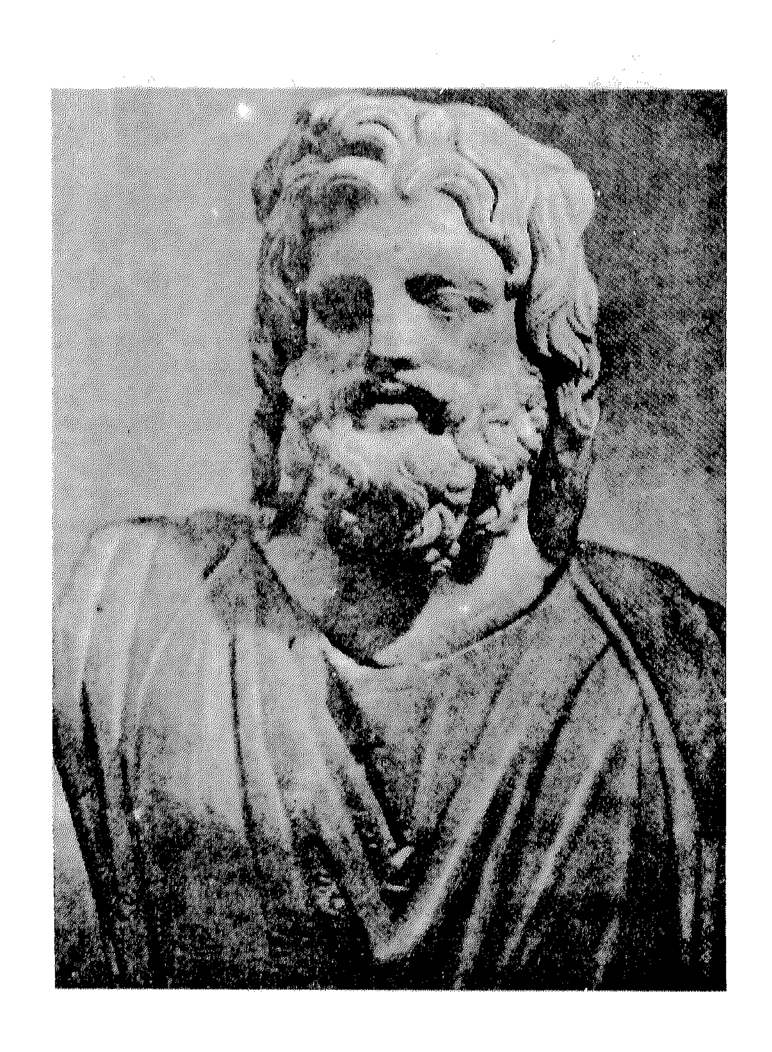
«ملك أثيوبيا ومصر الكبرى»



٢٥ – تمثال نصفى للأمبراطور الرومانى تراجان

للمقارنة بين الصور السابقة للنماذج المصرية والإفريقية مع النموذج الاوروبى

الذى تمثله هذه الصورة وصورة زيوس – سيرابيس



٢٦ - تمثال لسيرابيس (زيوس)

تصوير للنموذج الاوروبى فى الفن المصرى فى العهد الإغريقى - الرومانى



٢٧ - رأس برونزى من بنين

شخصية من البلاط (تمثال من أصل نيجيرى مصبوب فى المتحف البريطانى.

إهداء من المتحف الامريكى للتاريخ الطبيعى



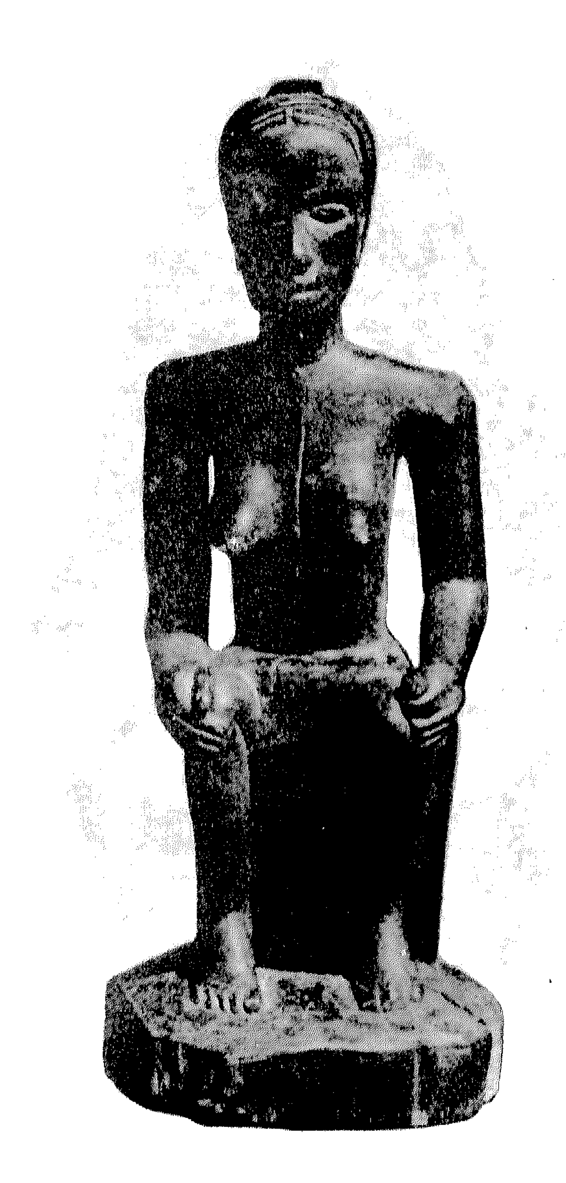
٢٨ - قناع پونجوى

نموذج للفن الزنجى الواقعى



٢٩ - قناع پونجوى

من الجابون ، ويتميز بتصنيف خاص للشعر والطلاء الأبيض للبشرة.



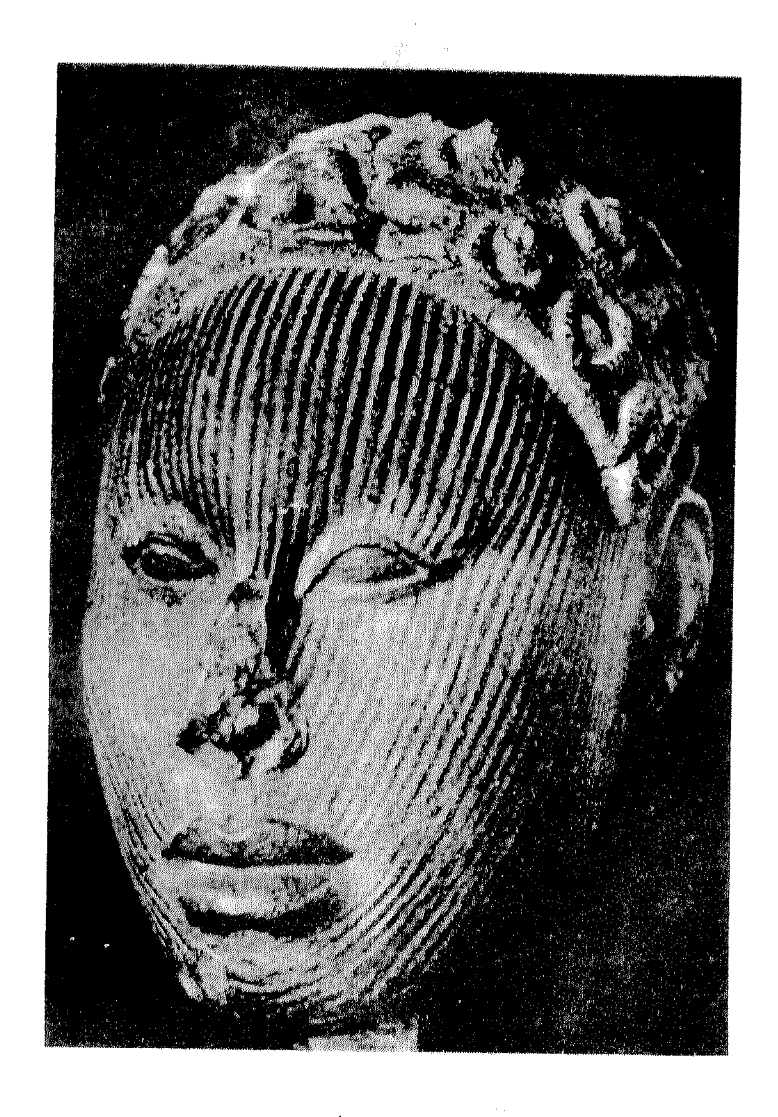
٣٠ - تمثال صغير من أنجولا

فن زنجي واقعي من إفريقيا الوسطى



٣١ - فن ايفه

للمقارنة بين :غطاء الرأس (والثعبان الذى يتوج رأس فرعون مصر (متحف لاجوس).



٣٢ - فن ايفه

مدرسة ايفه التى تولدت عنها مدرسة بنين مشهورة بالتحف المصنوعة من الآجر والحجارة والبرونز. والصورة هنا لتمثال من الآجر.

ولكن شامبوليون - فيجاك يستطرد قائلا فى مؤلفه:

«لقدأجرى الدكتور لارى أبحاثا شيقة حول تلك القضية فى مصر ذاتها ففحص عددا كبيرا من المومياوات ودرس جماجمها وتعرف على سماتها الرئيسية، وسعى إلى العثور عليها من بين الأجناس المختلفة التى تعيش فى مصر ونجح فى ذلك: وقد بدا له أن الأحباش يجمعون بين كل تلك السمات فيما عدا الجنس الزنجى بالأخص. فعينا الحبشى متسعتان ونظرته لطيفة والزاوية الداخلية لتلك النظرة مائلة، والأوداج بارزة وهى تشكل مع زاويتى الفك والفم مثلثا منتظما، والشفاه غليظة دون أن تكون ناتئة كما هو الحال عند الزنجى، والأسنان جميلة وقليلة البروز، وأخيرا فإن لون البشرة وحده هو النحاسى فقط: أولئك هم الأحباش الذين رآهم السيد لارى والمعروفون عموما باسم البربر أو البرابرة الذين يعيشون حاليا فى النوبة» (*نفس المرجع*، صفحة ٢٧).

ويضيف شامبوليون قائلا إن السيد كايو الذى رأى البرابرة قال فى وصفهم «إنهم رجال مجتهدون، قانعون، مزاجهم جاف ... وشعرهم نصف أكرت، قصير ومجعد أو مضفر على غرار قدماء المصريين، ويكون عادة مضمخا بالزيت».

وهذا الوصف، لايبعدنا مرة أخرى عن المميزات العرقية للجنس الزنجى. فالشفاه الغليظة والأسنان الناتئة إلى حد ما والشعر نصف الأكرت والبشرة النحاسية من السمات الجسدية الأساسية المميزة للجنس الزنجى.

ومما يسترعى الانتباه أن شامبوليون - فيجاك يتحدث عن لون بشرة الأحباش «النحاسى هو وحده فقط»، ولكنه يكتب بعد ذلك بصفحتين فى نفس الفصل، بخصوص تعدد تدرجات لون بشرة الزنوج:

«كانت حروب طويلة الأمد قد جعلت مصر على اتصال بداخل إفريقيا؛ ولذا نجد على جدران الآثار المصرية عدة أصناف من الزنوج يختلف بعضها عن بعض فى القسمات الرئيسية، وهو ما أشار اليه أيضا المسافرون الحديثون، كضروب من عدم التشابه، سواء فيما يتعلق بلون البشرة الذى يجعل الزنوج سودا أو نحاسيين، أو فيما يتعلق بنواحٍ أخرى أقل تمايزا». (*نفس المرجع* ص٢٩ - ٣٠).

وهذا التناقض الجديد الذى أورده نفس المؤلف يؤكد ما قلناه بخصوص الرجلين اللذين جاءا فى أعقاب الإله حورس مباشرة، أى المصرى والزنجى. فالرجلان ينتميان إلى نفس الجنس ولا يوجد فارق بينهما فى اللون، شأنهما فى ذلك شأن الفارق بين فرد من البامبارا وآخر من الوُلوف، وكلاهما زنجى. فكل من اللون «الأحمر - الداكن» الخاص بالأول، كما يقولون، واللون «النحاسى فقط» الخاص بالحبشى، واللون «النحاسى» الخاص بالزنجى ليس سوى تدرجات لنفس اللون.

ويجدر بنا أن ننوه بأن وصف الكاتب يتطرق إلى تفاصيل ليست ذات مغزى مثل «النظرة اللطيفة».. الخ.

ويتعين أن نشير إلى الخلط السائد حول تسمية البربر. فهذا النعت مستخدم فى غير محله بالنسبة لأهالى وادى النيل الذين لا يوجد أى شئ مشترك بينهم وبين من أصطلح على تسميتهم البربر أو الطوارق. فلا يوجد بربر فى مصر، بينما نعلم، على العكس أن شمال إفريقيا كان يشار اليه تحت اسم «بلاد البربر»، لأنه المنطقة الوحيدة التى كان يسكنها هؤلاء. وقد استخدم هذا النعت فيما بعد، وفى غير محله، لتسمية سكان آخرين. وهذه الكلمة التى يرجع استخدامها إلى العصور القديمة من أصل زنجى بالأحرى، لا هندو - أوروبى. فهى تتفق فى الواقع مع تكرار الجذر «بر». وهذا النوع من التكرار للجذر عام فى كافة اللغات الزنجية وبالأخص فى اللغة المصرية القديمة.

ومن جهة أخرى فإن الجذر *بار* بلغة الولُوف يعنى «التحدث بسرعة» وقد تشير بذلك كلمة باربار إلى شعب يتحدث لغة غير معروفة، أى شعب غريب.

وفى لغة الولُوف بالأخص تتشكل لغويا الصفة القومية من تكرار الجذر، ومثال ذلك أن الدچولوف - دچولوف، هم أهالى دچولوف.

وعندما نقل شامبوليون - فيچاك نقوش وادى الملوك عن رسم شامبوليون، لم يحترم ألوان الأصل. فقد ظلل جسم الزنجى لكى يشير إلى لونه فى النقوش ولكنه تحاشى ذلك فيما يتعلق بالمصرى وتركه أبيض تماما. وتلك طريقة لتبييض المصرى وإن كانت لا تتفق مع الوثيقة.

وقد استخدم شيروبينى، مرافق شامبوليون فى رحلته، نفس وثيقة وادى الملوك فى تحديد سمات الجنس المصرى. وأكد قبل ذلك على أسبقية الحياة فى أثيوبيا بالنسبة لمصر وأشار فى هذا الصدد إلى إجماع القدامى على أن مصر ليست سوى مستوطنة أثيوبية، أى سودانية - مَرَوية. بل لقد كان من المعتقد فى العهود القديمة أن الإنسانية نشأت فى السودان المَرَوى فأورد بهذا الصدد الأسباب التاليـة :

«كان يتعين أن تُعتبر نشأة الجنس البشرى تلقائية وأن مولدها كان فى المناطق العليا من أثيوبيا حيث امتزج إلى أقصى حد مبدآ الحياة: الحرارة والرطوبة. وفى هذه المنطقة أيضا يدلنا البصيص الأول للتاريخ على منبع المجتمعات والبؤرة الأولى للحضارة، فقد ظهر منذ العهود الغابرة التى سبقت الحسابات الاعتيادية للنقد التاريخى،تنظيم اجتماعى منظم تماما، له دياناته وقوانينه ومؤسساته. وكان الأثيوبيون يتفاخرون بكونهم أول من مارسوا طقوس عبادة الآلهة وتقديم القرابين. ويقال أيضا إن شعلة العلوم والفنون أوقدت هناك، وأنه يتعين أن ينسب إلى هذا الشعب اختراع النحت واستخدام حروف الكتابة وأخيرا أصل كافة التطورات التى تقوم عليها الحضارة المتقدمة». (شيروبينى، *النوبة*، سلسلة الكون، ص ٢ و٣، باريس ١٨٤٧).

«وكانوا يتفاخرون بأنهم الشعب الذى سبق الشعوب الأخرى فى التواجد على الأرض، ويبدو أن تفوق حضارتهم الحقيقى أو النسبى، بالمقارنة مع أغلب المجتمعات التى كانت فى طور الطفولة، يبرر ادعاءاتهم. ولا توجد على أى حال شهادة تنسب مصدرا آخر لبداية الأسرة الأثيوبية، وعلى العكس من ذلك، توفرت وقائع هامة للغاية دعت مبكرا إلى إسناد أصل محلى بحت لها (*) ...

«كانت أثيوبيا تعتبر قطرا على حدة، فمن هذا المنبع السماوى بطريقة ما، ظهر على مابدا لهم مبدأ الحياة وأصل الكائنات ...

(*)يستند شيروبينى هنا الى النص التالى لديودور الصقلى:

«يقول الأثيوبيون إنهم الأول بين كل البشر ويسوقون لذلك أدلة يعتقدون أنها جلية. ومن الأمور المتفق عليها عموما أنهم نشأوا فى هذا البلد ولم يأتوا أبدا من جهة أخرى، وعليه يجب أن يعتبروا من السكان الأصليين، ويبدو أنهم قد خرجوا من الأرض قبل بقية البشر نظرا لموقعهم المباشر تحت مسار الشمس. فبما أن حرارة الشمس بانضمامها إلى رطوبة الأرض تمنح الأخيرة نوعا من الحياة، فإن المواقع الأكثر اقترابا من خط الاستواء يتعين أن تنتج كائنات حية قبل المواقع الأخرى. ويقول الأثيوبيون أيضا إنهم أسسوا عبادة الآلهة والأعياد والاجتماعات العامة والقرابين، أى باختصار كل الممارسات التى تمجد بها الألوهية. ولذا فإنهم معتبرون أكثر الناس تدينا، ويعتقدون أن قرابينهم أحسنها قبولا لدى الآلهة، ويشهد لهم على ذلك أحد أقدم شعراء الأغريق وأكثرهم تمتعا بالتقدير، عندما أشار فى الإلياذة الى انتقال جوبيتر والآلهة الآخرين الى أثيوبيا لحضور الاحتفالات والقرابين السنوية التى كانت تعد لهم جميعا عند الأثيوبيين:

«جوبيتر اليوم، وفى رفقته كل الآلهة،

«يتقبل القرابين من الأثيوبيين».

(*الإلياذة*، ١، ٤٢٢)

«ويقولون إن الآلهة كافأتهم على تقواهم بامتيازات عظيمة مثل عدم سقوطهم أبدا تحت سيطرة أمير أجنبى. والواقع أنهم حافظوا دائما على حريتهم بفضل الوحدة العظيمة التى سادت دائما بينهم؛ وقد فشلت محاولات عدة أمراء شديدى البأس لإخضاعهم. وجاء قمبيز لمهاجمتهم بفرق كثيرة، فهلك جيشه بالكامل وتعرضت حياته هو نفسه للخطر. والملكة سميراميس المشهورة بذكائها ومآثرها، شعرت بمجرد دخولها أثيوبيا أن مرماها لن يتحقق إطلاقا. وصال وجال باكوس وهرقل فى كافة أنحاء العالم ولكنهما امتنعا عن محاربة الاثيوبيين وحدهم، إما خوفا من قوتهم أو لتبجيلهما لتقواهم.

«ويقول الاثيوبيون إن المصريين يشكلون إحدى جالياتهم التى جاء بها أوزيريس إلى مصر. بل إنهم يدعون أن هذا البلد لم يكن فى بداية العالم سوى بحر وأن النيل الذى يدفع بفيضاناته كميات كبيرة من غرين أثيوبيا، ردمه فى نهاية الأمر وحوله الى جزء من القارة.. وهم يضيفون قائلين إن المصريين أخذوا عنهم وعن كتابهم وأسلافهم الجانب الأكبر من قوانينهم، وإنهم تعلموا منهم تمجيد الملوك كآلهة ودفن موتاهم فى احتفالات مهيبة، وأن النحت والكتابة نشأ عند الاثيوبيين...

« ويسوق الأثيوبيون أدلة أخرى لإثبات أسبقية وجودهم على المصريين؛ ولكن ليس هناك مايدعو إلى ذكرها هنا ».

(*تاريخ الكون*، الكتاب الثالث، ص٣٣٧-٣٤١، ترجمة الأب تيراسون، باريس، ١٧٥٨).

«وبالأمس، ومن أجل زيارة أثيوبيا المقدسة،

أنتقل جوبيتر إلى شواطئ المحيط».

هوميروس (*الإلياذة*،١،٤٢٣).

وذلك باعتبار أن هوميروس هو الذى ألف الإلياذة.

«وباستثناء بعض المعلومات التى أوردها أبو التاريخ حول تاريخ الأثيوبيين، الذين كانوا يُسمون المعمرين، كان من المعروف بشكل مشوش أن أثيوبيا كانت مصدرا لرجال يتفوقون على بقية الجنس البشرى بارتفاع قامتهم وجمال تقاطيعهم وامتداد أعمارهم. بيد أنه كان من المعترف به آنذاك أن هناك قوميتين رئيسيتين من أصل إفريقى، وهما الليبيون والأثيوبيون. وكانت تندرج تحت التسمية الأخيرة الشعوب الجنوبية أو السوداء العرق، وهى تتميز عن الليبيين الذين كانوا مستقرين فى شمال إفريقيا فكانوا بالتالى أقل تأثرا بحرارة الشمس. تلك هى المعلومات العامة التى تركها لنا القدامى». (*نفس المرجع*،ص ٢٨ و ٢٩).

«وهناك مايدعو إلى الافتراض، دونما التحلى بجسارة مفرطة، بأنه لا يوجد موقع آخر فى العالم صادفنا فيه حضارة بدت لنا مسيرتها مؤكدة ومحاطة بمعالم الأسبقية التى لا نزاع فيها، لأن معاصريها أفادونا حتى بمحاولاتها الأولى وتطورها ونضوجها، بينما بدت متقدمة إلى حد كبير عن أغلب الأمم فى سلوكها الاجتماعى. فمن المعروف فى الواقع أن لمحات التاريخ الأولى كانت تضيئ بالكاد بدايات أقوى امبراطوريات آسيا عندما كان هناك تنظيم ناضج ومستقر تماما ومزدهر منذ أمد طويل على ضفاف النيل حيث تعاقبت الأمم لتنهل من المعارف التى كانت ثمرة خبرة طويلة، ولتستعير المؤسسات ودروس الحكمة التى كرستها تجارب الزمن.

«والكتابات العلمية والفلسفية القديمة المتفقة مع ما سجلته الآثار الأصلية تؤكد حقا تلك الأسبقية، وربما لا يوجد فى تاريخ المجتمعات البدائية واقع بهذه البداهة المعتمدة على إجماع أكثر اكتمالا وحسما». (*نفس المرجع*، ص٧٣).

وهكذا يذكرنا مرة أخرى أحد الحديثين بأن القدامى الذين نقلوا الينا الحضارة الراهنة، يعترفون جميعا – سواء كانوا من العلماء أو الفلاسفة، بدءا بهيرودوت حتى ديودور الصقلى، أى بعبارة أخرى منذ عهد الإغريق حتى عهد الرومان – يعترفون بأنهم أخذوا هذه الحضارة عن زنوج ضفاف النيل سواء تعلق ذلك بالأثيوبيين أو المصريين.

ويتضح من هذا النص أن القدامى لم ينازعوا الزنوج أبدا فى دورهم كأول من بادر بإقامة الحضارة.

بيد أن شيروبينى يفسر مع ذلك الوقائع بطريقته. فعندما اعتمد على نقوش بيبان الملوك، بعد شامبوليون وشامبوليون – فيجاك، لم يقدم لنا أى عنصر جديد متعلق بالجنس المصرى سوى التفسير الخاطئ للألوان.

فهو يقول إنه إذا كان *الروت – ان – نى – روم* (أرقى البشر)يصور نفسه بلون بنى يميل إلى الاحمرار(١) فذلك لكى يميز نفسه عن بقية البشر، أى أنه مجرد اصطلاح بحت:

«ويتبين لنا من ترتيب الناس فى الأزمنة القديمة الذى تركوه هم أنفسهم لنا، أن السكان الأفارقة فى وادى النيل، يشكلون هم وحدهم أحد التقسيمات الأربعة للكائن البشرى ويحتلون المركز الأول بعد الإله، وفقا لترتيب لا يتغير جاء فى عدة أماكن أخرى ولا يبدو أنه جاء بمحض الصدفة ...

«ولكى يجعلوا المسافة التى تفصلهم عن بقية البشر ملموسة، فقد خصوا أنفسهم وكذلك الإله المجسد فى شكل إنسان، بلون للبشرة بنى يميل إلى الأحمر ربما مع بعض المبالغة أو كنوع من الاصطلاح، دون أن يترك ذلك أى مجال للشك فى أصل جنسهم. وكانوا يصورونه على أى مثال فى كافة آثار حضارتهم القديمة بقسمات متميزة تنم عن أصل افريقى مؤكد» (*نفس المرجع*، ص ٣٠).

واللون المشار اليه هنا بأنه «بنى يميل إلى الاحمرار» والذى سماه شامبوليون «الأحمر الداكن» هو بكل بسطة لون الزنجى، ولا يمكن أن يكون لونا مصطلحا عليه كما أراد شيروبينى. والواقع أنه سيكون بذلك اللون الوحيد الاصطلاحى فى هذه النقوش لأن كافة الألوان الأخرى فيه طبيعية: فلا يوجد أى شك حول حقيقة لون الملابس البيضاء التى يرتديها الرجل الأول، ولا حول «لون البشرة المائل إلى الصفرة» الخاص بالرجل الثالث، ولا حول حقيقة «لون البشرة الأبيض فى أرق درجاته» واللحية الشقراء والعيون الزرقاء فيما يتعلق بالرابع. وليس هناك مايدعو إلى الاعتقاد بأن هذا اللون وحده من بين كافة الألوان الطبيعية، لون اصطلاحى، كما أنه لا يوجد ما يدعو بالأحرى إلى الاعتقاد بأنه لون زنجى مختلف عن ألوان الزنوج الآخرين، خاصة وأنه وفقا لما جاء فى كتاب شيروبينى نفسه:

«لقد ذهبوا (أى المصريون) بنظامهم الوصفى، أو بعبارة أفضل، بالتباهى بمحتدهم، إلى حد وضع فروق قاطعة بينهم وبين سكان إفريقيا الآخرين المجاورين لهم، ومن بينهم من كانوا من أصل زنجى، اذ حرصوا على عدم الخلط بينهم وبين اولئك وأفردوا لهم تصنيفا على حدة». (*نفس المرجع*، ص ٣٠).

بل إن المصريين ذهبوا إلى أبعد من ذلك وصوروا إلههم بلون الزنوج، أى على صورتهم هم: الأسود الفاحم. وعليه فإن فكرة اللون الاصطلاحى هذه يجب أن تستبعد بكل بساطة.

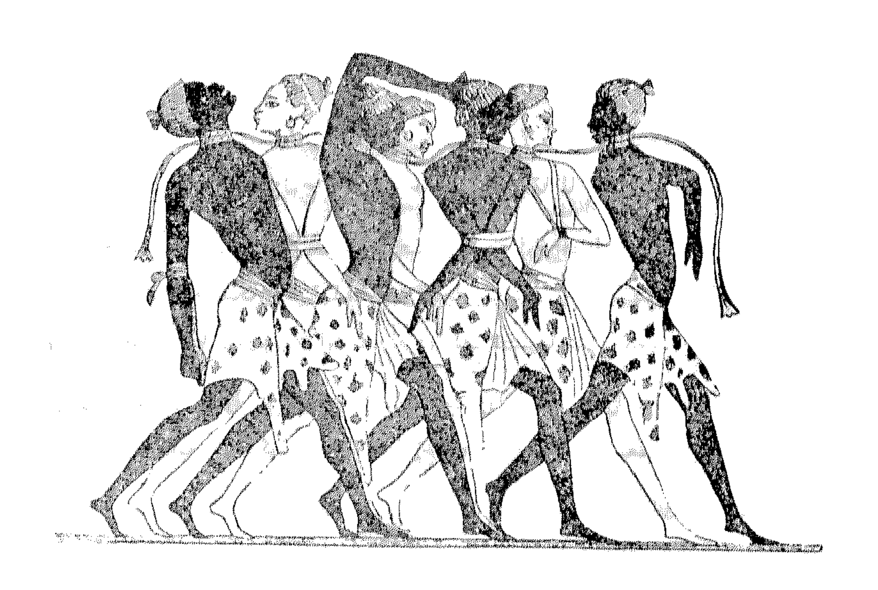
وهكذا يرى شيروبينى نقوش وادى الملوك، بعد شامبوليون - فيجاك، من خلال غمامة. ونعيد هنا إلى الأذهان ما قلناه آنفا، وهو أن الإخصائيين يقعون فى شرك اللامعقول وفى تناقضات لا مخرج منها، هربا من الأصل الزنجى الجلى تماما.

وهذا النوع من الزيغ هو وحده الذى يفسر لنا موقف شيروبينى الذى وجد أنه من المعقول اللجوء إلى مثل ذلك الاصطلاح التصويرى مع أنه يتعين ألا يكون مقبولا لدى المصريين، وفقا للفكرة التى كونها هو نفسه عنهم.

ويلجأ المؤلف إلى نقوش معبد ابسامبول (النوبة السفلى) التى تمثل الأسرى الذين أمسك بهم

سنوسرت بعد حملته فى الجنوب لكى يحاول إثبات أن المصريين والزنوج كانوا ينتمون الى جنسين مختلفين. فقد كتب يقول:

«نرى الملك سنوسرت عائدا من حملة ضد الجنوبيين؛ ويتقدم عجلته عدد من الأسرى. وعلى مسافة أبعد، يقدم العاهل للآلهة المحليين مجموعتين من الأسرى المنتمين بالطبع إلى أحد هذه الشعوب المتوحشة: إنهم القرابين المخصصة لحماة الحضارة الأشداء الذين باركوا إنزال العقاب بإعدائه ... وهؤلاء الرجال المقيدون بحبل واحد وشبه العراة تماما، باستثناء جلد فهد يلتف حول الخصر، يتميزون بلون بشرتهم الأسود تماما عند البعض، وبلون بنى داكن متدرج عند البعض الآخر؛ وزاوية الوجه مستقيمة والجزء الأعلى من الرأس منخسف بشدة، والقسمات المفرطة فى خشونتها مع البنية الضعيفة عموما من الصفات المميزة لنوع على حدة؛ جنس من أدنى درجات الكائنات البشرية



٣٣- يتبين من لون الأسرى المصورين فى خلفية نقوش أبو سمبل أن المصريين لم يكونوا يصورون أنفسهم بلون مختلف عن لون الزنوج الآخرين، على عكس ما يشاع.

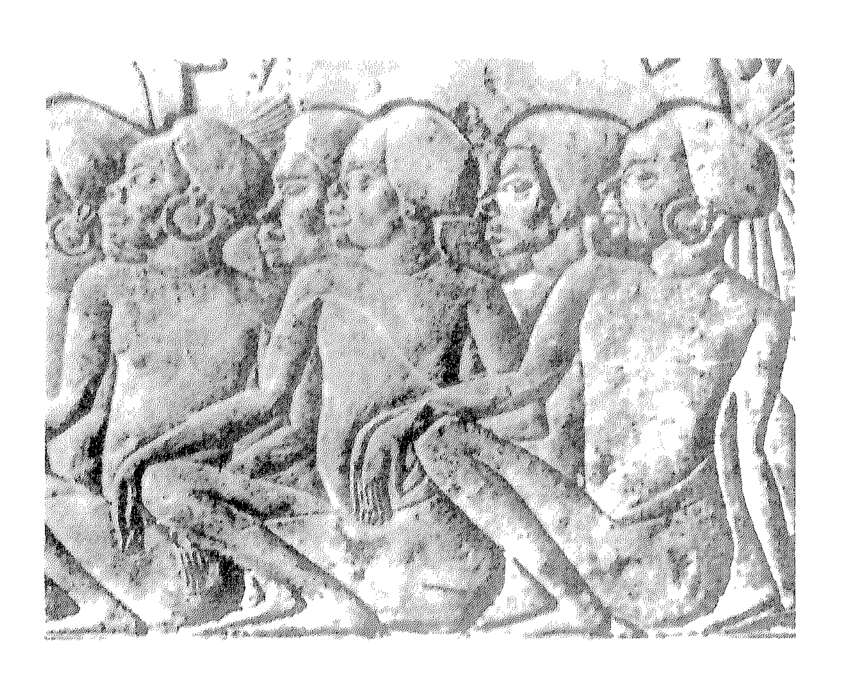
ومن بين المناظر الواردة فى نقوش أبو سمبل هناك نقش يستحيل أن نتبين فيه أى فارق بين لون بشرة فرعون ولون بشرة «الزنوج».

وعلى العكس، لا مجال للمقارنة بين لون بشرة فرعون ولون نماذج الأجناس الأخرى البيضاء المصورة، فالأمر يتعلق بنفس المشهد الذى يمسك فيه فرعون مجموعة من الأسرى من شعورهم.



٣٤- تمثال نوك من الآجر (نيجيريا)

الزنجى كما يصور نفسه. ويتشابه هذا الوجه مع التماثيل المصرية، فله نفس السمات الجسدية التى تتعارض مع سمات الفلاحين الأسرى فى الصورة رقم ٣٥. ويعود ذلك لا إلى اختلاف فى الجنس ولكن فى الطبقة الاجتماعية.



٣٥- فلاحون سود أسرى فى مقبرة حورمحب

الأختلاف واضح مع نموذج ساكن المدينة فى الصورة رقم ٣٤. ولم يظهر هذا النموذج الريفى فى المراكز الإفريقية إلا بعد انتقال عناصر ريفية تبدو على وجوهها الآثار التى تتركها ظروف حياة الفلاحين الصعبة. ولذا فقد جانبهم التوفيق عندما اعتبروا أن الأمر يتعلق بفرق عرقى مع أنه ليس إلا اختلاف فى الوضع الطبقى بين أرستقراطية المدن والفلاحين ذوى الوجه المتغضن والأيدى الخشنة، علما بأن ظروف العمل فى الزراعة لم تكن قاسية بقدر ما كانت فى النوبة.

(الصورة رقم ٣٣). وتكشف التكشيرات البشعة والتشنجات التى تقلص وجه وأطراف هؤلاء الرجال عن عادات همجية؛ وعن غرابة أطوار هذ الجنس، الذى يبدو أن أخلاقه فى بداية نموها.وهـي تدفع إلى وضعهم فى خانة وسيطة بين الإنسان والحيوان. ويبرز كل ذلك بكل وضوح بتباينه مع المظهر النبيل والجاد للمصريين.

«وهذا التباين الصارخ للغاية يثبت بما فيه الكفاية أن سكان ضفاف النيل بعيدون عن جنس الأفارقة الجنوبيين، كبعدهم عن الشعوب الأسيوية. وهو يقضى على النظم التى حاولت حتى الآن إثبات أن أصلهم زنجى بحت». (*نفس المرجع*، ص٣٢).

وبصرف النظر عن أوصاف التحقير التى استخدمها شيروبينى، فلنبحث عن الاختلافات العرقية بين الأسرى الذين يصفهم وبين المصرى. ولنلاحظ باديء ذى بدء أن الرصف الذى أورده لا يتضمن أى مصطلح علمى يمكن أن يلفت النظر. وعلى العكس فإن اللجوء المفرط للسباب الذى يشكل الجانب الأساسى فى ذلك الوصف، من جانب رجل ينتمى إلى الشعب الذى يعتبر الاعتدال من الفضائل القومية، إنما يدل على مدى حنق شخص عاجز عن إثبات ما يريده.

وقد بلغ به الأمر حدّ نسيان الترتيب الموضوعى للوحة وادى الملوك التى توسع فى معالجتها.

وإذا كان الجنس الزنجى يحتل «أدنى درجات الكائنات البشرية». فهو يسبق على أى حال «البهيمة الشقراء» حسب رأى جوبينو، فى ذلك الترتيب المتكرر بانتظام فى كافة الآثار، مما يدعونا بالطبع الى التساؤل حول مركز هذه البهيمة.

وقد أوردنا هنا الرسم الذى تحدث عنه شيروبينى. فما هى تلك الملامح التى تنم عن الانحطاط الأخلاقى؟وما هى المظاهر التى تميز قسمات وجوههم عن قسمات وجوه المصريين؟ (انظر الصورتين ٣٤ و ٣٥).

ويقول لنا شيروبينى نفسه إن لون البشرة «بنى داكن متدرج»، أى أنه نفس لون البشرة (البنى المائل إلى الاحمرار) الذى أقر به للمصريين فى آثارهم. وبناء على ذلك فإن السمة العرقية الوحيدة التى لها قيمتها والتى تَفَضل بتقديها لنا سمة مشتركة بين الجنسين.

ويدل لون بشرة أسرى ابسامبول على أن القول بأن المصريين لم يكتشفوا الزنوج إلا فى عهد الأسرة الثامنة عشرة، وأنهم صوروهم بلون متميز عن لونهم، لا يعتمد على الوثائق بل على الخيال.

وهذه الأجسام أبعد عن أن تكون ضعيفة البنية بل هى على العكس رياضية أساسا وهذه «التقلصات» و«التكشيرات» التى بدت على وجوه الأفراد فى الصف الأول وذلك الاستسلام المصحوب بالازدراء لمن احتلوا الصف الخلفى، ألا يدل بالأحرى على إدراك رفيع للكرامة لا الوضاعة الأخلاقية، بالنسبة لمن يتحلى بالقدرة على تفسيرها بشكل موضوعى؟

وقد حاولوا التلميح أيضا بأنه إذا كان سنوسرت - والفراعنة بوجه عام - قد حاربوا الزنوج فى جنوب أثيوبيا فذلك لأنهم لم يكونوا من نفس الجنس الأسود. فكأننا نقول إنه بما أن قيصر شن حملات على بلاد الغال، فإن الرومان والغاليين لم يكونوا من نفس الجنس الأبيض، وإنه إذا كان الرومان بيضا فذلك لأن الغاليين كانوا صفرا أو سودا ...

كان الزنوج المستقرون داخل القارة الافريقية يميلون أحيانا بشدة إلى خوض الحروب وكثيرا ما كانوا يشنون غارات على الأرض المصرية، فكانوا يشكلون بذلك تهديدا مستمرا فى الجنوب ويتعرضون لحملات عقابية. (لوحة جزيرة فيله).

والحملة التى قادها سنوسرت والمسجلة على نقوش ابسامبول تدخل فى نطاق عمليات القمع هذه.

وعلى أى حال فإن هذه الحملة تعود إلى المرحلة الأخيرة من الدولة الوسطى (الأسرة الثانية عشرة).

وهكذا دعت الأحوال أبناء حام إلى تطبيق تعبير «ابن كوش البغيض» على أشقائهم الذين استقروا بعيدا فى الجنوب(*).

غير أن المصريين كانوا يكرهون قبل كل شئ الرعاة الأسيويين بكافة أنواعهم، ابتداء من «الساميين» حتى الهندو-أوروبيين: وكانت لا تعوزهم النعوت المهينة للإشارة إليهم. فكانوا يسمونهم «الأسيويين الخسيسين» (نقلا عن مانيتون)! وأطلقوا على الغزاة اسم *هيكسوس* المشتق من *هيك* (ملك باللغة المقدسة) و*سوس* (راعى باللغة الشعبية). وكانوا يشيرون إليهم أيضا بعبارات «الملعونين»، و«الموبوئين»، و«المجذومين»، و«النهابين»، و«اللصوص» ومنها كلمة *ساتى* = رماة السهام؟...(**)، والكلمة تعنى بلغة الوُلُوف: سارق. وكانوا يسمون السكوتيين أيضا «آفة شيتو» (شيروبينى، *النوبة*، ص٣٤).

والنقوش التى تركها لنا المصريون والتى سجلت حملات الفراعنة ضد هؤلاء القوم فى آسيا، تصور على العكس أشخاصا يتضح من الوهلة الأولى وبلا منازع، أنهم مختلفون عرقيا عن المصريين. وقد نقلنا هنا (الصورة رقم ٣٦) رسوم الأسرى الآسيويين والأوروبيين المنحوتة على صخور سيناء وفى معبد مدينة هابو لكى نوضح التعارض الصارخ بين السمات السامية والآرية والأجنبية لأعداء مصر هؤلاء، وبين وحدة سمات المصريين وأسرى ابسامبول.

وعليه، فإن شيروبينى أبعد عن أن يكون قد قضى على «النظم التى حاولت حتى الآن إثبات» أن أصل المصريين زلجى بحت.

(*) ناحاس: صعلوك بلغة الوُلُوف وجمعها ناحاس - فى : الصعاليك.

(**) نقلا عن ماريوس فونتان: *الأمصار* (من ٥٠٠٠ إلى ٧١٥ قبل الميلاد) مطبوعات لوميير، ص٢١٩.

ويعالج ماريوس فونتان نفس القضية فى كتاب *الأمصار* [LES EGYPTES] الذى صدر حوالى عام ١٨٨٠ فيقول:

«صبغ المصريون أنفسهم دائما على آثارهم باللون الأحمر، مما وفر لأنصار «الأصل الجنوبى» عددا كبيرا من الخصائص المتميزة التى يمكن أن تمهد للإعداد لحل مشكلة الأصل العرقى المثارة. ففى أعالى النيل يوجد حاليا وسط الفولبه ذوى اللون الأصفر المميز؛ البشارية الذين يعتبرهم معاصروهم من ذوى الأصل العرقى النقى. ولون هؤلاء البشارية هو بالضبط لون الطوب الاحمر الوارد فى الآثار المصرية. ويرى بعض علماء الأجناس أن هؤلاء «الرجال الحمر» أثيوبيون تغير لونهم مع الزمن بفعل المناخ، أى أنهم زنوج وصلوا إلى نصف الفترة اللازمة لكى يصبح لون بشرة الزنجى أبيض؟ وقد لوحظ أن الزنجى فى البلاد «ذات التكوين الحجرى» أقل سوادا من الزنجى فى «البلاد الجرانيتية أو ذات الصخور البركانية» بل إن بعضهم يعتقد أنه لاحظ أن درجة لون البشرة تتغير حسب الموسم.وفى هذه الحالة يكون النوبيون زنوجا قدامى، فيما يتعلق باللون فقط، أما تكوينهم العظمى فيظل زنجويا صرفاً.

«والزنوج الممثلون فى التصوير الفرعونى والذين حددهم النحاتون بكل دقة، وتطلق عليهم الهيروغليفية اسم ناحاسو أو ناحاسيو، لا توجد أى نواحى تشابه بينهم وبين الاثيوبيين الذين كانوا أول من نزح إلى مصر. فهل كان هؤلاء زنوجا أقل زنجية، أى نوبيين؟ فوفقا للقواعد المعروفة باسم مقاييس لبسيوس، التى تحدد بالتربيعات نسب جسم المصرى الصرف، فإن ساعديه قصيران، فهو زنجى أو زنجوى. ومن وجهة نظر علم أصل الجنس البشرى، يأتى المصريون بعد البولينزيين والمغول والأوروبيين، ويليهم مباشرة زنوج إفريقيا والتزمانيون. وهناك على أى حال اتجاه علمى يرى أنه لا يوجد فى الواقع فى إفريقيا سوى زنوج أو زنجاويين يتفاوت لون بشرتهم، وذلك بالطبع بعد استبعاد التأثيرات الأجنبية الممتدة من حوض البحر الأبيض المتوسط حتى رأس الرجاء الصالح، ومن المحيط الأطلسى حتى المحيط الهندى. وعليه فإن المصريين كانوا على الأرجح زنوجا، ولكنهم زنوج من الدرجة الأخيرة». (*نفس المرجع*، ص ٤٤ و ٤٥).

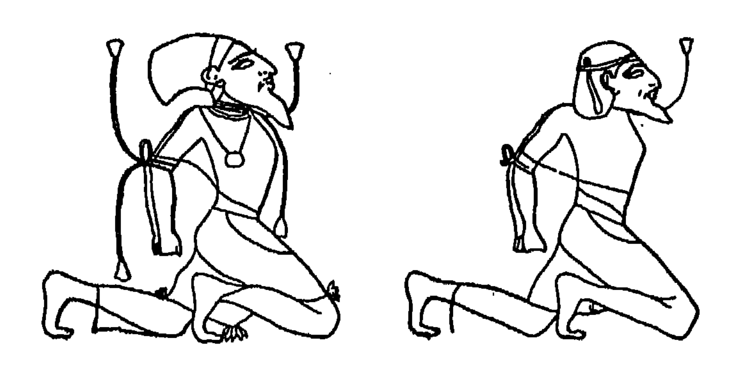
ووجهة نظر فونتان هذه، التى لا تحتاج إلى أى تعليق، تؤكد مرة أخرى، استحالة التنصل من الأصل الزنجى لمصر، إذا ما قبل المرء التمسك بالواقع وحده: وهكذا توصل لبسيوس، بمجرد الاعتماد على مقاييس موضوعية، إلى استنتاج قاطع، وهو أن المصرى الصرف زنجوى. ويعنى ذلك أن تكوين هيكله العظمى زنجوى وأن هذا هو السبب الذى دفع كتابات علماء أصل الجنس البشرى إلى التزام الصمت فيما يتعلق بالتركيب العظمى المصرى.

ويستعرض فونتان بعد ذلك الأطروحة التى تقول إن تحضُّر المصريين تم على يد البربر أو الليبيين القادمين من أوروبا عن طريق الغرب.



أسير من جنس أبيض آرى (نقوش جدران معبد مدينة هابو)
إلى اليمين نموذج لليبى أو شعب الشمال

نموذجان لأسرى ساميين
(نقوش على صخور سيناء)



٣٦- هذه الرسوم منقولة عن كتاب لينورمان عن مصر. وكانت جميع تلك الشعوب من الرُحل. وهكذا يفتضح أمر الغربيين الذين يشيدون فى الكثير من الأحوال بحياة الرُحل دون أن يكون هناك سبب ظاهر لذلك (منهم على سبيل المثال توينبى) انظر ص ٨٦.

«ولو تمت البرهنة على أن الحضارة جرت من الشمال إلى الجنوب، من البحر الأبيض المتوسط إلى أثيوبيا على التوالى، لما ترتب على ذلك أن تلك الحضارة آسيوية الأصل، ومن الممكن أن تكون أيضا إفريقية، جاءت من الغرب بدلا من الجنوب. وفى هذه الحالة يكون البربر، بربر شمال إفريقيا هم الذين «أدخلوا الحضارة» فى مصر.

«وهناك من بين البربر الحاليين عدد كبير ذو تركيب عظمى مصرى أساسا. وكان البربر القدامى سمر اللون على الأرجح ويمكن أن ينسب وصف التاماهو، ليبّى الأسرة التاسعة عشر «ذوى الوجه الشاحب، الأبيض أو الأصهب، والعيون الزرقاء» إلى تأثير الجنس الأوروبى وهجرة «أهالى الشمال». فهؤلاء البيض الذين ألحقهم الفراعنة بخدمتهم كمرتزقة، ساهموا إلى حد كبير فى تهجين المصريين والليبيين أيضا. ولذا يجب غض النظر عن ذلك، والعودة إلى الليبى ذى البشرة السمراء، أى البربرى الحقيقى، للعثور على الشعب الذى يقال عنه إنه كان أول من أدخل الحضارة إلى مصر. وتلك مهمة ضخمة، لأن البربر الأفارقة يتلاشون شيئا فشيئا فى افريقيا، ولا يوجد النموذج البربرى فى مصر إلا مختلطا إلى حد كبير. ووفقا لتلك النظرية، يكون البربر الأفارقة القادمون من الغرب والليبيون ذوو البشرة السمراء قد استقروا فى وادى النيل الجديد، ولكن غزو الأوروبيين الذى حدث فى نفس الوقت تقريباً أو بعد ذلك بقليل هجن ذلك الليبى القادم من شمال افريقيا «ذا البشرة البيضاء والعيون الزرقاء» الذى غير المصرى البدائى. وهكذا فإن هذا المصرى الذى جاء دمه من أوروبا يكون منتسبا الى الجنس الهندو- أوروبى ومنتميا الى الآرية؟» (ص ٤٧، ٤٨).

وتعتبر تلك الأطروحة آية للتفسيرات المعتمدة على الخيال الصرف، أى أنها لا تستند إلا الى المشاعر الوجدانية. وأنا لم أذكرها إلا لتفنننها ومآربها، ألا وهو التوصل بأى ثمن الى إثبات أن المصريين كانت تجرى فى عروقهم بطريقة أو أخرى، دماء آرية ...

والآرية هى الكلمة التى كان يتعين الوصول اليها...

وقد ذكرتها لأنها صريحة، على عكس الأطروحات السابقة. فهى نتاج تفسيرات لا تقوم على أى أساس، ساقها متخصصون مقتنعون تماما بأن كل ما له قيمة فى الوجود لا يمكن إلا أن يكون صادرا عن جنسهم، وأن أى بحث جاد يؤدى لا محالة إلى إثبات ذلك.

وعليه فإن أى تفسير لا يمكن أن يكون مكتملا إلا إذا حقق ذلك الهدف. ولذا لا يهم أن تكون البرهنة مدعومة بالوقائع، فهى مكتفية بذلك لأن الأدلة التى تسوقها جزء من هدفها.

وقد تمت الإشارة من قبل إلى البلبلة التى تشوب الأفكار المتعلقة بمفهوم البربر، ولذا فليس هناك ما يدعو الى الرجوع اليها. فوجود الليبى ذى البشرة السمراء البربرى حقا، والمعتبر نموذجا أصليا لجنس أبيض، لا يضاهيه سوى وجود عرائس البحر. ومن جهة أخرى فإن الاعتماد بكل دقة على

الوثائق التى وفرتها الحفريات تؤكد أن شمال إفريقيا لم يكن فى يوم من الأيام نقطة انطلاق لحضارة. ولم يصبح له شأن فى التاريخ إلا مع قيام مستوطنة قرطاجنة الفينيقية، أى عندما كانت الحضارة المصرية قد أمضت عدة آلاف من السنوات. ولو كان أهالى مصر قد قدموا من جنوب أوروبا، كما يفترض ذلك ماسبيرو، ولو كانوا «قد انحدروا نحو الوادى من الغرب أو الجنوب الغربى» (*التاريخ القديم لشعوب الشرق*، ص ١٩) ليجلبوا لها عناصر الحضارة (*) ولكان عدم تركهم لأى آثار فى مهدهم أو طريقهم الى الوادى أمراً لا يمكن تفسيره. ومن العسير أن نتصور أن هذا الجنس الأبيض الناشر للحضارة قد هاجر من اوروبا، ذلك المهد المواتى تماما لنمو تلك الحضارة، دون أن يقيم فيها تلك الحضارة، وأن يكون قد مرّ عبر السهول الغنية المحاذية للبحر الأبيض المتوسط واجتاز المسافة الهائلة التى تفصل شمال إفريقيا عن مصر - والتى لم تكن صحراوية آنذاك - وشق الوجه البحرى لمصر الذى كان آنذاك منطقة عامرة بالمستنقعات والأوبئة، ومرّ بصحراء النوبة، وتسلق هضاب أثيوبيا المرتفعة، فقطع بذلك آلافا وآلافا من الكيلومترات لكى يقيم، لنزوة غير مفهومة، حضارة فى منطقة قاصية إلى هذا الحد، ولكى يهبط بعد ذلك تدريجيا مع مجرى النيل.

وحتى لو افترضنا أن الأمور صارت على ذلك النحو، فكيف يمكن أن يفسر المرء أن فريق هذا الجنس الذى مكث فى مكانه، فى بيئة مواتية لتفتح الحضارة، ظل خشنا حتى الحقبة التى سبقت العهد المسيحى؟

وعلى نقيض الافتراضات التى تزعم أن إفريقيا كان يسكنها جنس أبيض طوال العهود القديمة، يمكن الاستناد إلى وثائق أثرية وتاريخية تؤكد بالإجماع أن هذه المنطقة كانت دائما موطنا لزنوج. ويقول فورون إنه تم العثور فى خمسة مواقع بإقليم القسطنطينية على هياكل متحجرة لأشخاص عاشوا فى نهاية العصر الحجرى القديم «كان من بينهم بعض الزنوج الذين يشبهون نوبيى صعيد مصر» (*موجز لآثار ماقبل التاريخ*، ١٩٤٣ ص ١٧٨).

وتثبت الوثائق اللاتينية هى أيضا، فى العهد المؤرخ، أن الزنوج كانوا متواجدين فى كافة أنحاء شمال إفريقيا:

«لقد ترك المؤرخون اللاتينيون لنا بيانات حول الشعوب ولكنها فى الكثير من الأحوال أسماء لا تعنى الكثير بالنسبة لنا.

«بيد أننا نستطيع أن نستخلص منها على الأقل أنه كان هناك عدد كبير من السكان الزنوج،

(*) يلاحظ ماسبيرو أن ذلك الافتراض تبناه بعض علماء الطبيعة وعلماء أصل الجنس البشرى، ومنهم: هارتمان، ومورتون، وهامى، وسيورجى.

الأثيوبيين الذين تكلم عنهم هيرودوت، يتمثل خلفهم فى حراتى جبال الأطلس العليا المغربية» (فوررون، *المرجع السابق*، ص ٣٧١).

ويثبت هذا التنويه أنه يوجد حتى الآن زنوج فى تلك المنطقة.

والحضارة الوحيدة فيما قبل التاريخ التى تألقت من هناك حتى وصلت إلى مصر، تعود الى زنوج:

«فى ذلك العهد انتشر الزنوج الأوروبياسيون بشكل مباشر فى إفريقيا والشرق، فى حضارة تسمى الحضارة الكابسية (أشبه بالحضارة المجدلية) فى تونس على الأرجح. وقد تقدمت من جهة، نحو شمال إفريقيا واسبانيا وصقلية وجنوب ايطاليا، فنازعت بذلك القوقازيين والموغول حول حوض البحر الأبيض المتوسط، ومن جهة أخرى نحو ليبيا ومصر وفلسطين. ويبدو أنها أخضعت جزئيا لنفوذها الصحراء والسودان ووسط إفريقيا وحتى جنوب أفريقيا.

«وقد نتج عن تلك الحضارة الكابسية ازدهار فنى يشبه برسومه على الصخور تلك التى وصلت إليها أوروبا فى العهد المجدلى.

«غير أن الفن الكابسى يميل إلى التجريد وإلى الإيجاز المبسط للأشكال الذى أصبح على مايبدو أصل الكتابة.

«والواقع أنه لا يوجد اتفاق كامل حول تاريخ تلك الرسوم التى تم العثور عليها فى العديد من مواقع الصحراء حتى جبال الأحجار. فالبعض يرى أنها تعبر عن حضارة كابسية، بينما ينسبها البعض الآخر الى مرحلة متأخرة، ألا وهى العهد الحجرى الجديد». (فوررون، *نفس المرجع*، ص١٤ و ١٥).

«وظهور الكبش الذى يحمل بين قرنيه أسطوانة أو كرة قد يربط تلك الحضارة الصحراوية بالطقوس الدينية المصرية فى مرحلة ما قبل عهد الأسرات. وهكذا نجد أن آمون، الإله - الكبش قد نشأ فى تلك الصحراء التى كان يسكنها آنذاك رعاة يسوقون خرافهم وبقرهم للرعى، حيثما لا توجد هناك اليوم سوى صحراء قاحلة». (*نفس المرجع*، ص ١٥).

وعليه، يثبت فحص الوثائق قيام حضارة زنجية، منذ ما قبل التاريخ، فى نفس الموقع الذى يريدون أن يكون المنطلق الأصلى للحضارة المصرية.

ولما كانت تلك الأحداث قد سبقت المرحلتين الكابسية والمجدلية، فهى تكشف بالأحرى عن غزو زنجى جاء من القارة الاسيوية وامتدادها الأوروبى، واجتاح بذلك العالم.

ولذا فقد كتب ديمولان دى لابلانت، وهو يشير إلى بداية العصر الحجرى القديم :

«وقد انطلقت آنذاك هجرة زنجية من الأصل الهوتانتو، من جنوب القارة الإفريقية ووسطها فاجتاحت شمال إفريقيا: الجزائر وتونس ومصر، وجلبت بالقوة حضارة جديدة، الحضارة الأورينياسية، لمناطق اوروبا الواقعة على البحر الأبيض المتوسط. وهؤلاء البوشمان هم أول من سجل على الصخور رسوما خشنة ونحت تماثيل حجرية لنساء حوامل ضخام البنية ومترهلات. فهل تعود عبادة الخصوبة والربة - الأم فى حوض البحر الأبيض المتوسط الى أولئك الأفارقة؟

«غير أن افتراض غزو زنوج أفارقة لضفتى البحر الأبيض المتوسط يصطدم ببعض الاعتراضات. لماذا عمد هؤلاء القوم إلى الهرب من حرارة الشمس وجاؤوا يسعون الى البرودة؟ وقد يكون من المقبول أن نجد فى فرنسا وايطاليا واسبانيا أدوات ترجع إلى المرحلة الأورينيسية، فى حالة افتراض قدوم هجرة من إفريقيا. ولكن العثور على هذا النوع من الأدوات فى بوهيميا والمانيا وبولندا يجعل هذا الافتراض هشا بقدر أكبر. وأخيرا فقد تم العثور على أدوات اورينياسية فى جاوه وكذلك فى سيبيريا والصين! فإما أن الزنوج اجتاحوا العالم أو أننا يجب أن نفترض قيام «تبادلات ثقافية» بين مختلف شعوب الكرة الأرضية» (*التاريخ العام المتزامن*، باريس، ١٩٤٧، ص١٣).

ويتبنى فورون، إزاء نفس تلك الأدلة الأثرية، فكرة عبادة الخصوبة لكى لا يتوصل إلى نفس الاستنتاجات:

« ولما كانت جميع تلك التماثيل الصغيرة تبدو «عائلية»، فإنه يتعين التسليم بفكرة عبادة الخصوبة، لأنه لا يعقل أن يكون أناس من هذا الجنس الزنجى ذى النساء المفرطات البدانة قد استقروا جميعا فى فرنسا وايطاليا وسيبيريا». (فورون، *موجز لآثار ماقبل التاريخ*، ص١٥١).

والواقع أن التسليم بعبادة الخصوبة يعنى القبول بفرضية الغزو الزنجى، الذى تؤكده فضلا عن ذلك الجماجم أورينياسية والهياكل البشرية للجنس الجريمالدى.

ويقر عدد متزايد باستمرار من العلماء بدور إفريقيا الحضارى، حتى منذ مرحلة ما قبل التاريخ.

«ومن جهة أخرى، يبدو من المحتمل أكثر فأكثر أن إفريقيا عرفت منذ مئات الآلاف من السنين فى عهد الحجر المقصوب، مراحل تحضر بدائية يمكن أن تقارن بشبيهتها فى أوروبا وآسيا، وأنها كانت أيضا منبع عديد من تلك الحضارات التى امتدت شمالا فى تلك البلاد الكلاسيكية». (الأب بروس «جنوب إفريقيا، هل هى مهد الإنسان؟ - *مجلة الاخبار الادبية*، عدد ١٩٥١/٤/٥).

ويذهب رأى هذا العالم الكبير إلى أبعد من ذلك. ويتضح أكثر فأكثر أن البشرية نشأت فى إفريقيا. فقد تم العثور حتى الآن فى جنوب إفريقيا على أكبر مخزون من العظام البشرية. ومع أن هذا البلد لم يحظ بأكبر قدر من الحفريات، إلا أنه الموقع الوحيد فى العالم الذى تتيح فيه العظام التى تم العثور عليها رسم سلالة الإنسانية منذ أصولها حتى يومنا هذا، بلا انقطاع.

«ومع أن الأمر لا يخص مجال علم الأثريات، إلا أننى سأتحدث أولا عن قضية أصل الجنس البشرى التى تقدمت خطوات كبيرة فى هذا البلد بفضل اكتشافات الدكتور دارت فى تونجز وماكابان، واكتشافات الدكتور بروم فى ستركفونتين، وكرومداى، وشوارتكرانز. فقد تواجد هناك، قبل الإنسان، قردة أشبه بالإنسان تسير على قدمين، ذات أشكال عديدة متنوعة، ولكنها تتضمن صفات بشرية مبكرة، مما يدفع المرء إلى البدء بالاعتقاد بأن النموذج البشرى نشأ هنا. ويشتد أكثر فأكثر اهتمام المتخصصين بتلك الاكتشافات الرائعة التى تتزايد كل شهر تقريبا». (*نفس المرجع السابق*).

وهناك تقريبا اتفاق على أنه لم يكن هناك سوى خشماويات زنجوية حتى العصر الجليدى الرابع. وقد أعلن مؤخرا عالم من جنوب إفريقيا أن الإنسان الأول كان أسود، شديد التخضب وفقا للأدلة التى توجد فى متناول يده. ولم يطرأ التمايز بين ذلك الجنس الزنجوى وتفرعه إلى أجناس متميزة إلا خلال ذلك العصر الجليدى الرابع الذى دام مئة الف عام، وذلك على أثر تأقلم القسم الذى ظل منعزلا أسير الجليد مع بيئته، فغدت فتحات أنفه أضيق، وقلّ خضاب بشرته، وحدقة عينه ...

هناك إذن واقعة واحدة تؤكدها الوثائق فى الأطروحة «الليبية» (الآرية التى ذكرها فونتان)، وهى استخدام الفراعنة الزنوج لهؤلاء البيض الشقر، ذوى العيون الزرقاء والموشومين كمرتزقة. وتلك القبائل التى يقال عنها إنها ليبية، كانت تشكل جحافل همجية فى المنطقة الغربية فى الدلتا، حيث لم يتم الاعتراف تاريخيا بوجودها إلا فى عهد الأسرة الثامنة عشرة.

وقد اعتبر المصريون القدامى دائما الليبيين همجاً حقيقيين، تَحَضُّرهم مستعصى. وكانوا حريصيين على ألا يختلطوا معهم، ويتفضلون على أقصى تقدير بقبولهم كمرتزقة. كما أنهم لم يكفوا أبدا عن إبعادهم عن حدودهم عن طريق الحملات الدائمة، ولم ينتشر الليبيون النصف مستأنسين فى مصر تدريجيا إلا فى العصور المتأخرة حيث استقروا فى منطقة الدلتا.

ويدلنا الوصف الذى قدمه هيرودوت عن الليبيين حتى نهاية التاريخ المصرى القديم على أنهم ظلوا فى المرتبة الأخيرة من الحضارة وأن تعبير التحضر -أيا كان المعنى العريض الذى يمكن أن يضفى عليه- ما كان يمكن تطبيقه بخصوصهم. وقد كتب أبو التاريخ يقول بخصوص قبيلة الادرياشيد الليبية : «ويطوق نساؤهم كل ساق بحلقة من النحاس، ويتركن شعورهن تسترسل، وإذا قرضتهن قملة فإنهن يأخذنها ويقضمنها بدورهن ثم يلقين بها بعد ذلك».

ولا يسع المرء إذن إلا أن يبدى دهشته إزاء المحاولات التى تبذل لإسناد الحضارة المصرية إلى الليبيين.

وقد حاولوا، بناء على ذلك الافتراض، عقد تقارب بين اللغة البربرية واللغة المصرية بدعوى أن البربر من سلالة الليبيين. بيد أن اللغة البربرية عجيبة الشأن إذ يمكن إيجاد تقارب بينها وبين كافة أنواع اللغات :

«فمن جهة، لوحظت بعض الصلات بين لغة البربر ولغات الغال والكلتيين والكيمريس. ولكن البربر يستخدمون نفس القدر من الكلمات المصرية والأفريقية، ولذا فإنها تصبح لغة هندو-أوروبية أو آسيوية أو إفريقية حسب وجهة النظر التى يتم تبنيها. والواقع أن اللغات الليبية افريقية المنشأ، وقد أتى الليجور والسيكول، الذين قدموا إلى أوروبا من شمال إفريقيا، أتوا على الأرجح بلسان إفريقى تمثله لغة الباسك، من بين لغات أخرى». (فونتان، *المرجع المذكور آنفا*، ص٦٠، ٦١).

وينطبق نفس الأمر على قواعد اللغة البربرية. ويتجنب المتخصصون فى هذه اللغة تأييد القرابة بين لغة البربر ولغة المصريين.

وذلك هو موقف الأستاذ باسيه الذى يود أن تُقدم وقائع قاطعة لكى تكون الفرضية الحامية - السامية (وبالأخص القرابة بين اللغتين البربرية والمصرية) مقبولة.

ومن المعروف أن كلا من اللغتين تعبر عن المؤنث بإضافة حرف التاء إلى الاسم.

ولكن من المعروف أيضا أن الأمر ينطبق كذلك على اللغة العربية. وبناء على ما نعرف عن العرب والبربر، فإن بوسعنا أن نتساءل مع اميلينو، لماذا لا يتعلق الأمر بتأثير عكسى، نظرا لأنه يتفق مع العلاقة التاريخية بين هاتين الأمتين.

وليس ذلك كل ما فى الأمر، إذ يتضح من البحث أن الاسماء المؤنثة فى اللغة الألمانية تنتهى أساسا بحرف التاء أو حرفى السين والتاء. فهل يعنى ذلك أن البربر تأثروا بالجرمان أو العكس بالعكس؟ وهذا الافتراض معقول مقدما إلى حد ما لأنه من المعروف أن القبائل الجرمانية تدفقت فى القرن الخامس (سنة ٤٢٩) على شمال إفريقيا عن طريق اسبانيا وأقامت امبراطورية حكمتها طوال ٤٠٠ سنة. (چنسريك: انظر هاردى، *تاريخ إفريقيا*، ص ٢٨ و ٢٩).

ومنذ هذا الغزو، امتزج الفاندال، الذين استقروا فى شمال افريقيا، بأهاليها، وحاول قسم منهم فقط فتح روما بقيادة چنسريك عن طريق صقلية ولكنهم فشلوا فى ذلك.

وفضلا عن ذلك فإن صيغة جمع ٥٠٪ من الأسماء البربرية يتم بإضافة إن [en]، كما هو الحال بالنسبة للأسماء المؤنثة باللغة الألمانية، بينما تنتهى صيغة جمع ٤٠٪ من الأسماء بـ آ [a] على غرار الأسماء المحايدة باللاتينية (*).

ولما كان من المعروف أن الفاندال استولوا على شمال إفريقيا من الرومان، لماذا لم يتجه التفكير إذن نحو البحث عن واقع البربر من هذه الزاوية، سواء فيما يتعلق باللغة أو التركيب الجسدى لهؤلاء السكان: الشعر الأشقر، والعيون الزرقاء ... الخ؟

(*) هذان الشكلان للجمع (إن وآ) كانا موجودين فى اللغة الجرمانية الشمالية.

ولكن ذلك لم يحدث قط: فقد قرر المؤرخون أن الڤاندال لم يكن لهم أى تأثير رغم كل تلك الحقائق، وأن احتلالهم لبلاد البربر ليس مبررا لتفسير أى شئ فيها.

وعلى الرغم من أن الڤاندال كانوا همجاً وأن إدارتهم لم تكن على مايرام، فإن تعدادهم ومركزهم كغزاة لا يمكن أن يدفع إلى الاعتقاد بأنهم تخلوا تلقائيا عن لغتهم ليتبنوا لغة البلاد، ولا يوجد أى نص لاتينى يؤكد ذلك. وعادة ما تكون العلاقات الاجتماعية معقدة أكثر من ذلك، فينعكس التعقد فى المجال اللغوى. وهكذا فإن اللغة التى تختفى تؤثر على اللغة المنتصرة بإدخال تحولات فيها بحيث لا تعود أبدا كما كانت من قبل(*).

وعليه، يتعذر على المرء أن يتخيل أن البربر الحاليين معصومون من أى تأثير ڤندالى، كما أنه يتعذر إلى حد أكبر أن نتصور أن البربر الحاليين ليسوا من سلالة الڤاندال، خاصة عندما تكون عيونهم زرقاء وشعورهم شقراء.

والنصوص التى جاءت فى مقدمة ابن خلدون حول البربر لا يمكن إلا أن تكون حجة فى هذا الخصوص(**).

ومما قد يؤكد افتراض الأصل الڤاندالى، أن البربر لم يكن لهم أى وجود فى مصر، وأن عددهم ضئيل فى تونس كما كان يتزايد مع الاتجاه من الشرق نحو الغرب ليبلغ أوجه فى المغرب.

ولا تلفت كافة تلك الوقائع نظر المؤرخين لأنه يتعين مقدما أن يكون البربر من القِدم بما يكفى لتبرير الحضارة المصرية. بيد أن الجمل العشرين حول البربر التى جاءت فى النصوص العربية لا ترجع

(*) كان چنسريك قد احتل شمال إفريقيا، بما فى ذلك الجزائر وطرابلس؛ وكان أسطوله يسيطر على كافة أرجاء البحر الأبيض المتوسط الغربية كما كان يهدد شواطئ اليونان وصقلية وايطاليا. وقد حطم الأساطيل المتحالفة لأمبراطورى الشرق والغرب بالقرب من رأس آذار فى تونس وضم إلى مملكته المعتدة الأطراف أصلا، جزيرتى سردينيا وكورسيكا وجزر البليار. ورأى امبراطور القسطنطينية، زينون، أن من الحكمة أن يعقد الصلح معه ويعترف بكافة فتوحاته. واتخذ چنسريك كافة الإجراءات اللازمة لتسهيل عمليات تعزيز وتنظيم إدارة الأمبراطورية خلفه. (الويس هالفين: *البرابرة*، مطبوعات الكان، ١٩٣٠، ص ٣٧ ، ٣٨).

ومن الصعب أن نتصور إذن أن الڤاندال لم يتركوا أى أثر لهم فى شمال إفريقيا.

(**) يقدم لنا كتاب «طريق السودان» لعبد الرحمن بن عبد الله بن عمران بن امير السعدى معلومات لها أهميتها فيما يتعلق بأصل الطوارق فيقول إنهم المسوفيون وينسبون أنفسهم الى الصنهاجة الذين يُرجعون أصلهم إلى بنى حِمير كما جاء فى كتاب *الحلل الموشية فى ذكر اخبار المراكشية*، وهم بدو رُحل يتوغلون فى الصحارى ولا يستقرون أبدا فى موقع واحد وليست لديهم أى مدن يلجؤون اليها، وتمتد مسيراتهم فى الصحراء حتى شهرين بين بلاد السود وبلاد المسلمين.

وقد قدم الصنهاجة من اليمن ووصلوا إلى الصحراء، وطنهم الحالى فى المغرب. وهم يتنقلون من بلد الى بلد طوال عدة ايام، ويصلون إلى المغرب الاقصى، بلد البربر، حيث يحطون رحالهم كما لو كانوا فى وطن جديد. وقد تقاربت لغتهم مع لغة البربر بعد أن عاشوا وسطهم وارتبطوا بهم عن طريق التزاوج.

إلى أبعد من القرن الثانى عشر، بينما يبدو أن الكتابة التيفينغ [TIFINAGH] والحروف المسماه «الليبية» والتى لم يتم بعد حل رموزها، ترجع إلى تأثير الجالية الفينيقية الزنجية فى قرطاجة، نقلا عن العناصر الأصلية فى البلاد التى تواجدت قبل مجئ الڤاندال.

وعليه فإن ترتيب سكان شمال إفريقيا منذ ما قبل التاريخ حتى أيامنا هذه يكون على الوجه التالى:

- زنوج كرو- مانيون (جنس زال منذ عشرة آلاف سنة).
- زنوج من العصر الكابسى.
- زنوج من العهد الفينيقى.
- هندو- أوروبيون ابتداء من ١٥٠٠ سنة قبل الميلاد، اختلطوا مع الزنوج.
- زنوج فى عهد الرومان، ومن بينهم قسم كبير من المولدين.
- ڤاندال.
- عرب.

ألا يكون من الطبيعى والحال هكذا، أن تنتمى تباعا مفردات لغة البربر إلى اللغات الهندو- أوروبية والسامية والافريقية حسب وجهة النظر المتخذة؟

ويقودنا علم الأثريات المصرية إلى ماسبيرو الذى تناول أصل المصريين على الوجه التالى فى الفصل الأول من كتابه *التاريخ القديم لشعوب الشرق*:

«يبدو أن المصريين فقدوا مبكرا ذكرى أصولهم. هل جاؤوا من وسط إفريقيا أو من داخل آسيا؟ ووفقا لشهادات المؤرخين القدامى شبه الإجماعية، فإنهم ينتمون إلى جنس إفريقى، استقر فى أول الأمر فى أثيوبيا على ضفاف النيل الأوسط، ثم نزحوا تدريجيا باتجاه البحر مع مجرى النهر. ويستند التدليل على ذلك الى أوجه التشابه الواضحة بين عادات وديانة المملكة المَرْوية وعادات وديانة المصريين. ومن المعروف اليوم بشكل قاطع أن أثيوبيا التى عرفها الإغريق لم تستعمر مصر فى بداية التاريخ، بل إن مصر استعمرتها ابتداء من أيام الأسرة الثانية عشرة، وأنها ظلت لعدة قرون ضمن مملكة الفراعنة». (طبعة هاشيت، ١٩١٧، ص١٥، وتعود الطبعة الأولى الى عام ١٨٩٧).
ولنلاحظ قبل أن نواصل عرض أطروحة ماسبيرو، مايبدو أنه قد تم تشويهه فى تلك الجمل الأولى القليلة.

يبدو أنه من غير المقبول أن المصريين نسوا أصلهم. ويظهر أن ماسبيرو خلط بين مفهومين للأصل مختلفين تماما: المهد الأول الذى انطلق منه شعب ما، والأصل العرقى المتعلق بلون الجنس.

والواقع أن المصريين لم ينسوا أبدا ذلك المفهوم الأخير، شأنه فى ذلك شأن المفهوم الأول (*). وقد عبروا عن ذلك فى كافة فنونهم وآدابهم ومناسباتهم الثقافية وتقاليدهم ولغتهم حتى أن بلدهم يشار اليه بالنسبة للونهم هم لا بالنسبة للون الأرض، وذلك بكلمة كميت التى تختلط بكلمة *حام*، أبو الزنوج وفقا للتوراة.

والقول بأن كميت تشير إلى لون أرض مصر، لا إلى البلد قياسا إلى لون بشرة الجنس، يقابله تعبيرا: «إفريقيا السوداء» و«إفريقيا البيضاء»...

ويذكرنا ماسبيرو بشهادة المؤرخين القدامى الإجماعية فيما يتعلق بجنس المصريين، ولكنه يخفى عن عمد نقطة محددة. فنحن نعلم من شهادة القدماء أنهم لم يستخدموا كلمة «جنس إفريقى» الفضفاضة، بل حددوا بدقة فى كل مرة تناولوا فيها الشعب المصرى، بأنه من جنس زنجى، وذلك ابتداء من هيرودوت حتى ديودور.

ويتوالى هنا تطور ذلك التشويه التدريجى للحقائق كما عبرت عنه الكتب التى تتم عن طريقها صياغة الرأى العام المدرسى والجامعى. وتتفاقم خطورة ذلك التشوية نتيجة لضخامة المعارف التى يتعين تحصيلها فى العالم الحديث، حتى أن الأجيال الشابة - فيما عدا المحترفين - لا تجد الوقت لكى ترجع إلى المصادر الأولى وتدرك الفارق بين الحقيقة وما لُقن لها بل إن الميل إلى حد ما إلى الكسل يدفع إلى الاكتفاء بما جاء فى الكتب المدرسية واستخلاص أفكار منمطة منها باعتبارها «مراجع لا يأتيها الباطل».

ولو طبقنا منطق ماسبيرو لرفض آراء ديودور المتعلقة بأسبقية اثيوبيا، لدفعنا ذلك إلى الاستنتاج التالى، وهو أن روما لم تنقل الحضارة أبدا إلى الغال نظرا لأن نابليون فتح ايطاليا وضمها إلى فرنسا فى القرن التاسع عشر، وهو بالطبع خطأ واضح تماما.

ومن جهة أخرى، جاء فى التوراة، أن مصرايم، ابن حام «وأخو كوش الحبشى وكنعان جاء من بلاد مابين النهرين ليستقر هو وأبناؤه على شاطئ النيل». (*المرجع السابق*، ص١٦).

ولا يذكر ماسبيرو فى هذا الصدد أن «حام» ومصرايم وكنعان وكوش جميعهم زنوج حسب ماجاء فى التوراة، ومعنى ذلك مرة أخرى أن مصر (حام ومصرايم) والحبشة (كوش) وفلسطين وفينيقيا قبل اليهود والسوريين (كنعان) والجزيرة قبل العرب (فوط، حويلة، سبا) كان يسكنها جميعا زنوج أقاموا حضارات امتدت آلاف السنوات فى تلك المناطق، وظلت على صلة قرابة فيما بينها.

(*) يقول امهلينو إن المصريين كانوا يطلقون على قلب إفريقيا كلمة *أمانى* التى تعنى بلد الأجداد، ولفظ ماميى معناه الأجداد بلغة الولوف.

ويواصل ماسبيرو قائلا: «ويمثل لوديم (الابن البكر لمصرايم) المصريين بمعنى الكلمة، وهم الروتو والروميتو كما جاء فى النقوش الهيروغليفية. وعناميم (الابن الثانى لمصرايم) يمثل جيدا قبيلة عانو الكبيرة التى أسست مدينتى أون الشمالية (هليوبوليس) وأون الجنوبية (هرمونتيس) فى الأزمنة السابقة على التأريخ.

«ولهابيم (الابن الثالث لمصرايم) يمثل شعب الليبيين الذين عاشوا غرب النيل، واستقر نفتوحيم (نو - بتاح، الابن الرابع) فى دلتا النيل، شمال ممفيس، وأخيرا، أقام فتروسيم (باتوروزى، أرض الجنوب) فى الصعيد الحالى، بين ممفيس والشلال الأول.

«وهذه الأخبار التى جاءت بالمصريين من آسيا عن طريق مضيق السويس، كانت معروفة لدى المؤلفين الكلاسيكيين، إذ أن بلين القديم ينسب إلى بعض العرب تأسيس هليوبوليس، غير أن هذا الرأى لم يحظ أبدا بالرواج الذى تمتع به الرأى القائل بأنهم نزحوا من الهضاب العليا الاثيوبية» (*المرجع السابق، ص*١٦).

وهذه المعلومات التى استقاها ماسبيرو فى مؤلف روجيه: *أبحاث حول الآثار التى يمكن أن تنسب الى الأسرات الست الأولى لمانيتون*، اعتباطية إلى حد ما. وهى تتناقض مع تشخيص الليبيين الذين قيل عنهم إن عيونهم زرقاء وشعورهم شقراء، وهم سلالة لهابيم، ابن مصرايم، وكلاهما من الزنوج.

أما التناقض الآخر فيرجع إلى إيلاء ماسبيرو، على مايبدو، أهمية لأطروحة الأصل الآسيوى للمصريين، وإشارته بهذا الخصوص إلى رأى بلين القديم الذى نسب تأسيس هليوبوليس إلى بعض العرب، علما بأنه نسب إقامتها من قبل إلى قبيلة عانو التى قال عنها إنها سلالة عناميم، ابن مصرايم الزنجى. غير أن احتمال قيام العرب بتأسيس هليوبوليس مستبعد تماما، خاصة وأن ذلك تم، كما يقول المؤلف فى نفس النص، فى الأزمنة «السابقة على التاريخ».

ويوضح لنا ذلك لماذا لم تحظ وجهة نظر بلين بالرواج الذى كان ماسبيرو يرجوه.

ولذا فهو يستطرد قائلا:

«أصبح أصل السكان وخصائصهم المتجانسة مجالا لمناقشات مستفيضة فى أيامنا هذه. فقد خدع مظهر بعض الأقباط المهجنين رحالة القرنين السابع عشر والثامن عشر، فأكدوا أن أسلافهم فى العهود الفرعونية كانت وجوههم منتفخة، وعيونهم فى أعلى الرأس، وأنوفهم فطساء، وشفاهم غليظة، وأن العديد من ملامحهم تعود إلى أصل زنجى. وقد تلاشى هذا الخطأ الدارج بلا رجعة فى بداية هذا القرن، منذ أن نشرت اللجنة الفرنسية مؤلفها الكبير». (*المرجع السابق*، ص ١٦ و ١٧).

ولو قرأ أحد ما قاله ماسبيرو دون أن يكون على دراية بشهادة فولنى وشرحه المتعلق بتأثيرات المناخ التى يمكن أن تشكل وجه مختلف الأجناس، ودون أن يدرك الحرص الشديد من جانب هذا العالم

على تقديم التفسير العلمى والموضوعى ومدى دقة ملاحظاته، لمال هذا القارئ إلى الاعتقاد بكل يسر بأن رحالة القرون المنصرمة قد انساقوا وراء المظاهر ووقعوا فى الخطأ، لو أنه اتكل على مزاعم ماسبيرو.

وإذا أخذنا بعين الاعتبار كل ما تم شرحه حول تغلغل عناصر بيضاء فى مصر تدريجيا - خاصة فى العصر المتأخر وفى الدلتا - فلا يمكن أن يكون ذلك إلا باتجاه البياض لا السواد، بحيث يجعل معالم البيض القدامى ضائعة بالنسبة لمراقبين غير منحازين لوجهة نظر مسبقة.

ولنر كيف تلاشى بلا رجعة ذلك «الخطأ الدارج»، كما يقول ماسبيرو وفقا لما جاء فى «المؤلف الكبير» الذى نشرته «اللجنة الفرنسية» :

«بفحص صور التماثيل والنقوش العديدة التى يحتويها هذا المؤلف، تم الاعتراف بأن الشعب المصور على جدران الآثار، لا يقدم خصائص الزنجى أو مظهره العام، بل يشبه إلى حد كبير الأجناس البيضاء الجميلة فى أوروبا وآسيا الغربية. واليوم، وبعد قرن من البحوث وأعمال التنقيب لم تعد لدينا أية مصاعب فى التطرق، لا إلى معاصرى بسامتيك أو سنوسرت فقط، بل وإلى معاصرى خوفو الذين ساهموا فى بناء الأهرامات.ويكفى لذلك أن يزور المرء متحفا ويفحص التماثيل القديمة الطراز المودعة فيه، إذ يشعر من الوهلة الأولى أن الفنان حرص فى تجسيده للرأس والأطراف أن تكون مشابهة تماما للشخص الماثل أمامه. وبعد أن يستبعد المرء الفروق الخاصة بكل فرد ،فإنه يستخلص بلا عناء السمات العامة لكل جنس ومميزاته الرئيسية. فأحدهم ربعة بطئ الحركة، ويتفق بذلك مع الخواص الغالبة لدى الفلاحين الحاليين. والآخر، الذى كان يميز أعضاء الطبقة العليا، يصور لنا رجلا فارع القامة ونحيفا له أكتاف عريضة، وصدره بارز، وساعده القوى ينتهى بيد رشيقة، وأردافه غير مكتنزة، وساقه متينة والتفاصيل التشريحية للركبة وعضلات سمانة الساق واضحة التكوين، كما هو الحال بالنسبة لأغلب الشعوب المعتمدة على المشى، والأقدام طويلة ورقيقة ومفلطحة فى طرفها نتيجة للاعتياد على السير بلا حذاء، والرأس أقوى فى الكثير من الأحوال من الجسد، ويعبر عادة عن الرقة والحزن الفطرى. والجبين مربع ومنخفض نوعا والأنف قصير ولحيم والعينان واسعتان، والوجنتان مستديرتان والشفاه غليظة دون أن تكون متدلية، والفم العريض إلى حد ما ترتسم عليه ابتسامة مستسلمة تكاد تعبر عن الألم. وهذه السمات المشتركة بين أغلب تماثيل الدولتين القديمة والوسطى، تتواصل فى كل العهود. وآثار الأسرة الثامنة عشرة والتماثيل الصاوية واليونانية، الأقل جمالا بالمقارنة مع تماثيل الأسر القديمة، تنقل الطراز البدائى بلا تغيير ملحوظ. وعلى الرغم من التغير الذى طرأ اليوم على وجوه الطبقات العليا نتيجة للتزاوج المستمر مع الأجانب إلا أن الفلاحين البسطاء احتفظوا فى كل مكان تقريبا بمظهر أسلافهم. والفلاح الذى يتأمل وهو مندهش تماثيل خفرع أو سنوسرت، له سحنة تشبه بعد أكثر من أربع آلاف سنة، سحنة هؤلاء الفراعنة القدامى». (*نفس المرجع*، ص ١٧ و ١٨).

ذلك هو المحور الذى يرتكز عليه ما أراد ماسبيرو أن يثبت. ونحن لم نستبعد أى كلمة منه.

ماذا يؤكد لنا هذا الإثبات؟

وماذا علمنا «المؤلف الكبير»؟

أفادنا المؤلف بأن علم المصريات أصبح علما قديما للغاية، فقد نقب المتخصصون وبحثوا وأصبح نموذج سكان مصر القدامى معروفا لنا الآن بأدق تفاصيله العرقية. فقد جسده الفنان بحيث يكون «مشابها تماما للشخص الماثل أمامه». وبوسعنا أن نتصور تماما أفراد الطبقة العليا بفضل ذلك الفنان. ووفقا لملاحظات ماسبيرو ذاته كان لكل منهم «أنف قصير ولحيم»، و«الفم عريض إلى حد ما»، و«الشفاه غليظة»، و«الوجنتان مستديرتان»، والجبين «منخفض نوعا»، و«الأكتاف عريضة»، و«اليد رشيقة»، و«أردافه غير مكتنزة» و«ساقه متينة».وهذه السمات المشتركة التى استمرت طوال الدولتين القديمة والوسطى «لا تقدم خصائص الزنجى أو مظهره العام، بل تشبه إلى حد كبير الأجناس البيضاء الجميلة فى أوروبا وآسيا الغربية».

ولا يحتاج هذا الاستنتاج إلى تعليق.

فبعد التأكيد العلنى لأطروحة الأصل الزنجى على يد مؤلف كان برهانه يستهدف بالذات دحض هذه الأطروحة، نرى مرة أخرى أن إثبات عكس الحقيقة مستحيل.

وماسبيرو عالم عكف على ترجمة عدة نصوص مصرية، فكانت لديه إذن المعرفة التقنية لتحديد كل ما يمكن إثباته. وفشله، رغم علمه، وفشل العلماء الذين سبقوه وجاوزوا بعده، بخصوص نفس المشكلة، يقدم على نحو ما الدليل السلبى الراسخ تماما حول الأصل الزنجى.

وهنا اتطرق الى أطروحة اميلينو، وهو عالم مصريات كبير، قلما تجرى الإشارة إليه.

فقد قام بأعمال تنقيب فى أم الغاب، على مقربة من أبيدوس (العرابة المدفونة) واكتشف مدافن ملكية أمكنه التعرف فيها على أسماء ستة عشر ملكا حكموا البلاد قبل نعرمر. وقد عثر بالأخص على قبور أربعة ملوك هم: *كا*، و دن والملك الثعبان دجت (لوحة متحف اللوفر)، ولم يتم فك رموز اسم ملك آخر.

وقد جرت محاولات لضم هؤلاء الملوك إلى المرحلة التاريخية، وأفادنا اميلينو بأن :

«السيد ماسبيرو أراد أن ينسب هؤلاء الملوك إلى الأسرة الثانية عشرة، وذلك فى جلسة أكاديمية المسجلات والآداب ... ثم ... نسبهم إلى الأسرة الثامنة عشرة... ثم الخامسة ... ثم الرابعة ...». (*حفريات جديدة فى ابيدوس*، باريس، الناشر ليرو، ١٨٩٩، ص ٢٤٨).

وقد استنتج اميلينو، بعد أن فند مرة أخرى وجهة نظر مناوئية أن:

«وتلك أسباب يبدو لى أنه لا يصح الاستخفاف بها، بل تتراءى لى جديرة، على العكس، بأن توضع فى عين الاعتبار بكل جدية من جانب كافة العلماء الصادقى النية، لأن الآخرين لا يعنونني». (*المرجع السابق*، ص ٢٧١).

ويعود إلى اميلينو أكتشاف مقبرة أوزيريس فى العرابة المدفونة، وهو الاكتشاف الذى تبين منه أن أوزيريس لم يكن بطلا خرافيا بل شخصية تاريخية وسلفا أول للفراعنة، وهو سلف زنجى، هو وشقيقته ايزيس.

وهكذا يمكننا أن نفهم لماذا صور المصريون آلهتهم دائما بالأسود الفاحم وفقا لجنسهم، منذ بداية تاريخهم حتى نهايته. إنها لمفارقة لا يمكن أن نفهمها أبدا، وهى ألا يلجأ شعب من جنس أبيض إلى تصوير آلهته باللون الأبيض، وأن يختار، على العكس، لون الزنوج لتصوير أقدس الكائنات لديه، وهو لون ايزيس وأوزيريس على الآثار المصرية. وتكشف هذه الحقيقة عن أحد تناقضات الحديثين عندما راحوا يفرضون عقيدة لا تقبل المناقشة مفادها أن الحضارة المصرية من صنع جنس أبيض، وأن جنسا آخر زنجيا كان يعيش إلى جواره مستعبدا. أما أن يتم اختيار لون العبيد لتصوير الآلهة، بدلا من لون الأسياد ومؤسسى الحضارة، فهذا ما لا يمكن قبوله، وهو يتعارض مع أى تفكير منطقى حريص على الموضوعية.

وعلى العكس، فإن الوقائع فى مجموعها - بدءا بأهمها وحتى أبسطها - تشهد بلا أى تناقض لصالح أطروحة مصر الزنجية التى أنشأت الحضارة فى العالم، هذا إذا لم تفسر تلك الوقائع جزئيا. وهكذا توصل اميلينو بعد حفرياته الواسعة النطاق ودراساته المتعمقة حول المجتمع المصرى، إلى الاستنتاجات التالية الهامة للغاية بالنسبة لتاريخ البشرية:

«وقد أمكننى أن استخلص من مختلف الأساطير المصرية أن السكان المستقرين فى وادى النيل كانوا من الجنس الزنجى، إذ قيل إن الربة ايزيس ولدت فى شكل امرأة حمراء وسوداء»، أى كما شرحت من قبل، بلون القهوة الممزوجة بالحليب التى نجدها عند بعض الأفراد من الجنس الزنجى، والذين يبدو أن بشرتهم بها لمعة «معدنية نحاسية». (*تمهيدات لدراسة الديانة المصرية*، الجزء الثانى، الناشر ليرو، ١٩١٦، ص ١٢٤).

ويشير اميلينو إلى الجنس الزنجى الأول الذى سكن مصر تحت اسم آنو، ويبين أنه راح ينحدر تدريجيا مع النيل فأسس مدن اسنا وارمنت وقوص وهليوبوليس(اون)، وهو يقول بهذا الصدد:

«تحمل كافة تلك المدن العلامة المميزة التى تستخدم لكتابة اسم الآنو، وهى تمثل سهما مزودا فى طرفه الأسفل بريشتين. كما أن صفة آنو المنسوبة إلى أوزيريس يجب أن تفسر بمغزاها العرقى. ففى مقدمة تمهد للأناشيد الموجهة إلى رع وتتضمن الفصل الخامس عشر من كتاب الموتى، جاء فيما يتعلق

بأوزيريس: «سلام عليك! يارب آنو فى بلاد أنتن الجبلية، أيها الإله العظيم، ياصقر الجبل الشمسى المزدوج».

«وإذا كان أوزيريس من أصل نوبى، رغم أنه ولد فى طيبه، لكان من السهل أن نفهم لماذا دار الصراع بين حورس وست فى النوبة. وعلى أية حال فإن ما يلفت النظر حقا أن الربة ايزيس كان لونها حسب الأسطورة نفس لون بشرة النوبيين حتى الآن، وأن النعت المنسوب إلى الإله أوزيريس يبدو نعتا عرقيا يشير إلى أصله النوبى، وهى ملاحظة يبدو لى أنها لم ترد من قبل». (*نفس المرجع*، ص ١٢٤ و ١٢٥).

وهؤلاء الآنو الذين أراد ماسبيرو أن يجعلهم عربا لأنهم أسسوا مدينة اون – هليوبوليس باليونانية – مدينة آنو فى الشمال، يبدون إذن بالأساس، زنوجا لو أننا استشهدنا فى ذلك بما دونوه بأنفسهم فى كتاب الموتى، وغيره من النصوص...

وتأييدا لأطروحة اميلينو، بوسعنا أن نشير الى أن كلمة *آن* تعنى إنسانا بلغة الديولا (لغة نيجرو-كونغولية يستخدمها فى السنغال وجامبيا حوالى ٢٠٠ الف من الديولا). وهكذا فإن آنو قد تعنى أصلا وبكل بساطة:الناس.

ويمكننا أن نورد أيضا التوافقات التالية:

– *آنى*، اسم شعب فى كوت ديفوار (يحمل ملوكه لقب آمون).

– *أونى*، لقب ملك نيجيريا.

– *آنى* أو *أونى* نعت أوزيريس، إله المصريين.

ووفقا لأميلينو، فإن هذا الجنس الزنجى الآنو هو الذى أوجد منذ عهود ما قبل التاريخ كافة عناصر الحضارة المصرية التى ظلت بلا تغييرات هامة حتى نهاية تلك الحضارة. فهؤلاء الزنوج كانوا على مايبدو الأوائل الذين مارسوا الزراعة وقاموا برى وادى النيل وأقاموا السدود واخترعوا العلوم والفنون والكتابة والتقويم. وهم الذين توصلوا إلى نظرية نشأة الكون كما أوردوها فى *كتاب الموتى* الذى تؤكد نصوصه، بلا أى مجال للشك، الطابع الزنجى للجنس الذى جاء بأفكار ذلك الكتاب.

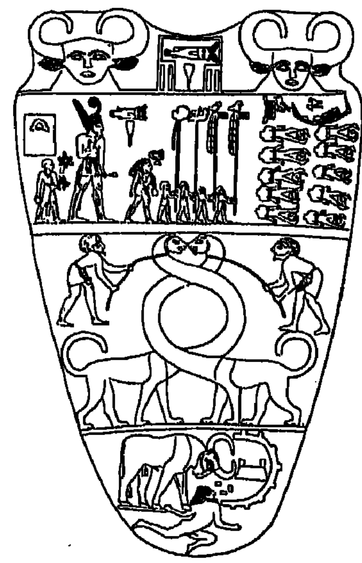
«لقد بينت لنا لوحات القاهرة أن هؤلاء الآنو كانوا شعبا زراعيا، يمارس تربية المواشى على نطاق واسع على امتداد النيل، فى المدن المحصنة التى كان يعتصم فيها للدفاع عن نفسه.. ويمكن أن ننسب إلى هذا الشعب، بلا خوف من الوقوع فى خطأ، أقدم الكتب فى مصر: كتاب الموتى ومتون

الأهرامات، وبالتالى كافة الأساطير والتعاليم الدينية، بل وأقول أيضا كل النظم الفلسفية تقريبا التى كانت معروفة ولا تزال تسمى فلسفات مصرية. وكانوا يعرفون بالطبع الحرف التى لا غنى عنها لكل حضارة وبالتالى الأدوات اللازمة لها، وعليه فقد عالجوا المعادن، وعلى الأقل المعادن الأولية. وقاموا بأولى المحاولات للكتابة، لأن كافة الروايات المصرية تنسب هذا الفن إلى تحوت (هرميس المثلث العَظَمات عند الاغريق) وهو أيضا آنو على غرار الأزيريس، وقد لُقب بالأونى (نسبة إلى أون) فى الفصل الخامس عشر من كتاب الموتى وفى متون الأهرامات. فمن المؤكد إذن أن هذا الشعب كان يعرف الفنون الرئيسية وترك الدليل على ذلك فى الهندسة المعمارية لمقابر ابيدوس، ومنها بالأخص مقبرة أوزيريس. وقد تم العثور فى هذه المقابر على أدوات تحمل علامات لا يمكن أن تنطمس بخصوص أصلها، مثل العاج المنحوت، ومنها ذلك الرأس الصغير لنوبية، وقد تم العثور عليه فى مقبرة مجاورة لمقبرة أوزيريس، والأوانى الصغيرة المنحوتة فى الخشب أو العاج على شكل رأس قط، وجميعها وثائق نُشرت فى المجلد الأول من مؤلفى حول *حفريات ابيدوس*». (*المرجع السابق* ص ٢٥٧ و ٢٥٨).

ويستطرد اميلينو قا ئلا:

" أن الاستنتاج الذى برز من تلك الاعتبارات هو أن شعب الآنو الذى خضع للغزو كان هو نفسه الذى أرشَد الذين غزَوه على الأقل إلى جانب من دروب الحضارة والفن. وكما سيتضح بكل يسر، فإن ما تم استخلاصه هنا يعتبر أهم الاستنتاجات بالنسبة لتاريخ الحضارة الإنسانية، وبالتالى بالنسبة للدين. فالحضارة المصرية، كما يتجلى ذلك بكل وضوح مما جاء آنفا، ليست من أصل أسيوى، بل من أصل إفريقى وزنجى، حتى وإن بدا هذا الزعم مخالفا لما هو شائع. فليس من المعتاد فى الواقع أن يُنسب إلى الجنس الزنجى والأجناس المقاربة له قدر كبير من الذكاء، بل قدر كاف من الذكاء للتوصل إلى الاكتشافات الأولى اللازمة للحضارة. ومع ذلك لا توجد قبيلة واحدة داخل افريقيا لم تمتلك فى الماضى، ولا تزال تمتلك حتى الآن، أحد تلك الاكتشافات الأولى ! ...» (*نفس المرجع*، ص ٣٣٠).

ويفترض اميلينو أن مصر الزنجية التى عرفت الحضارة على يد الآنو تعرضت لغزو جنس أبيض خشن الطباع جاء من داخل إفريقيا وغزا الوادى تدريجيا حتى الوجه البحرى. ويبدو أن هذا الجنس الأبيض عديم الثقافة عرف الحضارة على يد جنس الآنو الزنجى مع أنه قضى عليه إلى حد كبير. ويعتمد المؤلف فى ذلك على تحليل المشاهد الواردة فى لوحة نعرمر التى اكتشفها كيبل فى هيراكومبوليس (الكاب) (الرسم رقم ٣٧ والصورتان ٣٨ ا و٣٨ ب). وهناك إجماع اليوم على أن




٣٧- لوحة نعرمر

يشير اختراع الكتابة وبداية استخدامها الى الخط الفاصل بين ما قبل التاريخ وانتقال البشرية الى العصور التاريخية. وتتضمن لوحة نعرمر رموزا مسجلة سيكون من المفيد للغاية التوصل الى تحديد تاريخها بدقة.

الأسرى ذوى الأنف المعقوف المصورين على لوحة نعرمر هم غزاة آسيويون هزمهم وعاقبهم الفرعون، الذى كانت عاصمته فى ذلك العهد السحيق فى صعيد مصر.

ومما يؤكد هذا التصور أن الأفراد السائرين أمام فرعون والذين يشكلون جزءا من جيشه المنتصر هم من النوبيين، شأنهم شأن شعارى ابن آوى والباشق اللذين يمثلان على مانعتقد طوطم النوبة...

ومن جهة أخرى فإن النتائج التى توصلت إليها الحفريات لا تسمح بالتمسك بفرضية تواجد جنس أبيض فى قلب إفريقيا.

أما ذيل الثور الذى يتمنطقه الفرعون نعرمر فى لوحته وتمَسك به دائما فراعنة مصر وكهنتها، فلا يزال يرتديه حتى الآن فى نيجيريا الزعماء الدينيون فى مثل تلك المناسبات الرسمية. وينطبق نفس الأمر على المئزر الذى يرتديه الفرعون وكذلك على التميمة المعلقة على صدره التى لن تختفى أبدا طوال تاريخ مصر. وهى نفسها التى نجدها على صدر أى زعيم زنجى يتولى مسئوليات، وتسمى بالوكوف *داك*.

ويحمل الخادم فى يده نعل فرعون المماثل *للفرجانتى* عند الزنوج. وهو يسير خلف الملك حاملا إناء، متخذا الوضع الحالى المميز للخادم الزنجى أو *البك* - *نج* (للمقارنة مع الباك،أى الخادم باللغة المصرية القديمة).

ويوحى لنا لجوء الملك الى خلع نعليه بأنه على وشك تقديم القرابين فى محراب مقدس، وأنه يتعين عليه أن يتطهر قبل ذلك بالاغتسال بماء الإناء (سَطْلا بالوُلُوف). ومن المعروف أن المصريين اعتادوا التوضؤ قبل ظهور الإسلام بآلاف السنين.

وهكذا كانت لوحة نعرمر تمثل مشهدا طقوسيا لتقديم الأضاحى بعد إحراز النصر.

وكان تقديم القرابين البشرية لا يزال متبعا حتى عهد قريب فى إفريقيا السوداء:الداهومى (بنين اليوم).

وهناك فوق الضحية مشهد يمثل الصقر حورس حاملا فى يده مايبدو أنه حبل يخترق منخارى رأس مقطوع، مما يرمز إلى استيلاء حورس على روح من قُدِم له قربانا. وتتفق هذه الفكرة مع المعتقدات الزنجية التى تؤمن بأن الروح تخرج من المنخارين، حتى أن الحياة والأنف كلمتان مترادفتان فى لغة الوُلُوف، وكثيرا ما يقال الأنف للإشارة إلى الحياة...

إلى أى جنس ينتمى الأشخاص المنحوتون على سطح اللوحة هذا الذى أعتبره أنا وجه اللوحة على الأرجح لا ظهرها كما هو شائع؟

أعتقد أنهم ينتمون جميعا الى نفس الجنس الزنجى، فشفاه الملك غليظة بل ومتدلية نوعا، ووقفته الجانبية تبرز أنفه اللحيم، وينطبق نفس الأمر على كافة الأشخاص الآخرين على وجه اللوحة، بما فى ذلك المهزومين الهاربين الواردين فى أسفل المشهد. ويضع هؤلاء على رؤوسهم شعوراً مستعارة، شأنهم شأن الضحية التى سيتم ذبحها. وهذا الشعر المستعار المتدرج، لا يزال موجودا حتى الآن فى إفريقيا السوداء وتستخدمه الفتيات ويسمى *الدجمبى*. وشكله المعدل قليلا الذى تضعه النساء المتزوجات يسمى دجريه، وقد اختفى من السنغال منذ حوالى خمس عشرة سنة. كما زال أيضا ذلك التقليد مؤخرا بين الرجال فى ظل الإسلام. ولم يعد المرء يصادف هذا الغطاء للرأس إلا عند السيرير من غير المسلمين، حتى يتم ختانهم، ولدى البول [PEULHS]، وهناك شكل خاص لغطاءات الرأس هذه يسمى *الندجومبال*. وشعور الملك والخادم مختفية تحت قلنسوتيهما، ولكن من المعروف أن استخدام هذا الشعر المستعار كان دارجا فى مصر وسط كافة طبقات المجتمع. والقلنسوة التى يضعها الملك على رأسه هى تلك التى يستخدمها جميع المختونين فى السنغال، وإن كان هذا التقليد يميل إلى الزوال تحت تأثير الإسلام. وهذه القلنسوة تتكون من حياكة قطعتين معا من النسيج الأبيض البيضاوى الشكل فيما عدا أحد الأطراف لإدخال القلنسوة فى الرأس. وتتم تقوية القلنسوة بهيكل من الخيزران فيتخذ بذلك شكل تاج فرعون صعيد مصر. وعندما يستخدم الرجال الناضجون هذه القلنسوة، لا يكون هناك ذلك الهيكل المصنوع من الخيزران، ويكون الجزء المستطيل أقصر بصفة عامة. وهكذا ظهرت القلنسوة الفريجية التى نقلها الإغريق إلى اوروبا. وقد نشر مارسل جريبول صورا ضوئية لتلك القلنسوات

التى يستخدمها الدوجون (شعب افريقى أسود يبلغ تعداده حوالى ٢٠٠ الف نسمة ويعيش على منحدرات الصخور المتاخمة لمدينة باندياجارا فى مالى).

ويجدر بنا أن نلاحظ هنا أن الملك لا يمسك إلا دبوسا فى يده اليمنى أما يسراه فيقبض بها رأس الضحية. فبوسعنا أن نعتبر إذن الدبوس شعارا لمملكة الصعيد، شأنه فى ذلك شأن التاج الأبيض. وهذا يعنى أن الملك كان فى بداية فتحه لوادى النيل فى المشهد الأول، فى الفترة التى كان يُخضع فيها أناسا من جنسه لسيطرته.

ويبدأ ظهر اللوحة بمشهد نموذجى:فالمهزوم ينتمى إلى مدينة «المقوتين»، كما يتبين من الخط الهيروغليفى الذى أشار اليه اميلينو. وهذه المدينة المحصنة كانت قائمة فى الوجه البحرى ويسكنها جنس مختلف بوضوح تام عن الجنس الزنجى الوارد فى وجه اللوحة: إنه جنس أسيوى أبيض. فشعر المهزوم طويل وطبيعى وبلا تدرجات، وأنفه مفرط الطول ومعقوف، وشفاهه منحسرة للغاية. وبعبارة مختصرة، فإن السمات العرقية للجنس الوارد فى ظهر اللوحة مختلف تماما عن الجنس الوارد فى وجهها، ومن الواضح تماما أنه الجنس الوحيد فى هذه اللوحة المتميز بسماته السامية (الرسمان رقم ٣٧ و٣٨).

وعلى أثر ذلك النصر الثانى، تم على ما يبدو توحيد وجهى مصر القبلى والبحرى، وهذا ما يرمز إليه المشهد الذى يحتل وسط ظهر اللوحة: إنه التماثل بين الحيوانين السنوريين المزود كل منهما برأس أسد ضار على وشك الاصطدام كل منهما بالآخر، ولكنهما أصبحا عاجزين عن إلحاق الضرر ببعضهما بواسطة الحبال الملتفة حول عنقيهما، والتى يمسك بها شخصان متماثلان يرمزان إلى ذلك التوحيد وفقا لتصوير مميز عموما لكل من المصريين والزنوج.

وفى المشهد العلوى يضع الملك على رأسه تاج الوجه البحرى مما يعنى أنه قام بفتحه. فقد أنهى فرعون إذن المرحلة الثانية من فتح وادى النيل، وهو يمسك فى يديه ما يمكننا أن نعتبرهما شعارى الوجهين البحرى والقبلى. وهنا أيضا خلع فرعون نعله الذى يحمله الخادم الساتر خلفه، كما هو الحال فى مشهد وجه اللوحة،ومعه أيضا نفس الإناء. وعليه بوسعنا الاعتقاد بأننا بصدد مكان مقدس وأنه تم تقديم الضحايا كقرابين وفقا للطقوس، ولم يجر قتلهم.

وهناك أمام الملك خمسة أشخاص، من بينهم أربعة يحملون أعلاما فى أطرافها طواطم. والطواطم الثلاثة الأولى تنتمى بكل وضوح إلى صعيد مصر: الباشق وابن آوى ... والطوطم الأخير لا يمثل حيوانا بل شيئا غير معروف كنهه، وقد يكون على الأرجح رمز الوجه البحرى الذى تم فتحه أخيرا.

وجميع تلك الأسباب مجتمعة تجعل تفسير اميلينو لهذه اللوحة غير مقبول. فوجهة النظر التى تقول إن جميع الأسرى فى اللوحة من الأسيويين تبدو تعميما لم يأخذ فى عين الاعتبار تفاصيل



٣٨ - لوحة نعرمر

صورة لوجه اللوحة (انظر ص ١٠٤ والصفحات التالية)



٣٨ (ب) لوحة نعرمر
صورة لظهر اللوحة (انظر ص ١٠٤ والصفحات التالية)

اللوحة، كما أن وجهة نظر اميلينو التى تعتبر كافة المهزومين من النوبيين تبدو هى أيضا خاطئة. وربما انساق اميلينو وراء واقع ما ورد فى وجه اللوحة، وهو أن المهزومين هنا نوبيون حقا فلم يلحظ الفارق العرقى بين هؤلاء والمهزوم الوارد فى ظهر اللوحة الذى يسحقه الثور. فوفقا لرسم اميلينو نفسه فإن شعر هذ المهزوم ليس مصفوفا كشعر النوبيين فى وجه اللوحة، كما أن هؤلاء ليست لهم الملامح العرقية الأخرى التى تم التنويه بها. ولعل إغفاله تلك التفاصيل - عن حسن نية - هو الذى دفعه إلى الاعتقاد بأن الأمر يتعلق بغزو جنس أبيض عديم الثقافة جاء من وسط إفريقيا واحتل الوادى الذى كان يسكنه شعب زنجى صرف من الأنو.

والواقع أنه حتى لو كانت قد تمت تغلغلات لأسيويين أو أوروبيين بدائيين فى مرحلة ما قبل التاريخ هذه، فإن زنوج مصر كانوا دائما متمكنين من الأوضاع آنذاك، كما يدل على ذلك العديد من التماثيل العمرية الصغيرة (نسبة إلى حضارة العمرى بإسم امين العمرى الذى كشف عنها بالاشتراك مع الاب بوفييه لاپيير) التى تم العثور عليها، فهى تصور جنسا أجنبيا مهزوما. وقد أورد ج.كاپارقيقب فى كتابه *بدايات الفن فى مصر* (الناشر فرومون، ١٩٠٤) صورة لتمثال يمثل أسيرا من الجنس الأبيض راكعا ويداه موثوقتان وراء ظهره، تتدلى على قفاه ضفيرة طويلة.

وقد تم العثور أيضا على مايشبه الأعمدة الممثلة لأشخاص من الجنس الأبيض المهزوم فى شكل سيقان لأثاث. (انظر: *تمهيدات لدراسة الديانة المصرية*، ص ٤١٣).

وعلى النقيض من ذلك نجد الزنوج مصورين كمواطنين يتجولون بكل حرية فى بلادهم:

«ونرى أربع نساء يرتدين تنورات طويلة ويشبهن تلك الزنجيات اللاتى ظلت تُصور فى مقابر الأسرة الثامنة عشرة، وبالأخص فى مقبرة رخمرع. فعلى الرغم من مظهرهن المتواضع للغاية إلا أنهن يحملن شيئا رأى البعض فيه أذن بقرة (!). وأنا أميل إلى الاعتقاد بأننا بصدد المظهر الأول للصليب ذى العروة، وهو الرمز الذى سرعان ما دخل علم الدلالات المصرى ولم يبرحه بعد ذلك قط. ومن الواضح أن هؤلاء النسوة الزنجيات الأصل لم يكنّ غريبات وسط حيوانات بلدهن، ولذا يثار مرة أخرى السؤال: كيف كان بإمكان مصريى ذلك العصر أن يعرفوا الحيوانات الخاصة بوسط إفريقيا لو كانوا أسيويين أو ساميين وصلوا إلى مصر عن طريق مضيق السويس؟ أليس وجود الحيوانات المذكورة أعلاه والزنوج على قطع العاج التى وصفتها منذ قليل دليلا مقنعا على أن فاتحى مصر جاءوا من وسط إفريقيا ؟ ». (*نفس المرجع*، ص ٤٢٥ و ٤٢٦).

يتضح لنا إذن أن أقدم الوثائق التاريخية التى نملكها حول تاريخ مصر والعالم تصور الزنوج، على عكس الأفكار الشائعة، كمواطنين أحرار أسياد بلادهم والطبيعة، وتأتى بعدهم بعض النماذج الأولى للجنس الأبيض كما كان معروفا آنذاك، من خلال تسرب عناصر أوروبية بدائية أو آسيوية،

وقد تمثلوا كأسرى، أيديهم مقيدة وراء ظهورهم، أو كأفراد ينوون تحت ثقل الأثاث الذى يرفعونه (وهم يشكلون بهذه المناسبة الأصل البعيد للأعمدة المثلة لأشخاص فى معبد الإرخثيون فى القرن الخامس قبل الميلاد، والتى اقتبسها الإغريق بعد ذلك بآلاف السنوات).

هل كانت نشأة الحضارة المصرية فى الدلتا ممكنة؟

يعرض المتخصصون أربعة افتراضات لتفسير إعمار مصر بالسكان وحضارتها. وتتفق تلك الافتراضات مع الجهات الأربع الأصلية، علما بأن الأصل المحلى لسكانها، الذى قد يبدو طبيعيا، يواجه أشد الاعتراضات. ويمكن تحديد الأصل المحلى فى جهتين مختلفتين: الصعيد أو الوجه البحرى. وفى الحالة الأخيرة نكون بصدد ما يسمى «رجحان كفة الدلتا».

ولنا أن نتساءل عن الدافع الذى يدعو متخصصا فى علم المصريات، نصيرا للأصل المحلى، إلى بذل جهود مضنية لمحاولة إثبات «رجحان كفة الدلتا» على الرغم من عدم توفر أى وثيقة تاريخية، اللهم إلا عن طريق ملتو، لإثبات أن الحضارة المصرية تنتمى أصلا إلى جنس أبيض من حوض البحر الأبيض المتوسط.

وتلك هى وجهة النظر التى يتبناها عموما كل من يعتبرون أن مهد الحضارة المصرية كان فى الخارج - إما آسيا أو أوروبا. وهى أيضا وجهة نظر موريه الذى يبدو ظاهريا أنه من أنصار الأصل المحلى، ولكن على أساس أنه أبيض.

والفكرة فى حد ذاتها منطقية بالنسبة للفريق الأول، إنها تأكيد يضاف إلى تأكيد آخر، يعوزه هو أيضا الأساس التاريخى، ولكنه حريص على تقديم تفسير منطقى. فلو أن أصحاب هذه الحضارة جاءوا من الخارج - من آسيا أو أوروبا - وإذا كانوا مضطرين من الناحية الجغرافية إلى المرور بالدلتا، فمن المنطقى أن تكون الدلتا قد تحضرت قبل الصعيد، وأن تكون الحضارة قد انتشرت من هذه المنطقة. ولو أن أنصار المصدر الخارجى للحضارة المصرية تمكنوا من إثبات أسبقية الدلتا فى طريق التحضر، بالاستناد إلى حجج قوية تؤيد أطروحتهم لاصطبغت أفكارهم المتناقضة بما قد يبدو حقيقة.

والواقع أن الأمر لا يقتصر فقط على استحالة البرهنة على تلك الأطروحة، بل وأيضا استحالة إضفاء طابع الجدية عليها بتقديم وثائق تاريخية ذات وزن. ولا توجد أى وثيقة تقف فى صف تلك الأسبقية. فقد تم العثور فى صعيد مصر، منذ العصر الحجرى القديم حتى أيامنا هذه، على دلائل مادية للمراحل المتتالية للحضارات: حضارة دير تاسا، والبدارى، والعمرية، وحضارات عصر ما قبل الأسرات.

ولا يوجد أى أثر لتطور متواصل فى الدلتا، على نقيض الصعيد. فقد اختفى مركز مرمدة فى نهاية عصر دير تاسا، ولا يوجد أى شئ شمال البدارى (انظر ف. جوردون تشايلد: *الشرق فيما قبل التاريخ*، باريس، الناشر بايو، ١٩٣٥، من ص ٨٧ الى ص ٩٨).

والتماثيل العاجية الصغيرة ذات الرأس المثلث، والتى تواجدت فى عصر جرزّة (وتسمى الحضارة الوسطى لما قبل الأسرات) تتفق مع تلك التى تواجدت فى جزيرة كريت فى عهد نعرمر. (كاپار، *بدايات الفن فى مصر*). وهذه التماثيل العاجية الصغيرة لا يمكن أن تكون سابقة على عهد هيراكومبوليس (الكاب) (حضارة العمرى فى رأى كاپار).

لقد قرروا أن حضارة جرزّة فى الوجه البحرى تواجدت بين رقمى ٣٩و ٧٩ (*) :

«وأخيرا أصبح الوجه البحرى موطن حضارة أرقى، ذات انتساب آسيوى واضح تماما (بمعنى تعارضها مع التقارب الإفريقى)، وامتدت هذه الحضارة أخيرا إلى صعيد مصر. والواقع أن هذه الحضارة لم تُعرف بشكل مباشر إلا من خلال تلك المنطقة (أى الصعيد)، ولكن يمكن التأكيد بكل ارتياح أنها تواجدت فى الشمال. ففى صعيد مصر لا يوجد انقطاع... بين حضارة العمرى وحضارة جرزه ... التى تغلغت تدريجيا واختلطت مع العناصر الأقدم، مع السيطرة عليها فى الوقت نفسه...الى حد استعبادها» (جوردون تشايلد، *المرجع السابق*، ص٨٧).

«ومن المعترف به عموما أن العناصر الجديدة المميزة لثقافة الصعيد فى المرحلة المتوسطة من عصر ما قبل الأسرات، جاءت من الشمال أو الشمال الشرقى. كما أنه أصبح من المؤكد تقريبا أن أصحاب تلك الابتكارات كانوا على اتصال بالنيل الأعلى طوال فترة كبيرة للغاية سابقة على الرقم ٣٩، لأن الأوانى الملونة المعزولة وجدت طريقها نحو الصعيد». (*المرجع السابق*، ص ٩٨).

وحضارة جرزة هذه، التى يقال عنها إنها ذات طابع أسيوى، وأنها نشأت فى الوجه البحرى، لم تُعرف - وتلك هى قمة المفارقة - إلا من خلال الآثار التى تم العثور عليها فى صعيد مصر (وهى آثار مماثلة لآثار حضارة العمرى التى نشأت هى نفسها من تطور حضارة البدارى المنحدرة من حضارة ديرتاسا).

وهكذا، فعلى الرغم من عدم العثور على أى أثر لحضارة جرزه فى الشمال، وعلى الرغم من أن هذه الحضارة «لم تُعرف بشكل مباشر» إلا من خلال الصعيد، فإنه «يمكن التأكيد بكل ارتياح أنها

(*) من خلال فحص جبانات ديوسبوليس پارفا (الهو - بالقرب من نجع حمادى) رأى سير وليم بترى أنه بالإمكان ترتيب الآثار التى وجدت داخلها - وبالأخص الآنية الفخارية - ترتيبا زمنيا، وتقسيمها إلى مراحل متتابعة من القديم إلى الحديث، باستخدام أرقام متتالية من ١ الى ١٠٠، تدخل فى نطاقها كل العصور الحضارية التى عرفتها مصر.

تواجدت فى الشمال»،أى فى الدلتا. وبعبارة أوضح فإن ذلك يعنى أن أقول: «كل ما أعثر عليه هنا (فى الصعيد) جاء من حيث لم أعثر على شئ،أو على أى شئ تقريبا (فى الوجه البحرى)؛ وذلك على الرغم من أننى لا أستطيع إثبات ذلك ولا يوجد لدى أمل فى إمكانية إثبات ذلك ذات يوم، وكذلك على الرغم من أننى لم أجد هناك أى شئ تقريبا، إلا أننى أرى أن الأمر جرى على هذا النحو، لأنه لا يمكن أن يكون غير ذلك.

ليس هكذا يكتب للتاريخ.

إنهم يتعللون بأن الدلتا منطقة رطبة لا تحفظ الوثائق بشكل جيد. ولكن من المستحيل أن يصل سوء الحفظ هذا، إلى حد عدم العثور على أى أثر لها، ولو على كتل مشوهة نتيجة لتحللها الكيميائى بتأثير الرطوبة. والواقع أن أرض الوجه البحرى قدمت إلى حد ما كل ما أودع فيها. وتشهد على ذلك الأعمال، حتى الخشبية منها، التى تعود الى أيام الدولة القديمة ابتداء من الأسرة الثالثة. وإذا كانت هذه الأرض لم تعطنا وثائق أقدم من ذلك فمن المنطقى أن يرجع الأمر الى عدم تواجدها أصلا.

ولو كانت الدلتا قد قامت حقا بالدور الذى يريدون أن ينسبوه إليها فى تاريخ مصر، لكان من الممكن ملاحظة ذلك بطريقة أخرى. ويقال إن تاريخ صعيد مصر يتضمن ثغرات إذا ما عالجناه بشكل مستقل عن الدلتا. ولكن ذلك ليس صحيحا لأن تاريخ صعيد مصر (أى التاريخ المصرى) لا يثير أى مصاعب لا يمكن التغلب عليها. ولا يصبح التفسير التاريخى مستحيلا إلا عندما تبذل جهود مضنية لإسناد دور للدلتا لم تقم به أبدا، وذلك فى غياب أى وثيقة تاريخية.

وتلك هى حالة موريه على مايبدو عندما كتب يقول:

«إننا لا نعلم شيئا عن تاريخ تلك الممالك القديمة. بيد أن الروايات تقول إن ملوك الشمال كانوا مهيمنين على بقية مصر فى بداية الأزمنة. ولا يوجد أى نص يتيح تحديد منطقة نفوذهم، ولكن ديانة المرحلة اللاحقة تشير إلى أن هذا النفوذ كان قويا. ويرجع ذلك إلى الخصوبة الخاصة التى تتميز بها الدلتا. فبمجرد تهيئتها للزراعة بالتوسع فى إقامة السدود، وشق قنوات الرى والصرف، وفرت هذه المنطقة الخصبة التى يجددها باستمرار غرين النيل، مجالا أوسع، وأرضا مجزية بقدر أكبر، ومسكنا مواتيا لتطور جنس سريع التكاثر، بالمقارنة مع وادى الصعيد الضيق. وهكذا تحقق ازدهار مادى مبكر، ونمو ذهنى أكده توصل آلهة الدلتا الكبار إلى فرض نفوذهم فيما بعد على بقية أنحاء مصر. وقد قامت عبادة الشمس رع أولا فى هليوبوليس؛ وأوزيريس الذى يجسد النيل والزراعة، وايزيس وحورس هم آلهة بوزيريس ومندس وبوتو. وانتشار عبادتهم فى كل أنحاء الوادى منذ الأزمنة الموغلة فى القدم يدل على نفوذ سياسى للدلتا مقابل لذلك». (موريه، *من العشائر إلى الامبراطوريات*، سلسلة تطور البشرية، مطبوعات نهضة الكتاب، ١٩٢٣، ص ١٥٣ و ١٥٤).

وقد استند موريه فى ذلك الى ماسبيرو، ولكنه انفصل عنه فيما يتعلق بالطريق الذى سلكه الشمسو - حور حتى يكون متوافقا تماما مع نظريته حول هيمنة الدلتا.

ففى كتابه :*النيل والحضارة المصرية*، يؤكد موريه أن "الشمسو- حور واسلافهم...جاؤوا من الدلتا" (ص ١١٨) على عكس ماسبيرو الذى يرى أن الشمسو - حور (أسلاف نعرمر) كانوا حدادين- زنوجا فتحوا وادى النيل وأقاموا محارف للحدادة حتى الدلتا.

ويلاحظ المؤلف أن المرحلة التى سبقت نعرمر شهدت تحولا عميقا تميز بظهور النحاس والذهب وبالأخص الكتابة. ولما كان ذلك التحول لم يظهر إلا فى مصر فقد طرح موريه السؤال التالى:

«من الذى أثر على صعيد مصر إن لم يكن الوجه البحرى الذى تطور طوال آلاف السنوات التى تحسب للأسر الإلهية فى الدلتا؟» (*المرجع السابق*، ص١٢٠).

ويذكر موريه اختراع التقويم الذى تم التوصل إليه فى رأيه عند خط عرض ممفيس. وقد أكد المؤلف من جهة أخرى أن أوزيريس وايزيس وحورس ينتمون أصلا إلى الدلتا. وهو يستخدم هذه الحجة، التى يعتقد أنها صحيحة، لصالح فكرته لجعلها مقنعة إلى حد أكبر:

«وهناك أمر آخر يدعم ذلك التدليل. ففى ظل كل العصور القديمة، كانت أيام النسيئ الخمسة المضافة إلى العام المكون من ثلاثمئة يوم، تحت رعاية الآلهة التى ولدت فى أيام النسيئ هذه، وبها تبدأ السنة (انظر بلوتارك). وتتفق النصوص المصرية والإغريقية على أن أسماء هؤلاء الآلهة هم أوزيريس، وايزيس، وست، ونفتيس، وحورس. ولما كان رأس السنة يبدأ بظهور سوتيس (النجم الشعرى اليمانية)، ورع، والنيل، فقد تم اختيار اوزيريس، إله النيل والنبات، راعيا - ومن المفترض أنه ولد فى اليوم الأول من تلك الأيام الخمسة - ولذا فبوسعنا أن نستخلص من ذلك أن عَبَدة أوزيريس كانوا واسعى النفوذ فى هليوبوليس، حتى عندما أنشأ فلكيو هذه المدينة التقويم» (*).

(*) يحكى بلوتارك فى كتاباته عن «*الإيزيس والأوزيريس*» (بصيغة الجمع) أن الإله اوزيريس ولد فى أول الأيام الخمسة، كما كتب موريه، أى فى اليوم الـ ٣٦١، وهو ما يتفق مع يوم ٢٦ ديسمبر، وفقا للتعديل الذى أجرى على التقويم. وقد حدد البابا يوليوس الأول (فى القرن الرابع الميلادى)، مولد المسيح فى ٢٥ ديسمبر، ولكن من المعروف أن المسيح لم يقيد فى سجلات للمواليد وأن تاريخ ميلاده غير معروف. فما الذى أوحى إلى البابا باختيار هذا التوقيت الذى لا يبعد سوى يوم واحد عن تاريخ مولد أوزيريس، إذ لم يكن التقليد المصرى الذى واصله التقويم الرومانى؟ ويصبح ذلك جليا عندما يتم الربط بين مولد المسيح وفكرة شجرة الميلاد: فقد يكون كل ذلك ضربا من التعسف لو أننا لم نكن نعلم أن أوزيريس كان أيضا إله النبات بل إنه كان يُصبغ أحيانا باللون الأخضر على غرار النبات الذى كان يرمز إلى تجدده بعد دفنه فى الأرض.وكان يُرمز إلى أوزيريس بشجرة قطعت فروعها، يتم نصبها للتبشير بعودة الحياة النباتية. لقد كان الأمر يتعلق إذن بأحد الطقوس الزراعية المميزة لمجتمع حضرى.

كان هذا الرمز النباتى لأوزيريس يسمى دجد باللغة المصرية، وتوجد بلغة الولوف كلمات :

دجد : قائم، منتصب، مغروس رأسيا...؛ دجد - دجد - آرال : قائم تماما (تشديد لكلمة دجد)؛ دجان : رأسى؛ دجن : وتد.

ذلك هو إذن الأصل القديم لشجرة عيد الميلاد، ويتضح مرة أخرى، بالتوغل فى الزمن، أن العديد من السمات المميزة للحضارة الغربية والتى لم يعد أصلها معروفا، لا يمكن تفسيرها إلا بربطها بأصلها الزنجى - المصرى.

«وهكذا فرض الوجه البحرى، مع التقويم، سلطان أوزيريس، ورع، وسيادة النيل والشمس، وفتح «متحضرو الدلتا» صعيد مصر» (موريه، *النيل والحضارة المصرية*، ص١٢٢).

وعندما يجد المرء أفكارا مهمة إلى هذا الحد - بل وخطيرة إلى حد ما - صادرة عن حجة، يكون من حقه أن يتصور أنها تعتمد على وثائق دامغة. ولكن هذا لم يحدث من خلال تلك التأكيدات فى مجموعها.

يعتبر المؤلف أن الآلهة المصرية من أصل شمالى، ونقلا للرواية المصرية، وبعبارة أخرى أن أوزيريس، وايزيس، وحورس جميعهم آلهة الدلتا. وقد استخلص على هذا الأساس النتائج الهامة التى أوردها والمتعلقة باختراع التقويم وبأصل الحضارة المصرية بصفة عامة.

ولكن، ماذا تفيدنا الرواية المصرية الصرفة، بالرجوع إلى أقدم المراحل التى يمكننا بلوغها؟ هذه الرواية، الواردة فى كتاب الموتى، القائم على عقيدة سابقة على كل تاريخ مصر المدون، تفيدنا بأن ايزيس زنجية وأن أوزيريس زنجى، أى آنو، حتى أن اسمه فى أقدم النصوص المصرية، مصحوب بنعت عرقى يفيد بأنه من أصل نوبى. ونحن نعرف ذلك عن طريق اميلينو.

وقد أفادنا اميلينو من جهة أخرى بأنه ليس هناك أى نص مصرى يقول إن أوزيريس وايزيس نشآ فى الدلتا. وعليه فإن موريه لا يستند إلى أى نص عندما يقول ذلك. بل إنه بوسعنا أن نضيف أن الأسطورة تقول أن مسقط رأس ايزيس وأوزيريس كان فى صعيد مصر: فقد ولد اوزيريس فى طيبة وولدت ايزيس فى دندره. كما أن الأسطورة تحدد موقع أول مسرح للصراع بين ست وحورس فى النوبة. ويعتقد اميلينو أن:

«أجزاء الأسطورة المتعلقة بالدلتا أضيفت بشكل واضح إلى الأسطورة الأصلية، فيما عدا زيارة ايزيس لبوتو. والواقع أن الفصل الخاص بايزيس فى جبيل (بيبلوس بالاغريقية) لا يتوافق مع إقامة الربة فى بوتو. وفى رأيى أن الأمر لا يعدو إلا أن يكون تأويلا إغريقيا أو شبه إغريقى لتفسير اعتناق عبادة أوزيريس فى جبيل، أو بالأحرى اعتناق الأساطير المشابهة الخاصة ببعض الآلهة المحليين مثل أدونيس وتموز. وعلى أى حال فإن ذلك من النقاط التى لم تشر إليها الوثائق المصرية إطلاقا، كما أن تابوت أوزيريس الذى حمله النيل حتى البحر، ومن البحر إلى جبيل، يبدو لى من المستحيلات الجلية وأنه من العسير أن يكون المصريون قد وقعوا فيها... فالوثائق المصرية لم تنبس ببنت شفة فى هذا الخصوص. غير أننا يجب ألا ننسى أن أسطورة أوزيريس نشأت وترسخت فى مصر قبل عهد نعرمر، فيما عدا الأجزاء المتعلقة بالدلتا وآسيا الصغرى، حتى أنه من العسير أن نتصور أن الأسطورة التى يقال إنها نشأت فى الدلتا قد نمت بالكامل خارجها وتوطد مركزها فى الصعيد، ولم يظهر فيها ما يفيد بعلاقتها بالدلتا، إلا فى الإضافات التى جاءت لاحقا بكل وضوح». (*تمهيدات لدراسة الديانة المصرية*، ص ٢٠٣).

ولو كان أوزيريس وايزيس قد ولدا فى الوجه البحرى لبات من العسير أن نفهم أن الصعيد استأثر بكل مخلفاتهما. فقد حصلت مدن الصعيد على كل عظام أوزيريس ولم يعد هناك أى شئ من تصيب الوجه البحرى. ويستند اميلينو فى هذه النقطة إلى *القاموس الجغرافى* لبروجش، ولكن التنافس بين المدن للحصول على المخلفات تسبب فى إثارة البلبلة حتى بدا من الصعب للوهلة الأولى تحديد المدينة التى تمتلك حقا هذه المخلفات أو تلك، التى تدعى عدة مدن أخرى ملكيتها. ويرى اميلينو أن بوسعه أن يبت فى الأمر بصفة عامة لصالح الصعيد كلما كانت الخصومة بين مدن من الوجه البحرى وأخرى من الصعيد.

« انا لا أؤيد هذا الرأى وأعتقد أن هناك واقعة ترجح كفة الصعيد، وهى تتمثل فى تخصيص رأس أوزيريس للصعيد ولمدينة ابيدوس». (*المرجع السابق*، ص ١٠٤).

وما كان يمكن أن تكون هذه الواقعة مهمة، لو أن اميلينو لم يكتشف مقبرة أوزيريس و كذلك رأس السلف المؤله فى جرة.وقد تثار الشكوك حول ذلك الكشف ولكن اميلينو يقول:

«لقد عثرت شخصيا على غيرها (جرار تحتوى على مخلفات) أثناء عمليات التنقيب التمهيدية التى أفضت إلى المقبرة الملكية، وقبل أن أصادف الجرة التى تم الاحتفاظ فيها بجمجمة الإله الذى يبدو لى أننى وجدتها» (*المرجع السابق*، ص ١٠٤).

ويستند اميلينو بعد ذلك الى بردية متحف ليد التى ذكرها بروجش، وجاء بها صراحة أن رأس الإله أوزيريس محفوظة فى ابيدوس فى مكان أشارت اليه البردية تحت كلمة معناها «مقبرة ابيدوس» بالنسبة للمصريين. وقد طلب اميلينو من أ.ريفيللو التصديق على قيمة هذه الوثيقة المكتوبة بالخط الديموطيقى. وقد أبلغ بالتصديق على أنه قد ذكر فعلا أن رأس أوزيريس موجودة فى ابيدوس. وحصل اكتشاف اميلينو على تصديق آخر فى النص الجغرافى الخاص بإدفو فى قاموس بروجش الذى جاء فيه:

«وقد ذُكر فيه أن رأس الإله موجود فى ذخيرة ابيدوس» (*المرجع السابق*، ص ١٠٥).

غير أن اميلينو يلاحظ:

«لقد اختفى النص منذ أن نقله بروجش، على الأقل إذا ما صدقنا على ما نشر عن معبد ادفو فى بداية مذكرات بعثة القاهرة ... ومن الأمور الجديرة بالاهتمام أن نعرف ما إذا كان هذا النص قد اختفى تماماً». (*المرجع السابق*، ص ١٠٦).

واخيرا يورد اميلينو واقعة أخرى هامة، وهى أن عرش أوزيريس وُصف فى متون الأهرام، تماما كما تم العثور على السرير الجنائزى الذى كان قد أودع فى مقبرته بأبيدوس» (*المرجع السابق*، ص١٠٢).

ثم يتساءل اميلينو، وهو محق فى ذلك:

«ما الذى دفع مدن صعيد مصر إلى الادعاء بأن أهم أجزاء جسم أوزيريس توجد لديها لو أن أوزيريس كان قد نشأ فى الدلتا، وحكمها، ومات فيها، وكان مجرد إله محلى فى مقاطعة صغيرة! لا أرى سببا يدعو لذلك». (*نفس المرجع*، ص ١٠٢).

وسواء اكتشف اميلينو فعلا مقبرة أوزيريس ورأسه، أو لم يكتشفهما، فليس ذلك المهم فى الأمر هنا، ولكن المسألة الأساسية هى ماورد فى النصوص الموجودة فى ابيدوس.

إننا نرى إذن أنه على عكس ما يؤكد موريه، أن الرواية المصرية الأصلية التى ترجع إلى الأزمنة الموغلة فى القدم والمسجلة فى متون الاهرام وكتاب الموتى، تفيدنا بعبارات لا لبس فيها بأن الآلهة المصرية من جنس زنجى وموطنها الأصلى الجنوب. وفضلا عن ذلك توجد فى أسطورة أوزيريس وايزيس سمة ثقافية مميزة لأفريقيا الزنجية، تتعلق بعبادة الأسلاف، التى تشكل أساس الحياة الدينية الزنجية، وكانت أيضا أساس الحياة الدينية المصرية، كما يؤكد ذلك اميلينو.

فكل سلف يموت يصبح محلا للعبادة، وأقدم هؤلاء الأسلاف الذين ثبتت فاعلية تعاليمهم فى الحياة الاجتماعية، أى فى مجال التحضر، يتحولون شيئا فشيئا إلى آلهة حقيقية (الأسلاف الأسطوريون لعالم الاجتماع الفرنسى ليفى - برول). وهكذا ينفصل هؤلاء تماما عن الصعيد البشرى، وإن كان ذلك لا يعنى أنهم لم يعيشوا من قبل. فهم يصبحون آلهة توجد على صعيد آخر مختلف عن صعيد البطل الإغريقى، وهو الأمر الذى دفع هيرودوت إلى الاعتقاد بأن المصريين لم يكن لديهم أبطال.

والحجة التى يسوقها موريه حول اختراع التقويم عند خط عرض ممفيس لا تصمد أمام فحصها عن قرب. يقول المؤلف إنه لا يمكن متابعة شروق الشعرى اليمانية مصحوبا بشروق الشمس إلا عند خط عرض ممفيس. وهو يستخلص من ذلك أن التقويم المصرى الذى يعتمد فى أساسه على دورة هذا النجم (الشعرى اليمانية) والذى يتفق شروقه مع شروق الشمس مرة كل ١٤٦١ سنة قد تم اختراعه فى ممفيس(*).

(*) يريد موريه أن يثبت أن التقويم المصرى تم اختراعه فى هليوبوليس، ولكن الوثائق المتوفرة تؤكد عكس ذلك.

«كان كهنة طيبة مشهورين بتعمقهم فى علم الفلك والفلسفة. وقد جاء استخدام تنظيم الوقت عن طريقهم، لا وفقا لدورة القمر ولكن حسب دورة الشمس، فكانوا يضيفون إلى الشهور الاثنى عشر المكون كل منها من ثلاثين يوما خمسة أيام كل سنة. ولما كان يبقى جزء من اليوم لاستكمال مدة السنة، فقد كانوا يحسبون فترة مكونة من عدد كامل من الأيام لكى يتكون من الأجزاء الزائدة يوما كاملاً (سترابون، الكتاب السابع عشر، الفصل الأول، الفقرة ٢٢ ، ص ٨٦٦).

وهذا الجزء من اليوم (ربع اليوم) يؤدى جمعه إلى إضافة يوم كل أربع سنوات وبالتالى عاما كل ١٤٦٠ سنة ...ومن هنا نشأت فترة الـ ١٤٦١ سنة التى تبدء فى نهايتها السنة المدنية مع السنة الشمسية (دورة الشعرى اليمانية).

غير أن التقويم كان مستخدما فى عام ٤٢٣٦ قبل الميلاد، وهو أقدم تاريخ معروف بشكل مؤكد فى تاريخ البشرية.

وقد أفادنا هيرودوت، من جهة أخرى، بأن نعرمر أنشأ ممفيس بعد أن غير مجرى النهر وجعل تلك المنطقة الموحلة فى الوجه البحرى ملائمة للصحة والسكنى:

«وفقا لما يقوله نفس الكهنة، فقد أنشأ نعرمر، أول الملوك، المدينة المسماة اليوم ممفيس فى عين المكان الذى حول فيه مجرى النهر وجعله أرضا صلبة» (هيرودوت، ٢ ، ٩٩).

وحسب هذه الشهادة، كانت منطقة ممفيس مغطاة بالمياه قبل نعرمر. وإذا كان حكم نعرمر يعود إلى سنة ٣٢٠٠ قبل الميلاد، فإن ذلك يعنى أنه تم اختراع التقويم بينما لم تكن ممفيس قد تواجدت بعد.

وعلى أى حال فإن ما قد يكون مهما بالنسبة لأنصار أسبقية الدلتا هو أن توافق شروق الشعرى اليمانية مع شروق الشمس يمكن مراقبته لا عند خط عرض ممفيس بل هليوبوليس، مدينة رع التى يرى هؤلاء المنظرون أنفسهم أن علم الفلك والتنجيم المصريين نشآ فيها.

وحتى لو كان الأمر كذلك، فإنه يبدو أن هليوبوليس أو أون الشمالية، قد تأسست على يد الأنو وحملت اسمهم.

ومن الممكن إبداء ملاحظات مماثلة فيما يتعلق بالحجة التى ترى أن مصر تحضرت على يد غزاة قدموا من الشمال لأن اللغة المصرية القديمة تشير إلى الغرب باليمين وإلى الشرق باليسار، مما يمكن أن نستنتج منه الدليل على مسيرة باتجاه الجنوب.

وهناك عدة طرق للإشارة إلى الشرق والغرب باللغة المصرية القديمة، ولكن يبدو أننا يجب أن نبحث عن تفسير مثل هذه التصورات فى التوجه الأولى للزوجين جب ونوت، وتوجه شو الذى يفصل بينهما. وهذا أمر مشروع لأنه يوجد عند السيرير اتجاه أصلى يسمى بم روج أى بطن الإله.

ومن جهة أخرى ، كان الفن التأليهى قد أدى إلى تقسيم السماء الى مناطق من أجل الرصد. وقد نجم عن ذلك توجه خاص يطابق جهة أصلية ما مع اليمين أو اليسار. وكان ذلك مطبقا فى مصر وفى منطقة بحر ايجه بحوض البحر الأبيض المتوسط التى وقعت تحت النفوذ المصرى، وبالأخص إتروريا.

والتفسير الذى قدمه تاثيل له وزن كبير:

«من أى بلد جاء الغزاة؟ يبدو لى أنهم أتوا بلا شك من الجنوب. ولو رجعنا إلى الأسطورة، كما هى محفوظة فى سلسلة من اللوحات الكبيرة التى تزين أحد دهاليز معبد ادفو وترجع إلى عهد البطالسة، لوجدنا أن الإله هارمشى كان يحكم النوبة، أى جنوب مصر. وقد انطلق من هناك مع ابنه

حورس، الإله المحارب الذى فتح البلد بأسره حتى مدينة زار، المسماة حاليا القنطرة، وهى قلعة أقيمت على أقصى فرع شرقى للنيل المسمى الفرع البللوزى، وكانت تتصدى لمحاولات الغزو من ناحية شبه جزيرة سيناء وفلسطين. وينظم الفاتحون فى مدن مصر الرئيسية ما يتعلق بالطقوس. وقد أقام رجال حورس هناك وكانوا يسمون الحدادين. وهكذا تم الربط بين بداية معالجة المعدن وأسطورة الفتح ...

«ويبدو لى أن هناك ما يدعو إلى وضع تلك الأسطورة فى عين الاعتبار، فهى تبدو رواية قديمة متداولة تتفق مع ما قاله لنا المؤرخون الإغريق، وهو أن مصر كانت مستوطنة تابعة لاثيوبيا. وهكذا فإن المصريين، أو على الأقل من أصبحوا مصريين فرعونيين، تقدموا بمحاذاة مجرى النهر العظيم. وتؤكد لنا ذلك بعض مميزات الديانة والعادات.فالمصرى يحدد اتجاهه بالتطلع الى الجنوب، ويكون الغرب على يمينه والشرق على يساره. ولا أعتقد أنه يريد أن يقول إنه يتجه نحو الجنوب، فهو يتجه بالأحرى نحو بلده الأصلى، وينظر إلى الاتجاه الذى جاء منه والذى يمكن أن ينتظر منه النجدة. فمن هناك انطلقت القوة الفاتحة، ومن هناك أيضا تأتى مياه النيل الخيرة بالخصوبة والثروة. وإلى جانب ذلك كانت للجنوب الأولوية دائما على الشمال، فكلمة الملك تعنى فى المقام الأول ملك الصعيد، وقبل أن يوحد الملوك نصفى البلد تحت صولجان واحد، كانوا ملوك الجنوب وجزء من مصر الوسطى. ويشير لنا إلههم إلى الطريق الذى سلكوه. والإله الذى يسير فى مقدمتهم يتخذ شكل ابن آوى أو كلب: إنه الإله اوبواتو الذى يرشد إلى الطريق. وهو ليس إلها متوطنا، على الأقل فى العهد الموغل فى القدم. إنه إله يسير فى اتجاه الشمال. و هو قادم من الجنوب، ولا يتجه نحو منبع النهر».(ادوار نافيل: *الأصل الافريقى للحضارة المصرية*؛ مجلة الاثريات، باريس ١٩١٣).

وأخيرا، يهمنا أن نرد على المحاولات المبذولة لتصوير الدلتا على أنها منطقة أكثر مواتاة من صعيد مصر لظهور الحضارة فيها، بأن نشير إلى ما نعرفه حقا عن الدلتا. فمن المعترف به عالميا أن الدلتا كانت بؤرة لانتشار الطاعون فى الشرق الأوسط.

بل إنه بوسعنا أن نؤكد دونما قدر كبير من الجسارة أن الدلتا لم تكن موجودة أصلا فى عهد نعرمر، حيث أن ممفيس كانت تشرف على البحر. وكان الوجه البحرى كله غير ملائم للصحة، والإقامة فيه شبه مستحيلة. وكان يتعين على الناس الخوض فى أوحاله، وهو لم يصبح ملائما إلى حد ما للصحة إلا بعد الأعمال التى قام بها نعرمر.

وبوسعنا أن نتساءل كيف كانت الدلتا الغربية قبل نعرمر لأننا نعلم أن مجرى النهر لم يكن على غرار ما هو الآن، وأن هذا الفرعون الأول هو الذى أعطاه الاتجاه الحالى بأن أمر باقامة سدود وبعمليات ردم. وكان النهر يتدفق قبل ذلك باتجاه الغرب.

«وفقا لأقوال الكهنة فإن نعرمر الذى كان أول ملوك مصر، أمر بإقامة سدود فى ممفيس. وكان النهر يتدفق بالكامل حتى حُكم هذا الامير بمحاذاة الجبل الرملى الموجود ناحية ليبيا. ولكنه ردم

المنحنى الذى يتخذه النيل من ناحية الجنوب وأقام سدا على مسافة مئة ستاد (مقياس اغريقى يعادل حوالى ١٨٠ مترا)شمال *ممفيس*، وجفف مجراه القديم وحول اتجاهه عن طريق قناة جديدة لكى يتدفق على مسافة متساوية من الجبال. وحتى الآن فى ظل سيطرة الفرس يُولى اهتمام خاص بمنحنى النيل هذا الذى تتدفق مياهه المحتجزة عن طريق السدود، فى اتجاه آخر، ويجرى تحصينه كل سنة. فلو كسر النهر السدود واندفعت مياهه فى الأراضى لتعرضت *ممفيس* لخطر الغرق تماما». (هيرودوت، ٢ ، ٩٩).

إن غرق *ممفيس* إذا ما تحطمت السدود دليل على أن موقع هذه المدينة تم اكتسابه حقا من المياه، على غرار الأراضى الخصبة المنخفضة المستصلحة على حساب البحر. وكانت عاصمة الملوك المصريين الأوائل فى طيبة، بجنوب البلاد، ولم تؤسس *ممفيس* إلا لمقتضيات عسكرية أساسا. فقد كانت موقعا حصينا يشرف على نقطة الالتقاء بين طريق تسلل الرعاة الأسيويين من الشرق وسبل دخول بدو الغرب الذين كان المصريون يسمونهم *ريبو، ليبو*، ومنها ليبيون (الأسرة الثامنة عشرة).

وقد حاول هؤلاء البرابرة أكثر من مرة التغلغل بالقوة فى مصر تحت إغراء الثروات المتراكمة فيها. غير أنه تم إلحاق الهزيمة التامة بهم وطردهم خارج الحدود، فى كل مرة تقريبا، بعد معارك حامية. وإذا كانت تحالفات شعوب الشمال والشرق فى منطقة الدلتا وشراسة المعارك التى دارت فيها تبرر تأسيس *ممفيس* كقلعة متقدمة أقيمت لتأمين سلامة المملكة المصرية، فقد تجنبت بالضرورة أى خلط بين الأجناس التى اصطدمت ببعضها فى المنطقة. وكان الأمر يتعلق بتحالفات حقيقية بين أجناس بيضاء ضد الجنس الزنجى المصرى كما تثبت ذلك الفقرة التالية من مؤلف موريه من *العشائر إلى الامبراطوريات*:

«فى حوالى ابريل ١٢٢٢، علم مرنفتاح فى *ممفيس* أن مريرى، ملك الليبيين. كان قادما من بلاد تيهينو مع رماة السهام التابعين له وائتلاف من «شعوب الشمال» يضم ساردان وسيكول وآخيين وليسيين واتروسك، يمثلون معا صفوة محاربى كل بلد، بغية شن هجوم على الحدود الغربية لمصر عند سهول بيرير. ومما زاد من شدة خطورة الموقف أن إقليم فلسطين كانت تسوده القلاقل، ويبدو أن الحيثيين شاركوا فى تلك الاضطرابات على الرغم من أن مرنفتاح كان قد واصل مساعيه الحميدة معهم فأرسل لهم سفناً محملة بالقمح أثناء مجاعة لمساعدة بلاد خاتى». (ص ٣٨٩).

وبعد معركة حامية ألحق المصريون هزيمة ماحقة بتحالف الجحافل البربرية هذا، إذ تم تشتيته بالكامل. أما من نجوا فقد علقت بأذهانهم ذكريات مروعة تناقلتها الأجيال فيما بعد.

«استمرت المعركة ست ساعات، نظم رماة السهام المصريون خلالها مذبحة فى صفوف البرابرة؛ وقد أطلق مريرى ساقيه للرياح تاركا وراءه أسلحته وكنوزه وحريمه؛ وتتضمن السجل ٦٣٥٩ قتيلا من بين الليبيين و٢٢٢ من السيكول و٧٤٢ من الاتروسك والساردان، وآلافا من الآخيين، وتم الاستيلاء

على تسعة آلاف سيف ودرع وغنائم كثيرة فى ساحة المعركة. وسجل مرنفتاح نشيد انتصار فى معبده الجنائزى فى طيبة وصف فيه ذهول أعدائه: فالشباب لدى الليبيين يقولون فيما بينهم بخصوص تلك الانتصارات: لم نحقق أيا منها منذ عهد رع، ويقول الشيخ لابنه: وا أسفاه على ليبيا المسكينة! لقد هلك التهينو فى غضون سنة واحدة. وفُرضت الطاعة أيضا من جديد على أقاليم مصر الخارجية. ودمرت تيهينو، وأخمدت الفتنة فى خاتى، ونهبت بلاد كنعان، وجردت عسقلان من ثرواتها، وتم الاستيلاء على جاذر وأبيدت يانوعيم، وخرِّبت إسرائيل، ولم تعد لديها بذور وأصبحت خارو أرملة بلا سند من جانب مصر. وتم توحيد كل البلاد وإخضاعها » (*المرجع السابق*،ص٣٨٩).

ومن المهم أن نلاحظ عن طريق هذا النص أن الانتصار أحرز فى *ممفيس* ولكن الاحتفال بذكراه جرى فى طيبة، فى المعبد الجنائزى لمرنفتاح، مما يؤكد ما قيل آنفا وهو أن الفرعون مرنفتاح لم يستقر فى *ممفيس* إلا لمقتضيات عسكرية، ولكنه دفن فى *طيبه* شأنه شأن جميع فراعنة مصر تقريبا. وحتى عندما كان فرعون يموت فى *ممفيس*، فى الوجه البحرى، كان جثمانه ينقل إلى الصعيد لدفنه فى مدنه المقدسة: ابيدوس وطيبه والكرنك. فقد أقام الفراعنة مقابرهم فى مدن الصعيد هذه إلى جانب أسلافهم حيث كانوا يرسلون لهم القرابين حتى وإن اقاموا فى *ممفيس*.

وبعد الثورة التى سجلت نهاية الدولة القديمة، عندما حصل الشعب على امتياز الموت الأوزيريسى، أى إمكانية التمتع بالخلود فى السماء (بعد المثول أمام محكمة أوزيريس)، كان كل أفراد الشعب يدفنون رمزيا فى منطقة طيبة بإقامة لوحة باسم المتوفى. وهكذا كانت هذه المنطقة مقدسة بالنسبة لكل شعب مصر بلا استثناء. ولو أن الحضارة والتقاليد الدينية المصرية كانت قد نشأت حقا فى الدلتا، لكان ذلك التقديس بمثابة انتهاك للحرمات. ولو كان الأمر كذلك لتعين أن نجد هناك المدن المقدسة ومدافن الأسلاف وأهم أماكن العبادة والحج .. الخ، وهو ما لم يحدث.

وهذا القدر الوفير من الحجج يكفى للحيلولة دون تأييد فكرة الأسبقية المزعومة لقيام الحضارة فى الدلتا، بأى شكل من الأشكال.

وهذا الائتلاف بين شعوب الشمال والشرق فى عهد مرنفتاح ليس سوى أحد وقائع التاريخ المصرى القديم، إذ اندلعت حروب مشابهة فى هذه المنطقة طوال ذلك التاريخ، وإن تفاوت مدى أهميتها. وقد تغلب دائما زنوج وادى النيل على هؤلاء البرابرة اللهم إلا فى العصر المتأخر. ويشهد على ذلك عدد لا يحصى ولا يعد من النقوش التى تصور أسرى، والتى نجدها ابتداء من صخور سيناء حتى معابد مدينة هابو وطيبة، وعلى لوحة نعرمر، أى منذ عهد ما قبل الأسرات حتى الأسرة التاسعة عشرة.ويعترف الليبيون أنفسهم، إذا ما آمنا بما جاء فى النص المصرى، بأنهم لم يحققوا أبدا أى انتصار منذ بداية الزمن، أى منذ عهد رع. ولا توجد أى واقعة أو شهادة أو نص يكذب ذلك. وقد كتب موريه نفسه يقول:

«وكان هؤلاء الليبيون وسكان الكهوف، يبدون على حدود الحقول الخصبة كجيران جوعى ونهابين، يتحينون الفرصة دائما لشن غزواتهم ضد الفلاحين المصريين المسالمين والعاكفين على زراعة الأرض وتربية الماشية. ولم تكن خطورتهم شديدة أبدا على المصريين لأنه لم تكن توجد لديهم حتى ذلك الوقت بهيمة سريعة قادرة على حمل الأثقال؛ فالحمار، وهو الدابة الوحيدة التى كانت لديهم ليس سريعا ولا يستطيع نقل الأحمال الثقيلة ...ولذا فقد اكتفت مصر بمراقبة هؤلاء البدو بكل يقظة، وبعمليات تأديب كانت تستخدم فيها الليبيين أنفسهم؛ فقد عملت فى خدمتها عدة قبائل كمرتزقة، ومنها قبيلة المشاواشا، بل إنها جندت قوات ممتازة لدى المازوى. وهكذا وجد الفراعنة وسيلة لتأمين أنفسهم ضد مخاطر السرقة بدفع جُعل على شكل مرتب لهؤلاء النهابين الذين كان تقويمهم أمرا مستعصيا. ولم يصبح هؤلاء الليبيون المتجمعين فى اتحاد حركة هجرة الشعوب، خطرا محدقاً بمصر لا تكفى الوسائل المرتجلة لدرئه إلا فى أواخر عهد امبراطورية طيبة»، (*المرجع السابق*، ص١٩٧، ١٩٨).

وتلخص شهادة موريه هذه ما لدينا من معلومات ملموسة حول الليبيين. فالتاريخ يفيدنا بأنهم كانوا لصوصا يتضورون جوعا، يعيشون فى أرباض مصر، بالمنطقة الغربية من الدلتا، وأنهم خدموا كمرتزقة واستقروا فى انحاء الدلتا فى العصر المتأخر، وأنهم كانوا من جنس أبيض، باستثناء التيهينو(*). وكان تَحَضرهم أمرا مستعصيا فى الوقت الذى كان فيه العالم الزنجى قد تَحَضَّر. وهذا ما تفيدنا به الوثائق التاريخية عن الليبيين، هذا عدا توزيعهم الجغرافى على الساحل الشمالى لافريقيا الذى أفادنا به هيرودوت.

وبوسعنا أن نتساءل عن ماهية ذلك الاختراع الذى يدفع إلى جعل هذه الشعوب المختلفة عن المصريين من كافة الأوجه، منبع حضارتهم، إلى حد اعتبار المصريين أبناء عمومتهم الهمجيين أو الأقل تحضرا، وتلك حقا قمة التناقض. وقد استقر هؤلاء الليبيون فى الدلتا، حيث منحهم الفراعنة قطع أرض فى العصر المتأخر. وتشبعت مصر عندئذ بأجانب وأدى ذلك التهجين إلى البياض النسبى الذى طرأ على بشرة الأقباط.

وهكذا لم تدخل الدلتا فى التاريخ المصرى إلا فى العصر المتأخر. ولم تكن مصر أبدا دولة بحرية قوية، وربما يرجع ذلك الى نشأة حضارتها داخل القارة، على عكس الشعوب الأخرى المطلة على البحر الأبيض المتوسط.

ووفقا لما كتب بلوتارك فى *الإيزيس والأوزيريس* (بصيغة الجمع)، كان المصريون يعتبرون البحر «إفرازا فاسدا»، وهو تصور لا يتفق مع فكرة الاستيطان أصلا فى الأراضى المطلة على البحار.

(*) باستثناء التيهينو أو الليبو السود الذين يعتبرون أسلاف الليبو الحاليين فى شبه جزيرة الرأس الأخضر، كان السود قد سبقوا التيميهو أو الليبيين البيض (شعب البحر) فى هذه المنطقة الغربية من الدلتا. وكان التيهينو، أول سكان سود، سببا فى الخلط فى تسمية الليبى «البُنّى»، وإن كان المقصود فى الواقع زنجيا يتميز عن بقية المصريين بمدى تحضره فقط. وقد استخدم فى الكتب الدراسية الرسمية للإشارة إلى سلف مفترض للبربر. وتستدعى كلمة تاهاسو أو تيهينو، كلمة تاكانو بالولوف التى تعنى المكان الذى يلجأ اليه المرء للبحث عن الحطب.

هل يمكن أن تكون الحضارة المصرية من أصل أسيوى ؟

يتعين هنا أيضا، وعلى غرار ما جاء من قبل، أن نميز بين ما يمكن استنتاجه من الفحص الدقيق للوثائق التاريخية وما يمكن أن نفترضه مع تجاوز الوثائق خلافا لما تشهد به.

فلكى تكون الحضارة المصرية من أصل أسيوى أو أى أصل خارجى آخر، لابد من إثبات أن مهدا سابقا للحضارة تواجد خارج مصر. ولا حاجة بنا إلى أن نؤكد على أن هذا الشرط الأولى والضرورى لم يتوفر أبدا.

«لم تيسر الظروف الطبيعية تطور مجتمع بشرى ما بقدر ما يسرت ذلك فى مصر؛ ولذا لا نجد فى أى مكان آخر صناعة تجمع بين الأدوات الحجرية المصقولة والبرونزية بتقنية مشابهة. وعلى أىّ حال لا يوجد فى سوريا وفى بلاد ما بين النهرين أى أثر للإنسان فيما قبل عام ٤٠٠٠ قبل الميلاد، ماعدا بعض المواقع المنتمية إلى العصر الحجرى الجديد فى فلسطين لم يُعرف عهدها بدقة. وفى هذا التاريخ، كان المصريون على وشك الدخول فى العصر التاريخى للحضارة. وعليه يكون من الملائم أن يُنسب تطورهم هذا المبكر لعبقرية سكان مصر الأوائل وللظروف الاستثنائية التى هيأها وادى النيل. وليس هناك مايثبت أن ذلك التطور يعود إلى غزو أجانب أكثر تحضرا، يتعين على أى حال إثبات وجودهم أو على الأقل إثبات وجود حضارتهم». (موريه، *من العشائر الى الامبراطوريات*، ص ١٤٠).

ولايزال يتعذر دحض ملاحظات موريه هذه عموما حتى يومنا هذا. ويشير المؤلف إلى تاريخ ٤٢٤١ قبل الميلاد، حيث كان التقويم مستخدما آنذاك بكل تأكيد فى مصر.

فدورة التقويم المصرى القديم تبلغ ١٤٦١ سنة، وهى الفترة الممتدة بين شروقين للشعرى اليمانية مع شروق الشمس فى نفس اللحظة. وقد أتاحت هذه الواقعة، إلى جانب معرفة استدلالين أحدهما من التاريخ المصرى والآخر من التاريخ الرومانى، إمكانية الرجوع بيقين حسابى أكيد إلى تاريخ ٤٢٤١أو ٤٢٣٦ ق .م .، بعد إجراء تصحيح بسيط على خطأ طفيف فى الحسابات الأولى.

وكان لابد من آلاف عمليات الرصد فى ظل حياة مستقرة لاختراع تقويم تبلغ دورته ١٤٦١ سنة. ولو تمسك المرء بالوقائع بكل دقة لظهر لنا بوضوح أنه يستحيل الركون إلى التصرفات الجامدة لمخترعى الحساب الزمنى القصير أو القصير للغاية الذى يُرجع بداية التاريخ المصرى إلى سنة ٣٢٠٠ أو ٢٨٠٠ ق.م. وسنعرض فيما بعد اعتبارات «التضامن» التى دفعت إلى تقديم هذا النوع من الافتراضات.

لقد تم التوصل إذن فى مصر إلى أقدم تحديد للتواريخ عرفته البشرية بيقين حسابى.

فماذا نجد فى بلاد ما بين النهرين؟

لا شئ يمكن تحديد تاريخه بشكل مؤكد؛ فقد كان البناء يتم فى بلاد ما بين النهرين بلبنات نيئة تجففها الشمس وتحولها الأمطار إلى كتل من الطين.

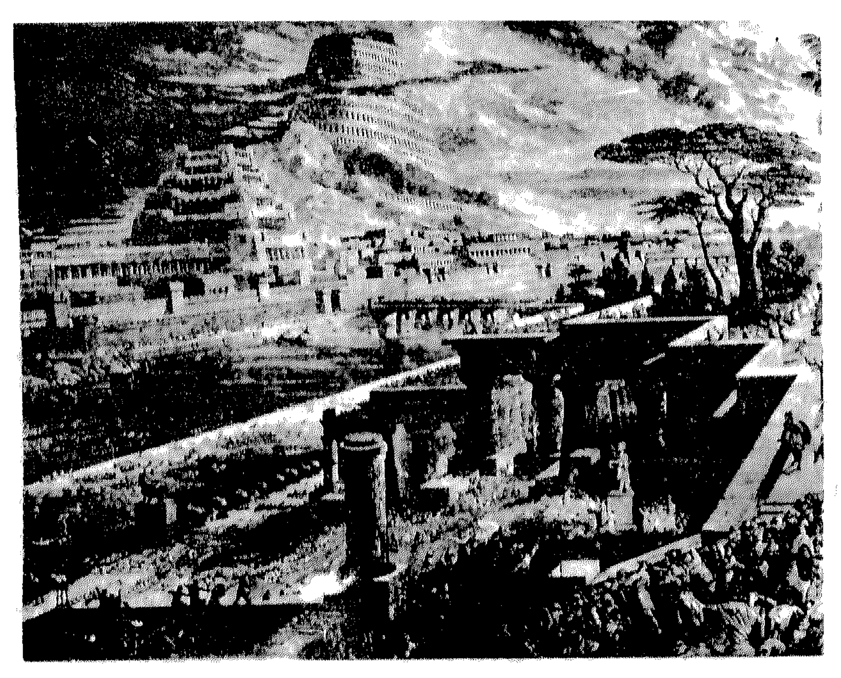
فأهرامات مصر، ومعابدها، ومسلاتها، وغابات أعمدتها فى الأقصر والكرنك، وطريق كباشها، وتمثالا ممنون وغيرهما، وصخورها المنحوتة ومعابدها المحفورة فى بطن الارض وذات الأعمدة المبشرة بالطراز الدُورى (الدير البحرى)، وكل تلك الحقائق المعمارية الملموسة وتلك الشواهد التاريخية التى لا يمكن أن تخفيها أى عقيدة جامدة، يقابلها فى ايران (عيلام) وبلاد ما بين النهرين حتى القرن السابع ق.م. (عهد الاشوريين) ركام من الآجر المعدوم الشكل.

وقد قرروا أن ذلك الركام بقايا معابد وأبراج دارسة، تبذل الجهود لإعادة بنائها. وهكذا يقوم العالم الأثرى الامريكى سيتون لويد، بإعادة بناء داخل معبد بابلى يُفترض أنه يرجع الى سنة، الفين أو ثلاثة آلاف ق. م. وقد صَوّره بريستيد فى كتابه *اكتساب الحضارة*، (الناشر بايو، ١٩٤٥، ص١٢٣، الصورة رقم ٥٧). وتعتمد إعادة البناء هذه على الحفائر التى أجراها المعهد الشرقى التابع لجامعة شيكاغو. وهذا النوع من عمليات إعادة البناء، بما فى ذلك برج بابل (الصورة رقم ٣٩) خطير للغاية بالنسبة لتاريخ البشرية نظرا للأوهام التى قد يغذيها.

«لقد تحولت بقايا تلك الأبراج البابلية إلى تراب فى أغلب الأحوال نظرا لعدم صمود اللبنات المجففة فى الشمس، التى استخدمت فى بنائها. ولذا لا يتفق علماء الآثار على تفاصيل أشكالها». (بريستد، *المرجع السابق*، ص ١٢٢، الهامش رقم ١).

وفى مصر، تستند دراسة التاريخ على نطاق واسع، إلى وثائق مسجلة مثل مسرد بالرمو، ولوحات ابيدوس الملكية، وبردى تورينو الملكى، وحوليات مانيتون. ويتعين أن يضاف إلى كافة تلك الوثائق الصلية، مجموع ما شهد به كتاب قدامى، بدءاً بهيرودوت حتى ديودور، هذا عدا متون الأهرام، وكتاب الموتى، وآلاف الكتابات المنقوشة على الجدران.

أما فى بلاد ما بين النهرين فمن العبث البحث عن شئ مماثل. فاللوحات المكتوبة بالخط المسمارى تتعلق عموما بحسابات تجار: ايصالات وفواتير مدونة بشكل مختصر. ولم يتعرض القدامى لحضارة مابين النهرين المزعومة السابقة على الكلدانيين. وعلى أى حال فقد كان هؤلاء الكلدانيون بالنسبة للقدامى مجرد طائفة من الكهنة الفلكيين المصريين أى زنوج.(ديودور الصقلى، *تاريخ الكون*، الكتاب الأول، القسم الأول، ص ٥٦ و٥٧).



٣٩ - برج بابل - نموذج لعمليات إعادة البناء
يظهر البرج فى خلفية الصورة، وأمامها حدائق بابل المعلقة

وقد أوضح ديودور أن الكدانيين كانوا، حسب قول المصريين: «جالية من كهنتهم نقلهم بلوز على نهر الفرات ونظمهم وفقا لنموذج الطائفة الأم، ولاتزال هذه الجالية تواصل تنمية المعارف عن النجوم التى جاءت بها من وطنها». (هيفر: *كلده*، سلسلة الكون، ١٨٥٢، ص ٣٩٠).

وهكذا أصبح لفظ «الكلدانيين» مصدرا للكلمة اليونانية التى تعنى فلكيا. ويقال إن برج بابل، وهو هرم مدرج على غرار هرم صقارة، الذى عُرف باسم «برس - نمرود» و«معبد بعل»، لم يكن إلا مرصدا للكلدانيين.

وهكذا تصبح الأمور منطقية لأن نمرود ابن كوش وحفيد حام، سلف الزنوج، حسب ما جاء فى التوراة، كان رمزا للجبروت. فى الدنيا.

«وكوش ولد نمرود الذى ابتدأ يكون جبارا فى الأرض، الذى كان جبار صيد أمام الرب وكان ابتداء مملكته بابل وأرك وأكّد وكَلْنَة فى أرض شنعار. ومن تلك الأرض خرج أشور...» (*سفر التكوين*، الإصحاح العاشر).

أليس من الطبيعى إذن أن نجد هرما مدرجا فى صقارة وبابل (مدينة بعل الكرشية)، وفى ساحل العاج (على شكل مثقال من البرونز)، وفى المكسيك حيث أثبت الكتاب والأثريون المكسيكيون أنفسهم الهجرة الزنجية عن طريق المحيط الأطلسى؟

وحيث أن آسيا الغربية كانت مهدا لحضارة هندو - أوروبية، فلو أن حضارة مزدهرة تواجدت فى هذه المنطقة على غرار الحضارة المصرية فى فترة سابقة على عهد الكلدانيين، لكانت ذكراها قد بلغتنا ولو بإشارات غير واضحة، عن طريق القدامى الذين كانوا فرعا من الهندو - أوروبيين، علما بأنهم هم أنفسهم الذين أفادونا بالعديد من الشهادات المتطابقة عن الحضارة الزنجية المصرية.

ووفقا للترتيب الزمنى القصير كانت مصر موحدة فى مملكة واحدة على يد نعرمر قبل مولد المسيح بـ ٣٢٠٠ سنة.

ولن نجد شيئا مماثلا فى آسيا الغربية:فبدلا من مملكة متحدة وقوية نجد مدناً مثل سوز وأور ولجش ومارى وسومر، ودلت عليها أحيانا مقابر أصحابها المجهولى الهوية، وتقرر بلا أى دليل أنها «مقابر ملكية».

وهكذا تم رفع أشخاص لم يكونوا سوى مشايخ قرى أو مدن، إلى مرتبة الملوك، هذا إن لم يكونوا شخصيات وهمية مختلقة. إننا نجد الآن فى كل قرية فى السنغال أسرة تدعى أنها هى التى أسست تلك القرية، وكثيرا ما يكون عضو هذه الأسرة الأكثر تقدما فى السن شيخ القرية، وهو يتمتع بقدر من الاحترام من جانب أهالى القرية. ومع ذلك فسيكون الأمر مضحكا حقا لو أننا منحناه لقبا ملكيا بعد ألفى سنة.

وقد كتب چورج كونتينو يقول بخصوص مغزى مقابر أور التى تقرر أن تكون ملكية:

«بوسعنا أن نتساءل بخصوص مقابر الجبانات الملكية،إذا ما كان الأمر يتعلق حقا بملوك وإذا لم يكن من الواجب ربط تلك المقابر بعبادة مبدأ الخصوبة.

«فمما يلفت النظر حقا أن أصحاب هذه المقابر مجهولو الهوية؛

«ويعتقد السيد س.سميث أن هذه المقابر كانت لا تخص ملوكا حقا ولكن ممثلى المأساة المقدسة التى كانت تعرض بمناسبة الأعياد، ويتم فيها التضحية ببطل المسرحية الرئيسى...

«والسير ل.وولى ... مبتكرها (أى المقابر) ينكر ذلك تماما ..

«عندما وصفت هذا الكشف المثير للمقابر الملكية، أبديت ملاحظة تتبادر بشكل طبيعى الى الذهن، وهى أن السكوتيين كانوا يمارسون فيما بعد ذلك بمدة طويلة، طقوسا مشابهة.

«وإذا كان الحظ لم يسعدنا بالعثور على مقبرة سليمة فى بلاد مابين النهرين، علاوة على مقابر أور الملكية وإذا كنا لم نصادف أبدا وثائق صريحة حول مواصلة الطقوس الجنائزية التى كشفت عنها حفريات أور، فإن بعض اللوحات الصغيرة تلقى مع ذلك قليلا من الضوء على استمرار هذه الممارسة على شكل مخفف على الأقل.

«فهناك خطاب من العهد الاشورى فى ظل الأسرحونيين يفيدنا بأن ابن حاكم أكّد ومواقع أخرى «راح إلى مصيره» وكذلك سيدة القصر، وأنه قد تم دفنهما». (*موجز للآثار الشرقية*، المجلد الرابع، ص ١٨٥٠-١٩٥٨، مطبوعات بيكار، ١٩٤٧).

ومن المؤسف أن الوثائق المهمة التى توجد فى متناول يدنا تعود إلى عهد متأخر إلى هذا الحد. ومن المؤسف بقدر لا يقل عند ذلك أن المقارنة التى «تتبادر بشكل طبيعى إلى الذهن» تعود بنا إلى عادات السكوتيين التى وصفها هيرودوت فى القرن الخامس قبل الميلاد. والواقع أنه بالرجوع إلى أوصاف هيرودوت نفسها التى ذكرها الدكتور كرنتينو،يتبين لنا أنه لم يكن من الممكن أن يكون الإنسان أكثر توحشا وبربرية من السكوتيين.

ها نحن إذن بعيدون عن تأثيرات حضارة يمكن أن نقرر أنها أم الحضارة المصرية.

وتعبير «مبتكر هذه المقابر» الذى استخدمه المؤلف بخصوص السير ليونارد وولى الذى اكتشفها يثبت لنا بما فيه الكفاية أن إضفاء صفة «الملكية» عليها ليس له مبرر شرعى عدا أنه يمكن أن يكون افتراضا يخضع للفحص.

وعلى العكس فإن أقدم الملوك الذين تم العثور عليهم فى عيلام هم بلا منازع من الزنوج كما تثبت الآثار التى استخرجها ديولافوا [DIEULAFOY] من باطن الأرض.

«كانت هناك أشياء عديدة مدهشة فى طريقها إلى الكشف وكنا ننتقل من مفاجأة إلى أخرى. وقد تم العثور عن طريق هدم حائط ساسانى أقيم بمواد أقدم منه تم أخذها فى الموقع نفسه، على آثار ترجع إلى العهد العيلامى من تاريخ سوز، أى أنها سابقة على استيلاء اشوربانيبال على تلك القلعة. ولكن يجب أن نترك الكلمة هنا لديولافوا:

«عندما تم رفع مقبرة تعترض حائطا من اللبن يشكل جزءا من تحصينات باب عيلامى، استخرج العمال جرة جنائزية يحيط بها بناء من قرميد مطلىّ بالميناء. وكانت هذه القراميد مأخوذة عن لوحة تمثل شخصا يرتدى ثوبا أخضر رائعاً موشى بزركشات صفراء وزرقاء وبيضاء وبفراء نمر، ويحمل عصا أو حربة من الذهب. والأمر الفريد هنا أن هذا الشخص الذى عُثر على أسفل وجهه ولحيته وعنقه ويده، أسود اللون. وشفاهه رقيقة ولحيته غزيرة وزركشات ملابسه العتيقة الطراز، تبدو من صنع عمال بابليين.

«وقد تم العثور فى جدران أخرى بنيت بمواد سبق استخدامها، على قراميد مطلية بالميناء تمثل قدمين ينتعلان حذاء من الذهب، وبدت مرسومة بدقة شديدة، والمعصم تحيط به أساور، والأصابع تقبض على عصا طويلة أصبحت رمزا للجبروت الملكى فى ظل الأخمنديين، وقطعة من ثوب موشى بشعار سوز (أى منظر للمدينة على الطريقة الأشورية)، يغطيه جزئيا فراء نمر. وهناك أخيرا إفريز مُحلى بالزهور فوق خلفية بنية اللون: وكانت الأيدى والأقدام سوداء. بل إنه كان من الواضح أن الزخارف كلها أعدت بحيث تتلاءم مع لون الوجه الداكن. وكان للعظماء وحدهم الحق فى حمل عصا طويلة واستخدام الأساور، وكان حاكم الموقع العسكرى هو وحده الذى يستطيع أن يرتدى ثوبا مطرزا بصورة الموقع. ومن الواضح أن صاحب العصا، سيد القلعة، أسود:ولذا هناك احتمالات كبيرة بأن تكون أسرة سوداء قد حكمت عيلام، وأنها كانت أسرة أثيوبية استنادا إلى سمات الوجه الذى تم اكتشافه. فهل نحن بصدد أحد أثيوبيى الشرق الذين تحدث عنهم هوميروس؟وهل كان الناخونته من سلالة أسرة من الأمراء تنتسب إلى الأجناس السوداء التى حكمت جنوب مصر؟». (لينورمان، *تاريخ الفينيقيين القديم*، باريس، ليفى، ١٨٩٠، ص ٩٦ الى ٩٨).

وجاءت اكتشافات الدكتور كونتينو بعد ذلك بنصف قرن لتصدق على استنتاجات ديولافوا حول الدور الذى قام به الجنس الزنجى فى غرب آسيا.

ويعيد ذلك إلى الذاكرة رأى كاترفاج وهامى حول الأنماط العرقية المصورة على الآثار الأشورية.

فالسوزى بالأخص «الناتج على الأرجح عن امتزاج كوشيين مع زنوج، بأنفه الأفطس نسبيا، وفتحتى منخاريه المتسعتين، ووجنتيه البارزتين، وشفتيه الغليظتين، يمثل نمطا من الأجناس معروف تماما ومصور بشكل جيد». (*موجز للآثار الشرقية*، ١٩٢٧، ص ٩٧).

وقد أورد بعد ذلك الترتيب الذى وضعه هوساى بخصوص السكان الحاليين: وهم مكونون من ثلاث طبقات، وصف إحداها على الوجه التالى: «آريون - زنوج متوافقون مع السوزيين القدامى الذين كانوا منتمين إلى حد كبير إلى النجريتو، وهم من جنس أسود، وقامتهم قصيرة، وجمجمتهم صغيرة الحجم. والآريون -الزنوج عريضو الجمجمة وليسوا مستطيلى الرأس مثل الزنوج الضخام، ويمكننا أن نصادفهم فى اليابان وجزر سُندا (اندونيسيا) والفلبين وغينيا الجديدة.

«ومع أن هذا الترتيب قد تدخل عليه بعض التعديلات إلا أن الجانب المخصص لذوى الشكل الزنجى جدير أن يؤخذ بعين الاعتبار. فوجودهم يفسر لنا تواجد محاربين سود لا يتميزون بالسمات العرقية للزنوج من بين رماة السهام الفرس المصورين على اللبنات الملونة. ويبدو، دون المغالاة فى أهمية ذلك العنصر، أنه لا يمكن أن نشكك فى مشاركته فى تكوين عيلام القديمة». (*المرجع السابق*، ص ٩٨).

ويُلقى الجوهر الزنجى الأولى لعيلام القديمة ضوءا جديدا على بعض أبيات الشعر فى ملحمة جيلجامش، القصيدة البابلية (أى الكوشية) وقصائد أخرى:

يا انليل يا أب، يا سيد البلاد

يا انليل يا أب، ياسيد الكلمة المخلصة

يا انليل يا أب، يا راعى الرؤوس السوداء

(مناحة للإلة انليل، أوردها ش. زيرفوس فى: *الفن فى بلاد ما بين النهرين*، مطبوعات كراسات فنية، ١٩٣٥).

وفى ملحمة جيلجامش يحمل الإله الأصلى، *أنو*، ابو عشتار، اسما زنجيا كان أيضا اسم أوزيريس فى أون:

«أخذت الربة عشتار الكلمة وهكذا تحدثت إلى الإله آنو، أبيها...» (الأبيات ٩٢ و ٩٣ من *ملحمة جيلجامش*، نشرها الدكتور كونتينو، باريس، مطبوعات لارتيزان دى ليفر، ١٩٣٩).

وقد علمنا من قبل، وفقا لأميلينو، أن *الآنو* كانوا الزنوج الأوائل الذين سكنوا مصر، وظل بعضهم، فى منطقة البطراء خلال التاريخ المصرى القديم. وعليه فإن الآنو الزنوج حقيقة تاريخية وليسوا مجرد تخيل أو فرضية للعمل بها. ولنلاحظ أيضا أنه يوجد حتى أيامنا هذه شعب آنى فى ساحل العاج الذى يسبق أسماء ملوكه لقب آمون، كما رأينا من قبل.

ومن جهة أخرى فإن الترتيب الزمنى الذى وضعه م.كريستيان، اعتمادا على حسابات كوجلر الفلكية يحدد بداية أسرة أور الحاكمة من ٢٥٨٠ إلى ٢٦٠٠ قبل الميلاد، وهو تاريخ المقابر المسماة «ملكية»، بينما يتراوح التاريخ الرسمى المسلم به بلا مبرر واضح، بين ٣٠٠٠ و ٣١٠٠ قبل الميلاد.

والواقع أن اختيار عام ٣٠٠٠ كبداية للمرحلة التاريخية فى بلاد مابين النهرين لا يعود إلى أى ضرورة سوى التوصل بأى ثمن إلى توافق بين التسلسل التاريخى المصرى والتسلسل التاريخى فى بلاد ما بين النهرين. ولما كان التاريخ يبدأ فى مصر فى عام ٣٢٠٠ ق .م .، وفقا للتقديرات الأشد اعتدالا، فقد أصبح من الضرورى «من باب التضامن» إرجاع بداية تاريخ بلاد ما بين النهرين إلى نفس الفترة حتى وإن كانت كل الأحداث التاريخية المعروفة حتى الآن عن تلك المنطقة يمكن أن تعود إلى فترة زمنية أقل. وقد كتب الدكتور كونتينو يقول مشيرا إلى الترتيب الزمنى الذى وضعه م.كريستيان:

«ماهو الرأى فى هذه التقديرات الجديدة؟ يبدو أنها تمنح فى حد ذاتها مدة كافية للأحداث التاريخية». (موجز *للآثار الشرقية*، باريس ١٩٤٣، المجلد الثالث، ص ١٥٦٣)

غير أن الدكتور كونتينو يتجنب تبنى هذا التسلسل الزمنى لسببين:

«الأول أن حساب الظواهر الفلكية المذكورة من قبل والذى من المفترض أن يكون أساسا لا جدال فيه، يخضع لتغييرات؛

«... والسبب الثانى هو أن التسلسل الزمنى القصير للغاية لا يضع الحضارات المجاورة فى عين الاعتبار؛ فمن الصعب أن نفسر أن الحضارة المصرية التى تبدأ حسب تقديرات علماء الآثار المصرية، الأشد تواضعا فى حوالى عام ٣١٠٠ قبل الميلاد، قد سبقت بداية التاريخ فى بلاد ما بين النهرين بـ ٦٠٠ سنة. فالعلاقات القائمة بين آسيا ومصر فيما قبل التاريخ حقيقة قائمة؛وعندئذ يصبح تفسيرها متعذرا، شأنها فى ذلك شأن تقديم تاريخ الحضارة المينوية لو أننا اعتمدنا تلك الأرقام. ويبدو هذا الاقتراح غير مقبول إلى حد ما. ولذا أعتقد أن دراسة م.كريستيان الشيقة للغاية تصل إلى استنتاج لا يمكن القبول به إلا اذا توصلت دراسة موازية إلى تخفيض بداية تاريخ حضارات مصر وإيجه بنفس القدر». (*المرجع السابق*، ص ١٥٦٣).

وكتب الدكتور كونتينو يقول فى مؤلف آخر له صدر فى نفس السنة (١٩٣٤):

«تدفعنى جوانب عدم اليقين بخصوص التسلسل التاريخى الشرقى إلى الإدلاء ببعض الملاحظات حول التواريخ التى سترد فى هذه الدراسة. إننا نشهد منذ بضع سنوات تضييقا تدريجيا لتاريخ الأحداث فى بلاد ما بين النهرين. فبعد أن حُددت بداية للمرحلة التاريخية فى حوالى ٤٠٠٠ سنة وأكثر قبل الميلاد، حل محلها تقدير يبلغ حوالى ٣٠٠٠ نتيجة لاستبعاد سنوات من حكم بعض الأسر من قائمة الأسر الحاكمة لأنها لم تكن متتالية بل معاصرة لأسر أخرى، وعن طريق تحديد تواريخ كسوف الشمس التى ورد ذكرها بخصوص بعض النظم الحاكمة، وذلك بفضل علماء الفلك الحديثين. ولكن المراجعة الدقيقة للأحداث التاريخية والحسابات الفلكية تميل إلى تخفيض بداية المرحلة التاريخية مرة أخرى. ويقترح م.ف. كريستيان، من فيينا تاريخ ٢٦٢٠ لأول أسرة أور فى سومر. ولو كان الأمر يتعلق بحضارة مابين النهرين وحدها لما كان هناك ما يدعو إلى الاعتراض على ضغط ذلك الترتيب ...

«غير أن هناك تضامنا عاما يجب أن يوضع فى عين الاعتبار. فالمرحلة التاريخية تبدأ فى نفس التاريخ تقريبا بالنسبة لمصر ولبلاد ما بين النهرين، ولكن علماء الآثار المصريين يرفضون عموما تخفيض تاريخ نعرمر، مؤسس الأسرة الأولى إلى أقل من ٣٢٠٠ قبل الميلاد». (*حضارة الحيثيين والميتانيين*، الناشر پايو، باريس، ١٩٣٤، ص ٤٨-٤٩).

ويتبين بوضوح فى هذه النصوص أن تزامن تاريخ مصر وبلاد ما بين النهرين ضرورة تمليها الآراء لا الوقائع. فالفكرة الرئيسية الراهنة تتمثل فى التوصل إلى تفسير حضارة مصر عن طريق بلاد ما بين النهرين، أى غرب آسيا، مهد الهندو - أوروبيين.

ويثبت كل ماجاء من قبل أن الاقتصار فقط على الوقائع المؤكدة يجبر على اعتبار بلاد ما بين النهرين وليدا لمصر جاء متأخرا. فالعلاقات فى مرحلة ما قبل التاريخ لا تستتبع بالضرورة تزامن بداية التاريخ فى البلدين.

ويوسعنا أن نذكر فى ختام هذا الفصل تلك الفقرة التى أوردها مارسيل بريون نقلا عن لوثات ديكسون:

«قبل ثلاثين سنة مضت كان اسم سومر لا يعنى شيئا بالنسبة للجمهور. وهناك اليوم شئ يسمى *المشكلة السومرية* التى أصبحت موضع خلافات دائمة ووجهات نظر متباينة بين علماء الآثار» (بعث *المدن الدارسة*، باريس، الناشر پايو، ١٩٤٨، ص ٦٥).

وفيما يتعلق بالآثار الفارسية يفيدنا ديودور بأن عمالا مصريين اختطفهم قسرا قمبيز «المخرب» تولوا بناءهما:

«أشعل قمبيز النيران فى كل معابد مصر، وعندئذ حمل الفرس معهم كل الكنوز إلى آسيا بل واقتادوا معهم عمالا مصريين لبناء القصور الشهيرة فى برسيبوليس (پارسا) وسوز وبعض المدن الأخرى فى ميديا». (ديودور، الكتاب الأول، القسم الثانى، ص ١٠٢).

ووفقا لسترابون، فقد أسس سوز زنجى هو تيثون، ملك أليوبيا وأبو ممنون:

«ويُزعم فى الواقع أن تيثون، والد ممنون أسس سوز وأن قلعتها كانت تسمى ممنونيوم. ويسمى السوزيون أيضا السيسيين، وتسمى اسكيلوس والدة ممنون سيسيا. (الكتاب الخامس، الفصل الثالث، ص ٧٢٨).

واسم سيسيا يذكِّر بسيسى، وهو اسم علم إفريقى.

ومن الأسباب التى دفعت الفرس إلى اختيار سوز أنها لم تقم أبدا بدور هام فى التاريخ، وهذا ما تناقضه النظريات الراهنة:

«وعاصمتها (أى سوسيديا) سوز ... فعندما استولى الفرس على ميديا ... جعلوا من سوز عاصمة لامبراطوريتهم نظرا لأهميتها ... ولأنها لم تقم أبدا بنفسها بأى عمل عظيم، إذ كانت خاضعة دائما لشعوب أخرى وكان ينظر اليها كجزء من جسم أضخم، فيما عدا فى الأزمنة الأسطورية على ما يبدو». (*نفس المرجع*، ص ٧٢٨).

فينيقيـــــــا

الإنسان الذى تم اكتشافه فى أرض كنعان، فيما قبل التاريخ، والمسمى *الناتوفى*، من جنس زنجى.

ويبدو أن الصناعة الكابسية التى انتشرت فى شمال إفريقيا حتى هذه المنطقة من أصل زنجى هى أيضا. ووفقا لما جاء فى التوراة، وجدت الأجناس البيضاء عندما وصلت إلى المنطقة جنسا زنجيا: الكنعانيين، ذرية كنعان أخى مصرايم المصرى وكوش الاثيوبى، وكلاهما من أبناء حام سلف الزنوج حسب التوراة.

«وقال الرب لأبرام اذهب من أرضك ومن عشيرتك ومن بيت أبيك إلى الأرض التى أريك.

«فذهب أبرام كما قال له الرب وذهب مع لوط... فأخذ أبرام ساراى امرأته ولوط ابن أخيه وكل مقتنياتهما التى اقتنيا والنفوس التى امتلكا فى حاران وخرجوا ليذهبوا إلى أرض كنعان فأتوا إلى أرض كنعان. واجتاز ابرام فى الارض إلى مكان شكيم الى بلوطة موره، وكان الكنعانيون حينئذ فى الأرض»(*سفر التكوين*، الإصحاح الثانى عشر).

وبعد العديد من الأحداث، انصهر معا الكنعانيون والقبائل من جنس أبيض التى يرمز اليها أبرام وذريته (نسل اسحاق) فكونوا معا بمرور الزمن الشعب اليهودى.

«فأتى حمور وشكيم ابنه إلى باب مدينتهما وكلّما أهل مدينتهما قائلين هؤلاء القوم مسالمون لنا فليسكنوا فى الأرض ويتّجروا فيها. وهو ذا الأرض واسعة الطرفين أمامهم. نأخذ لنا بناتهم زوجات ونعطيهم بناتنا». (*سفر التكوين*، الإصحاح الرابع والثلاثون).

وهذه السطور القليلة التى كانت بداية لخديعة تكشف مع ذلك الاعتبارات الاقتصادية التى كانت تحكم فى هذه الفترة العلاقات بين الغزاة البيض والكنعانيين الزنوج.

ولذا فإن تاريخ فينيقيا لا يمكن فهمه اذا لم تؤخذ فى عين الاعتبار إفادات التوراة التى جاء فيها أن الفينيقيين، أى الكنعانيين، هم أصل الزنوج المتحضرين الذين امتزجت معهم فيما بعد قبائل رُحَل، عديمة الثقافة، من جنس أبيض.

وعليه فإن إطلاق تعبير *لوكو* - سوريين على بعض الشعوب البيضاء فى هذه المنطقة ليس تناقضا، كما يعتقد هوفر،بل تأكيدا للإفادات الواردة فى التوراة.

«يبدو أن اسم السوريين امتد ابتداء من بابل حتى خليج ايسوس، بل ومن هذا الخليج حتى البحر الأسود. ولايزال الكابادوسيون، سواء المستقرون فى جبال طورس بالأناضول أو على شواطئ البحر الأسود، لايزالون يحتفظون حتى الآن باسم اللوكو - سوريين (السوريون البيض)، كما لو أن هناك سوريين سوداً». (هوفر : *كلدا وبابل*، سلسة الكون، مطبوعات الإخوة ديدو، ١٨٥٢، ص ١٥٨).

وبهذه الطريقة يمكن تفسير التحالف الأزلى بين المصريين والفينيقيين. وكان بوسع مصر الاعتماد على الفينيقيين كما يعتمد المرء على أخيه، حتى فى الفترات التى تسودها الاضطرابات الشديدة والمحن القاسية.

«ومن بين الوقائع المنقوشة على جدران المعابد فى مصر والمتعلقة بالتمردات الكبرى التى انفجرت عدة مرات فى سوريا خلال هذه القرون الخمسة ضد الهيمنة المصرية وبتحريض من الاشوريين (*الروتنو*) أو الحيثيين الشماليين (الخيتا) والتى أخمد أشدها تحتمس الثالث وسيتى ورمسيس الثانى ورمسيس الثالث، لا نجد أبدا من بين قائمة المتمردين والمهزومين اسم أهالى صيدا أو عاصمتهم أو أيا من مدنهم...

«وهناك بردى ثمين فى المتحف البريطانى يتضمن الرواية الخيالية لموظف مصرى فى نهاية حكم رمسيس الثانى، بعد التوصل إلى سلام نهائى مع الحيثيين ...

«والمسافر فى هذا البلد موجود فى أرض مصرية، وهو يتجول بنفس الحرية والأمان كما يفعل فى وادى النيل، بل وكان يتمتع بالسلطة بمقتضى وظيفته (لونرمان: *تاريخ الفينيقيين القديم*، ص ٤٨٤ الى ٤٨٦).

وبالطبع لا يجوز أن نقلل من شأن العلاقات الاقتصادية بين مصر وفينيقيا لتفسير ذلك الإخلاص المتبادل الذى يبدو أنه ساد بين البلدين.

ويفسر لنا ذلك أيضا كون المعتقدات الفينيقية إلى حد ما نسخة من معتقدات مصر. وتفصح بعض مقاطع سانشرنياسيون ، التى ترجمها فيلون الجبيلى ونقلها عنه أوزيبيوس، تفصح عن نظرية نشأة الكون الفينيقية. ووفقا لما جاء فى هذه النصوص كانت هناك أصلا مادة لم تُخلق، وفى حالة فوضى واضطراب مستمر (بوهو). وكان النَّفَس (*رواح*) يحلق فوق الفوضى. وسميت الوحدة بين هذين الجوهرين شيفتس، الرغبة، التى ترجع إليها أصلا الخليقة بأكملها.

والتماثل بين ذلك الثالوث الكونى والثالوث الذى نجده فى مصر كما أفادنا به اميلينو فى *تمهيدات لدراسة الديانة المصرية* مُلفت للنظر بشكل صارخ.

فوفقا للنظرية المصرية حول نشأة الكون، كانت هناك أصلا مادة لم تُخلق فى حالة فوضى. وكانت تلك المادة الأولية تتضمن على هيئة جواهر كافة الكائنات الممكنة - أى المُثُل الأصلية التى جاء بها أفلاطون بعد ذلك. كما كانت تتضمن أيضا الجوهر أو إله الصيرورة خيفرو.

وبمجرد أن نشأ خالق الكون رع من حالة الفوضى الأصلية *نوم* انتهى دور الأخيرة؛ومنذ ذلك الوقت تتابع النسب بلا انقطاع حتى أوزيريس وايزيس وحورس، أسلاف المصريين. وهكذا امتد الثالوث الأول من صعيد الكون إلى صعيد البشر، كما تم ذلك فيما بعد مع المسيحية.

ومن خلال الأجيال المتتالية فى نظرية نشأة الكون الفينيقية، تم التوصل إلى سلف المصريين ميسور الذى أنجب *طوط*، مخترع الآداب والعلوم (وهو ليس سوى *تحوت* عند المصريين). ومن خلال نفس نظرية نشأة الكون نصل إلى أوزيريس وكنعان سلف الفينيقين:

«وقد سَجَّل كل ذلك فى الكتب المقدسة الأقطاب السبعة، أبناء صديق وأخيهم الثامن *إيشمون* تحت رئاسة طوط. أما الذين التقطوا الإرث ونقلوا التعاليم إلى خلفائهم فهم أأزيريس وكنعان سلف الفينيقيين» (لينورمان، *المرجع السابق*، ص٥٨٣).

وتكشف مرة أخرى نشأة الكون الفينيقية عن صلة القرابة بين المصريين والفينيقيين، وكل منهم كوشى، أى زنجى.

وقد تأكدت صلة القرابة هذه بما أفصحت عنه نصوص رأس شمرا التى تُقرر أن مهد أبطال فينيقيا القوميين يقع فى الجنوب على الحدود مع مصر:

«كانت نصوص رأس شمرا فرصة لدراسة أصل الفينيين من جديد. فبينما تتضمن لوحات الحياة الجارية وجود عناصر أجنبية مختلفة تشارك فى المبادلات اليومة بالمدينة، تشير اللوحات المكرسة للتحقق من الأساطير إلى ماضٍ مختلف تماما. ومع أن الأمر يتعلق بمدينة تقع فى أقصى شمال فينيقيا، إلا أنها تعتبر أقصى جنوب النقب، مسرح الأحداث التى تصفها تلك اللوحات. وهى تُقرر أن الأبطال الوطنيين والأسلاف كانوا مستقرين فيما بين البحر الأبيض المتوسط والبحر الأحمر. وعلى أى حال فقد أكد ذلك هيرودوت (القرن السادس ق.م.) ومن قبله صَنّفنيا (القرن السابع ق.م.)». (كونتينو، *موجز الآثار الشرقية*، ص ١٧٩١).

ومن الناحية الجغرافية تتمثل أساسا المنطقة الواقعة بين البحرين الابيض المتوسط والأحمر، فى برزخ السويس، أى بطراء العرب، بلد *الأنو*، الزنوج الذين أسسوا أون الشمالية (هليوبوليس) فى الأزمنة التاريخية.

وفى منتصف السنوات الألف الثانية تقريبا (١٤٥٠ ق.م.)، ونتيجة لاجتياح القبائل البيضاء الجنس التى دفعت الفينيقيين نحو الساحل واحتلت المناطق الداخلية، أسس أهالى صيدا أولى المستوطنات الفينيقية فى بيوثيا (بوسط اليونان) لتقيم فيها الأعداد الزائدة من السكان؛ وهكذا تم تأسيس طيبة[*] التى يؤكد من جديد اختيار اسمها على صلة القرابة بين المصريين والفينيقيين؛ إذ أنه من المعروف أن طيبة كانت المدينة المقدسة لصعيد مصر، حيث أحضر الفينيقيون منها النساء السوداوات اللاتى أقمن محرابى الوحى الإلهى فى دودون باليونان وآمون فى ليبيا[**].

(*)وكذلك مدينة ابيدوس فى هلسبونتوس (الاسم القديم لمضيق الدردانيل).

(**) أصل كلمة طيبة ليس هندو - أوروبى، وهى تُنطق حسب الإملاء الإغريقى (طايبا). ومن الملاحظ أنه توجد حاليا فى افريقيا السوداء، وبالأخص فى السنغال، عدة مدن تحمل اسم طايبا، ولذا هناك أساس للاعتقاد بأن أسماء تلك المدن يرجع الى اسم العاصمة المقدسة القديمة فى صعيد مصر.

وفى نفس الفترة (حسب لينورمان) استقر الليبيون (يافث) فى إفريقيا حول بحيرة تريتونس، كما تكشف عن ذلك دراسة الآثار التاريخية الخاصة بسيتى الأول.

ويجسد كادموس الفينيقى مرحلة صيدا والإسهام الفينيقى فى اليونان. ويقول الإغريق إن كادموس هو الذى أدخل الكتابة، كما نقول نحن اليوم إن ماريان (أى الجمهورية الفرنسية) هى التى أدخلت السكك الحديدية فى إفريقيا الغربية المتحدثة باللغة الفرنسية.

ووفقا للروايات الإغريقية، تأسست المستوطنات المصرية فى اليونان فى نفس تلك الفترة تقريبا؛ فقد استقر كيكروبس فى أتيكه، واستقر داناوس، أخو ايجويتوس فى أرجوليس، حيث علّم الإغريق الزراعة والتعدين (الحديد).

وفى المرحلة الصيداوية هذه، انتقلت عناصر الحضارة المصرية الفينيقية إلى اليونان.

وكانت الجالية الفينيقية هى المهيمنة فى أول الأمر، ولكن سرعان ما بدأ نضال الإغريق من أجل التحرر من الفينيقيين الذين كانت لهم السيادة على البحار والهيمنة التقنية فى تلك الفترة السابقة على الأرجونوتيين.

ويتمثل رمز فترة النزاع هذه فى صراع كادموس (الفينيقى) ضد الثعبان ابن مارس (اليونانى) الذى استمر ثلاثة قرون.

«هذا الشقاق الذى نشب بين السكان الأصليين والمستوطنين الكنعانيين الذين حلوا على البلاد يمثله فى الملحمة الأسطورية صراع السبارطيين الذين نشأوا فى الأرض بعد مقدم كادموس. وعليه فإن السبارطيين الذين أبقتهم الأسطورة على قيد الحياة بعد هذه المعركة وأصبحوا زملاء كادموس، هم الممثلون للعائلات العونية الأساسية التى قبلت السيطرة الأجنبية.

«ولا يستمر كادوس طويلا المالك المستريح لأمبراطوريته إذ سرعان ما تم طرده واضطر إلى الانسحاب لدى الأنشيليين. وهكذا تستعيد العناصر الأصلية مركزها؛ فبعد أن كانت قد قبلت بسلطة الفينيقيين، وتلقت منهم نِعَم الحضارة، ثارت ضدهم وسعت إلى طردهم...

«وكل ما يمكن تبينه من هذا الجزء من تلك الروايات المتعلقة بالكادميين، ما كان يستشعره الإغريق الفقراء المتمسكون بالأخلاق من كراهية نحو هؤلاء بوصفهم أجانب، ونحو عباداتهم التى كانت لاتزال تتميز بهمجية وفُحش صارخين، مع أن الكادميين كانوا معلميهم. ولذا يوجد فى التراث الإغريقى رعب خرافى مرتبط بذكرى الملوك من أصل كادمى. وقد زود هؤلاء التراجيديا القديمة بأكبر قدر من مواضيعها». (لينورمان، *المرجع السابق*، ص٤٧٩-٤٩٨).

فالأمريتعلق إذن بمرحلة فاصلة كان العالم الهندو- أوروبى يتحرر فيها من العالم الأسود المصرى-الفينيقى.

وهذا النضال الاقتصادى والسياسى الشبيه فى كل جوانبه بالنضال الذى تخوضه حاليا البلاد المستعمرة ضد الامبريالية الحديثة، كان مصحوبا، كما هو الحال الآن، برد فعل ثقافى يرجع إلى نفس الأسباب. ويتعين أن تُدخل فى إطار ذلك الاضطهاد الثقافى ثلاثية *اوريستيا* الدرامية وقصيدة *الإنييد* الملحمية (نسبة الى أمير طرواده انياس) لفرجيليوس لكى نتفهمهما. وهذان المؤلفان لا يعبران، كما يعتقد باشوفن ومفكرون آخرون من بعده، عن انتقال العالم من النظام الأمومى إلى النظام الأبوى، بل يسجلان التقاء وتصادم تصورين مختلفين: أحدهما جذوره العميقة فى السهوب الأورو - أسيوية والآخر تمتد أصوله فى قلب إفريقيا. وفى البداية كان النظام الأمومى مهيمنا وانتشر فى كل شواطئ بحر ايجه عن طريق الاستعمار المصرى- الفينقى لشعوب بيضاء أحيانا، والتى كان ضعفها الثقافى لا يسمح لها بأى رد فعل إيجابى فى ذلك العهد. وتلك كانت حالة اللوكيين وبعض شعوب ايجه الأخرى. بيد أن الكتاب القدامى يجمعون على أن هذه الأفكار لم تتغلغل أبدا بعمق فى عالم أوروبا الشمالية الأبيض، وأن هذه الشعوب رفضت هذه الأفكار بمجرد توفر الفرصة لديها لذلك، من خلال سلسلة من ردود الفعل القومية، باعتبارها أفكارا غريبة على مفاهيمها الثقافية الخاصة. وهذا هو مغزى *الإنييد*. ومع زوال الامبريالية الاقتصادية لم يُكتب البقاء للامبريالية الثقافية المصرية - الفينيقية أبدا فى أشكالها الغريبة تماما بالنسبة للعقلية الشمالية(*).

(*) عرفت بعض القبائل الجرمانية النظام الأمومى، وكان ذلك شيئا استثنائيا لدى البرابرة. وقد حرص تاسيتوس على التنويه بذلك قائلا:

«غير أن الزيجات فى هذا البلد عفيفة، ولا توجد سمات فى عاداتهم تستحق مزيدا من الإطراء. فهم الوحيدون تقريبا من بين البرابرة الذين يكتفون بزوجة واحدة، باستثناء عدد كبير من العظماء الذين يتخذون عدة زوجات، لا بدافع من الخلاعة، ولكن لأن العديد من العائلات يطمع فى مصاهرتهم. فالرجل، لا المرأة هو الذى يقدم المهر...

«وابن الأخت عزيز على خاله بقدر ما هو عزيز على والده؛ بل إن البعض يعتقد أن أولى تلك الأواصر تكون أقدسها وأوثقها، وعندما يستقبلون رهائن يفضلون أبناء الأخوات باعتبار أنه توجد بينهم روابط أقوى تهم الأسرة لأكثر من مبرر. غير أن الأبناء هم الورثة والخلف. (تاسيتوس، *عادات الجرمان*، الفصلان ١٨و ٢٠)

ومن المحتمل إلى حد كبير أن تلك السمة الثقافية الزنجية دخلت عند الجرمان الذين كانوا قد أصبحوا نصف مستقرين فى نفس الوقت مع أتباع عبادة ايزيس، التى نوه تاسيتوس بأصلها الأجنبى الأكيد:

«يقدم قسم من السوافيين هم أيضا القرابين لإيزيس. ولا أعرف سبب هذه العبادة الأجنبية أو مصدرها. فهناك فقط صورة لسفينة ترمز إلى ذلك، تفيد بأنها جاءت من وراء البحار» (*نفس المرجع السابق*، الفصل التاسع)

وقد ولد يوليوس قيصر قبل تاسيتوس بـ ١٥٥ سنة وكتب هو أيضا عن عادات الغال والجرمان ولكنه لم يشر أبداً الى النظام الأمومى ولا الى وجود كهنة وغير ذلك من الوقائع الدينية التى نوه بها تاسيتوس:

«وعادات الجرمان مختلفة تماما لأنه لا يوجد لديهم كهنة ليرأسوا عباداتهم ولا يهتمون إطلاقا بتقديم القرابين. ولا يحسبون آلهة إلا من يرونهم ويوفرون لهم نِعَما ملموسة: الشمس والنار والقمر، بل إنهم لم يسمعوا عن آلهة أخرى. وهم يقضون طوال حياتهم فى القنص، وفى التمارين الحربية، ويحرصون منذ الصغر على تحمل المشاق». (يوليوس قيصر: حرب *الغال*، الكتاب السادس، الفصل الحادى والعشرين).

ويثبت ذلك أن تلك المؤسسات دخلت أوروبا فى وقت متأخر، ربما عن طريق بريطانيا، التى كانت مرفأ فى الطريق لجلب القصدير.

«وتعاليمهم (أى تعاليم الكهنة) التى تم اكتشافها على مايقال فى بريطانيا، انتقلت إلى بلاد الغال، وحتى الآن لايزال يذهب إلى هناك لدراستها من يريدون التعمق فى معرفتها» (*المرجع السابق*، الكتاب السادس، الفصل الثالث عشر).

وسيظل تاريخ البشرية يشوبه الغموض طالما لم يتم التمييز بين مهدين أولين شكلت فيهما الطبيعة الغرائز والطباع والعادات والمفاهيم المعنوية لكتلتى تلك البشرية قبل أن تلتقيا، بعد عزلة ترجع إلى ما قبل التاريخ.

وهذين المهدين، كما سنرى فى الجزء المخصص لإسهام مصر، يتمثل فى وادى النيل ابتداء من البحيرات العظمى حتى الدلتا، مرورا بالسودان. وقد تولّد عن كل من وَفْرة موارد الحياة، والطابع الزراعى المستقر لتلك الحياة، والظروف التى يتميز بها وادى النيل، تولّد لدى الانسان، أى لدى الزنجى، طابعا دمثا، ومثاليا، وكريما، ومسالما، ومشبعا بروح العدالة، ومرحا. وكانت تلك الفضائل ضرورية فى غالبيتها للتعايش اليومى.

وقد نشأت عن مقتضيات الحياة الزراعية مفاهيم، منها النظام الأمومى والطوطمية والتنظيم الاجتماعى المتقدم والديانة التوحيدية. ونجمت عن ذلك مفاهيم أخرى: فالختان نابع من التوحيد؛ وفكرة الإله آمون الذى لم يخلق، وخالق كل ما فى الوجود، هى التى قادت فى الواقع إلى فكرة الخنثوية التى تجمع بين الجنسين فى جسد واحد. فبما أن آمون لم يُخلق، وبما أنه أصل الخليقة، فمعنى ذلك أنه كان الوحيد الموجود فى وقت سابق. ولذا كان يتعين، من وجهة نظر عقلية الأقدمين، أن يتضمن فى ذاته عنصرى الذكورة والأنوثة الضرورين لكل إنجاب.وعليه فإن آمون، الإله الأعظم الزنجى فى السودان (بما فى ذلك النوبة) وبقية إفريقيا بأسرها، هو الإله الصرف المصرى، الذى ظهر فى الميثولوجيا السودانية كخنثى: وقد تولّد ختان الذكور والإناث لدى العالم الزنجى عن تلك العقيدة الخنثوية فى حد ذاتها. ومن الممكن أن نواصل تفسير كافة السمات الأساسية المميزة للروح الزنجية وحضارتها انطلاقا من الظروف المادية فى وادى النيل.

وعلى النقيض من ذلك، أرست ضراوة الطبيعة فى السهوب الأورو - أسيوية، وجدب تلك المناطق، ومجموع الظروف المادية فى ذلك المهد الجغرافى، أرست لدى الإنسان الغرائز الضرورية للتكيف مع البيئة. ولا تتيح الطبيعة هنا أى أوهام حولها : فهى لا ترحم ولا تسمح بأى إهمال؛ وهنا سيحصل الإنسان على خبزه اليومى بعرق جبينه. وسيتعلم الاعتماد، قبل كل شئ على إمكاناته الذاتية من خلال ذلك التواجد المديد والشاق. وهو لا يستطيع أن يسمح لنفسه بأن يؤمن بإله يغدق عليه النعَم ويمنحه إمكانات وفيرة فى حياته: ولذا فإن الحيز الذى يعيش فيه سيولد بالأخص معبودات شريرة وطاغية، غيورة وحاقدة: زيوس وياهو..الخ.

وقد ترتبت على هذا النشاط القاسى الذى أملاه الوسط الطبيعى على الانسان ، المادية والصفات البشرية التى تم إضفاؤها على المعبود وكذلك العلمانية. وهكذا أوجدت الطبيعة شيئا فشيئا تلك الغرائز لدى البشر الذين عاشوا فى تلك المنطقة ولدى الهندو - أوروبيين بشكل خاص. فكل شعوب

هذا المهد، سواء كانت بيضاء أو صفراء، ستدفعها غريزة الغزو لأنها ستميل إلى الهرب من تلك البيئة المعادية. فوسط هذه الشعوب يطردها ويتعين عليها الرحيل أو الهلاك، وأن تحاول الاستيلاء على مكان آخر تحت الشمس فى ظل طبيعة رؤوفة بها. ولذا لن تتوقف موجة الغزو العاتية منذ أن عرفت هذه الشعوب عن طريق أول اتصال مع العالم الزنجى الجنوبى، أن هناك بلادا تتيح حياة أيسر وثروات أوفر وتقنيات مزدهرة. وهكذا، ومنذ عام ١٤٥٠ قبل الميلاد تتواصل تلك الغزوات من الشرق نحو الغرب، ومن الشمال نحو الجنوب حتى عهد هتلر، مرورا بالبرابرة فى القرنين الرابع والخامس قبل الميلاد وجنيكيز خان والأتراك.

وظل الإنسان فى هذه المناطق يعيش حياة الترحل لأمد طويل. وهو قاسى الطباع(*).

وقد نشأت عبادة النار عن المناخ البارد، وهى لاتزال حية منذ نار ميترا وشعلة الجندى المجهول تحت قوس النصر وشعلات الألعاب الاولمبية القديمة والحديثة. وتؤكد حرق الأموات عن حياة الترحال: فهكذا يمكن حمل رماد الأسلاف فى جرار صغيرة. وقد استمر ذلك التقليد عند الاغريق، وأدخله الآريون فى الهند بعد عام ١٤٥٠، ويفسر لنا ذلك حرق جثمان يوليوس قيصر، وغاندى فى عهدنا.

(*) وصف يوليوس قيصر وتاسيتوس عادات الجرمان الحربية والهمجية، عندما كانوا رُحّلا أو شبه رُحل، ولم يكتسبوا بعد مفهوم الملكية العقارية.

«إنهم لا يعكفون على زراعة الأرض ويعيشون أساسا على اللبن والجبن واللحوم. ولا يملك أى منهم قطعة أرض خاصة أو ذات حدود مرسومة. ولكن القضاة أو الزعماء يحددون فى كل سنة لمختلف العشائر والأسر المجتمعة المساحات ومواقعها التى يرون أنها مناسبة، ويجبرونها على الانتقال إلى موقع آخر. وهم يقدمون عدة مبررات لذلك؛ فهم يخشون أن تدفعهم قوتهم وإغراء التعود إلى الإقلاع عن التعلق بالأسلحة لصالح الزراعة .. ومن أكبر دواعى الفخر بالنسبة لهذه المدن أن تكون محاطة بحدود خربة ومساحات شاسعة موحشة. وهم يعتقدون أن الشجاعة تتمثل فى إجبار الشعوب المجاورة على ترك أراضيها وفى ألا يتجاسر أحد على الإقامة على مقربة منهم؛ وهم يعتقدون فى الوقت نفسه أنهم سيكونون بذلك آمنين لعدم خوفهم من التعرض لغزو مفاجئ ... والسرقة خارج حدود المدينة ليست مدعاة للخزى، فهى تساعد، كما يقولون، على تدريب الشباب والحد من الكسل (يوليوس قيصر، *المرجع السابق*، الكتاب السادس الفصلين الثانى والعشرين والثالث والعشرين).

«ويتمثل أوج العار فى تخلى الفرد عن درعه ... وهو يبلغ الأم أو الزوجة بالجروح التى أصابته، ولا تخشى هذه أو تلك عدّ الإصابات وتقدير مدى حجمها، وكل منهما تقدم للمحاربين، وهم فى المعمعة الغذاء وتحرضهم... وإذا سئمت المدينة التى نشأوا فيها الفراغ نتيجة للسلم الطويل فإن رؤساء الشباب يسعون إلى محاربة أى شعب أجنبى: ذلك أن هذه الأمة تكره الراحة تماما! وهم فى حاجة الى سيادة القوة والسلاح لإعاشة العديد من الرفاق ... ولن تتمكنوا من إقناعهم بحرث الارض وانتظار المحصول بقدر ما يمكنكم دفعهم إلى تحدى الأعداء والسعى إلى الإصابة بجروح. وإنه لكسل وجبن فى نظرهم أن يحصل المرء بعرقه على ما يمكنه أن يوفره لنفسه بالدم...

«وهم يتدثرن أيضا بفراء البهائم، وهو فراء أشد خشونة باتجاه نهر الراين وأكثر تأنقا فى الداخل، حيث لا توفر التجارة مطلقا أى زينات أخرى. وهم يختارون هناك البهائم ويجملون جلودها بتلطيخها بالألوان ... وتخلو جنازاتهم من أى أبهة؛ وكل ما فى الأمر أنهم يحرصون على حرق جثمان الشخصية الشهيرة بنوع خاص من الخشب». (تاسيتوس ، *عادات الجرمان*، الفصل السادس والسابع والرابع عشر والسابع عشر والسابع والعشرين).

وكما نرى، كان الرجل عماد هذا النوع من الحياة وكان دور المرأة فى الحياة الاقتصادية محدودا للغاية بالمقارنة مع دورها فى المجتمعات الزراعية الزنجية. ولذا فإن الأسرة الأبوية المترحلة تشكل جنين التنظيم الاجتماعى الأوحد. وقد نظم مبدأ الأسرة الأبوية حياة الهندو- أوروبيين منذ عهدى الإغريق والرومان حتى القوانين النابوليونية وأيامنا هذه. ولذا جاءت مشاركة النساء فى المسائل العامة متأخرة فى المجتمعات الأوروبية بالنسبة للمجتمعات الزنجية(*). وإذا كنا نجد عكس ذلك ظاهريا فى بعض أنحاء إفريقيا السوداء فهو يرجع إلى تأثير التقاليد الإسلامية.

نحن إذن بصدد نوعين من التصورات الاجتماعية التى اصطدمت ببعضها وتراكبت معا فى حوض البحر الأبيض المتوسط.

وكان السبق للتأثير الزنجى بالنسبة للتأثير الهندو - أوروبى طوال العصر الإيجى. وكانت آنذاك كل شعوب حوض البحر الأبيض المتوسط زنجية أو زنجوية التقاطيع: المصريين والفينيقيين، وعندما كانت من جنس أبيض كانت تخضع للنفوذ الاقتصادى والثقافى المصرى- الفينيقى وتقع تحت التأثير الدينى المباشر لمصر : اليونان فى عصر البيوثيين؛ وآسيا الصغرى وطروادة؛ والحيثيين، حلفاء مصر؛ والاتروسك فى شمال ايطاليا حلفاء الفينيقيين؛ وبلاد الغال التى تمر بها القوافل الفينيقية. وكان هذا النفوذ الزنجى يمتد حتى وصل إلى الجرمان الذين كانت بعض قبائلهم تعبد ايزيس الزنجية.

«ووفقا لما أورده تاسيتوس، كان قسم من السويڤيين، وهم شعب جرمانى، يقدم القرابين لإيزيس؛ وقد تم العثور فعلا على نقوش تربط بين ايزيس ومدينة نوريا المؤلهة؛ ونوريا هى الآن نومركت بمقاطعة ستيريا. وهناك (فى فرنسا) أكثر من محراب لإيزيس، واوزيريس، وسيرابيس، وانوبيس، فى فريجوس، ونيم، وآرل، ورييز (مقاطعة جبال الالب السفلى)، وباريزت (بمقاطعة ايزير)، وماندويل (مقاطعة الجار) وبولونيا (مقاطعة جارون العليا)، وليون، وبزانسون، ولانجر، وسواسون. وكانت ايزيس تُعبد فى مولان، وسيرابيس فى يورك وبروجام كاسل، وكذلك فى بانونيا ونوريك». (*ديانات الكلتيين والجرمان واصقالبة القدامى*، بقلم ى.ڤنديز، سلسلة «مانا» المجلد الثالث، ص ٢٤٤).

(*) ولم يسمح أسلافنا للنساء بالتصرف فى أى مسألة، حتى ولو كانت منزلية، بدون إذن خاص. وقد واصلوا إخضاعهن لتبعية آبائهن وإخوتهن وأزواجهن. وبالنسبة لنا، سنسمح لهن عما قريب، إذا شاءت الأقدار، بالمشاركة فى إدارة الشؤون العامة والتردد على المحافل والاستماع إلى الخطب والتدخل فى تصرفات المجالس العامة... ومزايا حضورهن ، وهو ما يطالبن به اليوم ،أقل من تلك التى نحرمهن منها تقاليدنا وقوانيننا، وإن كان ذلك لا يروق لهن.. وعليكم بإحصاء كافة الترتيبات التشريعية التى حاول بها أسلافنا تقييد استقلالية النساء وإخضاعهن لأزواجهن، وانظروا كم من مشاق نواجهها ، رغم كل تلك العراقيل القانونية، لإلزامهن بواجباتهن. فماذا بعد لو تركتم لهن الحبل على الغارب للتصم تلك الروابط الواحدة تلو الأخرى، والتحرر من كل تبعية والتشبه تماما بأزواجهن، فهل تعتقدون أنه سيكون من الممكن تحملهن؟ لن يصبحن متساويات معنا، إذ سرعان ما سيسيطرن علينا». (تيت - ليف: *تاريخ روما*، الكتاب الرابع والثلاثون؛ خطاب كاتون تأييدا للإبقاء على قانون أوبيا المعارض لتحرير النساء، ١٩٥ ق.م.).

ويعود على الأرجح إلى نفس تلك الفترة أصل «العذراوات السوداوات» اللاتى لاتزال تعبد حتى الآن فى فرنسا (نوتردام دى سو- تير، وعذراء شارتر السوداء). وكانت هذه العبادة متأصلة إلى حد اضطرت معه الكنيسة إلى تكريسها(*). بل أن اسم عاصمة فرنسا قد تفسره عبادة ايزيس.

«إن اسم *باريسى* [PARISII] قد يعنى «معبد ايزيس» لأنه كانت توجد على ضفاف النيل مدينة بهذا الإسم، والمقطع اللفظى الهيروغليفى بير [PER] يتخذ شكل معبد فى مقاطعة واز» پيير هوباك: *قرطاچنة*، الناشر: بلينان، ١٩٥٢، ص-١٧٠).

ويشير مؤلف هذا الكتاب إلى أن السكان الأوائل للموقع الراهن لمدينة باريس الذين حاربوا يوليوس قيصر كانوا يدعون الباريسيين، دون أن ندرى اليوم لماذا اطلقت عليهم تلك التسمية. ولكن عبادة ايزيس كانت منتشرة على نطاق واسع، كما نرى، فى فرنسا وخاصة فى الحوض الباريسى، وكانت توجد هناك فى كل مكان معابد لإيزيس، وفقا للمصطلحات الغربية، ولكن من الأسلم أن نقول «دور ايزيس» لأن تلك المعابد كانت تسمى باللغة المصرية بير [PER] وهى تعنى بكل دقة باللغة المصرية القديمة وكذلك باللغة الولُوف الحالية، السياج الذى يحيط ببيت. واسم باريس يعود على الأرجح إلى الجمع بين الكلمتين بير - *ايزيس*، وهى الكملة التى تشير فعلا الى مدن فى مصر، كما أورد ذلك هوباك (نقلا عن ماسبيرو).

وهكذا يكون أصل تسمية عاصمة فرنسا مصدره فى واقع الأمر من لغة الولُوف الراهنة، ويتبين لنا أيضا مدى انقلاب الوضع!

وهناك سمات ثقافية أخرى مشتركة بين أقصى الغرب وإفريقيا السوداء. فكلمة *كير* [KER] تعنى بيت باللغات المصرية والولُوف والبريتانية، *ودانج* [DANG] تعنى مُقام بالولُوف والايرلندية، ودون [DUN]تعنى جزيرة بالولُوف كما تعنى أيضا مكاناً يحيط به سياج، ومعزول، باللغة الكلتية وبالتالى بالإيرلندية أيضا. ومن هنا جاءت أسماء مدن فرنسية مثل فير- دون، وشاتوه - دون، ولوج -دون- اوم (الاسم الأصلى لمدينة ليون) ..الخ.

وهناك تقارب آخر ملفت للنظر بدرجة أكبر ويستحق التمعن فيه. «فالعلاقة بين المفرد والجمع يتم التعبير عنها بشكل غريب فى عدد كبير من أسماء الوصف البريتانية، كما يوجد شئ مماثل الى حد ما بلغة الغال. فالمفرد فى هاتين اللغتين يتكون على العكس من الجمع مضافا اليه *إن* [ENN]. ومثال ذلك: ستيرد (نجوم) ومفردها ستيرد-*إن*، *ودلوز* (سمك التروتة) ومفردها *دلوز - إن*.

«ويتعين أن نبحث عن هذا المعنى المتميز للمقطع المضاف للدلالة على المفرد، فى مغزاه كاسم

(*) لم يسمح تعصب الكنيسة فى العصور الوسطى وعدم تسامحها بإرجاع تاريخ تلك العبادة إلى ذلك العصر. اما الافتراض بأن هذه العبادة جاءت على أيدى الصليبيين فمعناها أن الذين ذهبوا لمحاربة «الهرطقة» جلبوا معهم بدعة أخرى.

تصغير». (والتر ڤون ڤارتبورج: *مشاكل ومناهج علم اللسان*، المطابع الجامعية الفرنسية، ١٩٤٦، ص٧٠).

ويتعين أن ننسب إلى نفس ذلك التأثير تواجد معبودات آنى [ANI] لدى الإيرلنديين والأتروسك.

والتأثير المصرى - الفينيقى على الأتروسك واضح تماما، وكذلك على السابيين الذين يشير كل من اسمهم وعاداتهم إلى الحضارات الزنجية الجنوبية.

والتمييز بين مهدى الحضارة الذى تحدثت عنه منذ قليل يتيح تجنب أى خلط أو غموض بخصوص أصل الشعوب التى التقت معا فى شبه الجزيرة الايطالية.

كان السابيون والأتروسك يدفنون الجثث، وكان الأتروسك يعرفون التابوت المصرى ويستخدمونه، كما أن هذه الشعوب كانت زراعية، وكانت حياتهم تجرى على النظام الأمومى. وقد نقل الأتروسك عناصر الحضارة المصرية إلى شبه الجزيرة الايطالية: الزراعة، والفنون، والديانة، وفن التأليه. وقد استوعب الرومان جوهر تلك الحضارة عندما قضوا على الأتروسك، وتخلصوا فى الوقت نفسه من العناصر الغريبة على مفهومهم الأبوى الأوروبى - الأسيوى. وهكذا تم لفظ النظام الأمومى الزنجى تماما بعد العهد الانتقالى لأسرة تاركان، آخر الملوك الأتروسك. وليست قصيدة *الأنبيد* الملحمية لڤرجيليوس الرومانى، إلا تعبيرا عن إدراك ذلك الخط الفاصل الذى نجد المقابل له فى ثلاثية *اوريستيا* الدرامية لأخيلوس فى اليونان.

إنها نهاية عالم قديم وبداية عالم جديد، فقد أزيحت الثقافة الزنجية من الحوض الشمالى للبحر الأبيض المتوسط بجوانبها الغريبة إلى أقصى حد عن المفاهيم الأورو - أسيوية، ولن يكون هناك وجود، لدى الشعوب الفتية، لتلك الثقافة التى أتاحت لها التوصل إلى الحضارة إلا على شكل أساسى ظل راسخا مع ذلك حتى أننا نستطيع أن نحدد حاليا مدى حجمه. وبوسعنا أن نضيف إلى ذلك أن اللبؤة الرومانية تعيد بالأحرى إلى الأذهان الطوطمية الزنجية الجنوبية وأن مصدر اسم السابيين هو على الأرجح سبأ.

وهكذا يكون تاريخ البشرية واضح المعالم تماما، إذا أردنا ذلك. فعلى الرغم من أعمال السلب والنهب والتدمير المتكررة، منذ قمبيز والرومان ومسيحيى القرن السادس الميلادى فى مصر، والڤاندال.. الخ، يتوفر لدينا قدر كاف من الوثائق لكتابة تاريخ واضح للبشرية. والغرب الحالى يدرك ذلك تماما، ولكن الشجاعة الفكرية والمعنوية تعوزه فنجد أن الكتب المدرسية يشوبها الغموض المتعمد. ولذا يتعين علينا، نحن الأفارقة، أن نعيد كتابة تاريخ البشرية بأسره من أجل استنارتنا نحن واستنارة الآخرين أيضا.

ويوسعنا أن ننسب الى نفس التأثير الزنجي الواقع اللغوى الصوتى الذى أفادنا به فون ڤارتبورج الذى نوه بطابعه العام.

«إن تحويل ا لـ [ll] الى دد [dd] (وهو صوت ينثنى فيه طرف اللسان ليلمس سقف الحلق، بل وأحيانا الجزء السفلى من اللسان) فى سردينيا وصقلية وابولى وكلابريا، لا يمثل تغييرا أقل شأنا من حيث المبدأ ولا أهمية أقل قدرا. فوفقا لمرلو [MERLO]، ترجع هذه الطريقة فى النطق إلى الشعب المنتمى إلى حوض البحر الأبيض المتوسط، والذى تواجد فى البلاد قبل أن تصبح رومانية. ومع أنه توجد أصوات من هذا النوع أيضا فى لغات أخرى،إلا أن التحول فى النطق الذى تم هنا على نطاق واسع للغاية وفى مجال يمتد عبر البحار، له طابع قديم بشكل واضح تماما لدرجة أن مفهوم مرلو يبدو حقيقيا فعلا. وهناك بالطبع اعتراض رولفس [ROHLFS]بان هذا النوع من الأصوات يوجد فى جهات أخرى أيضا ولكنها حالات تؤكد بالأحرى وجهة نظر مرلو. فقد كشف پوت [POTT] وبنفي [BENFEY] منذ مدة طويلة أن ذلك النطق الذى أدخلته اللغات الآرية التى كان يتكلمها غزاة الديكان جاءت عن طريق الشعوب الدراڤيدية الأصل». (ڤون ڤارتبورج، *المرجع السابق*، ص ٤١).

وهكذا نجد أن إدخال تلك الأصوات فى اللغات الآرية بالهند، عندما اجتاحت هذا البلد شعوب شمالية جلفة، يعود إلى تأثير الزنوج الدراڤيديين. ويوسعنا أن نتصور أن ذلك كان شأن حوض البحر الأبيض المتوسط أيضا؛ خاصة وأن اللغة المصرية واللغات الزنجية مشبعة بتلك الأصوات.

ومن جهة أخرى، كان الفلاحون يوارون موتاهم التراب فى المكسيك قبل وصول كريستوف كولومبس، بينما كانت تحرق جثث المحاربين. ويمكن تفسير ذلك من خلال التمييز المذكور آنفا، بين المهدين الأولين للبشرية. ويبدو أن شعوبا من الجنس الأبيض جاءت من الشمال وزنوجا جاءوا من افريقيا عن طريق المحيط الأطلسى قد التقوا فى القارة الأمريكية، واندمجوا تدريجيا فنشأ عن ذلك على الأرجح الجنس المائل للإصفرار.

بيد أنه يتعين أن أقدم هنا توضيحا. فعندما أقول إن العرب واليهود، أى الفرعين العرقيين اللذين نعرفهما الآن تحت تسمية الساميين، هم خليط من الزنوج والبيض، فإن ذلك يتفق مع حقيقة تاريخية يمكن إثباتها على الرغم من الكتمان الذى أحاطها طويلا. وعندما أقول إن الصُفر هم خليط من السود والبيض، فليس ذلك إلا افتراضا للعمل به، يستحق الاهتمام به للأسباب التى سقتها آنفا.

والافتراض القائل بأن الإنسان تواجد فى كل مكان فى آن واحد، افتراض جذاب علميا، ولكنه سيظل غير مقبول طالما لم نعثر على حفريات بشرية فى القارة الأمريكية التى لم تكن مغمورة بالمياه فى العصر الجليدى الرابع الذى ظهر فيه الانسان، وكانت بها كافة المناطق المناخية ابتداءً من القطب الجنوبى حتى القطب الشمالى.

ويؤكد كل ما سبق أهمية إجراء دراسة منتظمة للمصادر اللغوية التى انتقلت من اللغات الزنجية (المصرية وغيرها) إلى اللغات الهندو- أوروبية طوال فترة الاتصال هذه. ويمكننا أن نسترشد فى ذلك بمبدأين: أولا، أسبقية الحضارة وأشكال التنظيم الاجتماعى فى البلاد الزنجية، مثل مصر؛ ثانيا كَوْن الكلمات المعبرة عن فكرة تنظيم اجتماعى أو واقع حضارى، مشتركة بين اللغة المصرية واللغة اللاتينية الإغريقية، دون أن يكون لها أثر فى اللغات الأخرى المنتمية إلى الأسرة الهندو- أوروبية.

ومن الأمثلة فى هذا الصدد:

ماكا : محارب قديم باللغة المصرية (پيپيريه).

ماج : كبير، محارب قديم، مهيب بالوُلوف

كاى ماج : الكبير، المهيب بالوُلوف

كايا ماجان : الكبير، الملك، ... وهو اللفظ الذى كان يستخدم للإشارة إلى امبراطور غانا من القرن الثالث حتى عام ١٢٤٠. وكانت اللغة المستخدمة السراكوله (أو لغة مقاربة لها). وعلى أى حال فمن الواضح أنها كانت مشابهة للوُلوف.

مانيوس : كبير باللغة اللاتينية: ولم يرد ذكر للاتينيين فى التاريخ إلا ٥٠٠ سنة قبل الميلاد.

كارل مانيوس : شارلمان، شارل الكبير، أول امبراطور فى الغرب تم تتويجه فى عام ٨٠٠ م.

ميجا : كبير باليونانية.

ولا نجد المصدر مانيوس فى مفردات اللغات الانجلو سكسونية والجرمانية اللهم إلا كاستعارة واضحة من اللاتينية.

ماك : اسم علم اسكتلندى يؤكد ما جاء من قبل.

كورا : آلة موسيقية فى إفريقيا الغربية المتكلمة بالفرنسية؛ كور : أغنية (باليونانية).

رع : إله مصرى ترمز اليه الشمس، وهو لقب لفرعون.

روج :إله سماوى عند السيرير، يتمثل صوته فى الرعد.

ركس : ملك باللاتينية.

ولانجد فى اللغات الانجلو - جرمانية إلا كلمتى *كينج وكونيج*.

وبوسعنا أن ندرس بنفس الطريقة كلمة هيمن (ومعناها الزواج بالفرنسية) التى تعود بالأحرى الى النظام الأمومى الزنجى وتعيد إلى الذهن كلمة " مَن" التى تعنى الانتساب إلى الأم بالوُلوف، وتعنى

أيضا الثدى بالمصرية والوُكوف، وتشير إلى أول ملوك مصر واسمه المحَور مينا، وهكذا يتضمن هذا الاسم فكرة نقل السلطة السياسية عن طريق الانتساب للأم. ولذا فليس من باب المصادفة أن الملك السودانى الذى وضع قواعد أول عبادة للشمس فى النوبة يحمل اسم من - ثيو. وهو معاصر لمينا أو سابق عليه.

وكذلك كلمة *جلبٌ*، وتعنى كتلة من الطين باللاتينية، وجب التى تعنى الأرض بالمصرية.

ومن الممكن دراسة مشتقات كلمة *تيران* (*طاغية*)، والعديد من الكلمات الأخرى.

والواقع أنه عندما يقول النازيون إن الفرنسيين من سلالة زنوج، فإن ذلك يقوم على أساس تاريخى حقيقى من حيث أنه يشير إلى اتصال الشعوب ببعضها فى عصر ايجه، هذا مع استبعاد ما يقصده النازيون من تحقير من شأن الفرنسيين. ولكن الأمر ليس صحيحا بالنسبة للفرنسيين وحدهم، بل هو أكثر من ذلك بالنسبة للاسبان والايطاليين واليونانيين.. الخ أى جميع تلك الشعوب التى يريدون تبرير لونها الأقل بياضا بالمقارنة مع ألاوروبيين الآخرين، بسكناها الجنوب.أما الجانب الباطل فى نظريات النازى فهو مسألة التفوق العرقى، بيد أنه من المؤكد منذ العصر الجليدى الرابع أن الجنس الشمالى ذا العيون الزرقاء والشعر الأشقر هو الذى كان الأقل تهجينا. بل إن تلك النظريات النازية تثبت ما قلته من قبل حول سوء نوايا المتخصصين. فهى تبين،فى الواقع أن التأثير الزنجى على منطقة البحر الأبيض المتوسط ليس سرا بالنسبة لأى عالم. وهم يتظاهرون بأنهم يجهلون ذلك، ولكنهم يستخدمونه عند الحاجة.

ووفقا للينورمان، فإن الفلسطيين [PHILISTINS] وهم يافثيون من جنس أبيض، اجتاحوا شواطئ بلاد كنعان فى القرن الرابع عشر قبل الميلاد. وقد ألحق بهم الهزيمة رمسيس الثالث الذى حطم أسطولهم وحال بذلك دون تمكنهم من العودة عن طريق البحر. وهكذا اضطر فرعون إلى إيواء شعب بأسره -على نحو ما- لحرمانه إياه من إمكانية الخروج. وقد أعطاهم أراضى استقروا فيها. وبعد قرنين من التطورات، دمر الفلسطينيون صيدا فى القرن الثانى عشر، فى نفس الفترة التى تلقت فيها طرواده نجدة من ملك مصر مكونة من ١٠ آلاف أثيوبى، وتم تدميرها على يد الإغريق. وأسس الفينيقيون صور التى أوَت لاجئى صيدا وغت.

وأصبحت اسبانيا مرسى فى الطريق إلى موربيهان (فرنسا) وجزر سورلنج (انجلترا، ايرلندا) حيث كان الفينيقيون يتوجهون لجلب القصدير الذى كانوا يستخدمونه لصنع البرونز.

وتم استعمار اسبانيا بسرعة، وبلغ التهجين حدا كبيرا حتى أن الاغريق اعتبروا جنس أهالى شبه الجزيرة الايبرية (*طارسيس*) من أصل كنعانى. واذا كان الأسبان الآن أشد الاوروبيين اسمرارا، فإن هذا التهجين يعود بدرجة أكبر إلى ذلك الاختلاط، لا إلى اتصالهم مؤخرا بالعرب - هذا مع استبعاد

التأثيرات العرقية التى كان من الممكن أن تنتج عن تواجد الجنس الأسود الجريمالدى فى جنوب أوروبا فى نهاية العصر الحجرى الجديد.

«وبعد قرن واحد من تأسيس قابس، كان سكان صور يسيطرون كسادة لا منازع لهم، على أغنى وأخصب مناطق باتيكا (الأندلس تقريبا فيما بعد)، وكل وادى البيتيس (الوادى الكبير) وعلى التورديتانيين والتوردول وعلى امتداد بلاد الباستول. وقد نقلوا هناك أعدادا كبيرة من الليبيين - الفينيقيين لكى يتوفر لديهم مستوطنون يتولون شؤون الزراعة. وقد امتزج جنسهم مع الأهالى الأصليين إلى درجة أن سكان مدن توردیتانیا فى أيام سترابون، كانوا فى غالبيتهم من أصل كنعانى، حسب قول هذا الجغرافى الإغريقى. أما الذين كانوا يسكنون الشواطئ المجاورة لملقا وأدبير فكانوا لا يزالون يحملون اسم الباستولوفينيقيين أو الليبى - فينيقيين حتى فى ظل سيطرة الرومان، وتفيدنا الأوسمة بأن اللغة الفينيقية كانت لا تزال تستخدم فى نفس الفترة فى مدن قابس وملقا وصفاقس وأدبير». (لينورمان، *المرجع السابق*، ص ٥٠٩- ٥١٠).

وعليه، فإن الاستيطان الرومانى تغلب على الاستيطان الفينيقيى، فى ايطاليا أولا، حيث تم تدمير كل ما يمكن أن يبقى على ذكرى الأتروسك (الآثار، اللغة ...) ثم فى اسبانيا وإفريقيا بالقضاء على قرطاجنة.

وكانت قرطاجنة إحدى المستوطنات الفينيقية الأخيرة التى أسستها الملكة اليسار على الشاطئ الإفريقى فى عام ٨٢٢ ق.م.، فى عهد ليكورجوس باليونان.

ومنذ ١٤٥٠ ق.م. كان الليبيون البيض، وهم من شعوب البحار، أو *الريبو* قد اجتاحوا شمال إفريقيا، غرب مصر. وقد توفر لهم الوقت للانتشار على امتداد الشاطئ باتجاه الغرب، وذلك قبل تأسيس قرطاجنة كما أفادنا بذلك هيرودوت. وكانت المناطق الداخلية مأهولة إذن بزنوج من سكان البلاد الأصليين منذ العهود القديمة وبقبائل ليبية من جنس أبيض ومنها قبيلة *الماس*. وتم التهجين تدريجيا، على غرار اسبانيا، وكان القرطاجنيون زنجويين، سواء كانوا من أبناء الشعب أو منتمين إلى الطبقة الحاكمة. ومن المعروف أن القائد القرطاجنى هانيبال الذى كاد أن يدمر روما، ولايزال يعتبر من أعظم القادة العسكريين الذين عرفهم العالم، كان من أشباه الزنوج. وبوسعنا أن نقول إن هزيمته أذنت بنهاية تفوق العالم الزنجى أو شبه الزنجى. وانتقلت الشعلة منذ ذلك العهد إلى السكان الأوروبيين فى شمال البحر الأبيض المتوسط. وقد انتشرت بعد ذلك حضارة هذا البحر التقنية من شواطئه نحو داخل القارة، على عكس ما جرى فى افريقيا. وهكذا بدأت سيطرة شمال البحر الأبيض المتوسط على جنوبه، وظلت أوروبا تسيطر منذ ذلك العهد على إفريقيا حتى أيامنا هذه، فيما عدا الفتح الإسلامى، وذلك لأن التغلغل الأوروبى فى إفريقيا والسيطرة التى اكتملت فى نهاية القرن التاسع عشر، بدأ مع انتصار روما على قرطاجنة.

وعندما ندرس الحضارة التى قامت فى حوض البحر الأبيض المتوسط يتعين علينا أن نؤكد الدور الأساسى الذى قام به الزنوج وأشباه الزنوج فى فترة كانت فيها الأجناس الأوروبية لاتزال همجية وتكاد توشك أن تصبح أهلا للتَحَضُّر.

«غير أنهم (الفينيقيين) كانت لديهم فى كل مكان تلك الوكالات التى كان لها تأثير هائل على مختلف البلدان التى أقاموها فيها. وقد أصبحت جميعها نواة لمدن كبيرة، ذلك لأن الأهالى الأصليين الذين كانوا لا يزالون من الهمج، راحوا يتجمعون بسرعة حول الصناعات الفينيقية تجتذبهم المزايا التى وجدوها فيها، وإغراءات الحياة المتحضرة. وكانت جميع هذه الوكالات مراكز نشطة لنشر الصناعة والحياة المادية. والشعب الهمجى لا يزاول التجارة النشطة على مدى طويل مع شعب متحضر دون أن يستعير شيئا فشيئا بعض ثقافته، خاصة عندما يتعلق الأمر بأجناس ذكية وأهل للتقدم كما كانت أجناس أوروبا. وقد تولدت لديهم احتياجات جديدة، فهم يتطلعون بنهم إلى المنتجات المصنعة التى يحضرونها لهم، ويكتشفون ذلك الترف الذى لم يكن قد تبادر إلى أذهانهم من قبل. وسرعان ما دفعتهم الرغبة فى معرفة أسرار تلك الصناعات والإلمام بالفنون التى تنتجها، والعكوف على استخدام الموارد التى توفرها أراضيهم بأنفسهم، بدلا من مواصلة توريدها لهؤلاء الأجانب الذين يجيدون الاستفادة منها.

«وهذا التأثير المباشر للحضارة على البربرية متأصل تماما فى الطبيعة البشرية حتى أنه يحدث بطريقة شبه لا واعية على الرغم من الحساسيات والحقد والعداء بل والحروب التى قد تنشب بين التجار والشعوب التى يتعاملون معها. وقد حدث ذلك بين الفينيقيين والإغريق، مع أن العلاقات لم تكن ودية على الأقل فى البداية». (لينورمان، *المرجع السابق*، ص٥٤٣).

وتعود تجارة الرقيق الأبيض مع العالم الأسود، والتى لا يمكن أن نقلل من دورها فى تغير لون بشرة المصريين إلى أفنتح، إلى عهد الهيمنة الفينيقية هذه. والنص التالى لا يترك مجالا للشك حول حقيقة تلك التجارة ومداها، وكذلك على مدى التباين بين لون المصريين السود والبيض فى الشواطئ الشمالية:

«السفن الفينيقية المحملة بسلع واردة من مصر واشور ترسو فى ميناء المدينة الإغريقية، وهى تبسط حمولتها على الشاطئ الرملى طوال خمسة أو ستة أيام لإتاحة الوقت للسكان المقيمين داخل الأراضى للحضور والمشاهدة والتبضع. وبدافع من الفضول تتقدم نساء البيلوبونيز بلا ارتياب حتى يقتربن من السفن، ومن بينهن ايو ابنة الملك ايناخوس. ويهجم القراصنة عند الإشارة المصطلح عليها على الإغريقيات الجميلات ويختطفونهن. وترفع السفينة مرساها بلا إبطاء وتقلع إلى مصر: وكان على فرعون أن يدفع ثمنا باهظا لقاء تلك الفتيات ذوات البشرة البيضاء والتقاطيع الصافية للغاية

المناقضة تماما لتقاطيع القطيع البشرى الذى كانت تحضره جيوشه من سوريا». (لينورمان، *نفس المرجع*، ص ٥٤٣).

وبوسعنا أن نذكر أيضا فى إطار هذه الوقائع اختطاف أومايوس، ابنة ستيسيوس، وهو من أعيان سيروس، على يد الفينيقيين واختطاف باريس، ابن بريام لهيلينا، الذى جرى على الأرجح فى ظروف مشابهة، اذا ما تذكرنا أن فرعون مصر أرسل عشرة آلاف أثيوبى لإغاثة طروادة التى كان يتولى الدفاع عنها الملك بريام وابنه باريس.

وكان تهجين الكنعانيين أسرع مما كان بين المصريين نظرا لقلة عددهم نسبيا ولتواجدهم على طريق هروب هذه الشعوب البيضاء التى انتهى بها الأمر إلى غزوهم من كافة الأنحاء. ويبدو أن الشعب اليهودى، أى أول فرع أبيض سُمى الجنس السامى، ابتداء من اسحاق، لم يكن إلا نتاجا لذلك التهجين كما رأينا ذلك آنفا. ولذا فقد كتب مؤرخ لاتينى يقول إن اليهود من أصل زنجى.

أما الروح الفجة والتجارية التى يتسم بهما سفرا التكوين والخروج فى التوراة، فتعكس الظروف التى واجهها الشعب اليهودى منذ البداية.

كما أن الإنتاج الفكرى لليهود منذ أصوله حتى أيامنا هذه تفسره هو أيضا الظروف الدائمة التى عايشوها؛ فقد شكلوا مجموعات صغيرة من عديمى الجنسية وسط الأمم، منذ تشتتهم، وتعرضوا دائما لقلق مزدوج: ضمان وجودهم المادى وسط بيئة معادية فى الكثير من الأحوال، والخوف من التعرض لعمليات الاضطهاد الدورية. ففى الماضى، كانت الظروف الطبيعية فى السهوب الأوروبية - الأسيوية لا تتيح أى أوهام ولا أى خمول، وإذا كان الانسان لم يقم هناك حضارة رائعة فإن الأمر يرجع إلى البيئة المعادية له تماما. أما الآن فإن الظروف السياسية والاجتماعية هى التى تحرم اليهود من أى دعة فكرية. فاليهود لم يصبح لهم ذكر فى التاريخ إلا مع قدوم النبيين داود وسليمان، أى فى بداية الألف الأولى قبل الميلاد، فى عهد ملكة سبأ. وكانت قد مضت عدة آلاف من السنوات على الحضارة المصرية، ومن باب أولى الحضارة النوبية السودانية.

وقد استولى نابوزنخسر على البلد فيما بعد ونقل السكان اليهود إلى بابل؛ وتلك هى الفترة المسماة مرحلة الأسر.

وقد تفرق اليهود شيئا فشيئا واختفت الدولة اليهودية بسرعة ولم تعد إلى الظهور من جديد إلا مع الصهيونية الراهنة : بن جوريون.

ولقد أثبتت بكل وضوح التنقيبات الأنتروبولوجية القليلة التى تجاسر البعض على القيام بها أن الفينيقيين لم تكن بينهم وبين النموذج السامى الرسمى أى جوانب مشتركة.

ولما كان الفينيقيون قد تنقلوا فى كافة أرجاء حوض البحر الأبيض المتوسط، فقد جرى البحث عن هياكلهم فى مختلف أنحاء ذلك الحوض. وهكذا تم العثور على جماجم من المفترض أنها لفينيقيين، فى غرب ميناء سرقوصة بجزيرة صقلية. ولكن هذه الجماجم مستطيلة وبارزة الفكين، أى أنها ذات سمات زنجوية.

« أما جماجم ايطاليا نيكاسترو، فكل ما نعرفه حول هيئتها وتكوينها يتلخص فى السطور التالية : كانت الجماجم التى تم فحصها منخفضة الصدغين ولها شكل المعيّن تقريبا، ومجموعة الأسنان بارزة للغاية وكاملة ومرتبة بشكل جيد ... والشكل المستطيل ذو الفكين الناتئين المميز لجماجم الجنس المدفون (جماجم تم العثور عليها فى غرب سرقوصة) ». (اوچين پيتار: *الأجناس والتاريخ*، سلسلة *تطور البشرية*، نهضة الكتاب، ١٩٢٤، ص ١٠٨).

وقد نقل إلينا أيضا اوچين پيتار وصفا لبرتولون يتعلق بالقرطاچنيين والباسك، وهم فى اعتقاد برتولون فرع من القرطاچنيين. وهذا الوصف هام من حيث أن صاحبه يقدم فى الواقع نموذجا زنجيا دون أن يدرى:

«لقد صور لنا (برتولون) الأشخاص الذين اعتبرهم السلالة الحالية للقرطاچنيين القدامى، على الوجه التالى: كانت بشرة هؤلاء الأفراد سمراء للغاية. ويرتبط ذلك باعتياد الفينيقيين على صبغ تماثيلهم بلون بنى ضارب إلى الاحمرار لكى يعطى ذلك لون البشرة ... والأنف مستقيم ومقور قليلا أحيانا. وهو لحيم فى الكثير من الأحوال، ومنتفخ فى طرفه فى بعضها. والفم متوسط وعريض إلى حد كبير فى بعض الحالات، والشفاه غليظة فى أغلب الأحوال، والوجنتان بارزتان بدرجة قليلة». (پيتار، *المرجع السابق*، ص ٤٠٩).

ومن الواضح أننا بصدد وصف للزنجى أو على الأقل للزنجوى، وذلك رغم التوريات.

وهناك فقرة أخرى لنفس المؤلف تبين أن الأرستقراطية القرطاچنية كانت كلها ذات انتسابات زنجية.

«وهناك عظام أخرى تم العثور عليها فى قرطاچنة، تعود إلى مرحلة صراعها مع روما ومودعة فى متحف لاڤيچيرى، وهى لأفراد تم اكتشافهم داخل توابيت متميزة تخص على مايبدو النخبة القرطاچنية. وكل الجماجم هنا تقريبا مستطيلة ... والوجه قصير إلى حد ما ... » (ص ٤١١).

والجمجمة المستطيلة والوجه القصير يميزان الزنجى. وهناك فقرة أخرى أهم لنفس المؤلف، وهى تثبت أن الطبقة العليا فى المجتمع القرطاچنى كانت زنجية أو زنجوية.

«إن الذين زاروا، خلال السنوات الأخيرة، متحف لاڤيچيرى فى قرطاچنة، يتذكرون ذلك التابوت الفخم لكاهنة تانيت، الذى اكتشفه ب.ديلاتر. وهذا التابوت المحلى بالزخارف أكثر من أى تابوت

آخر، تم اكتشافه هناك، وهو أجملها من الناحية الفنية، وتمثل صورته الخارجية على الأرجح الكاهنة ذاتها، مما يشير إلى أن التابوت كان يخص بالضرورة شخصية دينية رفيعة المقام. وكانت المرأة المودعة داخلة متميزة بسماتها الزنجوية. لقد كانت إفريقية الجنس!» (ص ٤١٠).

والاستنتاج الذى يستخلصه المؤلف من هذا النص هو أن عدة أجناس كانت تتعايش معا فى قرطاجنة. ونحن نوافقه على ذلك، كما يتضح من كل ماجاء آنفا. ولكن هناك استنتاج آخر يفرض نفسه بدرجة أكبر لم يستخلصه المؤلف، وهو أن من بين تلك الأجناس المتعايشة معا، كان الجنس الذى يحتل أعلى المراتب الاجتماعية ويحظى باحترام أكبر ويتولى القيادة السياسية، وترجع إليه تلك الحضارة، كان زنجويا، حسب الأدلة المادية التى تم العثور عليها، اللهم إلا إذا نبع التفسير من أفكار مسبقة.

فلو افترضنا أن قنبلة ذرية سقطت فوق باريس وتركت المدافن سليمة، فإن الأنتروبولوجيين الذين سيفتحون المقابر لتحديد نوعية الجنس الفرنسى، سيجدون أيضا أن الفرنسيين لم يكونوا الوحيدين المقيمين فى باريس. ومن جهة أخرى لا يمكن أن نتصور أن الجثمان الموجود فى أفخم مقبرة فريدة من نوعها، مثل مقبرة نابليون فى الانفاليد، يخص عبدا أو شخصا ما مجهول الهوية!

ولذا فمن الممكن تحديد سمات الجنس الفينيقى بدقة أشد لو أرادوا ذلك، وكذلك كل الأجناس الزنجية الأخرى الشبيهة بها والتى يعود إليها فضل قيام الحضارة.

بل ومن الممكن تحقيق ذلك انطلاقا من اعتبارات انتروبولوجية بحتة، على الرغم من أن الخبرة تثبت أنه يمكن الدفاع عن كل الأطروحات المبتغاة فى هذا المجال.

إن الملايين تنفق للحفر فى أراضى صلصالية فى بلاد مابين النهرين، على أمل العثور على وثائق تثبت بكل تأكيد وحسم أن مهد الحضارة كان فى غرب آسيا.

ومع أن القائمين بذلك يعقدون آمالا ضئيلة فى بلوغ مراميهم،إلا أنهم يواصلون العمل كما لو كان الروتين قد توصل إلى منعطف نهائى. وعلى العكس من ذلك فإن موقع المقابر الفينيقية معروف بدقة وكل ماهو مطلوب هو فتحها للتعرف على جنس الأجداث الموجودة داخلها. ولكن هناك احتمالات كبيرة بأن تكون زنجية إلى حد يصبح معه من المستحيل إنكار ذلك: ولذا فالأفضل ألا يمسها أحد.

«ولكى نتعرف بدقة على الصفات الأنتروبولوجية للفينيقيين القدامى، يتعين أن توجد تحت أيدينا الهياكل المودعة فى مدافن العصر الفينيقى الكبير، على شواطئ صيدا وصور، حيث ازدهرت قوتهما بوصفهما مدينتين تجاريتين. غير أن هذه الوثائق لم توضع بعد للأسف تحت تصرف الاتنولوجيين. ولاشك أن النقاب سيرفع عنها يوما ما عندما ستجرى عمليات تنقيب منتظمة تؤدى إلى الحفاظ على الموجودات الأثرية والهياكل فى آن واحد». (بيتار، *المرجع السابق*،ص٤٠٧).

وهذه الكلمات ترجع الى عام ١٩٢٤، ولم تتم منذ ذلك التاريخ إلا حفريات قليلة فى المنطقة (رأس شمرا، وقد توقفت فى عام ١٩٣٩). وقد تم اكتشاف العديد من الوثائق بمحض الصدفة. وتبين من أقدم المقابر التى تم العثور عليها فى فينيقا، وهى تعود إلى العصر الحجرى الحديث، واكتشفها م.ن.دونان فى جبيل، أنها تخص نموذجا بشريا اعتبره الدكتور فالوا جنسا أسمر من منطقة البحر الأبيض المتوسط، حسب ترتيب سيرجى. غير أن هذا الجنس الأسمر ليس إلا جنسا زنجيا. ومن جهة أخرى تعرضت بعض تلك الجماجم لتشويه نجده حتى الآن لدى الزنوج المانجْبيتو فى الكونغو.

«لقد استنتج الدكتور فالوا من العظام التى فحصها أنها لأفراد ذوى جماجم مستطيلة وصغيرة تخص الجنس «الأسمر المنتمى للبحر الأبيض المتوسط حسب ترتيب سيرجى». وبعض الجماجم بها تشويه متعمد تم تحقيقه بطريقة اصطناعية، بربط الجمجمة، مما أدى إلى استطالتها من الأمام إلى الخلف، على شكل بيضة، بحيث يتم تحقيق التشويه الذى ظهر فى عصر تل العمارنة فى العديد من الآثار، وبالأخص بالنسبة لشخصيات الأسرة المالكة (د.كونتينو، *الحضارة الفينقية*، ١٩٤٩، الناشر بايو، ص١٨٧).

مشكلة الجنس المصرى
كما رآها وعالجها الأنتروبولوجيون

قد يتصور المرء أن هذه القضية أنتروبولوجية أساسا، وبالتالى فإن استنتاجات الانتروبولوجيين ستبدد كل الشكوك بإفادتنا بحقائق ثابتة وقاطعة.

والأمر ليس كذلك؛ فالطابع المتعسف للمعايير المستخدمة، مع استبعاد فكرة استنتاج يمكن قبوله بلا انتقاد، يلجأ إلى العديد من «التعقيدات البارعة» حتى أن المرء يتساءل أحيانا .. ألم تكن المشكلة أقرب إلى الحل، لو لم تعالج بتلك الطريقة؟

ومع أن استنتاجات تلك الدراسات الانتروبولوجية أقل من الحقيقة، إلا أنها تشهد مع ذلك - وبالإجماع - بأن جنسا زنجيا تواجد منذ أقدم عصور ما قبل التاريخ حتى عهد الأسرات. ويستحيل أن نذكر هنا كافة تلك الاستنتاجات وهى معروضة باختصار فى الفصل العاشر من كتاب *ما قبل التاريخ، وما قبل ظهور الكتابة فى مصر*، للدكتور اميل ماسولار (معهد الإتنولوجيا، باريس ١٩٤٩). وسنكتفى هنا بذكر بعض تلك الاستنتاجات.

«وترى الآنسة فاوسيت أن جماجم نقادة تشكل مجموعة متجانسة بما فيه الكفاية حتى أنه يمكننا أن نتكلم عن جنس نقادة. فهو جنس أقرب إلى الجرمان من حيث الارتفاع الكلى للجمجمة، وارتفاع

الأذنين، وارتفاع الوجه وعرضه، وارتفاع الأنف، ومعامل الدماغ ومعامل الوجه وارتفاع المحجر وطول سقف الحلق ومعامل الأنف.

« ... وهكذا فإن أهل نقادة فى عصور ما قبل الأسرات يشبهون الزنوج بحكم بعض سماتهم والأجناس البيضاء بحكم سمات أخرى». (*نفس المرجع*، ص ٤٠٢ و ٤٠٣).

والسمات التى تُقرب جنس نقاده المصرى فى عصور ما قبل الأسرات من الزنوج سمات أساسية، على عكس تلك التى تقربهم من الجرمان.ومن جهة أخرى فإن «معامل الأنف» عند الأثيوبيين والدراڤيديين يقربهم من الجرمان مع أنهما من الجنس الأسود.

وعمليات القياس هذه التى تدفعنا إلى التردد إزاء هذين النقيضين المتمثلين فى الجنس الزنجى والجنس الأبيض تدلنا على مدى مرونة تلك المعايير المستخدمة. ولنذكر هنا أحد تلك المعايير:

«أراد طومسون وراندال - ماك ايفر أن يحددا بمزيد من الدقة مدى أهمية العامل الزنجوى فى سلسلة من الجماجم المكتشفة فى مرمدة بنى سلامة وابيدوس (العرابة المدفونة) والهو(نجع حمادى). وقد قسموها إلى ثلاث مجموعات: أولا الجماجم الزنجوية (وهى التى يقل فيها معامل الوجه عن ٥٤ ويزيد فيها معامل الأنف على ٥٠، أى أن الوجه منخفض وعريض والأنف عريض)؛ ثانيا الجماجم غير الزنجوية (التى يزيد فيها معامل الوجه على ٥٤٪ ومعامل الأنف على ٥٠، والوجه مرتفع وضيق والأنف ضيق)؛ ثالثا الجماجم الوسيطة (التى تنتمى إلى إحدى المجموعتين الأوليين من حيث معامل الوجه وإلى المجموعة الأخرى من حيث معامل الأنف، أى الجماجم التى تتوسط هاتين المجموعتين). وهكذا تكون نسبة الزنجويين فى عصر ما قبل الأسرات القديم ٢٤٪ وسط الرجال و١٩٪ وسط النساء، و٢٥و ٢٨٪ على التوالى فى عصر ما قبل الأسرات الحديث».

«وقد اعترض كيث على صلاحية المعيار الذى اختاره طومسون وراندال - ماك ايفر للتمييز بين الجماجم الزنجوية وغير الزنجوية. وهو يرى أنه لو استخدم هذا المعيار بالنسبة لسلسلة من جماجم الانجليز الحاليين، لوجدنا أن حوالى ٣٠٪ منهم زنجويون». (*المرجع السابق*، ص ٤٢٠ و ٤٢١).

وبوسعنا أن نبدى ملاحظة عكسية لملاحظة كيث، وبأن نقول إنه لو تم فحص زنوج إفريقيا السوداء اليوم البالغ عددهم ١٤٠ مليون نسمة، وفقا لتلك المعايير، لخرج على أقل تقدير مئة مليون من الزنوج «بيضا بغير سوء» حسب تلك المقاييس!

ولنلاحظ من جهة أخرى أن التمييز بين الزنجويين وغير الزنجويين والوسطيين ليس واضحا؛ فغير الزنجوى ليس من جنس أبيض ومن باب أولى فإن «الوسيط» ليس أبيض.

«وقد واصل فالكنبورجر من جديد الدراسة الأنتروبولوجية للمصريين بفحص حديث لـ ١٧٨٧

جمجمة للذكور تعود إلى بداية عصر ما قبل الأسرات القديم حتى أيامنا هذه ، فميز بين أربع مجموعات رئيسية ...» (*المرجع السابق*، ص ٤٢١).

ويؤدى توزيع الجماجم المنتمية لعصر ما قبل الأسرات بين تلك المجموعات الأربع إلى النتائج التالية:

«٣٦٪ من الزنجويين، و٣٣٪ من البحر الأبيض المتوسط، و١١٪ من الكرو- مانيونيين، و٢٠٪ من أفراد لا ينتمون إلى إحدى تلك المجموعات الثلاث، ولكنهم أقرب إلى الكرو - مانيونيين أو إلى الزنجويين. ونسبة الزنجويين هنا أعلى بكثير من النسبة التى أشار اليها طومسون وراندال - ماك ايفر، والتى وجدها كيث مع ذلك مرتفعة للغاية.

«هل تتفق أرقام فالكنبورجر مع الواقع؟ إننا لا نملك تقرير ذلك. فإذا كانت صحيحة،فإن السكان فى عصر ما قبل الأسرات كانوا لا يمثلون جنسا نقيا كما قال اليوت - سميث، وكانوا يتكونون من ثلاثة عناصر عرقية على أقل تقدير: زنجويين بنسبة تزيد على الثلث، وأهالى من البحر الأبيض المتوسط بنسبة الثلث وعُشر من الكروَمانيونيين وخُمس من أفراد مهجنين إلى حد أو آخر». (*نفس المرجع*، ص ٤٢٢).

ويتعين علينا أن نستخلص من كافة تلك الاستنتاجات، أن الالتقاء بينها يثبت رغم كل شئ، أن الشعب المصرى كان زنجيا بالأساس فى عهد ما قبل الأسرات.

وعليه، لا يتفق ذلك مع الفكرة القائلة بأن العنصر الزنجى لم يتسرب إلى مصر إلا فى وقت متأخر. فعلى العكس، تؤكد الوقائع أن هذا العنصر كان مهيمنا من بداية التاريخ المصرى القديم حتى نهايته، خاصة إذا لاحظنا أن «الانتساب إلى البحر الأبيض المتوسط» ليس مرادفا للجنس الأبيض. فالأمر يتعلق بالأحرى بجنس أسمر أو منتم إلى البحر الأبيض المتوسط» وفقا لإليوت - سميث :

«يعتبر اليوت - سميث هؤلاء المصريين فرعا «لما يسميه الجنس الأسمر، وهو ليس إلا جنس البحر الأبيض المتوسط أو الجنس الأوروبى الإفريقى حسب تعريف سيرجى». (*نفس المرجع*، ص ٤١٨).

وصفة الأسمر التى تتعلق بلون البشرة ليست سوى «تورية» تشير إلى الزنجى.

وهكذا يتبين لنا أن الجنس المصرى كان كله زنجيا، مع تغلغل بعض العناصر من الرُحّل البيض فى ظل حضارة العمرى.

وتكشف دراسة پترى حول الجنس المصرى عن إمكانيته تصنيف هائلة قد تثير دهشة القارئ.

«غير أن پترى نشر دراسة عن أجناس مصر فى عصرى ما قبل الأسرات والأسرات الأولى، لا يقدم فيها سوى تصورات. وهو يميز، علاوة على الجنس المكتنز الإليتين، ست أنواع مختلفة: ذو

الأنف المعقوف المميز للجنس الليبى ذى البشرة البيضاء؛ والنوع ذو اللحية المجدولة المنتمى على ما يبدو لجنس من الغزاة ربما جاء من شواطئ البحر الأحمر؛ والنوع ذو الأنف المدبب الذى جاء بلاشك من الصحراء العربية؛ والنوع ذو الأنف المستقيم، المنتمى أصلا إلى مصر الوسطى؛ والنوع ذو اللحية المندفعة للأمام المنتمى أصلا إلى الوجه البحرى ؛ والنوع ذو الحاجز الأنفى المستقيم المنتمى أصلا إلى الصعيد. ووفقا لتلك التصورات كانت توجد فى مصر فى تلك العصور سبعة أنواع مختلفة من الأجناس. وسنرى فى الصفحات القادمة أن دراسة الهياكل لا تسمح أبدا بالتوصل إلى مثل تلك الاستنتاجات». (*نفس المرجع*، ص ٣٩١).

ويدل هذا التصنيف على مدى عدم جدية المعايير المستخدمة لتحديد الجنس المصرى، وطابعها الاعتباطى.

وكنت أنوى إجراء تحليل ميكروسكوبى لكثافة مسام جلد المومياوات، لكن عددها المحدود لم يكن يسمح باستخلاص أى استنتاج ذى قيمة على صعيد الجنس المصرى.

وعلى أى حال، يتضح لنا أن الأنثروبولوجيا لم تتوصل إلى تواجد جنس مصرى أبيض، بل إنها تميل إلى عكس ذلك.

غير أن المشكلة أصبحت ملغاة من الكتب الدراسية الحالية. ففى أغلب الأحوال يتم القطع بأن المصريين كانوا بيضا. وهكذا يبدو لجميع غير المتخصصين الشرفاء أن هذا الحسم يعتمد بالضرورة على دراسات مدعومة تمت من قبل بينما لم يحدث ذلك، كما يتبين مما جاء آنفا. وهكذا تم صرف أنظار العديد من الأجيال.

«فى جنوب المثلث الكبير للشمال الغربى، كان يعيش كما هو الحال اليوم، العالم الأسود لأفريقيا الوسطى، المعزول عن البيض بالمساحة الصحراوية الشاسعة. وكان وادى النيل السهيل الوحيد المفتوح نحو الشمال بالنسبة لسود الداخل، وكانوا يسلكونه أحيانا للوصول إلى مصر، ولكن فى جماعات صغيرة.ولما كانوا منعزلين عن الحضارة النيلية بسبب ذلك الحاجز الصحراوى، ويعيشون اعتمادا على أنفسهم، فإنهم لم يتأثروا بتلك الحضارة ولم يقدموا لها بالتالى أى إسهام ذى قيمة. وهكذا فإن هذه الحضارة تكون وقفا على الجنس الأبيض». (بريستد : *اكتساب الحضارة*، بايو، ١٩٤٥، ص٥٠).

هذا هو نوع التأكيدات الجارية التى نجدها الآن فى الكتب الدراسية، والطابع المطلق لما قرره بريستد لا يعادله سوى عدم اعتماده على أى أساس؛ ولذا لم يحرص هذا المؤلف على التأكد من ذلك عن طريق الوقائع. فالصحراء التى فصلت دائما العالم الأسود عن العالم الأبيض فى وادى النيل ليست سوى فكرة لا تمت للواقع بصلة.

ويتخبط بريستد فى تناقضاته بالزعم من جهة بأن الصحراء فصلت دائما الزنوج عن النيل، وبالاقرار من جهة أخرى بأن وادى هذا النهر كان السبيل الوحيد للوصول إلى الشمال. فمجرد إلقاء نظرة على خريطة إفريقيا يبين أنه يمكن الوصول إلى وادى النيل من أى نقطه فى القارة السوداء دون اجتياز الصحراء.

وتنبع أفكار بريستد من مفهوم خاطئ لإعمار القارة الإفريقية. ففى مقابل تواجد السود فى كافة أنحاء القارة، على شكل مجموعات صغيرة خاملة، فى الوقت الذى نمت فيه الحضارة المصرية، هناك كم وفير من الوقائع التى تدفع إلى الاعتقاد بأن الشعب الزنجى عاش أولا فى هذا الوادى قبل أن ينتشر فى كافة الاتجاهات بالقارة، فى موجات متتالية.

وهذا ما أكدته المعطيات الأنتروبولوجية المذكورة آنفا والتى تشهد على أن الزنوج تواجدوا فى وادى النيل فى عصور ما قبل التاريخ.

ومن جهة أخرى فإن الطابع الزنجى للحضارة المصرية، كما هو معترف به اليوم، يستبعد أن تكون «وقفا على الجنس الأبيض».

ويحاول العديد من المؤلفين الالتفاف حول المشكلة بالكلام عن البيض ذوى البشرة الحمراء أو السوداء دون أن يصدم ذلك رجاحة تفكيرهم الديكارتى، نظرا لأن هناك فكرة سائدة، وهى أن قيام أى حضارة إنسانية لا يمكن أن يكون قد تم على يدّ جنس زنجى.

«إفريقيا هى ليبيا، فى مفهوم الإغريق، وهو تعبير فى غير موضعه أصلا لأن هناك شعوبا أخرى كثيرة فى القارة خلافا لليبيين الذين يمثلون قسما من البيض فى الطرف الشمالى، أو إذا أردنا المطل على البحر الأبيض المتوسط، ويتميزون بهذه الصفة عن عدد كبير من أقسام البيض ذوى البشرة السمراء (أو الحمراء) (المصريين) ...» (بدرال: *آثار افريقيا السوداء*، بايو، ١٩٥٠، ص ٦).

وفى كتاب مدرسى مخصص لتلاميذ الصف الخامس نجد ما يلى:

«لا يتميز الأسود بلون بشرته (لأن هناك بيضا ذوى بشرة سوداء) بقدر ما يتميز بملامحه: الشفاه الغليظة والأنف الأفطس .. الخ». (*الجغرافيا للصف الخامس*، مطبوعات بايير وأولاده، ١٩٥٠).

إنهم لم يتمكنوا من تبيض الجنس المصرى إلا عن طريق مثل هذه التعريفات، وفى ذلك دليل قاطع على أنه جنس زنجى.

وموقف بريستد إزاء مسألة الجنس المصرى هو بشكل خاص موقف المتخصصين فى الآثار المصرية الحاليين الذين تنبهوا للمسألة أكثر من أسلافهم فتجنبوا المشكلة بكل بساطة عن طريق بعض التأكيدات التى يقدمونها لغير المتخصصين على أساس أنها تستند إلى معلومات علمية سابقة، وليس ذلك إلا ضربا من الاحتيال الذهنى.

وينتهى هنا القسم النقدى؛ فقد عرضنا فى الفصول السابقة مختلف أنواع الأطروحات المتعلقة بأصل الجنس المصرى.

وجميع الأطروحات التى تتناول تلك القضية تنتمى إلى أحد تلك الأنواع التى عرضت أنفا. وأنا لم أتعرض لها، كعادتى، نقلا عن هذه الحجة أو تلك فى هذا المجال، ولكن حسب ماأورده أصحابها بأكبر قدر من التفاصيل، مما يتيح إبراز التناقضات التى تتضمنها كلها ويستحيل التغلب عليها. وعليه فإن هذا العرض كامل، والفكرة العامة التى نخرج بها هى فشل كافة تلك المحاولات التى لم تصب هدفها، ولا يجب أن تشكل بالنسبة للقارئ أى عنصر فى توجيه قناعته.

ويبقى لنا الآن الانتقال Nاى الجانب البناء بعرض مختلف الوقائع التى تثبت الأصل الزنجى للجنس المصرى.

الفصل الرابع

الحجج المؤيدة للأصل الزنجى للجنس المصرى وللحضارة المصرية

الطـوطميـــة

نوه موريه فى مؤلفه *من العشائر إلى الامبراطوريات* بالطابع الطوطمى الأساسى للمجتمع المصرى. وقد حوربت أطروحته فيما بعد: وقيل إن هناك تخوفا من العواقب الخطيرة التى ستنجم عن ذلك بالضرورة. والواقع أن فريزر كان حاسما فيما يتعلق بأصل الطوطمية، ففى رأيه أننا لا نصادفها إلا لدى الشعوب الملونة .

وبناء على ذلك، أصبح من المستحيل التمسك بتلك الأطروحة إذا كان المطلوب إثبات أن الحضارة المصرية من أصل أبيض.

وهكذا جرت محاولات لإنكار الطوطمية المصرية مع السعى إلى العثور على آثار لها لدى الشعوب المسماة بيضاء، مثل البربر والطوارق. ويدل الحماس فى البحث عنها لدى هؤلاء على أن النجاح فى ذلك سيعنى تبديد أى شكوك حول الطوطمية المصرية. غير أن المحاولة فشلت، إذ لم يتوصل فان جنيب إلى استخلاص طوطمية لدى البربر.

وانتهى الأمر بالمناقشات حول الطوطمية إلى التردى فى التجريد الفلسفى. فقد تحولت المعطيات الإتنوجرافية الملموسة إلى ظاهرة تأملية، وإلى قضية منطقية وفكرة خالصة بحيث لا يمكن أن تعرقل بعد ذلك أى وقائع، أو تطورات من خلال عمليات التضمين.

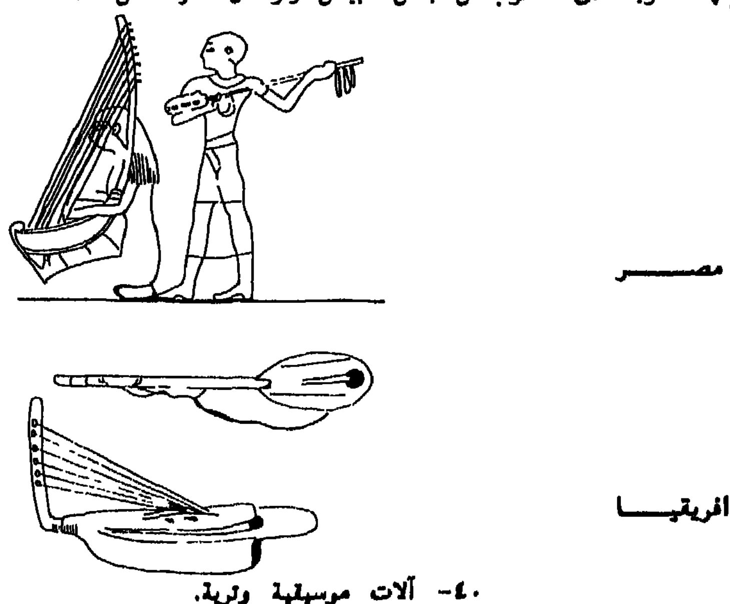
ويستحيل إنكار أن تحريم بعض الحيوانات والنباتات فى مصر(التابو) يتفق مع الطوطمية كما هو الحال فى كافة المناطق – وبالأخص فى افريقيا السوداء – حيث توجد الطوطمية بشكل لا يتطرق إليه الشك. وعلى العكس كانت هذه المحرمات غريبة على الإغريق وغيرهم من الشعوب الهندو– أوروبية. ولذا كان الإغريق يسخرون من تبجيل المصريين المفرط للحيوانات بل ولنباتات معينة أيضا.

وعلى أساس درجة معينة من التطور الاجتماعى قد تكون أقل من درجة التطور والامتزاج التى بلغها الشعب المصرى، كان الزواج من داخل القبيلة والطوطمية لا يتعارضان، بل يتعايشان معا. وهكذا نجد الآن فى إفريقيا السوداء زوجين يحملان نفس الاسم الطوطمى: ندياى، ديوب، فال .. الخ. ولا يتبادر أبدا إلى الذهن فى الوقت الراهن أن مثل هذه الممارسة كانت محرمة، ومع ذلك فمن الواضح أن الزوجين الذين يحملان نفس الاسم الطوطمى يدركان أن كل منهما مشترك بحياته فى جوهر طوطمه.

وعليه فإن الزوجين يدركان تماما أنهما يشتركان معا فى نفس الجوهر الحيوانى، ونفس الجوهر الحياتى، كما يدركان أنهما ينتميان أصلا إلى نفس القبيلة حتى أنهما يعلنان ذلك فى الكثير من الأحوال. وعليه فإن فكرة ڤان جنيپ القائلة بأنه تعين ألا يكون المصريون طوطميين لأنهم كثيرا ما كانوا يتزوجون من الأقارب بل ومن شقيقاتهم تجد تكذيبا قاطعا لها. فالزواج من الأخوات نابع عن سمة ثقافية أخرى حية فى العالم الزنجى، وهى النظام الأمومى الذى سنتعرض له فى الصفحات ١٦٤ إلى ١٦٨.

فعندما أصبح الزواج من خارج العشيرة شائعا، انتهى الأمر بقيام قرابة نسبية بين العشائر التى كانت تعقد زيجات فيما بينها (بين عشيرتين، وأيضا بين ثلاث أو أربع .. الخ). وهذه القرابة تفسر اليوم «الكال» فى المجتمع الوُلوف مثلا، أى القرابة العشائرية المفترضة التى تسمح بتبادل المزاح والتهكم.

وعلى الرغم من الدراسات التى تحاول التوسع فى مفهوم الطوطمية، فإنه بوسعنا أن نقول مع فريزر إنها لا توجد لدى الشعوب من الجنس الأبيض. ولو كان الأمر عكس ذلك لكشفت عنه الجحافل



٤٠- آلات موسيقية وترية.

نقلا عن كتاب سليجمان حول الملكية فى إفريقيا وفى مصر [*STUDY IN DIVINE KINGSHIP*].

البربرية الأخيرة البيضاء الجنس التى اجتاحت أوروبا فى القرن الرابع. وكانت هذه الشعوب فى العصر الإتنوجرافى (عشيرة، قبيلة) حيث من المحتم أن تلهم الطوطمية - إن تواجدت - كافة التصرفات ويتضح أثرها فى كل مستويات التنظيم الاجتماعى.

على أنه لم يوجد فى حياة تلك الجحافل شئ يعكس فكرة القرابة بين الإنسان والحيوان، لا بالمعنى الفردى ولا بالمعنى الجماعى.

وعلى النقيض من ذلك لا يمكن إنكار أن فرعون يشترك فى جوهر حيوانى (الصقر) بنفس الطريقة الموجودة لدينا اليوم فى إفريقيا.

الختـــان

كان المصريون يمارسون الختان منذ عصور ما قبل التاريخ، وهم الذين نقلوا هذه الممارسة إلى العالم السامى بصفة عامة (اليهود والعرب)، وبالأخص إلى من كان هيرودوت يسميهم السوريين.

ويسوق هيرودوت قرينتين لكى يثبت أن الكولخيين كانوا مصريين:

« ... أولاهما أنهم سود وشعرهم أكرت، وهذا الدليل لا يكفى فى حد ذاته لأنهم يشتركون فى ذلك مع شعوب أخرى، وثانيهما، وهو الدليل الرئيسى، أن الكولخيين والمصريين هم الوحيدون الذين لجأوا إلى الختان منذ الأزمنة الموغلة فى القدم. ويعترف الفينيقيون وسوريو فلسطين بأنهم تعلموا الختان من المصريين، ولكن السوريين الذين يعيشون على شواطئ الترمودون وپانينوس، وكذلك جيرانهم الماكرونيين، يقرون بأنهم أخذوا ذلك منذ أمد قريب من الكولخيين. وهذه الشعوب هى الوحيدة التى تمارس الختان، ويقال إنهم إنما يحاكون فى ذلك المصريين». (٢ ، ص ١٠٤).

وأنا أزعم أن الزنجى(*) هو الشخص ذو البشرة السوداء، خاصة عندما يكون شعره أكرت، وآمل أن أكون فى ذلك متفقا مع كل ذوى التفكير المنطقى.

وجميع من يقبلون هذا التعريف سيعترفون، وفقا لما قاله هيرودوت، الذى رأى بعينى رأسه المصريين، كما يرى القارئ الورق المطروح أمامه، بأن الختان من أصل مصرى وأثيوبى، وأن هؤلاء ما كانوا إلا زنوجا يقيمون فى مناطق مختلفة.

(*) إن احتمال مصادفة أفراد ذوى بشرة سوداء وشعر أكرت ولا تشملهم السمات العرقية الأخرى المرتبطة بالزنوج، باطل علميا. وتعريف أمثال هؤلاء بأنهم«بيض ذوو بشرة سوداء» لأن تقاطيع وجههم رقيقة لا يقل سخفا عن تسميتهم «زنوجا ذوى بشرة بيضاء» المطبقة على ثلاثة أرباع الأوروبيين الذين لا يتميزون بسمات شمالية. ولذا فإن هذا الموقف ليس سوى زيف علمى حتى ولو أدعى من يتبناه بأنه يتمسك بالعلم، لأن ذلك يعنى تحويل الاستثناءات الضئيلة للغاية إلى قاعدة عامة.

ويوسعنا أن نستنتج أيضا من كافة التفاصيل الواردة فى التوراة حول ختان إبراهيم، اثر زواجه من هاجر الزنجية المصرية، بعد أن بلغ التسعين من عمره، وكذلك موسى ومن بعده اليهود، أن «الساميين» لم يمارسوا الختان إلا بعد اتصالهم بالعالم الأسود، وهو ما يتطابق مع شهادة هيرودوت.

ولا يجد الختان تفسيرا متكاملا له فى إطار مفهوم عام للكون، إلا عند الزنوج: وينطبق ذلك بالأخص على مفهوم نشأة الكون عند الدوجون الذى تناوله مارسيل جرييول فى كتابه *إله المياه*. فهو يرى أنه لكى يكتسب الختان معناه الكامل فإنه يتعين أن يكون مصحوبا بالبتر، (أى ختان الأنثى)، باعتبار أن العمليتين تهدفان إإلى تخليص الرجل من جانبه الأنثوى وتخليص المرأة من علامات الذكورة. وترمى هذه العملية، حسب العقلية القديمة، إلى تغليب سمات أحد الجنسين عند شخص معين.

ووفقا لمفهوم نشأة الكون عند الدجون (شعب زنجى من افريقيا الغربية، حوالى ٢٠٠ الف نسمة، يعيشون فى مالى، حافظوا بشكل خاص على ثقافتهم وفنونهم وتصورهم للعالم)، فإن الكائن الذى يولد، يكون خنثى إلى حد ما شأنه فى ذلك شأن الإله الأول.

«تكون الذكورة والأنوثة بنفس القوة، طالما يحتفظ الكائن بغلفته أو ببظره، وهما دعامتا مبدأ الجنس المضاد للجنس الظاهر. ولذا فمن الخطأ اعتبار الرجل غير المختون امرأة، إنه مثل الفتاة التى لم يبتر بظرها، أى أن كلا منهما ذكر وأنثى فى آن واحد. ولو استمر عدم الحسم هذا إزاء الجنس وظل على حالة، لما مال الكائن أبدا إلى الإنجاب». (*إله المياه*، ص ١٨٧).

«هناك إذن أسباب مختلفة تفسر الختان والبتر: ضرورة تخليص الوليد من قوة شريرة، وضرورة أن يقدم ضريبة الدم وحسم مسألة جنسة نهائيا». (*نفس المرجع* ص ١٨٩).

ولكى تكون حجة الختان مقبولة، يتعين أن تتواجد الخنثوية الإلهية فى المجتمع المصرى، لأنها السبب التقليدى لتلك الممارسة فى المجتمع الإفريقى. وفى هذه الحالة وحدها يحق لنا أن نتبين الأسباب الطقوسية للختان لدى المصريين وبقية إفريقيا السوداء.

وقد اطلعنا شامبليون فى خطاباته الموجهة إلى أخيه شامبليون - فيجاك، أثناء مروره بالنوبة فى عام ١٨٣٣، على الخنثوية الإلهية لآمون، الرب الأكبر للسودان المَرْوى ومصر، فقال:

«آمون هو نقطة انطلاق وتوحيد كافة الجواهر الإلهية. وبما أن أباه.. آمون - رع، الكائن الأعظم والأول، الذى وصف بأنه زوج والدته (موت)، فإن القسط الأنثوى الموجود فى جوهره الذاتى ذكورى وأنثوى فى آن واحد».

وكان النيل يصور هو أيضا فى هيئه شخصية خنثوية. وآمون هو أيضا إله كل إفريقيا السوداء.

ويجدر بنا أن نذكر هنا أن آمون مرتبط بفكرة الرطوبة والماء فى كل من السودان المَرْوى وإفريقيا السوداء ومصر. ولذا فهو يظهر فى شكل إله كبش يحمل بين قرنيه قرعة (اسطوانه آمون)، كما جاء فى كتاب مارسيل جريبول ذى العنوان الذى له مغزاه *إله المياه*، والذى تعرض فيه أيضا للإله دوجون آما. ففى مفهوم نشأة الكون عند الدوجون (السودان الفرنسى) يهبط آمون من السماء إلى الأرض عن طريق قوس قزح، المبشر بالأمطار والرطوبة.

وإذا كان بعض السود قد أقلعوا عن الختان لأنهم نسوا تقاليدهم أو لأسباب أخرى، وإذا كان هناك اتجاه متزايد فى إفريقيا السوداء نحو التخلى عن البتر (ختان البنات)، وإذا كان الختان المصرى يختلف من الناحية التقنية عن الختان السامى، فإن كل ذلك لا يغير شيئا من أصل القضية.

غير أنه لكى يكون تحقيق الهوية كاملا، ولكى تكون الحجة الكامنة وراء الختان مقنعة، فإنه يتعين أن يكون ختان الأنثى قد تواجد هو أيضا فى مصر. ويفيدنا سترابون بأن الأمر كان فعلا على هذا النحو، إذ يقول:

«يتمسك المصريون بالأخص بالعناية بتربية أولادهم وختان الصبيان بل والبنات أيضا، وهو تقليد يشاركون فيه اليهود، وهم شعب ينتمى أصلا إلى مصر، كما قلنا ذلك من قبل فى المكان الذى تناولنا فيه ذلك» (*الجغرافيا*، الكتاب السابع عشر، الفصل الأول، الفقرة ٢٩).

الملكيـــة

ومن السمات الأساسية البارزة أيضا، مفهوم الملكية المشترك بصفة عامة بين مصر وبقية افريقيا السوداء.

ولنترك جانبا المبادئ العامة مثل الطابع شبه المقدس للملكية، ولنبرز سمة أخرى مشتركة تتميز بطابعها الفريد، ألا وهى القتل الطقوسى للملك.

كان يتعين ألا يحكم الملك فى مصر إلا اذا كان فى أوج قوته. ويبدو أنه كان يُقتل فعلا فى بداية الأمر عندما كانت قوته تضمحل. غير أن الملكية سرعان ما لجأت الى مختلف الحيل. كان الملك يتمسك بامتيازات منصبة - وهذا أمر مفهوم - مع الخضوع بأقل قدر لمغباته. ولذا فقد توصل الى جعل هذا الاختبار رمزا: فلم يعودوا يقتلونه إلا طقوسيا، عندما يتقدم فى السن، وذلك فى الحفل الذى يستعيد فيه الملك شبابه فى نظر الشعب وأصبح صالحا للاضطلاع بمهامه.

وهكذا غدا «حفل السد» احتفالا لتجديد شباب الملك، وأصبح موت الملك الطقوسى وتجديد شبابه مترادفين، وكانا يتمان فى مناسبة واحدة. (انظر *دراسة فى الملكية الإلهية*، سليجمان).

وكان يتعين أن يكون الملك الرجل المتمتع بأوج عنفوانه، نظرا لكونه الكائن المقدس الأعلى. وعندما كان مستوى قوته ينخفض عن حد أدنى معين، كان يحدث انكسار على صعيد قواه ككائن؛ ولو ظل فى منصبه لأصبح ذلك خطرا محدقا بالشعب.

وهذا المفهوم الحيوى أساس لكل الملكيات الإفريقية التقليدية، وأقصد بذلك كافة الملكيات غير المغتصبة.

ويتجلى ذلك أحيانا بشكل مختلف عما كان فى مصر. ففى السنغال مثلا، ما كان الملك يستطيع أن يتولى الحكم اذا ما أصيب بجروح أثناء معركة، وكان يتعين عليه أن يعين من يحل محله حتى شفائه. وخلال مثل هذا الحلول محل الملك، استولى أخو تينى بوال - وهو أخ من ناحية الأب وأمه من عامة الشعب - استولى على السلطة عن طريق حركة انقلابية، باسم لات - سوكابيه، وأسس أسرة الجيدج فى عهد اندريه برو (١٦٩٧).

وهذا التقليد، المتمثل فى إقصاء الملك عندما تضمحل قواه الحيوية بشكل ملحوظ، ينبع من نفس المعتقدات الحيوية المنتشرة فى كل العالم الأسود.

ووفقا لتلك المعتقدات، فإن خصوبة الأرض، ووفرة المحاصيل، وصحة الشعب والقطعان، وسير الأحداث بشكل طبيعى، وكافة مظاهر الحياة، مرتبطه ارتباطا حميما بقوة الملك الحيوية الكامنة.

وفى مناطق أخرى من إفريقيا تجرى الأمور تماما على غرار ما كانت فى مصر، وذلك فيما يتعلق بقتل الملك فعلا. بل إنه يحدد عند بعض الشعوب، بعدد السنوات التى من المفترض أن يصبح الملك بعدها عاجزا، من حيث حيويته، على مواصلة تولى الحكم، ويتم قتله فعلا. وتبلغ تلك المدة عشر سنوات لدى المبوم [MBOUM] فى إفريقيا الوسطى، ويتم ذلك الحفل قبل موعد حصاد الدُخن.

ولا تزال الشعوب التالية تمارس موت الملك الطقوسى فى افريقيا السوداء: اليوروبا، والداجومباس، والتشامباس، والدْجوكون، والاينجارا، والصونغاى، واليوادى، وهَوْسا الجوبير وكاتسينا، ودوارا، والشلوك (انظر بومان، ص ٣٢٨).

وكان ذلك التقليد متبعا أيضا فى مَرَوى القديمة، أى فى النوبة واوغاندا - رواندا.

مفهوم نشأة الكون

تتقارب مفاهيم نشأة الكون الزنجية والإفريقية والمصرية حتى أنها تكمل بعضها فى حالات كثيرة.ومن الأمور الملفتة للنظر أنه يتعين الرجوع إلى العالم الأسود لتفهم بعض المفاهيم المصرية، كما يؤكد ذلك ما جاء آنفا بخصوص الختان وكذلك بخصوص الملكية. ويكفى الرجوع فيما يتعلق بالحالة

الأخيرة إلى *فلسفة البانتو* التى درسها الأب تمبلز، إذ يوجد فى هذه الدراسة مفهوم متكامل للحيوية الزنجية، التى تشكل وفقا للأب تمبلز أساس التصرفات اليومية للبانتو.

وقد نوه مختلف المؤلفين، المعتبرين حجة، بما فيه الكفاية بصلة القرابة بين العادات، والتقاليد، والأعراف، ونظم التفكير، حتى أنه لم يعد من الضرورى الخوض هنا فى التفاصيل. وربما لا تكفى حياة بأسرها لحصر كافة قسمات القرابة القائمة بين مصر والعالم الأسود، نظرا لأن الأمر يتعلق بنفس الشئ.

ولنكتف هنا بالاستشهاد بپول ماسون - اورسل، الذى أكد على الطابع الزنجى للفلسفة المصرية، فقال:

«لقد تكيفت الحركة الفكرية النابعة من سقراط وأرسطو وأيقليدس وأرشيميدس مع العقلية الزنجية، حتى أن المتخصص فى علم المصريات يلاحظ ذلك كخلفية لتفننات الحضارة التى تبهره.

« .. ولما كنا مدفوعين إلى التفكير فيما يجب أن يكون تحصيل حاصل، حول المظهر الإفريقى للعقلية المصرية، فإننا نفسر ذلك بأكثر من سمة من سمات ثقافتها » (*الفلسفة الشرقية*، ص ٤٢).

ويشكل هذا التماثل بين الثقافة المصرية والثقافة الزنجية، أو بقدر أكبر من العمق، ذلك التماثل فى البناء الذهنى الذى لاحظه ماسون - أورسل، والذى يجعل من الفلسفة المصرية مجرد انعكاس للعقلية الزنجية، يشكل السمة الأساسية، خاصة عندما يضيف ماسون - اورسل أن هذه الملاحظة يجب أن تكون مسألة دارجة يسلم بها الجميع. والواقع أنها تتجلى بكل وضوح لكل من كانت نيته سليمة.

و الثقافة المصرية والثقافة الزنجية واضح بكل تأكيد وبشكل قاطع. وهذا التماثل الأساسى فى الفكر والثقافة والجنس هو الذى يسمح لكل الزنوج بأن يربطوا اليوم ثقافتهم بمصر القديمة وبأن يقيموا ثقافة حديثة على هذا الأساس. إنه اتصال ديناميكى وحديث مع التاريخ المصرى القديم، يتيح الإمكانية للزنوج لاكتشاف، بقدر متزايد كل يوم ، القرابة الحميمة بين كافة السود فى القارة وبين وادى النيل الأم. وسيتوصل الزنجى عن طريق ذلك الاتصال الديناميكى الى الاقتناع تماما بأن هذه المعابد، والأعمدة الرائعة، والأهرامات، والتماثيل، والنقوش على الجدران، والرياضيات، وذلك الطب، وكل تلك العلوم، من صنع أسلافه وأن من حقه ومن واجبه أن يتعرف على نفسه تماما من خلال كل تلك الإبداعات.

«ومن الآن، وفى إطار تلك البحوث الثمينة للغاية لإكتشاف الفكر، نبدأ فى تَبيُّن أن جزءا كبيرا من القارة السوداء ليس خشنا و«همجيا» الى هذا الحد، كما كان ذلك مفترضا، وأنه يعكس فى

اتجاهات عديدة عبر الانعزال الهائل للصحارى والغابات،يعكس التأثيرات الآتية من النيل، عن طريق ليبيا والنوبة واثيوبيا». (ماسون – اورسل: *فلسفة الشرق*، ملزمة ملحقة *بتاريخ الفلسفة* بقلم أميل بريهييه، ص ٤٣).

وفيما يتعلق بتشابه الثامون والتاسوع عند الدوجون (ثمانية أو تسعة آلهة) مع الثامون والتاسوع فى مصر، يتعين أن ننقل هنا تقريبا صفحات كاملة من *إله المياه* لمارسيل جريبول.

ففى كلتا الحالتين هناك أربعة أزواج تولدت عن الإله الأصلى، وهى التى أوجدت الخليقة والحضارة، ولذا كان العدد ٨ أساس نظام الترقيم عند الدجون، وهكذا كان العدد ٨٠ يعادل عندهم العدد ١٠٠ والعدد ٨٠٠ يعادل العدد ١٠٠٠.

ومن هنا ندرك أن عبادة الأسلاف كانت فى كل من إفريقيا السوداء ومصر أساس مفهوم نشأة الكون. فبينما يتصاعد الأسلاف القدامى للغاية كالبخار لينتقلوا إلى المناطق الإلهية، فإن الأسلاف القريبين، الذين توفوا منذ أمد قريب، ليسوا سوى أنصاف آلهة للأسرة، لأن معالم ذكراهم لم تطمس بعد بحيث لا يعودون أسلاف هذه الأسرة أو تلك، ولكن أسلاف كل الشعب.

وعندما ندخل فى المرحلة التاريخية، حيث لا يسمح الحرص على تسجيل الأحداث أن تتناثر وتصبح غامضة، تغدو عملية التأليه محصورة إلى حد ما، وتستمر عبادة الأسلاف، إلا أنهم يصبحون شخصيات تاريخية بقدر أو آخر.

وبوسعنا أن نؤكد بالأخص على تشابه الإله – الثعبان عند الدجون والإله – الثعبان فى مجمع الأرباب عند المصريين. فكلاهما يرقص فى الظلمات. وقد كتب اميلينو يقول فعلا إن الإله – الثعبان يسمى «الذى يرقص فى الظلمات». وقد جاء ذلك فى إشارة إلى الثعبان فى عبارة منقوشة على تابوت بمتحف مارسيليا، إلى جانب تصوير لمقبرة أوزيريس. (*تمهيدات لدراسة الديانة المصرية*، ص٤١).

وفى مجمع الأرباب عند الدوجون، تحول السلف السابع إلى ثعبان، وقد قتله القوم وتم دفن رأسه تحت وسادة الحداد. ويشرئب السلف – الثعبان من هذا اللحد ليؤدى رقصة فى جوف الأرض، أى فى الظلمات، لكى يتجه نحو مقبرة أقدم المسنين ليلتهمه:

«وعلى إيقاع منفاخ الحداد المزدوج الذى يؤجج النار، وإيقاع الكتلة التى تقرع السندان، تقمص النومو السابع شكل جنى ذى جذع بشرى يتخذ فى طرفه مظهر الزواحف. ثم ينتصب على ذيله، بحركات منتظمة لذراعيه الممدتين أمامه، ومع اهتزازات إيقاعية للجسد، راح يؤدى الرقصة الأولى التى تفضى به تحت الارض إلى مقبرة الشيخ المسن.

«وعلى إيقاع ضربات الكور، تقدم السابع شمال الجسد، من ناحية الجمجمة، وابتلعه». (مارسيل جريبول، *إله المياه*، ص٦٢).

بل إنه بوسعنا أن نتوسع فى تلك السمات الأخيرة التى تعود إلى الأكل الطقوسى للحم البشر، الذى تواجد أصلا هو أيضا فى مصر. وهكذا يكون ذلك الصنيع تابعا من المبادئ الحيوية التى يعتمد عليها المجتمع الأسود، هذا إذا استبعدنا الضرورات الاقتصادية. فاستيعاب جوهر الآخر يعنى استيعاب قوته الحيوية، مما يزيد بذلك من الحصانة إزاء قوى الكون المدمرة.

كما أنه يمكننا أن نعقد نفس المقارنة بين الإله - ابن آوى الزانى بمحرم فى محفل الأرباب عند الدوجون، والإله ابن آوى فى محفل الأرباب المصرى، حامى الحوض حيث كان يتعين على المتوفين أن يتطهروا. غير أن الاتجاه يميل الأن إلى تشبيه الإله - ابن آوى بالإله - الكلب.

وأخيرا فإن الموقع الذى تحتله صور البروج الفلكية فى مفهوم نشأة الكون عند الدوجون يستحق منا الاهتمام عندما نعرف أن الدوجون كانوا يعرفون نجم الشعرى اليمانية. فلابد حينئذ أن يتبادر إلى الأذهان التقويم المصرى القائم على الشروق الاحتراقى لهذا النجم قبيل شروق الشمس.

التنظيم الاجتماعى

يتطابق تماما التنظيم الاجتماعى للحياة الإفريقية مع ذلك التنظيم فى مصر.

ففى مصر، كان يوجد التقسيم الفئوى التالى :

- الفلاحون،
- العمال المتخصصون،
- الكهنة والمحاربون والموظفون،
- الملك.

وفى بقية أنحاء افريقيا هناك :

- الفلاحون،
- المهنيون أو العمال المتخصصون المنظمون فى طوائف،
- المحاربون والكهنة أو *الدومى سوهنا* بلغة الوُلوف،
- الملك.

النظام الأمومى

يعتمد التنظيم الاجتماعى فى مصر على النظام الأمومى، شأنه فى ذلك شأن بقية افريقيا السوداء. وعلى النقيض من ذلك لم يتمكن أحد أبدا من إثبات وجود نظام أمومى فى العصر الحجرى القديم فى حوض البحر الأبيض، انفرد به جنس أبيض. ويكفينا، لكى نقتنع بذلك، أن نذكر حجج مؤلف خصص ٤٣٧ صفحة لكى يحاول، بلا جدوى، «تبييض» افريقيا السوداء:

«يتم توارث العرش فى كانو وفقا للنظام الأمومى، الموروث عن العصر الحجرى القديم فى حوض البحر الأبيض المتوسط حتى عهد هيمنة البول [PEULH]. ويقال إن ملكة دوارا كانت لديها بقرة ركوب، مما يذكرنا بأعراف الجارامانت القدامى! وهكذا نصطدم مرة أخرى بإفريقيا البيضاء القديمة، ذات النظام الأمومى الذى تنسب اليه بشكل وثيق شعوب كردفان والنوبة، بما فى ذلك التيدا والطوارق وأيضا ملوك السودان الغربى» (بومان، ص ٣١٣).

وسنلاحظ أن هذه التأكيدات التى لا يضاهى خطورتها سوى افتقادها للصواب، لا تنبع إلا من واقعة يتعين علينا أن نقدر إلى أى حد كانت واهية: ذلك أن ملكة دوارا كانت تمتطى بقرة مخصصة للركوب ...

وسنلاحظ، بالمناسبة، أن بومان "بَيّض" حتى ملوك السودان الغربى وفقا للطريقة النازية المعهودة، ألا وهى تفسير كل حضارة إفريقية من خلال نشاط جنس أبيض أو أحدى سلالاته، حتى ولو اقتضى الأمر إصدار قرار بأنه يوجد بيض «سود» وبيض «لونهم أحمر داكن» .. الخ، على أن يتم تجميعهم تحت اسم *الحاميين* لحل المشكلة.

ولو لم يكن النظام الأمومى الموروث من العصر الحجرى القديم فى حوض البحر الابيض المتوسط مجرد نظرية لا تمت للواقع بصلة، لظل قائما في مختلف العهود: الفارسية والإغريقية والرومانية والمسيحية، كما استمر حتى أيامنا هذه فى إفريقيا السوداء. غير أننا نعلم أن ذلك لم يحدث.

وقد حدد كورش خلافته مقدما بأن عين ابنه البكر قمبيز الذى قتل شقيقه ليتجنب أى منافسة. وفى اليونان كانت الخلافة عن طريق الانتساب الأبوى فى أحسن الحالات، وكذلك فى روما.

والواقع أن النظام الملكى لم يتواجد أبدا فى اليونان. ففيما عدا عهد الاسكندر، لم تتوحد البلاد أبدا. وملوك العصر البطولى الذين تحدث عنهم هوميروس ليسوا سوى ملوك مدن ورؤساء قرى، مثل اوليس ... بل إن الخلافات بين تلك القرى كانت تتخذ أحيانا منحى طفوليا، بإلقاء الحجارة على سكان القرية المجاورة الذين يعبرون قريتهم. وفى أحسن العهود، حَكَم المدن الاغريقية، مثل اثينا، تجار مغامرون وطموحون، تبوأوا السلطة عن طريق تدبير المكائد، والإسكندر الذى وحد البلاد لأول

مرة تحت هيمنته السياسية كان أجنبيا من مقدونيا. ويمكننا أن نلاحظ أنه لم يحدث أبدا فى التاريخ الإغريقى والرومانى ... والفارسى أن تقلدت السلطة ملكة، علما بأن الامبراطورية الشرقية (البيزنطية) يجب أن ننظر إليها على حدة كحالة معقدة. وعلى النقيض من ذلك كثيرا ما كانت هناك ملكات فيإافريقيا السوداء فى تلك العهود القديمة، وعندما اكتسب العالم الهندو - أوروبى قدراً كافيا من القوة العسكرية للانطلاق فى غزو بلاد قديمة عرّكته بالحضارة، قوبل بمقاومة عنيدة، لا تقهر، على يدّ ملكة كانت إرادة الكفاح التى تحلّت بها رمزا للكبرياء القومى لشعب كان قد أخضع الآخرين حتى ذلك الوقت لقوانينه: إنها كانديس، ملكة السودان المرَوى(*) التى أثارت إعجاب العهود القديمة بالمقاومة التى واجهت بها على رأس قواتها، جيوش قيصر - اغسطس، الرومانية. وقد فقدت عينا فى المعركة، فزاد ذلك من شجاعتها؛ وتضاعف الإعجاب بها من فرط ازدرائها للموت وبسالتها، حتى من جانب وطنى متطرف مثل سترابون الذى قال عنها «لقد فاقت شجاعة هذه المرأة جنسها». وفى بداية الحضارة الغربية، اعتاد ملوك الفرنجة شيئا فشيئا أن يحددوا من يخلفهم مقدما، مستبعدين تماما مفهوم النظام الأمومى. وهكذا تنتقل الحقوق السياسية فى الغرب عن طريق الأب، ولا يعنى ذلك أن البنت ليست أهلا للحصول عليها.

وعلى النقيض من ذلك لا يزال النظام الأمومى الزنجى حيا فى أيامنا هذه كما كان فى العهود القديمة. وفى المناطق التى لم يتعرض فيها هذا النظام لتأثير خارجى، لا تزال الحقوق السياسية تنتقل بالكامل عن طريق المرأة.

ويعود ذلك إلى فكرة أعم تعتبر أن التوارث لا يكون فعالا إلا إذا كان أصلا عن طريق الأم.

وهناك سمة أخرى مميزة للنظام الأمومى الافريقيى، أخطئ فهمها حتى الآن، ألا وهى المهر الذى يقدمه الرجل للمرأة بينما تعارفت البلدان الغربية على التقليد المناقض لذلك. وهذا العرف الذى لم تتفهمه أوروبا، يدفع إلى الاعتقاد بأن الرجل يشترى المرأة فى إفريقيا السوداء، تماما كما قد يقول أحد الأفارقة اليوم إن المرأة تشترى الرجل فى اوروبا.

ففى إفريقيا، تحصل المرأة على ضمان فى شكل مهر فى ذلك التعاقد المتمثل فى الزواج، وذلك نظرا لمركزها المتميز بفضل النظام الأمومى. ومما يثبت أنها لم تُشتر (رقيق) أن هذا المهر لا يقيدها إلى الأبد ببيت الزوجية اذا تبين أن الزوج مخطئ حقا. ففى هذه الحالة يمكن فض الزواج لغير صالحه فى غضون ساعات قليلة. وعلى عكس ما يتردد، فإن الأعمال الأقل مشقة هى التى تختص بها النساء.

(*) يبدو أن اسم مرَوى ليس من مصدر إفريقى. ومن المرجح أن الأجانب استخدموه ابتداء من عهد قمبيز للإشارة إلى عاصمة أثيوبيا (السودان). ويقول سترابون، نقلا عن ديودور الصقلى إن زوجة قمبيز أو أخته ماتت فى أثيوبيا ودفنت هناك عندما حاول هذا الغازى، بلا جدوى، أن يخضع البلاد بقوة السلاح؛ وكان اسم هذه المرأة : مروى.



٤١- ملكة سوداء من السودان القديم

وهى من سلالة كانداس التى كثيرا ما استعارت الملكات السودانيات اسمها، تيمنا بمقاومتها الباسلة التى جعلتها فى مصاف چان دارك فى فرنسا (صورة نقلها لبسيوس ونشرها لينورمان فى كتابه *تاريخ مصر*).

ماهو أصل ذلك النظام الأمومى الزنجى؟

لا نعرف حاليا ذلك الأصل بشكل أكيد، ولكن هناك رأى شائع يرى أن النظام الأمومى مرتبط بالزراعة. فإذا كانت النساء قد اكتشفت الزراعة، كما هو معتقد أحيانا، واذا كان صحيحا أنهن كنّ أول من فكر فى انتقاء الأعشاب المغذية نظرا لأنهن كنّ يلازمن «البيت» بينما يتفرغ الزوج للأعمال التى تتضمن مخاطرة أكبر (القنص، الحرب .. الخ)، فإن ذلك يفسر فى الوقت نفسه سمة أخرى مهمة، فى الحياة الإفريقية لم يُنتبه اليها تقريبا، ألا وهى أن المرأة سيدة البيت بالمعنى الاقتصادى للكلمة. فكافة المأكولات توجد تحت تصرفها هى، ولا يستطيع أحد أن يمسها، بما فى ذلك الزوج، دون موافقتها. وكثيرا ما تكون فى متناول يدّ الزوج الأغذية التى أعدتها زوجته، ولكنه لا يجرؤ على لمسها بدون إذن منها، فالدخول فى المطبخ يعتبر سقطة بالنسبة للرجل فى إفريقيا السوداء. وهكذا تمارس إلى حد ما سيطرة اقتصادية على المجتمع الإفريقيى، تكون أقوى مع اتباع هذا العرف على نطاق واسع.

ويتيح أيضا هذا الافتراض (أن المرأة هي أصل اكتشاف الزراعة) فَهْم استمرار حفاظ النساء حتى الآن على عادة زراعة الحديقة المحيطة بالكوخ بأنفسهن، باعتبارها مجالهن الخاص، حيث يتزودن بالخضروات.

وقد يعتقد البعض أن الزراعة ظهرت فى كل مكان فى إحدى مراحل الإنسانية ترجع إلى حوالى ثمانية آلاف سنة قبل المسيح. بيد أننا لا نجد آثارا للحياة الزراعية تعود الى تلك الحقبة بشكل مؤكد إلا فى الصحراء. وكان جنس «زنجوى» و«مكتنز الإليتين» (زنجى) كما يقترح ت.مونو يمارس تلك الزراعة. وقد انتشرت الزراعة مبكرا فى المنطقة الممتدة بين المدارين، من الصحراء حتى الهند، وربما أيضا حتى بحيرة بايكال. أما السهوب الاوروبية الآسيوية غير الصالحة للزراعة والحياة الحضرية، فيبدو أنها كانت دائما مهدا للترحال. ولذا كانت مفاهيم الحياة عند الهندو - اوروبيين، الذين شكّلهم وسطهم الجغرافى، متعارضة تماما مع مفاهيم الزنوج.

وقد تميزت نهاية الحقبة الإيجية، كما تبين لنا مما جاء آنفا، بلفظ النظام الأمومى الزنجى الذى تأثر به الهندو- أوروبيين الى حد ما. ولما كان النظام الأمومى الزنجى من السمات الأساسية للحضارة الزراعية الزنجية، فقد أصبح من العبث تقريبا أن ينظم التوارث فى دولة أقامها البيض.

ويلجأ العديد من الأفارقة المسلمين إلى تعديل شجرة أنسابهم، بإضافة فروع لها حتى يكونوا من سلالة الأشراف. وكان ذلك هو الاتجاه الذى سلكه الأمراء السارا فى غانا، عندما أصبحوا سارا كوله، وذلك فى الفترة التى امتزجت فيها الأسرة الحاكمة فى غانا بالدماء العربية مع دخول الإسلام.

ونحن نعلم عن طريق المؤرخين العرب فى العصور الوسطى أن الأمراء السود فى غانا كانوا يفرضون سلطانهم على البربر الطوارق فى «وادوجوست» الذين كانوا يؤدون لهم الجزية. وسنلاحظ أن كلمة «وادوجوست» لها جرس من مصدر جرماتى، يذكرنا بأسماء مثل فيزيجوت واوستروجوت. وتتفق هذه الفكرة مع افتراض الأصل الفاندالى (الجرمانى) للبربر.

وقد زار ابن بطوطه السودان فى العصور الوسطى فاسترعى انتباهه النظام الأمومى الزنجى وقال فى هذا الصدد إنه لم يجد مثيلا له إلا فى الهند عند شعوب سوداء هى أيضا:

«ولا يُنسب احدهم (أى الزنوج) إلى أبيه، بل يُنسب لخاله، ولا يرث الرجل إلا أبناء أخته دون بنيه.وذلك شئ ما رأيته فى الدنيا إلا عند كفار بلاد المُلَيبار من الهنود» (*تحفة الأنظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار*، لابن بطوطة، المطبعة الاميرية، بولاق، ١٩٣٤، الجزء الثانى، ص ٢٩٩).

ويجب ألا نخلط بين النظام الأمومى وحُكم الفارسات الخرافيات - الأمازون- فى إفريقيا وجورجون - وهو نظام أسطورى كانت تسيطر فيه النساء على الرجال، ويتميز بأساليب الحط من

شأنهم. فكان يتعين منعهم، فى تربيتهم، دون أن يقوموا بكل ما قد ينمى شجاعتهم أو يستحث كرامتهم. وكان عليهم أن يعملوا كمرضعات محل النساء اللاتى كنّ يدافعن عن المجتمع ويستأصلن الثدى لكى يستخدمن القوس والسهم بمزيد من الكفاءة. ولو اتكل المرء على تلك الأسطورة لتعين عليه أن يفترض سيطرة شرسة من جانب الرجال، أى فترة كان يسود فيها نظام «أبوى» أعقبه تحرر الأمازونيات ومرحلة من الانتقام على أيديهن. ولابد أن يكون هذا التمرد والانتصار على الرجال جزئيا لأنه لم يتواجد إلا لدى الأمازون والجورجون فى عهود موغلة فى القدم. ولما كانت الأمازونيات فارسات مقدامات فإن ذلك يدفع إلى الاعتقاد بأنهن منحدرات من السهوب الاوروبية الآسيوية خاصة وأن هذه المنطقة كانت مهدا للجياد .

والنظام الأمومى بمعنى الكلمة يتميز بالتعاون والازدهار المتناسق لكلا الجنسين، بل وحتى بقدر من رجحان كفة المرأة فى المجتمع، يعود الى الظروف الاقتصادية الأصلية، وإلى تقبل الرجل له، بل ودفاعه عنه.

القرابة بين السودان المروى ومصر
أسبقية السودان المرّوى وقيام الأسرة السودانية المرّوية : بعانخى ،وشاباكا ،وسباتاكا

اذا أخذنا فى عين الاعتبار أن اأيوبيا(*) الراهنة ليست أثيوبيا الأولين، وأنها كانت تعنى أساسا حضارات مرّوى وناباتا و سنار السودانية ، لتوجب علينا أن نعترض على كم من التعبيرات الحديثة المتعسفة التى تتمثل فى إزاحة أثيوبيا القديمة تدريجيا نحو الشرق، إلى أديس ابابا. فالملوك الذين طردوا مغتصبى عرش مصر الليبيين، فى عهد الأسرة الخامسة والعشرين فى حوالى عام ٧٥٠ ق.م.، كانوا بالفعل ملوكا سودانيين.

فقد اعتلى شاباكا عرش مصر فى عام ٧١٢ ق.م.بعد أن طرد بوخوريس الغاصب. وقد استقبله

(*) كان النعت «أثيوبى» يخص شعوبا سوداء أساسا، ويشمل زنوجا متحضرين فى السودان المرّوى وكذلك الزنوج الهمج بالأحرى الذين كانوا مجاورين لهم ويأكلون الأخشاب والنعام والأسماك ولم تكن وجوه هؤلاء الزنوج مجرد «سمراء» أو «صهباء» أو «ملوّحه»، بل كان لونها أسود فاحما مثل الإله أوزيريس، وخالية من أى تهجين مع عنصر أبيض.

الشعب المصرى بحماس باعتباره باعث التقاليد القديمة مما يشهد مرة أخرى لصالح تلك القرابة الأصلية بين المصريين والأثيوبيين الزنوج. وقد اعتبر المصريون دائما أثيوبيا وأغوار إفريقيا أرضا مقدسة جاء منها الأسلاف. ويبين لنا النص التالى لشيروبينى كيف كان رد فعل الشعب المصرى إزاء أسرة اثيوبية جاءت من بلاد كوش، أى السودان، وأمسكت بزمام السلطة فى البلاد.

«وعلى أى حال، فإنه لمن الجدير بالملاحظة أن سلطة ملك أثيوبيا كان معترفا بها فى مصر، لا كسلطة عدو تفرض قوانينها بقوة السلاح، بقدر ما كان ينظر اليها كنظام وصاية رحبت به البلاد التى عانت الأمرين طويلا وتعرضت للفوضى فى الداخل والضعف فى الخارج، ووجدت فى هذا العاهل، المثل على أى حال لأفكارها ومعتقداتها، باعثا متحمسا لمؤسساتها، وحاميا قويا لاستقلالها. والواقع أن حكم شاباكا كان معتبرا من أسعد العهود التى احتفظت مصر بذكراها. وأسرته التى تم تبنيها فى أرض الفراعنة، تحتل الترتيب الخامس والعشرين فى سلسلة الأسر الحاكمة القومية التى تبوأت عرش البلاد». (شيروبينى، *النوبة*، سلسلة «الكون»، باريس، ١٨٤٧، ص١٠٨).

وهذه القرابة بين مصر والنوبة، وبين مصرايم وكوش، وكلاهما من ابناء حام، تتكشف من خلال العديد من أحداث التاريNgDخ المصرى – النوبى.

وقد اضطر بودج [BUDGE] إلى الاعتراف، بعد شيروبينى، بتلك القرابة: «لقد لاحظ بودج أن معبد تى-راكا فى سمًا قد نُذر لروح الفرعون اوسارتا سون الثالث باعتباره أبا إلهيا، فعبر عن رأيه ألا وهو أن الملوك الأثيوبيين المحليين كانوا يعتبرون الغزاة المصريين الأوائل كأسلاف لهم.. ويلاحظ بودج أن المصريين كانوا حريصين على اقتناعهم الراسخ بأنهم مرتبطون ارتباطا وثيقا بشعب بلاد بونت، أى أثيوبيا الراهنة، مع مراعاة التسلسل الزمنى. وقد لاحظ فى نهاية الأمر أن أهالى بلاد بونت هذه كانوا قد تميزوا منذ زمن بعيد، فى عهد الملكة حتشبسوت، بتلك اللحية المجدولة التى يتزين بها وجه الآلهة فى كل النقوش المصرية» (يدرال، ص ١٨ و ١٩).

ويستحق هذا النص تعليقا بسيطا. فالعنصر الأخير المتمثل فى اللحية المجدولة لايزال منتشرا فى إفريقيا السوداء، كما أن اقتناع المصريين الراسخ لم يكن مقتصرا على الصلات الوثيقة بين الشعبين، بل كان يتعلق بالقرابة الأصلية والبيولوجية، لكون سلفهم واحدا هم والزنوج الذين كانوا يقطنون آنذاك بلاد بونت. وهذا السلف المشترك كان المصريون والنوبيون يعبدونه معا تحت اسم الإله آمون، إله كل إفريقيا السوداء حاليا، كما تبين لنا ذلك من قبل.

وحتى نهاية الأمبراطورية المصرية ظل ملوك النوبة (السودان حاليا) يحملون نفس لقب فرعون مصر، ألا وهو صقر النوبة (دياهاى، *ماف* بالوكوف). وآمون وأوزيريس يصوران بلون أسود فاحم، وايزيس ربة سوداء، والمواطن القومى وحده، أى الأسود، هو الذى يمكنه أن يحظى بشرف خدمة

طقوس الإله مين، وما كان يمكن أن تكون كاهنة أمون فى طيبة، الموقع المقدس الأعلى فى مصر، إلا سودانية مَرَوية. وهذه الوقائع أساسية وقاطعة. وقد حاولت عبثا التخيلات البارعة أن تتوصل إلى تفسير لذلك يتفق مع فكرة الجنس المصرى الأبيض.

«كان هناك فى كل من ممفيس وطيبة ومَرَوى محراب للإله كوش تحت اسم خونسو، إله السموات بالنسبة للأثيوبيين وهرقل بالنسبة للمصريين» (پدرال، ص ٢٩).

خون، إله السموات عند الأثيوبيين، معناه قوس قزح بالوُلوف. وكانت هناك أرض تسمى أرض خونس فى أعالى النيل علما بأن معنى كلمة خون يمتد ليصبح «ميت من العالم الآخر لم يبلغ بعد المرتبة الإلهية». كما أن خون معناها الموت بلغة السيرير.

وهكذا يتبين أن النوبة لها قرابة وثيقة بكل من مصر وبقية إفريقيا السوداء، وأنها كانت على مايبدو نقطة انطلاق لكل من الحضارتين. ولذا لايدهشنا أن نجد اليوم العديد من السمات الحضارية المشتركة بين النوبة، التى استمرت مملكتها حتى الاحتلال الإنجليزى، وبقية افريقيا السوداء. وعلى أثر انتهاء التاريخ المصرى - النوبى القديم، ارتفع شأن إمبراطورية غانا كالشعلة بين منحنى نهر النيجر ونهر السنغال، فى فترة تقع بشكل غير محقق فى القرن الثالث بعد الميلاد. ويتضح لنا اذن، من هذه الزاوية، أن التاريخ الإفريقى ظل متواصلا. فقد أعقبت الأسر الحاكمة النوبية أسر مصرية حتى احتلال الهندو -أأوروبيين لمصر ابتداء من القرن الخامس قبل الميلاد. وظلت النوبة مركز الثقافة والحضارة الوحيد حتى القرن السادس تقريبا، ثم تسلمت غانا المشعل من القرن السادس حتى عام ١٢٤٠، تاريخ تدمير عاصمتها على يد سوندجاتا كيتا، فانطلقت أخيرا الأمبراطورية المادينجية (عاصمة مالى) التى قال عنها ديلافوس: «غير أن هذه القرية الصغيرة فى أعالى نهر النيجر ظلت طوال مئات من السنوات العاصمة الرئيسية لأكبر أمبراطورية عرفتها إفريقيا السوداء ولواحدة من أكبر الامبراطوريات التى تواجدت فى العالم». (ديلافوس: *سود إفريقيا*، الناشر پايو، ١٩٢٢، باريس). ثم جاءت بعد ذلك إمبراطورية جاو، وامبراطورية ياتنجا (أو موسِي، والقائمة حتى الآن)، ومملكتا دچولوف وكايور اللتان حطمهما فيدهرب[FAIDHERBE]، فى ظل حكم نابوليون الثالث. وقد ابتغينا، من خلال التذكير بتلك الأحداث المتسلسلة زمنيا، أن نبين فقط أنه لم يحدث انقطاع فى التاريخ الإفريقى. ومن الجلى أننا لو اتخذنا اتجاها جغرافيا قاريا، ابتداء من النوبة ومصر، مثل النوبة - خليج بنين، أو النوبة - الكونغو، أو النوبة - الموزمبيق، لبدا لنا التاريخ الإفريقى متواصلا أيضا.

وتلك هى الزاوية السليمة التى يجب أن يُنظر من خلالها إلى التاريخ الإفريقى. وأيا كانت مهارة التفسيرات التى تقدم لمحاولة تحاشى ذلك، فستبوء كلها بفشل ذريع، لأن أى تفسيرات تتجاوز الحقائق لا يمكن أن تكون مثمرة.

وعلى نفس المنوال، فإن علم المصريات لن يرتكز على أرض صلبة إلا فى اليوم الذى سيتم الاعتراف فيه رسميا، وبلا تكلف، بأساسه الزنجى الإفريقى.

وبوسعنا أن نقرر بكل ارتياح، اعتمادا على الوقائع المذكورة آنفا وتلك التى سنوردها فيما بعد، وبالاستناد إلى واقع التاريخ المصرى الإفريقى، أنه طالما ظل علم المصريات يتجنب ذلك الأساس الزنجى، وطالما سيكتفى بمغازلته فقط لمجرد محاولة الظهور بمظهر النزاهة، وطالما ظل هذا العلم متمسكا بذلك الموقف، فإن استقرار أسسه سيكون مثل الهرم المعتمد على قمته، وسيجد نفسه دائما أمام طريق مسدود، بعد تلك التفسيرات المتحذلقة.

أوليس من الطبيعى إذن أن نجد فى إفريقيا مجمع الأرباب المصرى - النوبى بأكمله تقريبا؟ يحدثنا پدرال، نقلا عن موريه بخصوص رواية قبطية، عن ملكين لم تحدد هويتهما، كان ثانيهما الملك شانجو، ياكوتا، أو خيفيوسو (حسب اللهجات المحلية). وهذا الأمير الذى كان يُعبد فى كل ساحل العبيد (غينيا) تحت تسميات مختلفة، باعتباره إله الصواعق والدمار، كان ملك كوش، حسب روايات السود أنفسهم، ومن هناك جاء لقبه أوبا - كوسو. وكان شانجو أو أوبا - كوسو، مغرما بالحرب والقنص، وقد قادته فتوحاته حتى الداهومى. وكان الملكان بيرى (إله الظلمات) وأيدو - كويدو (إله قوس قزح) عبدين له.

«ووفقا لموريه، كان أوبا - كوسو هذا قد ولد فى ايفه، وهو موقع يجهله المؤلف تماما. ويحمل أوبا - كوسو لقب «الابن الأول للإله الأعظم»، وقد جاء إلى الوجود عن طريق العلاقة المحرمة بين أوروجان إله الجنوب ويماديا، أم «الإعصار» ذاته، علما بأنها هى نفسها أخت أجاندجو، إله الفضاء، وشانجو - اوبا - كوسو له أخوان هما: دادا، إله الطبيعة وأوجون، إله القناصين والحدادين. وقد تزوج ثلاث نساء: أويا، وأوسون، وأوبا. ومن الجلى أن أوروجان ويماديا يعيدان إلى الأذهان علاقة آمون وخام المحرمة وابنهما مُوت الذى يحمل مع ذلك لقب ملك كوش. كما أن أوسون تعيد إلى الأذهان آسون، زوجة توبوم - ست - تيفون، التى تزوجها بعد ذلك حورس، ابن مصرايم - أوزيريس،ودادا يعيد الى الأذهان ديدان، ابن كوش وفقا لرواية، وربما ابن كوش وفقا لرواية أخرى، علما بأن هناك جانبا غير محقق زادته التوراة غموضا. وأخيرا فإن كوش كانت له، عند الأثيوبيين، ثلاث زوجات كنّ شقيقاته.

«تلخص شهادات موريه هذه ... جزءا أساسيا من التقاليد المشتركة فى البلدان المطلة على خليج بنين (توجو، داهومى، نيجيريا) بين الإيوى، والجوين، والفون واليوروبا، علما بأن المدينة المقدسة للأخيرين كانت ايله، ايفه ...» (پدرال، *المرجع السابق*، ص٣٠ و٣١).

وهذه الشهادات التى نقلها بدرال عن موريبه ، اوردها الأقباط أنفسهم. وتعود أهمية تلك الرواية إلى اختلاطها بكل بساطة مع تلك التى نجدها فى إفريقيا الغربية فى الوقت الراهن، عند أهالى داهومى وتوجو ونيجيريا .. الخ، حيث شانجو وأوراجون ... وهما من آلهة نيجيريا وكل خليج بنين عموما. وايفه التى نقل موريبه اسمها عن النصوص القبطية دون أن يعلم أنها المدينة الكهنوتية لنيجيريا، تدلل على الارتباط الحميم بين التاريخ المصرى وتاريخ إفريقيا السوداء. وأوروجان، إله الجنوب يذكرنا بالكلمة الأنتيلية المشتقة منها أوراجون (إعصار بالفرنسية)، والتى تعود، على مايبدو، إلى أصل إفريقى، وانتقلت الى جزر الأنتيل عن طريق الڤودو. وياكوتا، إله الدمار، يذكرنا بكلمة ياكوتا بالوُلوف التى تعنى الدمار.

ويجدر بنا أن نذكر أن الملك الموسِي يحمل حاليا لقب نابا، وهو نفس اللقب الذى كان يحمله ملك كان يحكم قسما من النوبة.

«وكان أقوى هؤلاء الملوك الأربعة الذين حكموها «ناپ» من نافتا بالكردفان التى كانت عاصمته قائمة باتجاه حوفرات، فى الهاس التى كانت منذ هذا الزمن موقعا تستخرج منه كميات كبيرة من النحاس الى جانب الذهب. وكان هذا الذهب والنحاس ينتقلان الى النوبة حيث كان يحضر ملوك الغرب والشرق للحصول عليه. وكان «الناپ» يحكم فى الجنوب عددا كبيرا من الشعوب التى كانت تصنع له الأسلحة من الحديد وترسل له عبيدا» (پدرال، *نفس المرجع*، ص ٣٦).

وعندما تعرض الجيش لسوء المعاملة فى عهد بسامتيك، انتقل ٢٠٠ الف من رجاله تحت قيادة كوادره من برزخ السويس إلى السودان النوبى حيث وضع نفسه تحت إمرة ملك النوبة.

ووفقا لهيرودوت، أنزل ملك النوبة الجيش بأسره فى أراض ليزرعها، واستوعب الشعب النوبى نهائيا كافة أفراد هذا الجيش. وقد جرى ذلك فى فترة كانت قد مضت فيها من قبل آلاف السنوات على الحضارة النوبية. ولذا تصيب المرء الدهشة عندما يحاول بعض المؤرخين استخدام تلك الواقعة لتفسير ظهور الحضارة النوبية. فعلى عكس ذلك، فإن كل العلماء الأوائل الذين درسوا النوبة، والذين يرجع اليهم فضل اكتشاف الآثار النوبية ومنهم كايو {CAILLAUD} يستخلصون من ذلك/أسبقية النوبة.

ويتضح من دراساتهم أن الحضارة المصرية تولدت من حضارة النوبة أى السودان. وكما لاحظ پدرال فقد استخلص كايو ذلك من واقع معين، وهو أن كافة أدوات العبادة (أى جوهر التقاليد المقدسة) نوبية(*). وهكذا يفترض كايوه أن جذور الحضارة المصرية كانت فى النوبة (السودان) وأنها

(*) وقبل أن أبتعد عن النوبة، سأسمح لنفسى بأن أسجل بعض الملاحظات الصالحة لإثبات أقدمية حضارتها على حضارة مصر. وهذه المسألة التى لم تبت فيها بعد الوثائق التاريخية، تكتسب فى رأيى قدرا كبيرا من الوضوح عندما يفحص المرء بعناية آثار اثيوبيا أو النوبة العليا ومنتجاتها الطبيعية. وانا لا أعتقد أن آرائى ستبدد كافة الشكوك حول هذا الموضوع الذى طال الجدال حوله ...

بقية الهامش فى الصفحة التالية

بقية هامش الصفحة السابقة

انحدرت تدريجيا مع وادى النيل. وبذلك يكون قد اكتشف من جديد، أو تحقق على الأرجح، من وجهة النظر الإجماعية للفلاسفة والكتاب القدامى الذين اعتبروا أسبقية النوبة أمرا مفروغا منه.

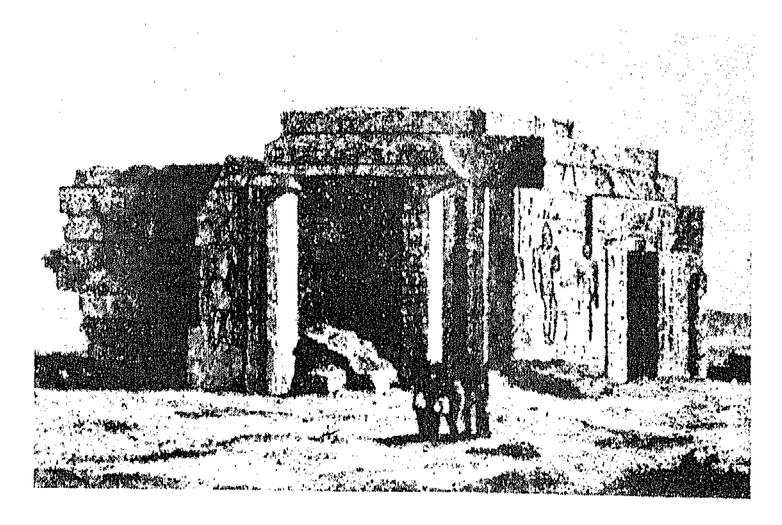
وقد أفادنا ديودور الصقلى أنهم كانوا يخرجون كل عام تمثال آمون ملك *طيبة* باتجاه النوبة (أي السودان) لبضعة أيام، ثم يعيدونه بعد ذلك للتدليل على أنه عاد من النوبة. ووفقا لنفس المؤلف، فقد نبعت الحضارة المصرية من حضارة النوبة التى كانت مَرَوى مركزا لها. والواقع أن كايو اكتشف فى حوالى عام ۱۸۲۰ أطلال مروى: ثمانين هرما وعدة معابد مكرسة لآمون رع .. الخ، وذلك اعتمادا على إشارات ديودور وهيرودوت إلى موقع تلك العاصمة السودانية(*) ... ويفيدنا هيرودوت من جهة أخرى (نقلا عما قاله له الكهنة المصريون أنفسهم) أن من بين الفراعنة الثلاثمئة منذ عهد نعرمر حتى الأسرة الثامنة والعشرين، كان ثمانية عشر فرعون، لا الثلاثة فقط الخاصون «بالأسرة الأثيوبية»، من أصل سودانى.

والمصريون أنفسهم، وهم أدرى الناس بأصولهم، يعترفون بلا لف أو دوران أن أسلافهم جاءوا من النوبة وقلب إفريقيا. وبلاد *الآمام*، أى بلاد الأسلاف (ولنلاحظ أن آمام تعنى السلف بلغة الوُلُوف) وهى مجموع بلاد الآلهة. وهناك وقائع أخرى، من بينها الأعاصير والأمطار الغزيرة التى ورد ذكرها في هرم أوناس، تذكرنا بالمناطق المدارية، فى قلب إفريقيا، كما لاحظ ذلك اميلينو.

وبمقتضى أسبقية النوبة هذه، مهد الحضارة والديانة، يقول هوميروس فى بيت شعر من *الإلياذة* إن چوبيتر ينزل كل عام مع موكب الآلهة ليحج إلى اثيوبيا، لكى يجدد قواه.

لقد عثرت على عدد كبير من العادات القديمة التى ظلت قائمة فى النوبة ولم يبق منها أى أثر فى مصر؛ وأنا أقر بأنه لا يمكن أن أستخلص من ذلك أى استقراء يدفع الى الاعتقاد بأن هذه العادات لم لم تنشأ أصلا فى هذا البلد. ولكن اذا توصلنا الى إثبات أن الأدوات الأساسية المخصصة للعبادة عند قدماء المصريين كانت من إنتاج انفردت به اثيوبيا، فإننا سنميل الى الاعتراف بأن هذه العبادة لم تنشأ أبدا فى مصر ... ويقال عن حق إن هجرات الشعوب الباحثة عن مستقر كانت تتم بالانحدار مع مجرى الأنهار. ولو تبنينا ذلك التدرج الطبيعى لما أمكننا أن نرفض استخلاص كون اثيوبيا كانت مسكونة قبل مصر. وهكذا تكون اثيوبيا هى التى كانت لها أولا قوانين وفنون وكتابة. غير أن عناصر الحضارة هذه التى كانت لا تزال خشنة وناقصة، لم تتطور الى حد كبير إلا فى مصر حيث ساعد على ذلك المناخ وطبيعة الارض والموقع الجغرافى. فهنا اكسب ازميل النحات رموز المعتقدات البدائية لمواطنيه، أشكالا أكثر انتظاما، لكى يزين بها المعابد، تلك الصروح التى تثير بكتلها المهيبة إعجابنا، والتى لا تزال منطقة طيبة تحتوى حتى الآن على بقاياها الرائعة. وهكذا، كما كتب من قبل العديد من العلماء، ومن بينهم السيد جومار، فإن الفنون المتقنة فى مصر صعدت مرة أخرى باتجاه منبع النهر، بعد أن كانت قد انحدرت معه فى طفولتها. وكان هذا رأيى فى الواقع فى عام ۱۸۱٦ عندما رأيت آثار النوبة السفلى، والمعترف اليوم بأنها لاحقة لأغلب آثار طيبة». (فردريك كايو ، « *رحلة الى مَرَوى*، ۱۸۲٦، المجلد الثالث، ص ۲۷۱ والصفحات التالية).

(*) كايو ، *المرجع السابق*، المجلد الثالث، ص١٦٥.



٤٢- أثر إفريقي قديم : معبد سوداني
(صورة نشرها شيروبيني)

ومما له مغزاه أن أعمال التنقيب التى تمت حتى الآن، فى محيط أثيوبيا القدماء، لم تكشف عن وثائق جديرة بهذا الاسم إلا فى النوبة ذاتها، لا فى اثيوبيا الحالية. فهناك بالفعل أهرامات فى النوبة على غرار تلك التى تم اكتشافها فى مصر، ومنها هرما اسور ونورى. كما أن المعابد المقامة تحت الأرض وغيرها، توجد هناك، لا فى أثيوبيا، ومنها معابد سمنا وتيفونيوم وحتحور فى ايسامبول (انظر الصورة رقم ٤٢)، وكذلك الكتابة المسماة المرّوية التى لم يتم بعد فك رموزها، وهى قريبة من الكتابة المصرية. وهناك شئ مثير للانتباه، لم يتم التأكيد عليه، وهو أن الكتابة النوبية متطورة بقدر أكبر من اللغة المصرية، بينما لم تتخلص الأخيرة أبدا، حتى فى أطوارها الديموطيقية والهيراطيقية، من جوهرها الهيروغليفى، علما بأن الكتابة النوبية تعتمد على الحروف الأبجدية، لا الرموز.

وبالطبع، يمكننا أن نتوقع، دون خوف من خيبة الأمل، محاولات لتشبيب الحضارة النوبية واجتهادات لتفسيرها من خلال الحضارة المصرية. وهذا ما اعتقد ريسنر أنه نجح فى التوصل اليه، فى دراسة لا تشمل إلا المرحلة التاريخية النوبية التى تعود إلى العهد الأشورى، أى فى الألف الأولى قبل الميلاد.وهو يفترض أن النوبة كانت تحكمها قبل ذلك أسرة ليبية، وأن الأسر النوبية التى أعقبتها لم تكن إلا امتدادا لها.ومرة أخرى يتولى جنس أبيض أسطورى مهمة إقامة حضارة والانسحاب بما يشبه المعجزة لكى يترك المجال للسود. وجميع تلك المحاولات العامة للنيل من كافة الحضارات الزنجية فى إفريقيا السوداء، ابتداء من مصر والنوبة وغانا وسونراى حتى مملكة بنين، ومرورا برواندا - اوروندى، على سبيل المثال لا الحصر، تتخذ فى نهاية الأمر الطابع الرتيب لتمثيلية هزلية غثة لم تعد

تدعو حتى الى الابتسام.

وما كان بوسع ريسنر أن يتجاهل أن الحضارة النوبية سابقة على عام ١٥٠٠ ق.م.، أى قبل ظهور اللّيبى الأبيض اليافثى فى إفريقيا. ولذا، فإن المشكلة لا تتمثل فى محاولة البحث عن ليبيين فى التاريخ الحديث للنوبة، ولكن العثور عليهم فى مستهل تلك الحضارة، أى من حوالى ٥٠٠٠ سنة ق.م.، وبالطبع فقد حرص ريسنر على ألا يحاول الإقدام على تلك المهمة.

مهــد الحضــارات
فى قلــب البــلاد الزنجيــة

وهناك حقيقة أخرى لا تقل غرابة وهى أن الهندو - أوروبيين لم يؤسسوا قط حضارة فى مهدهم الأول، أى فى السهوب الاوروبية الاسيوية. والحضارات التى تنسب اليهم نشأت بلا مجال للشك فى البلاد الزنجية، فى الشطر الجنوبى من نصف الكرة الأرضية الشمالى: فى مصر، والجزيرة العربية، وفينيقيا، وبلاد مابين النهرين، وعيلام، والهند.

وفى جميع تلك البلدان، كانت هناك أصلا حضارات زنجية عندما جاء إليها الهندو - أوروبيين فى السنوات الألف الثانية قبل الميلاد، وكانوا آنذاك رُحلا خشنين. ويتمثل التصرف هنا فى محاولة إثبات أن هذه الشعوب التى كانت لا تزال متوحشة، جلبت معها فى خضم الزعزعة التى أحدثتها، كافة عناصر التحضر وأدخلتها فى كل الأنحاء التى وصلت اليها. وهنا يتبادر إلى الذهن السؤال التالى: لماذا لم تظهر كل تلك الاستعدادات الخلاقة إلا مع الاتصال بالزنوج، ولم تظهر أبدا فى مهدها الأول، أى السهوب الأوروبية - الأسيوية؟ لماذا لم تخلق هذه الشعوب حضارات فى مواطنها 'الأصلية قبل هجرتها؟ فلو أن العالم الحديث اختفى، لأمكننا بسهولة أن نتبين أن الحضارة الحديثة انتشرت منه فى كافة أرجاء المعمورة، وذلك بفضل بقايا تلك الحضارة المتواجدة فى أوروبا. ولكن لا يمكننا أن نجد شيئا مماثلا فى السهوب الاوروبية - الآسيوية. ولو رجعنا إلى أقدم العهود الغابرة لوجدنا أن الوثائق تجبرنا على الانطلاق من البلدان الزنجية لتفسير كافة ظواهر الحضارة.

ومن الخطأ الزعم بأن الحضارة نشأت عن ذلك التهجين، فلدينا الأدلة التى تثبت أنها كانت قائمة فى البلدان السوداء قبل الاتصال التاريخى بالهندو - أوروبيين بزمن بعيد.

والشعوب الزنجية، المتجانسة عرقيا هى التى أوجدت كافة عناصر الحضارة بتواؤمها مع الظروف

الجغرافية المواتية فى مهودها الأصلية. وعليه فقد أصبحت بلادها مراكز جذب حاول سكان البلاد المعدمة والمتخلفة المجاورون لها دخولها لتحسين ظروف معيشتهم. ولذا فإن التهجين الذى نشأ عن ذلك الاتصال ترتب على الحضارة التى أوجدها الزنوج من قبل، وليس العكس، وهذه الأسباب نفسها هى التى تجعل أوروبا - وبالأخص باريس ولندن ... الخ - مراكز استقطاب تلتقى فيها يوميا وتنصهر معا أجناس العالم. غير أنه من الخطأ أن نفسر الحضارة الأوروبية فى عام ١٩٥٤، على مدى ألفى سنة اعتمادا على أن أوروبا كانت آنذاك شبه مشبعة بعناصر مستعمرة قدمت كل منها إسهاما. فعلى العكس من ذلك، نرى أن العناصر الأجنبية، التى تجاوزتها الأحداث، تحتاج إلى بعض الوقت للتغلب على تأخرها ولا تقدم لفترة طويلة إسهاما مجزيا فى الحضارة التقنية. وقد كان الأمر على هذا المنوال فى العهود القديمة: فكل عناصر الحضارية المصرية كانت قد نشأت منذ البداية وظلت قائمة، ثم تفتحت على أقصى تقدير ، باتصالها بالخارج. والغزوات المختلفة للأجناس البيضاء على مصر معروفة فى العصور التاريخية بكل تأكيد: الهكسوس (السكوتيون)، والليبيون، والاشوريون، والفرس. ولم يأت أى من تلك العناصر بتطويرات جديدة فى الرياضيات، والفلك، والفزياء، والطب، والفلسفة، والفنون، والتنظيم السياسى...

ويسمح لنا كل ما جاء من قبل بأن ترفض أيضا التفسيرات اللاحقة، التى قررت، على أساس الوضع فى العالم الحديث، أن المنطقة المعتدلة المناخ مواتية بشكل خاص لظهور الحضارات التى نشأت جميعها فى تلك المنطقة. فالوثائق التاريخية تثبت، على العكس، أن الحضارات الأولى تواجدت خارج تلك المنطقة، فى الوقت الذى كان مناخ العالم فيه قد استقر(*).

اللغـــــات

بقدر ما توجد صعوبة فى إثبات علاقة القرابة بين اللغة المصرية القديمة واللغات الهندو- أوروبية والسامية، بقدر ما يسهل إثبات رابطة الوحدة الوثيقة بين اللغة المصرية القديمة واللغات الزنجية.

«لقد خطرت فى ذهن عالم شاب متبحر، وهو السيد ن.ريش، فكرة المقارنة بين بعض أصول

(*) «وظلت افريقيا سراً خفيا لأمد طويل ... ولكن ألم تكن أحد مهود الحضارة؟ إن مصر، وهى بلد افريقى، لا تزال تحتفظ حتى اليوم، بعد عدة آلاف من السنوات، بأروع آثار الماضى العريق. ففى الوقت الذى كانت أوروبا فيه وحشية صرفة، ولم تكن باريس ولندن سوى مستنقعات وروما واثينا بقاعا مهجورة، كانت افريقيا تملك حضارة قديمة فى وادى النيل. وكانت تعرف المدن العامرة بالسكان، والعمل الصبور للأجيال المتعاقبة فى نفس تلك الأرض، والمنشآت العامة الكبيرة والعلوم والفنون، كما كانت قد أنتجت آلهة». چاك ويلرس: *إفريقيا السوداء*، مطبوعات فايار، ١٩٣٤ باريس، ص١١).

الكلمات باللغة المصرية القديمة وأصول بعضها الآخر التى لا تزال تستخدمها الشعوب الزنجية فى وسط إفريقيا أو النوبة: وقد أثبت بلا مشقة كبيرة أن هناك تماثلا تاما بينها». (اميلينو: *تمهيدات فى دراسة الديانة المصرية*، الجزء الثانى، مطبوعات ليرو، باريس، ١٩١٦،ص ١٢٦).

ودعمت الآنسه هومبورجر، بعد ريش، صلة القرابة بين اللغة المصرية القديمة واللغات النجرو-إفريقية فى الفصل الثانى عشر من كتابها: *اللغات النجرو- إفريقية*، (مطبوعات بايو). غير أن أطروحتها تتضمن فقط تأثيرا مصريا على اللغات الزنجية التى قد تكون أصلا مختلفة عرقيا ولغويا عن اللغة المصرية.

ومع أن دراسات الآنسة هومبورجر لها أهميتها الكبيرة التى لا يزال يسدل عليها ستار الصمت حتى الآن، إلا أنه من الصعب أن نجاريها بخصوص تلك النقطة الأخيرة. فالتماثل شبه الكامل بين مصر وإفريقيا السودا ء، من كافة وجهات النظر العرقية وغيرها لا يسمح بقبول ذلك الاستنتاج.

والمقارنة اللغوية بين المصرية القديمة والوُلُوف على وجه الخصوص، ستكون أكثر مدعاة للاقتناع لأنها م الوضوح بحيث يصعب التمسك بوجود أساسين لغويين مختلفين.

وقد يتصور المرء مقدما، أن مقارنة من هذا النوع مستحيلة بدعوى أن اللغة اللاتينية تحولت تماما فى غضون ألفى سنة إلى لغات أخرى، منها الفرنسية، والايطالية..الخ، وأنه سيكون من الصعب أن نربط تلك اللغات اليوم بها، لولا أنه تتوفر لدينا شهادات سابقة مدونة.

وهذه الملاحظة لا تعوق طريقنا لسببين. أولا، لأن تطور اللغات لا يتم بسرعة واحدة فى كل المناطق ، بل إنه مرتبط على مايبدو بعوامل أخرى، منها استقرار النظام الاجتماعى، أو على العكس تعرضه للزعزعات. ويمكننا أن ندرك بسهولة أن لغة الناس فى المجتمعات الراسخة تغيرت بقدر أقل عبر الزمان. وهذا ليس مجرد افتراض، فالجمل العشرون بلغة البربر التى ترجع إلى القرن الثانى عشر وتوجد فى حوزتنا، تدل على أنها لغة مماثلة للغة البربر اليوم، بينما المقارنة بين الفرنسية فى أواخر القرن العاشر، وفرنسية اليوم تكشف عن فروق عميقة. أما فى إفريقيا السودا ء، فإن الشهادات القليلة المتوفرة لدينا حول تلك اللغات السابقة، خلافا للمَرْوية التى لم يتم بعد فك رموزها، تتكون فى ظل الوضع الراهن لمعارفنا من بعض الكلمات المتفرقة فى كتابات مؤلفين عرب من القرن العاشر حتى القرن الخامس عشر. وهكذا وجدنا فى مؤلف بن بطوطة المذكور أعلاه (ص. ٣٠٠) أن «الغَرْتى ثمر كالإجّاص شديد الحلاوة، ويُدَقّ عظمه فيستخرج منه زيت لهم فيه منافع». وكلمة الغَرْتى هذه استخدمت على الأرجح للفول السودانى عند دخوله مؤخرا فى إفريقيا السودا ء. والكلمة المستخدمة حاليا (غَرته) لا تختلف إذن عن كلمة القرن الرابع عشر (غَرْتى) إلا باللفظ الأخير (*اى*)الذى أصبح (هـ)، وذلك بالنسبة لتلك الكلمة بلغة الوُلُوف التى استعارتها من السراكوله، هذا اذا ما سلمنا بأن

تدوين ابن بطوطه لها صحيح.

كما يقول ابن بطوطه أيضا فى نفس المرجع إن البيض من السُنة الذين يتبعون المذهب المالكى يسمونهم تورى. وكلمة تورى هذه اسم علم سودانى. وهكذا فإن التورى هم على الأرجح خلاسيون منحدرون إلى حد أو آخر، من تلك الأقلية العربية التى كانت تعيش فى السودان فى القرن الرابع عشر. وهناك كذلك فاريا حسين دى ڤالاتا -وقد كتب ابن بطوطه اسم حسين بشكل صحيح بالطبع لأنه أسم عربى. وڤالاتا، دُونت ڤالاتن، وهو مايبدو انعكاسا لنهاية الكلمة بلغة البربر. وفيما عدا ذلك لا يزال تركيب هذه الكلمة كما هو حتى يومنا هذا، وهى تنطق ڤالاتا. وكلمة فاريا تشير إلى وظيفة إدارية بلغة السيرير، وقد انتقلت حرفيا إلى لغة الوُلوف. «وكان ملك غانا يلقب ماجا»، فهى كلمة قد تعود إلى القرن الثالث قبل الميلاد، مثل لغة السراكوله، إذا افترضنا أنها كانت اللغة المستخدمة أصلا فى هذه الإمبراطورية.

ماج تعنى كبيرا، شخصية كبيرة بلغة الوُلوف، بينما تشير كلمة غانار الى موريتانيا، أى شمال غرب إمبراطورية غانا القديمة.

كيلا كانت تعنى القرع فى القرن الرابع عشر، *والكيلة تعنى حاليا وعاء من الخشب بلغة الوُلوف*.

وهذه الأمثلة تبين أن اللغات الافريقية ثابتة نسبيا.

ومن جهة أخرى فإن المقارنة بين اللغات الإفريقية واللغة المصرية القديمة لا تفضى بنا الى علاقات غامضة يمكن اعتبارها فى أحسن الأحوال مجرد احتمالات، بل إلى تطابق فى قواعد الصرف والنحو على نطاق واسع، بحيث لا يمكن أن يكون ذلك مجرد صدفة.

بيد أن الامتناع عن دراسة تلك الوقائع الملموسة ومحاولة تفسيرها، معناه اتخاذ موقف غير علمى، يشبه فى ذلك موقف هؤلاء الفلاسفة الذين يرون أسلاك المصباح وهى تتوهج، ولكنهم يصرون مع ذلك على أنهم بصدد ظاهرة مستحيلة لأنها تخالف المبادئ المسلم بها حتى ذلك الوقت، وتتعارض مع أفكارهم حول الأشياء.

فاللغة المصرية القديمة تعبر عن الماضى ببدء الفعل بحرف النون مثل الوُلوف، وهناك تصريف للأفعال يتم بإضافة نجدها حرفيا فى الوُلوف؛ وأغلب ضمائر هذا التصريف مماثلة لما يوجد فى الوُلوف؛ والضميران المضافان بالمصرية القديمة (إف) و(إس) نجدهما بالأخص حرفيا فى الوُلوف، وبنفس المعنى؛ كما أن حروف الإشارة واحدة فى اللغتين، والمبنى للمجهول تعبر عنه نفس البداية (أو) فى اللغتين؛ كما يكفى إحلال (اللام) فى الوُلوف محل (النون) فى اللغة المصرية القديمة للانتقال من الكلمة المصرية الى الكلمة الوُلوف بنفس المعنى فى العبارات التالية:

الكلمات المصرية		*الكلمات الوُلُوف*	
(ناد)	= يطلب	(لاد)	= يطلب
(ناه)	= يخفى، يحمى	(لاه)	= يخفى، يحمى
(نت)	= ضفيره، يضفر	(لت)	= ضفيره، يضفر
(بن - بن)	= منبع	(بل - بل)	= منبع
(فون)	= مؤكد، منتظم، أصيل	(فولا)	= مسلك محترم أو مستقيم

والصيغة (سجم - ت - إف) توجد فى الوُلُوف والصيغة (سدجم - كا) توجد فى لغة السيرير، والجمع باللغة المصرية الذى ينتهى بـ (أو) موجود حرفيا فى السراكوله. فهناك إذن قدر ضخم من التطابقات، هذا عدا حصيلة الكلمات المشتركة، بحيث لا يمكن أن يكون الأمر محض مصادفات.

وتمثلت خططى الدراسية فى تقصى جوانب القرابة التى لا يمكن نقضها والمستخلصة من العديد من التماثلات النحوية بين اللغات الزنجية واللغة المصرية، ثم السماح لنفسى، على أساس تلك القرابة الجلية، بعقد مقارنات، قد تبدو أقل شرعية وتقتصر قيمتها على كونها افتراضات تصلح لبحوث تجرى فى المستقبل.

وقد لجأت فى هذه الدراسة الى كتاب النحو الكلاسيكى لجارديتر[GARDINER]. وجميع القواعد الأساسية للنحو المذكورة هنا، مأخوذة بنفس المعنى. ولكن بما أن هذا الكتاب مدون باللغة الانجليزية، ولكى أتحاشى ترجمة النص المقابل كلما استندت إلى جارديتر، فقد اضطرنى الأمر إلى اللجوء الى قواعد النحو المصرية للدكتور ديرون[D.DERON] الأقل شهرة والأبسط فى العرض، كلما تعلق الأمر بقواعد النحو الواردة عند كل من جاردينير وديرون، وذلك بغية تيسير الشرح. وعليه، فإن جميع قواعد النحو الواردة فيما بعد موجودة حرفيا فى كتاب جارديتر.

دراسة مقارنة
بين قواعد النحو المصرية والوُلوف

واللغة المصرية المقصودة هنا، هى اللغة الكلاسيكية التى «استخدمت منذ أيام الأسرة التاسعة حتى الأسرة الثالثة والعشرين، بين ٢٤٠٠ و٧٥٠ ق.م.

والأمثلة المتعلقة بالنحو الوُلوف أخذتها عن معرفتى بها بوصفها لغتى أنا.

تكــــوين الجمــــع

يتكون الجمع فى اللغة المصرية القديمة بإضافة (واو) فى نهاية الكلمة:

(پاك) = خادم

(پاكو) = خدم

ولنلاحظ فى هذا الصدد أن (خادم) بالوُلوف هى: (بيك نج)، التى قد تكون تحويرا لـ (بوك - نج) ومعناها المشاركة فى سكنى نفس الكوخ.

وتكوين الجمع بالوُلوف معقد بدرجة أكبر. وسنكتفى هنا بذكر ما يمكن أن يكون قريبا من اللغة المصرية.

فتكوين الجمع بإضافة (واو) لا يزال مستخدما فى لغة الوُلوف فى شكل تركيب قديم، خاصة فى المجالات التى كان يتعين الاحتفاظ فيها بهذا الشكل، أى عندما تخص الصفة العددية اسما موصوفا.

(بن) = واحد	(بنبوپ)	
(نيآر) = اثنان	(نيرى بوپ)	(نيآرو بوپ)
(نيآت) = ثلاثة	(نيآتى بوپ)	(نياتو بوپ)
(نيينت) = أربعة	(نيينتى بوپ)	(نيينتو بوپ)
الخ ...		
(تيمير) = مئة	(تميرى بوپ)	(تميرو بوپ)

ومن المهم ألا نخلط فى هذه الحالة (الباء) و(الواو) بالحروف المتحركة المصاحبة لأداة التعريف والإشارة، بينما يمكن أن نقول على حد سواء:

(بوپ آب نيت) أو (بوپ أوب نيت) = رأس انسان.

كما يمكن أن نقول :

(نآرو بوپ) أو (نارى بوپ) = رأسان.

واسم الموصوف بالوُلُوف الذى يبدأ بـ (ب) أو (مب) يتم جمعه بتحويل الـ (ب) أو الـ (مب) الى (واو):

(بونت) = باب　　(ڤونت) = أبواب
(بوم) = حبل　　(ڤوم) = حبال
(مبام) = حمار　　(ڤام) أو (بام) = حمير
(مبورو) = رغيف　　(ڤورو) أو (بورو) = أرغفة

واذا أردنا الإشارة إلى سكان بلد ما بلغة الوُلُوف يكفى أن تَسْبق اسم هذا البلد أداة التصدير (وا):

(كادور)، اسم بلد　　(ڤاكادور) = أهالى كادور

وبوسعنا أن نلاحظ تماثل الأداة (واو) مع (با) التى تقوم بنفس المهمة بالنسبة لأسماء قبائل حوض نهر الكونغو:

(بالوبا) = اللوبا

وتوجد قاعدة الجمع بتصدير الكلمة بحرف (الواو) فى لغة الدولا [Dôla] ايضا وذلك بالنسبة للكلمات التى تبدأ بحرف الباء، كما هو الحال فى الوُلُوف، أو بحرف الكاف:

(بوسانا) = صانع الجبن، قارب　　(ڤوسانا) = قوارب
(بمپون) = قبعة　　(ڤمپون) = قبعات
(كِن) = ديك　　(ڤِن) = ديوك
(كالجِن) = يد　　(ڤُولجِن) = أيدى

ويتم الجمع بلغة الماندى بـ (لو)، وهو مجرد تحوير لفظى للجمع المصرى بحرف (الواو)

(مُوهو) = رجل　　(موهو لو) = رجال

بيد أننا نجد فى لغة السراكوله (السونينكا) التماثل التام مع اللغة المصرية فى صيغة الجمع. ففيما عدا بعض الكلمات التى تنتهى (بالياء)، يتكون الجمع بالسراكوله بإضافة (الواو)، تماما كما هو الحال فى اللغة المصرية:

(كومپه) = كوخ　　(كومپو) = أكواخ
(ياهاره) = امرأة　　(ياهارو) = نسوة

ومن الملاحظ فى اللغة المصرية الحالية، أى القبطية التى تعتبر، وفقا لأميلينو، لغة المصريين

القدامى المدونة بالحروف الاغريقية، أن الجمع بحرف (الواو) يميل الى الزوال. وهكذا نجد أنه من المفهوم أن تكون هذه الصيغة متوارية بقدر أكبر، دون أن يكون هناك مجال لإنكار وجودها، فى لغة تبدو أصلا أبعد عن اللغة المصرية الكلاسيكية. فالصفة المسندة لا تتغير بينما آخر الكلمة (وُ) فى جمع المؤنث يستبعد فى الكثير من الأحوال ويحل محله جمع تخطيطى يتمثل فى ثلاثة خطوط رأسية متوازية أو متتالية.

العلاقة بين أسماء الإشارة

توجد عدة فئات من أسماء الإشارة فى اللغة المصرية القديمة، من بينها فئتان رئيسيتان هما:

أ) فئة المذكر المفرد، وفيها تبدأ كل حالات الإشارة بحرف (پ).

ب) فئة الجمع التى تبدأ دائما بحرف (النون)

ولنقارن بين أدوات الإشارة المصرية والوُلوف التالية:

بالمصرية : (پوى)، (پف)، (پو)، پا) = هذا، ذاك، ذلك .. الخ

بالوُلوف : (بى)،(به)، (بو)، (با) = هذا، ذاك، هذا القريب، هذا البعيد.

بالمصرية : (نن)، نف)، (نو)، (نا) = هؤلاء، أولئك، هاتيك...

بالوُلوف : (نى)، (نيه)، (نو)، (نا) = هؤلاء، أولئك، هاتيك، هؤلاء (على مسافة قريبة، أو على مسافة بعيدة).

وقد تطورت أدوات الإشارة هذه فى كل من اللغتين المصرية والوُلوف وأصبحت أدوات تعريف. وهكذا أصبحت (پا) و(نا) ابتداء من الأسرة الثامنة عشرة أداتى تعريف للمفرد والجمع. ومن بين أدوات التعريف السبع بالوُلوف المستخدمة حاليا والتى تقوم فى الوقت نفسه بدورها كأداة إشارة، هناك بالذات (بيه) و(با) و(بو)، وجميعها صيغة محورة لـ (پا) التى تحكم أغلب الأسماء فى هذه اللغة.

كما أن (نا) بلغة السيرير أداة تعريف للمفرد، وهى تستخدم فى اللغة المصرية للجمع (ربما نتيجة لخلط).

(نديد) = شمس (نديدنا) = الشمس

وتؤدى (نى) و(نيه) و(نآ)نفس الوظيفة فى الوُلوف كأداة تعريف للجمع (نا) باللغة المصرية.

وعندما يجد المرء أن :

(نا) = الـ بلغة السيرير (نا)= الـ (للجمع) باللغة المصرية.

(نآ) = الـ (للجمع) بالوُلوف

(نيت نى) = الرجال (هنا)

(نيت نآ)= الرجال (هناك)

فإنه يميل إلى اعتبار (نآ) مجرد تحوير لفظى لمقابلة (نا) المؤدية لنفس الوظيفة فى اللغة المصرية.

وسندرك هنا أقدم أشكال، بل ومنشأ مجموعات الحروف الساكنة التى يتغير عددها حسب التاريخ الخاص بكل من اللغات الزنجية التى نعالجها. فقد ظل أصل هذه الحروف الساكنة التى تحكم لفظيا أسماء اللغة، بلا تفسير، مما دفع المتخصصون إلى البحث عن ذلك فى العقلية الزنجية فى حد ذاتها.

وأخيرا فإن (نى) و(نينو) أداتان للجمع فى اللغة المصرية، شأنهما فى ذلك شأن (نوون) بالوُلوف.

بالمصرية: (نى) = خاص بـ (مع اسم مفرد)

(نيو) = خاص بـ (مع اسم جمع)

بالوُلوف (نيو) = خاص بـ (اسم مفرد)

(نون) = خاص بـ (اسم جمع)

وتستخدم (بو) فى الوُلوف بدلا من (نى). وقد رأينا من قبل أن (بو) تبدو مجرد تحوير لـ پو المصرية.

(بو)، (بوب) = خاص بـ ، الذى هو خاص بـ

وهكذا، فإن (النون) تقوم بوظيفة معقدة للغاية فى الوُلوف، كما هو الحال فى اللغة المصرية. وقد لاحظ ذلك الدكتور ديرون نفسه «لقد تم الوصول شيئا فشيئا إلى (النون) الثابتة، لكل من المذكر المفرد والجمع فى آن واحد، كما لو كان قد حدث خلط بين هذا الشكل المضمحل للصفة وأداة التبعية».

ويبدو أن فكرة الخلط هذه، التى يجب أن توضع فى عين الاعتبار أصلا بالنسبة للتطور الداخلى للغة المصرية، قد قامت أيضا بدور أكبر فى الانتقال من هذه اللغة إلى الوُلوف.

وإلى جانب أدوات الجر، تستخدم اللغة المصرية البدل فى أغلب الأحوال للتعبير عن الانتساب. وتميل لغة الوُلوف، التى تطورت إلى حد كبير، إلى تجاوز هذه المرحلة، ولكنها لاتزال تستخدم حتى الآن البدل شأنها فى ذلك شأن السيرير وكل اللغات الزنجية تقريبا:

(لات دور) = (لات) أو (لاتير)، ابن دور

وفى اللغة المصرية، عندما يتعلق الأمر بمثل هذا البدل، يأتى الاسم المقدس فى المقدمة عند التدوين، ولكن الترتيب يعود إلى أصله عند القراءة.

فعندما يقال (بيت الرب)، كانوا يكتبون (الرب بيت) تبجيلا لاسم الرب الذى يجب أن تكون له الأسبقية على كل شئ.

وعند السيرير، حيث يعتبر الملك شخصية شبه مقدسة، يحظى مقره بنفس تلك الأسبقية.

(نبيم كام) = (بيت فى)، بدلا من (فى بيت)

ويستخدم هذا التبديل فى ترتيب الكلمات كلما تعلق الأمر بتحديد وضع شئ ما عند الملك، وتلك هى الحالة الوحيدة التى يتم فيها اللجوء إلى هذا التبديل فى لغة السيرير.

الضمائر الملحقة

وهنا نصل الى الضمائر الملحقة الشهيرة التى ساهمت جزئيا فى اعتبار اللغة المصرية إحدى اللغات السامية.

وجميع تلك الضمائر، باستثناء ضمير واحد أو ضميرين، موجودة فى لغة الوُلُوف، كما يتضح من الجدول التالى، حيث هناك خمسة ضمائر موجودة فى لغة الوُلُوف بلا أى تغيير:

بالمصرية	بالوُلُوف
(مآ) = ها أنا	(مآ) = ها أنا (مع أحد أفعال القول)
(مآك وى)= ها أنا ذا	(مآلجى) = ها أنا ذا ، ها هو ذا منصرف الى ...
(تيو)= أنت	(يو) = أنت
(إف) (أوف) = منـه	(إف) (أوف) (إس) = منـه
مثال ذلك :	مثال ذلك :
سُمع منه = (سجم - إف)	سُمع منه = (دج - إف)
(سدجم) = سَمِعَ	(دج) = سَمِعَ
(إس) = منها (مؤنث إف)	(إس) يماثل (إف)، وقد اختفى التدرج الوحيد الذى كان يفرق بين هذين الضميرين مع تغير طريقة التعبير عن المؤنث
(نِن) = نحن، منا، لنا، نا	(نُن) = نحن
	(نن) = الذى نحن
	(سونو) = نا
(تِن) = أنتم، منكم، لكم، كم (مضافة للفعل)	(ين) = أنتم
	(سِن) =تُم (مضافة للفعل)
	(تن) = أنتم (بلغة السيرير)
(سِن)= هم (مع فعل لفاعل مفرد أو جمع)، منهم، هنّ، منهنّ...	(سِن) = هم .. الخ
	(دن) = هم (بلغة السيرير) ..الخ

غير أن القرابة أقوى من ذلك، لأن هناك سلسلتين من الضمائر فى اللغتين، عدا ضمائر التبعية أو المفعول. وسأقدم فيما يلى جدولين للمقاونة بين تلك الضمائر مع التنويه فى كل مرة بتماثلهما الوظيفى.

والجدول الأول يهدف إلى عرض التماثلات التى جرت على الأرجح عند الانتقال من اللغة المصرية إلى الوُلوف، وهو يتضمن إلى جانب الضمائر الملحقة، بعض الضمائر المنفصلة، كما لاحظنا أعلاه. وعلى العكس فإن الضمائر الملحقة باللغة المصرية فى الجدول الثانى، تقابلها فقط ضمائر ملحقة بالوُلوف.

بالمصرية	*بالوُلوف*
(آ) أو (إى) = أنا (مع فعل قول)	(نآ) = أنا
(إك) = أنت	(لجا) = أنت
(إف) (أوف) هو، ه	(إف) (أوف) هو، ه
(إس) = مؤنث (إف)	(إس) = مماثل لـ إف
	(نا)= هو
(نِن) = نحن	(نِن) = نحن (فى الشعر)
	(نانو) = نحن
(رتن) = أنتم	(نجِن) = أنتم
(سِن) = هم	(نانو) = هم

وتلحق هذه الضمائر بالأفعال فى كلتا اللغتين.

والضميران الملحقان (إف) و(أوف)، يعبران بالأخص عن صيغة قديمة تعطينا فكرة عن المعنى الخاص الذى يجب أن تقابله هذه الضمائر الملحقة فى تصريف الأفعال باللغة المصرية.

بالمصرية	*بالوُلوف*
(كُف) = أمسك بعنف	(كف) = أمسك بعنف، انتزع كالطيور الجارحة
(كُف إف)= الترجمة العامة (هو ينتزع) غير صحيحة فى الواقع، ويجب أن تترجم فى صيغة المبنى للمجهول (وفقا للدكتور ديرون، ص٣٥)، وهو ما يعنى فى حالة فعل (كُف)، كما جاء فى قاموس بول بيبريه، أمسك هو به، انتزعه هو، أنتزع، أمسك به	(كف إف)= لها المعانى الثلاثة الآتية حسب المضمون: أنتزع أمسك شخص ما بـ (شئ) فليُمْسَك

(فاك) = خار عزمه، تقزز

(فاك - إف) = مُتجاهل من جانبه

(ماما) = جرى

(مام - إف) = جرآه

(مى) = أعطى

(مى - إف) = أعطِىَ من جانبه

(پت) = حرك أقدامه

(پت - إف) = فلنَرقص

(فاك) = تجاهل شخصاً عمداً، أو بدافع الاشمئزاز أو لسبب آخر

(فاك - إف) = متجاهل من جانبه، من المجهول .. الخ

(ماما) = تَسرَّع، جرى حتى تقطعت انفاسه

(مامّ - إف) = تَسَرعوا .. الخ

(مى) = أعطى

(مى = إف) = أعطِىَ من جانبه .. الخ

(پت)= رَقَص، (فت) = رَقَصَ

(فت - إف) = رقَصَهُ (هو)، فلنرقص .. الخ

وجميع الأفعال المصرية الواردة هنا مقتبسة من قاموس پيبريه المذكور آنفا.

ويبدو أن الصيغة المكونة من الفعل + إف تمثل الفعل باللغة المصرية عندما لا يكون تصريفه مع أى ضمير، أى أن هذه الصيغة كانت تقوم بدور المصدر. وهكذا يمكننا أن ندرك أن الطابع العمومى لهذه الصيغة مكنها من البقاء فى لغة الوُلوف.

ولو أننا أضفنا (أوف) بدلا من (إف) لأصبح تصريف الفعل فى الماضى باللغة المصرية، وربما كانت درجة معينة فى الماضى، لأن التصريف المصحوب بالضمائر المضافة لا يعبر فى كل من المصرية والوُلوف إلا عن شكل معين من الماضى، ألا وهو الماضى المباشر، اما الإضافة (أوف) فتشير إلى الماضى البعيد.

(سدچم - اوف) = سَمِعَ، سُمِع .. الخ

غير أننا يجب أن نلاحظ أن النهاية (أوف) بالوُلوف مرادفة لـ (إف)، ولكن النهاية الأولى تتميز عن الثانية بفارق يتعلق بالضمير.

(فاب) = أخذ

(فاب -إف) = فلنأخذ

(فاب - أوف) = فلنقم

وعليه فإن العناصر المكونة للماضى متحدة بالضرورة فى لغة الوُلوف، ولكنها لا تعبر عن الفكرة عندما تكون منفصلة عن بعضها.

وسنتطرق لذلك مرة أخرى، فيما بعد، بخصوص الماضى باللغة المصرية.

ويتعين أن نبدى الآن ملاحظة لا تخفى أهميتها على أحد،ألا وهى أن مؤنث الضمير المذكر المضاف (إف)، هو الضمير (إس) فى اللغة المصرية.

وبعبارة أخرى، فإنه كلما أمكن استخدام (إف) باللغة المصرية، يمكن إحلال (إس) محلها، فيظل المعنى واحدا، على أن يكون الفاعل هو وحده الذى تغير جنسه، من مذكر إلى مؤنث.

ولكن كما رأينا منذ قليل، يوجد إلى جانب الضمير (إف) الملحق بالفعل فى الوُلوف، ضمير آخر يبدو أنه لا داعى له - لأنه مماثل تماما للضمير (إف) من حيث معناه - وهو ليس سوى (إس) الذى صادفناه من قبل.فماذا يمكن أن يكون هذا الضمير إن لم يكن راسبا للمؤنث المصرى؟ ويستحيل نقض هذا الرأى بعد كل التحققات التى أجريت منذ قليل، خاصة إذا أخذنا بعين الاعتبار أن نفس هذا الضمير بالمصرية،بلا أى تحوير، يقوم بنفس الدور كضمير للغائب، وبنفس المعنى ولنفس الجنس تقريبا، لأن ضمير الغائب بالوُلوف، شأنه شأن الضمائر الأخرى فى هذه اللغة، يصلح للجنسين المذكر والمؤنث مادام قد تم التعبير عنهما بشكل متميز. وبوسعنا أن ندرك أن تطابق (إف) مع (إس) تحقق فى الوُلوف منذ أن أصبح الجنس لا تعبر عنه نهاية الكلمة فى لغة كانت جديدة التكوين، ولكن بربط فكرة المذكر أو المؤنث باسم الشخص المذكور الذى يراد تحديد جنسه.

ولنكرر هنا الأمثلة الواردة منذ قليل مع استكمالها بالضمير المؤنث:

بالمصرية	بالوُلوف
(كف)	(كف)
(كفَ - إف) = أمسكَ (هو)	(كفَ - إف)
	= أمسك، يُمسك
(كفَ - إس) = أمسكت	(كفَ - إس)
(مام)	(مآم)
(مام - إف) = ركَضَهُ (فعل مُتَعدى)	(مآم - إف)
	ركِض حتى تقطعت الانفاس
(مام - إس) = ركَضتْه	(مآم - إس)
(هام)	هام
(هام - إف) = صاحب الجلالة	(هام - إف)
(هام - إس) = انحنى، انحنى	(هام - إس)
تعبيرا عن الاحترام (پيبريه)	
هذه الكلمة كان يجب أن تعنى منطقيا	كما هو معروف فإن هاتين الكلمتين لا يمكن

صاحبة الجلالة، حسب التفسير الرسمي، ولكن الأمر يشوبه عدم التيقن من ذلك.

أن يكون لهما سوى معنى واحد فى الوُلُوف. ومعنى مصدر كلمة (هام) = عَرَف. وعليه فهما يعنيان المعروف، وهذا المعنى وحده قد يقصد به صاحب الجلالة أو صاحبة الجلالة. واذا طبقتا على فرد، يكون المقصود بذلك أنه من البلد، أو معروف، أو من أسرة محترمة، والمعنى المضاد هو أنه مجهول، من الخارج، ولا يعرف عنه شئ. ومن المؤكد أن الكلمة المصرية أقرب الى الكلمة الوُلُوف، ولا علاقة لها اشتقاقيا بصاحب الجلالة. وترجمة(هام إف) إلى «صاحب الجلالة» يقصد منها الوصل إلى معادل رسمى، لا مجرد الاشتقاق.

وندرك هنا الأصل التاريخى للعديد من تلك الترادفات والتطابقات فى المعانى فى لغاتنا اللاتى تشكل فى الوقت نفسه مصدرا نفيسا لوثائق تاريخية.

وهكذا نكتشف فى لغاتنا آثار مؤنث يأتى فى نهاية الكلمة. ويدرك كل متخصص الأهمية الفلسفية لذلك.

وبوسعنا أن نواصل تحليل رواسب المؤنث هذه، وبالأخص المؤنث (بالتاء)، من خلال تركيب الكلمات. فقد تحقق فى الكثير من الأحوال تركيب واقعى بين جذر الكلمة المصرية و(تاء) التأنيث عند الانتقال إلى الوُلُوف، إذ تحولت (التاء) إلى جزء لا يتجزأ من الجذر ذاته. وينطبق ذلك مثلا على تَحَوّل (نوفرت) = جميلة (بالمصرية) الى (رافِت) = جميل (بالوُلُوف). ومن العسير التشكيك فى ذلك إزاء تطابق التعبير فى اللغتين، مثل:

بالمصرية : (خيت نبيت نوفر) = كل أشياء جميلة

بالوُلُوف : (خيت يپ رافِت) = كل أشياء جميلة.

ولنلاحظ، للتأكد من التطابق، أن كلمة (نب) بالمصرية تكون مبنية عندما تعقب اسما موصوفا ليس مصحوبا بنعت.

بالمصرية : (خيت نب) = كل الأشياء

بالوُلُوف : (خيت يپ) = كل الأشياء

حتى أن المرء يكاد يظن أحيانا أنه يتكلم نفس اللغة.

تصريف الافعال

لم نتناول حتى الآن سوى الضمائر المتصلة بالافعال. فلنصرِّف إذا فعل (كِف) (باللغتين) لكى ندرك مدى التطابق:

بالمصرية	بالوُلوف
(كِف - إى) أو (كف آ)	(كِف - نا)
(كِف - إيك)	(كِف - لجا)
(كِف - إف)	كِف - إف)
(كِف - إس)	كِف - إس)
	(كِف - نا)
كف - نِن	كِف - نِن) (فى الشعر)
	(كِف - نانو)
كف - تِن	(كِف - نِجن)
كف - سِن	(كِف - نانيو)

نحن إذن بصدد نفس النوع من التصريف المعتمد على الحروف المتصلة بالفعل. والضمائر المستخدمة متماثلة تقريبا فى اللغتين، كما أن المعنى الذى يعطيه هذا النوع من التصريف واحد. ويتعلق الأمر بدرجة من الماضى عن طريق موضع الضمير المضاف بالنسبة لمصدر الفعل. والواقع أنه من المعتاد فى اللغة المصرية أن يترجم هذا النوع من التصريف بصيغة الحاضر، علما بأن هذه الترجمة خاطئة. وقد كتب الدكتور ديرون يقول بخصوص تصريف فعل سَمِعَ على هذا المنوال: «إذا كان المعنى العام كذلك حقا، فإن ترجمته حرفيا تكون: سُمِع منى، منك، منه .. الخ» (ص ٣٥).

وبناء عليه، فإن العمود الأول سيعطينا باللغة المصرية، مع فعل (كِف): أُمْسِك به منى، منك، .. الخ، وفى هذه الحالة لا يكون تصريف الفعل فى صيغة الحاضر، بل فى صيغة الماضى المباشر والمنقضى.

وذلك هو بالضبط المعنى الذى تعطيه الضمائر المتصلة فى العمود الثانى بالوُلوف.

وهكذا يكون التطابق بين اللغتين المصرية والوُلوف، فيما يتعلق بتصريف الأفعال المتصلة بالضمائر، من ثلاث نواحٍ: فنوع التصريف، والضمائر المستخدمة، والمعنى المقصود، هى نفسها فى اللغتين، مما يسمح لنا بأن نؤكد أن التطابق تام بينهما.

الضمائر المنفصلة

تستخدم الضمائر المتصلة على نطاق واسع فى اللغة المصرية، ولكن هناك أيضا ضمائر منفصلة تشير فى كل الأحوال إلى الفاعل وتسبق الفعل؛ وهى تعبر دائما عن قدر من التفخيم.

والضمائر المنفصلة فى لغة الوُلوف تتميز هى أيضا بنفس تلك السمات.

بالمصرية	بالوُلوف
(إينوك)، (انوك) = أكون (انا)	(نك) = يكون، أكون؛ (نك - نا) = أكون انا
	(مآ) = أنا منصرف إلى
	(ما) = فَلْ (انا)
(أنْتك) = أنت	(يانْجى) = أنت منصرف إلى
	(نجا) = فَلْ (أنت)
(أنتف) = هو	(مينج، (مالجى) = هو منصرف إلى ...
	(نا) = فَلْ (هو)
(إن)، (إنو) = نحن	(إن) = نحن (باللغتين السيرير والليبو)
	(أن) = نحن (بالوُلوف)
	(انّو)، (نانّو) = نفس المعنى، بصيغة التفضيل
	(نولجى) = نحن منصرفون إلى
(نوتّن) = أنتم	(نجنْ) = فَلْ (أنتم)
	(ينالجى) = انتم منصرفون إلى
(نوتِسن) = هم، هن	(نينجى) = هم منصرفون إلى ...
	(نومْ) = هم، هى
	(نانو) = فَلْ (هم)...

سمات أخرى مشتركة فى تصريف الأفعال

تُميز اللغة المصرية بين صيغتين للفعل: المُنجز وغير المُنجز. وينطبق نفس الأمر على لغة الوُلوف، حيث يعبر التصريف المذكور أعلاه المتصل به الضمير، عن صيغة الفعل المنجز، ويعبر التصريف مع ضمير منفصل يسبق الفعل، عن الفعل الذى لم يتم إنجازه بعد: (مآجى)، (يآجى)، (مينجى)،

(نونجى)، (ينانجى)، (ننجى).

ويقال لنا، إنه فى حالة صيغة غير المنجز باللغة المصرية، يستمر تكرار الجذور والحروف الساكنة فى آخر الفعل، على عكس ما يتم فى حالة الفعل المنجز.

ويوسعنا أن نلاحظ تقارب ذلك مع مضاعفة الجذر فى لغة الوُلوف الذى يتفق مع تكثيف فعل يجرى إنجازه.

ولكن، نظرا للقرابة الجلية بين اللغتين الوُلوف والمصرية، ونظرا للطريقة التى تعبر بها لغة الوُلوف عن صيغتى المنجز وغير المنجز، فإنه من الصعب أن نتصور أن اللغة المصرية تترجمهما بطريقة مختلفة إلى هذا الحد: ولذا فمن الأفضل التحقق من أن هذا التفسير لا يقوم على خطأ.

التعبير عن زمن الفعل

لا يقتصر الأمر هنا أيضا على مجرد قرابة بين اللغتين المصرية والوُلوف، بل هناك ما يكاد يكون تطابقا تاما بينهما.

تعبر اللغة المصرية عن زمن الفعل عن طريق حرف يضاف إلى مصدر الفعل.

ولا ينحصر الأمر فى كون الحال على نفس الغرار فى لغة الوُلوف، بل إن الحروف المضافة تتطابق تقريبا.

الماضى :

حرف (النون) المضاف إلى الفعل يشير إلى الماضى باللغة المصرية.

وقد عرفنا من قبل أن الأمر على هذا المنوال تماما بالوُلوف حيث يكون الحرف المضاف للفعل هو (أو)

بالمصرية: (مآ) = رأى (مصدر الفعل)

(مآ - ن - إى) = رأيت

(إى) = أنا

بالوُلوف: (دي) = رأى (مصدر الفعل)

(دي - أون - نا) = رأيت(*)

(نا) = أنا

(*) المقطع (دان)، (دون) المعبر عن تكرار الفعل فى الماضى يتكون من : (دا) (مساعد إيجابى المعنى) + (أون) [إضافة للتعبير عن الماضى] = (دان) أو (د أون)

وكثيرا ما تكون هناك حالة وسطى بإدخال (أو) صوتية بين الحرفين المتحركين. والاستثناء الوحيد المعروف هو (ديناً) أو (دانا)= أنا (معبرة عن الإرادة) وتتضمن فعلا فى المستقبل بالرغم من أن (دى) يقصد بها فعل سابق. غير أن (دى) ليست فعلا ذا معنى متميز ودقيق، بل بالأحرى فعل مساعد يعبر عن النية على الفعل.

وقد رأينا من قبل أن (أو) فى الوُلُوف موجودة كذلك فى الماضى باللغة المصرية.

بالمصرية : (كِف - ن - إف) = أمْسِك (فى الماضى البعيد) وأمسك (فى الماضى القريب).

بالوُلُوف : (كِف - أون - إف) = نفس المعنى.

وعندما تستخدم (أون) بعد مصدر لفعل ينتهى بحرف متحرك، تلجأ لغة الوُلُوف إلى استخدام (أو) «منغمة» بين المقطعين :

(فاب) = أخذ؛ (فابو) = قام؛ (فابو «و» أون - نا)= كنت قد قُمت و(الواو) هنا شبه حرف متحرك.

المستقبل

يضاف المتعطع (إن) الى مصدر الفعل «للإشارة إلى نتيجة ستحدث فى المستقبل» باللغة المصرية (د. ديرون، ص ٥٨).

وفى لغة الوُلُوف يؤدى إضافة الحرف المتحرك (إ) للفعل إلى معناه فى المستقبل: ويلغى هنا الحرف الصامت (ن) فى نهاية الفعل.

(بيج) = يحب

(بيج - إ)
= الذهاب للبحث عن الحب؛ مستقبل ممتد
= يحب مع الوقت، مستقبل زمنى (إذا جاز التعبير)

وهكذا تكون النهاية(ن) فى المقطع المصرى (إن) قد سقطت فى الوُلُوف للتعبير عن المستقبل أو عن «نتيجة مستقبلية».

وفى لغة السيرير تقوم الأداة (إك) بنفس الدور تماما.

ونجد فى الواقع مستقبلا يعبر عنه الجزء (إ) (أو بدقة أكبر إ ممدودة) فى اللغة المصرية. وتلك هى الحالة بالنسبة للنعوت الفعلية فى صيغتها المستقبلية.

بالمصرية

(مير) = يحب

(مير - إ) = الذى سنحبه

بالوُلُوف

(بيج) = يحب

(كو نيو) = الذى

(كونيو بيج - إ) = الذى سنحبه

والمقطعان (هر) و(كا) المستخدمان فى النصوص الدينية وحدها، يضفيان على الفعل نوعا من النتائج المستقبلية.

ويوجد فى الوُلوف مساعد للمستقبل، وهو (هال) الذى لا يختلف عن الجزء (هر) فى القيام بنفس الدور إلا من حيث حركة اللسان نحو سقف الحلق.(داجا هالا دف نانجان)= ستضطر الى فعل كذا...، عليك أن تفعل كذا...

غير أن التشابه أوقع مع لغة السيرير. فهناك المساعد (هِل) الذى يقوم بنفس الدور فى لغة الوُلوف.

ومن جهة أخرى، يتم تصريف المستقبل بإضافة (كا)إلى مصدر الفعل :

بالمصرية : (هى - كا - سن ماسن تو) = سوف يسعدون عندما سيرونك

بالسيرير : *تصريف الفعل فى المستقبل* :

(مى نا هود كا) = أنا الذى سأصبح مزودا

(أو نا ماك كا) = أنت الذى ستصبح راشدا

(تن نا ماجِن كا) = هو الذى سيصبح قويا

(إن أو ناساديك كا) = نحن الذين سنصبح مغلقين

(نون أو نا سوهود - كا) = أنتم الذين ستصبحون شريرين

(دن أو نا ياد كا) = إنهم هم الذين سيصبحون كرماء

وفيما يتعلق بـ (هل) = فلنأخذ الأمثلة التالية :

بالمصرية : (أورِد هر ايبف غِبرس) = وقلبه يصبح مثقلا بسبب ذلك ...

بالسيرير : (هل آم أو رت) = أنا فى سبيلى الى الرحيل

= يجب أن أرحل

= أنا مضطر الى الرحيل

= سأرحل

بالوُلوف : (داما هالا دم) = يجب أن أرحل

= أنا مضطر إلى الرحيل

= سأرحل

طرق التعبير عن المبنى للمجهول

«يبدو أن صيغة المبنى للمجهول قدتعبر عن الفعل المتعدى عندما تستخدم مع ضمير :(سدِمْ - إف) يمكن أن تعنى هو يَسْمَع، هو مَسْموع». (د.ديرون، ص ٦١)

هكذا يفيدنا د. ديرون بأن الإضافة (إف) تضفى على الأفعال المصرية صيغة المبنى للمجهول.وقد سبق أن أوضحنا أن نفس الأمر ينطبق على لغة الوُلُوف.

«ولكن عندما يكون الفاعل معروفا ولا تكون هناك بالتالى حاجة إلى ضمير مضاف، أو عندما يكون الفعل غير شخصى، يتميز هذا المبنى للمجهول بإضافة المقطع (أو)». (د.ديرون،ص ٦١).

بالمصرية	*بالوُلُوف*
(سِدْ جِم) = سَمِع	(دج) = سَمِعَ
(سِدْجِم أو) = سُمِع	(دج - أو) = سُمِع، مسموع
	(ليك) = أكل
	(ليك - أو) = مأكول، مقضوم، يُؤكل ...

والمقطع (تو)، كان فى الأصل ضميرا متصلا، ولكنه التصق فى نهاية الأمر مع مصدر الفعل ليصبح مبنيا للمجهول. وهكذا نجد باللغة المصرية أن :

(دچديه - تو نف رو پن) = قيلت له هذه الكلمة.

ونفس المضاف (تو) موجود فى لغة الوُلُوف، ويقوم بدور يصعب تعريفه، وإن كان مرتبطا بفكرة تكرار المبنى للمجهول.

وهو يُستخدم كلما كان المطلوب الإشارة إلى تكرار فعل من جانب فاعل يتصرف بشكل سلبى تحت وطأة عاطفة أو يبدأ فى فقد السيطرة على ملكاته: هَوَس، أعراض جنون .. الخ، ومن هنا شئ من التحقير

(ثاه) = تكلم　　　　(ثاه - تو) = ثرثر، هذى، ناجى نفسه

إسم المفعول

المتعدى المؤنث مفرد أو جمع ينتهى فى اللغة المصرية بـ (إيت).

ونفس هذه النهاية تعطى للفعل بالوُلُوف معنى المفعول به : مستخرج من، وارد من، مستخلص مـن :

بالمصرية : (جم - إيت مَ سنش) = موجود فى مُدرج بردى

بالوُلُوف : (داج) = قَطَعَ، مقطوع

(داج - إيت) = قطعة، ماتم قطعه من ...

(داج - إيت أو چرمى) = سليل النبلاء، منحدر من النبلاء

«هناك نعت مأخوذ عن الفعل، قريب من المفعول به وقائم على عدم الإنجاز وينتهى بـ (تى) التى قد تختصر إلى (ت). وهذه النهاية تلحق بشكل مباشر بمصدر الفعل وتقبل الضمائر المتصلة المقابلة التى تتخذ هى نفسها فى المفرد النهاية (ى). وهذا النعت ينطبق على صيغتى المتعدى والمستقبل». (د. ديرون، ص ٦٤).

(سِدْجِم - تى - فى) = الذى سيسمع

(سِدْجِم - تى - سى) = التى ستسمع

ولقد سبق أن رأينا أن ال(ى) أو الـ (إ) تضفى على الفعل معنى المستقبل. وينطبق نفس الأمر على (سى) التى يبدو أنها ليست سوى راسب لنهاية الفعل المصرية المكونة من الضمير المتصل المفرد والمؤنث (س) و(ى).

وهكذا تكون نهاية الفعل بالولُوف مجرد راسب للمؤنث المفرد المصرى :

(بآه) =(يكون) طيبا

(باه -إ) = (الذى) سيكون طيبا

(باه - سى) = (الذى يبدأ فى أن يكون طيبا)

(الذى) فى سبيله الى أن يصبح طيبا.

وهناك فئة من النعوت الفعلية التى لا يمكن ترجمتها إلا الى جملة موصولة، ومن هنا يأتى الاسم الموصول للفعل الذى أعطى لتلك النعوت. وفى ذلك أيضا تطابق نحوى بين اللغتين:

بالمصرية : (مير) = يحب

(مير - أر) = محبوب

(مير - أر - إن) = شخص كان محبوبا

بالولُوف : (بيج) = يحب

(بيج - أر) = محبوب، جدير بأن يُحب

(بيج - أر (ث) - أون) = كان محبوبا

وهناك مصدر قديم للفعل لم يعد يستخدم إلا للتفخيم فى المرحلة الكلاسيكية؛ وهو ينهى جميع الأفعال بحرف (التاء). ولكن عندما يكون الفعل منتهيا بـ (إ)، فإن هذه النهاية إما تُشدَّد قبل التاء، أو تزول لتحل محلها (أو).

وسنتناول فيما بعد مسألة صيغة المصدر المنتهية بـ (أو).

ولننوه هنا «بالأهمية الكبرى التى تولى لاسم المفعول المبنى للمجهول، إذ أن هناك ميلا الى اعتباره مصدر أغلب الصيغ الفعلية ... كما أن هناك ميلا إلى اعتبار اسم المفعول المبنى للمجهول

أصل الصيغتين (سدِمْ إف) و(سدِمْ نِفْ)». (د. ديرون، ص ٦٧).

بيد أنه بوسعنا أن نلاحظ مما سبق أن هناك تطابقا شبه كامل مع لغة الوُلوف في مجال اسم المفعول المبنى للمجهول.

وهناك صيغ شبيهة باسم المفعول بالنسبة لضمير المتكلم والغائب المفرد، ظلت قائمة في لغة الوُلوف واتخذت طابعا عاما. وقد اختلطت الصيغة الخاصة بالغائب مع (أو) الخاصة بالمبنى للمجهول. بينما يبدو أن الصيغة الخاصة بالمتكلم أعطت :

بالمصرية : (سدْجِم - كو - إ) = أنا و قد سُمعت

بالوُلوف : (قلبيتي - كو - تا) = أنا و قد استدرت، استدرت

وباختصار، يمكننا وضع جدول مقارن لبعض الأدوات التى تناولناها من قبل لكى تتجلى لنا مدى القرابة بين اللغتين المصرية والوُلوف.

بالمصرية	***بالوُلوف***
(أو) = متصلة للتعبير عن المجهول	(أو) : متصلة للتعبير عن المجهول
(تو) = متصلة للتعبير عن المجهول	(تو) : متصلة للتعبير عن المجهول، تتخذ الى حد ما شكل الضمير
(إ) = متصلة للتعبير عن المستقبل	(إ) : متصلة للتعبير عن المستقبل
(إن) = متصلة تعبر عن الماضى	(إن): متصلة تعبر عن الماضى
(كو) (إ) : شبه اسم مفعول	(كو) : ما يعادل شبه اسم مفعول
(إف) (اوف) (نِف) (إس) : أدوات للمبنى للمجهول الى جانب معان أخرى لها	(إف) (اول) (نِف) (إس) : أدوات للمبنى للمجهول الى جانب معان أخرى لها
(بو) : أداة نفى	(بول) : أداة نفى (انظر أدناه)
(نِن) : (انظر أدناه)	(نِن) : عدم، الخ ...
(إيتْ) : أداة ذات معنى غير محدد	(إيتْ) : متصلة تدل على راسب الفعل

الأفعال المساعدة وأدوات النفى

فى كل من اللغتين المصرية والوُلوف، فإن الأدوات المساعدة «أفعال تضاءلت الى حد ما، وانمحى معناها الحقيقى، ولم تعد قائمة إلا كأدوات مساعدة فى بناء الجملة. وبعض هذه الأدوات يؤكد على

الجانب السردي». (د.ديرون، ص ٧٢).

ومن بين الأفعال المساعدة المصرية الخمسة التي ذكرها د. ديرون، هناك أربعة منها لها مقابلها الأكيد في الوُلُوف : والحالة الخامسة أقل وضوحا.

الفعل المساعد الأول

بالمصرية	بالوُلُوف
(إيو) : حدث، غدا	(نبيو) : حدث، غدا، بلغ

« و(إيو) التي نصادفها على نطاق أوسع والتي كانت تعني أصلا شيئا مثل حدث، غدا، أضحى، تدهورت حتى أصبح معناها: إنه، ها قد، هناك، ذلك أن، وعليه». (د. ديرون، ص ٧٢).

الفعل المساعد الثاني

بالمصرية	بالوُلُوف
(أونن) = توجد، تواجد	(نى) أو (نك) = تواجد ، وجد نفسه

وكثيرا ما نصادف الفعل المساعد الثاني (أومن) هو أيضا. ومعناه الحقيقي، تواجد، في صيغة فعل مستقل. وقد يخفف تدريجيا ليكون معناه وجد نفسه ثم مجرد «ها قد، وعليه، مع لمحة متوارية تشير إلى المستقبل» (المرجع السابق، ص ٧٣ و٧٤).

(أو نِنِف هور سودجِم) = سيجد نفسه يسمع

= وعليه سيسمع

ويستخدم الفعل المساعد بالوُلُوف بمعنى مقارب ويمكن أن يكون معناه أن يكون منصرفا الى :

(نى دى دِج)	يجد نفسه يسمع
(نك دى دِج)	يكون منصرفا الى السماع

وعلى غرار (أونن)، فإن نِك أو نِي يستخدمان أساسا للسرد (الحواديت)

بالمصرية : (إيوونِ ندچس دچدچي رنيف) = كان ياما كان برجوازي (يدعى) دچدچي

بالوُلُوف : (نكونْ - نافِي) = كان ياما كان ...

الفعل المساعد الثالث

بالمصرية	بالوُلُوف
(إيهي) = انتصب، قام، راح يـ	(تهاو) = قام، انتصب، راح يـ

«يتخفف تدريجيا المعنى الحقيقى لـ (إيهى)، وهو قام، انتصب، عندما يستخدم كفعل مساعد ويصبح راح يـ ... (*نفس المرجع*، ص ٧٤) (إيهيين سد چيموف) = وقف هنا وسمع.

والفعل الوُلوف الذى يبدو مطابقا لـ (إيهى) وهو (تهاو) الذى يعنى قام كما رأينا منذ قليل، انتصب، وقف على قدميه، وبناء على ذلك: راح يفعل كذا، وانشغل فى:

(تهاو تيلف) = ينشغل بـ

الفعل المساعد الرابع

بالمصرية	*بالوُلوف*
(دى) = أعطى، سمع، عمل	(دى) = يعبر عن إرادة التأكيد على عمل سيتم فعلا الأقدام عليه.

وقد تحول الفعل المساعد (ردى) إلى (دى) باستبعاد الراء المدغومة، وهو يعنى أعطى، سمح، عمل. وهذا الفعل المساعد موجود حرفيا فى الوُلوف ويعبر عن نية العمل : (دى) أو (دا) عن طريق الاستيعاب الارتدادى انطلاقا من (دى - نا) أو (دا - نا)، وبالتالى (دا)، وهو الفعل المساعد المستخدم عادة بالوُلوف والسراكوله، وهو فعل مساعد حقيقى يعطى طابع التأكيد على العمل المزمع القيام به، سواء تعلق ذلك بأمر يصدر من أجل إنجاز عمل، أو تعلق بقرار حاسم أخذ فعلا للقيام بعمل.

ولا يمكن تصور استخدام (دى) أو (دا) إلا بخصوص شئ سيتم عمله أو فعل.

بالمصرية : (دى - نى رنك إرت) = جعلك تفعل، سمحتُ لك بـ

بالوُلوف : (دى - نا دِف نالجام) | = سأقوم فعلا بعمل هذا الشئ

(دا - نا دِف نالجام)

الفعل المساعد الخامس

الفعل المساعد (پاو) باللغة المصرية يؤكد عملا تم من قبل. وكلمة (داو) تعنى بالوُلوف العام الماضى.

وهذا التقارب ليس سوى مجرداقتراح، ولا مجال هنا لتصور التقاء أكيد.

أدوات النفى

ويتعلق ذلك بالأداتين نِن وبو المذكورتين فى الجدول المقارن بين الأدوات.

و(نن) «يمكن أن تترجم حرفيا بجملة نافية يكون فيها فعل (نفى) هو نفسه الفاعل،

مثل :« ... هو شئ لا وجود له». (*نفس المصدر* ، ص ٧٨)

ولا يوجد تعريف خير من ذلك للكلمة المماثلة (نن) بالوُلوف.

(نن) = العدم، اللاشئ، اللاموجود، ما لا يمكن أن يكون إيجابيا.

(ليجارى تى جنن) = العمل تطوعا.

(نداء دسول أج نن لا) ؟ = هل هو عدم، هل هو غير موجود، كل ما هو ليس مرئيا بالنسبة لنا؟

فلنقارن هذين المثلين بالوُلوف مع الجملة المصرية التالية:

(نن أو نن پاهوى فى) = ونهايته ستكون شيئا لا وجود له.

و(بو) أداة نفى بالمصرية معناها لا (قاموس پيبيريه).

ونفس هذه الأداة تقوم بنفس الدور فى الوُلوف والسيرير

بالوُلوف :(بُول) = لا.

(بُول دن) = لا تذهب (أمر ناه).

بالسيرير : (با) = لا.

(با - إت) لا تذهب (أمر ناه).

والأداة (ترْ) التى تعنى : أحقا؟بالمصرية تأتى بعد ضمير استفهامى؛ ومن الممكن أن تلحق بالضمير الاستفهامى (پوتى) لتعطى الاستفهام (پوتر).

والضمير الاستفهامى المقابل لـ [WHICH] بالانجليزية و [LEQUEL] بالفرنسية هو (اوم ..ته) بالسيرير و(اوم ... تى) بالوُلوف.

(بور) = ملك؛ (بو (ب) إ) = الملك.

(ب) أوم (أو) تى = أى ملك هو؟ أو (ب أوم تى) وهى الصيغة المدغمة.

مميزات الموصوف

فى اللغة المصرية كما فى لغة الوُلوف، يمكن أن يكون الموصوف فى آن واحد فعلا ونعتا. فلا يوجد مصدر، بالمعنى المفهوم فى اللغات السامية والهندو- اوروبية.

ولذا لا يمكن أن نقول مثلا بالمصرية أو الوُلوف جميل فقط، لأن النعت يشمل الفعل ضمنيا:

بالمصرية : (نوفرت) = (تكون) جميلة.

بالوُلوف :(رافت) = (يكون) جميلا.

وهكذا فإن اللغتين المصرية والوُلوف وكذلك اللغات الزنجية عموما تمنح النعت البسيط فى اللغات الهندو - أوروبية والسامية، مهمة وظيفية تتضمن فى آن واحد، فى شكل تركيبى إذا جاز القول، كلاً من النعت والفعل والموصوف (فاعلا أو مفعولا). وبفضل قواعد النحو الخاصة بلغاتنا لا يوجد أى لبس أبدا حول الوظيفة التى تؤديها الكلمة فى النص. فهى تقوم أمام الفعل بدور الموصوف.

بالمصرية : (نوفرت إيتى) = الجميلة مقبلة.

وقد تحول هذا التعبير فى نهاية الأمر إلى اسم امرأة: الملكة نفرتيتى.

بالوُلوف : رافت ديك = الجميلة مقبلة.

تكوين الاسم بتكرار الجذر

تتضمن عبقرية كل من اللغتين الوُلوف والمصرية تكوين الأسماء بتكرار الجذر. ففى الوُلوف مثلا هناك : دوج = قَطع؛ دوج دوج = قَطّع.

بالمصرية	*بالوُلوف*
نفتف = رغبة جامحة	نقْنَفْ = رغبة جامحة، الولد حتى الارتجاف
ينبن = جعل الماء يندفع من منبع	بلْبلْ = نبع، اندفاع الماء من منبع
	بلْ = منبع
	بنبنْ =حفرة
هبهب = الطواف فى البلد مع القنص	هَبْهَبْ = السير بحزم هنا وهناك
هَهَم = ابتهال ، صيحات دينية	هَمْهَمْ = معرفة تنجيمية، تنجيم، دينى، علم، تبحر فى العلم
هتاهتا = يتعجل	هاتارهاتار: يَتَسرع
هبهب = ماء يتموج بشدة ، فيضان	هبهب = ماء يتموج بشدة، ماء يفيض
زرسروس = يبنى	كوسكوس = يعكف على إنجاز شئ بمشقة
رهره = (؟) المؤلف غير متأكد من المعني (پيبيريه)	رهرهله = تلميح واضح

هل يمكن إعادة صياغة قواعد اللغة المصرية القديمة على أساس لغة الوُلوف ؟

أعتقد أننى توصلت الى تحديد السمة الأساسية المميزة لأغلب اللغات الزنجية، إذ يبدو أن كافة القواعد الحالية لتكوين الكلمات والتغييرات التى تطرأ على تركيبها حسب وضعها فى الجملة ناشئة بالذات (*) عن مقتضيات صوتية «متناغمة»، بل وموسيقية. ومن هنا نبعت كافة الصيغ «الاسمية» التى ينتج عنها الأساس الصوتى لكل طرق التعبير عن اسم الإشارة والملكية والوصل والجمع .. الخ.

ومع أن علم النحو والصرف نابع عن المنطق، إلا أننى أقصد بتلك القواعد العلاقات القائمة بين كافة الكلمات والجزئيات التى تتصدرها أو تلحق بها؛ وهكذا فإن الماضى المباشر والبعيد تعبر عنهما بكل بساطة أسبقية الفعل على الضمير المضاف : (لك نا) = أكلتُ

كما أن الدلالة على التبعية أو الملكية يمكن أن يعبر عن كل منهما مجرد وضعهما بالنسبة للكلمة، ليس إلا.

وتنطبق كافة تلك الملاحظات المتعلقة بقواعد النحو الوُلوف على اللغة المصرية القديمة.

ولكن هل تتوفر فى اللغة المصرية القديمة تلك الثنائية بين تكوين الكلمات وتناغمها، وبين النحو والمنطق، التى يؤكدها واقع اللغات الافريقية؟

إذا كان الأمر كذلك فإن التماثل يكون كاملا بين اللغة المصرية واللغات الزنجية. وعليه فإن دراسة تلك اللغات تتيح لنا إمكانية التعرف على قواعد اللغة المصرية وتحديدها.

ولا مجال للشك فى أن قواعد النحو موجودة فى اللغة المصرية القديمة كركيزة للمنطق أو كنتاج له: وقد سبق أن تعرفنا منذ قليل على الدور المتميز الذى تؤديه تلك القواعد فى التعبير عن الأفكار. فالمضمون فى اللغة المصرية القديمة يتيح هو وحده تحديد دور كل كلمة بلا أى لبس.

وعليه ، لا يبقى لنا إلا التعرف فى مجال «الصوتية» على قواعد مشابهة لتلك التى تحكم اللغات الزنجية الأخرى.

وأعتقد أننى توصلت إلى ذلك. فتكوين الأسماء بالوُلوف يتم عن طريق تغيير الحرف الأول. فالفعل أو النعت الذى يبدأ بـ (إ) أو (إ ممدودة) يتحول فى الولوف إلى اسم إذا أضيف إليه حرف الكاف فى بدايته.

(*) وبالأخص الأجزاء المتغيرة من الخطاب.

(إيانو)
(إيبينو) | حمّل على الرأس ؛ (كينو) = عمود

(أنيان) = حاسد، حَسَدَ ؛(كانيان)= الحَسَدْ

وفيما يتعلق بالمثل الأول نجد فى مقابل ذلك باللغة المصرية :

(إينى) = حمّل على الرأس (تعريفى للسيقان ، ديرون ، ص ٦٣ - ٨٧)

(كينو) = عمود (قاموس پيبريه)

وهناك أيضا بالولوف :

(باه) = طيب ، طيبة ، عادة ، تقليد ؛ الختان « باه » عندنا .

(مباه) = طيبة

وباللغة المصرية :

(باه) = ما تم إقراره من قبل ، عُرف ، ختان ، وفرة ...

(مباه) = عُرف ، تمثال (رمز للسلف المتوفى وسط الأحياء)

وهذه الحروف الساكنة التى تتصدر الكلمة فى لغة الوُلوف لها قيمة صوتية تخضع تبدلاتها لقوانين محددة.

فهل يمكننا الاستدلال على أن الأمر كذلك في اللغة المصرية ؟ تلك هى القضية . ولذا يبدو أن القيام ببحوث جديدة حول نوع القواعد التى تحكم اللغة المصرية سيكون مثمرا إذا ما تم إجراؤها فى هذا الاتجاه، حتى وإن كانت الثنائية بين التناغم والنحو تقوم أصلا بدور ليس أساسيا الى هذا الحد لأن مجال التناغم محدود بقدر أكبر.

تطور الحروف الساكنة

لقد استخلصت قاعدة عامة توضح أن الأفعال السيرير المنتهية بـ (آند) أو (إيند) تقابلها أفعال وُلوف تنتهى بـ (آل).

بالسيرير : سينة (موكيند)
سالوم (موكاند) | سحق ، تلا

بالوُلوف (موكال) = سحق ، تلا

(سوتيل) أو (سوتال) = أنهى

وهكذا سقطت (الدال) التى ينتهى بها الفعل وأصبحت (لام) ، فأعطتنا الكلمة بالوُلوف.

والمطلوب الآن أن نثبت أن الانتقال من الكلمات المصرية إلى الكلمات الوُلوف يتم بآلية مماثلة. وهناك بالفعل مثال واضح وأكيد، حيث تحولت (النون) المصرية إلى (لام) بالوُلوف. وهذا الأمر نجده فى اللغات الهندو-اوروبية، وبالطبع ما كان يمكن أن نتجاسر ونستخلص أى استنتاج من ذلك لولا أن مجموع الوقائع التى تم تبينها خلال تلك الدراسة كان معترفا به مقدما. ولكن، بالنظر إلى كل ما جاء

من قبل فإنه قد يكون من المسموح به أن نستدل من ذلك أن (النون) المصرية كانت تلفظ على أطراف الأسنان. وهذا ما تؤكده على ما يبدو الأمثلة التالية:

بالمصرية	بالوُلوف
(نِبْت) = صغيرة	(لت) = ضفيرة
(نِبْتو) = ضَفَّر ،جدل	(ليتو) = ضَفَّر بنفسه
(بِنْبِنْ) = دَفَّق الماء منبع	(بِلْبِلْ) = تَدَفَّق الماء من منبع

والدراسة المقارنة بين مفردات اللغتين المصرية والوُلوف تكشف عن العديد من التطابقات بين الحروف الساكنة المصرية والوُلوف، غير أننى أفضل أن أكتفى بمسألة تحويل (النون) الى (لام) لكونها تتميز بصعوبة دحضها

المصدر المنتهى بـ (أو)

يلتقى الفعل بالمصرية والولوف فى صيغتين: إما أن يكون جذره (نو) أو أن ينتهى هذا الجذر بـ (أو).

بيد أن بييريه يعطى بصفة عامة معنى واحدا للصيغتين فى قاموسه المصرى وذلك بالرغم من الفارق بينهما.

ولما كنا قد نوهنا آنفا بأن مصدر الفعل الذى ينتهى بـ (أو) فى الولوف يشير الى تصريف الفعل مع ضمير الفاعل، فإنه من المناسب أن ننظر فيما إذا كان الأمر على هذا المنوال فى اللغة المصرية؛ مما سيعنى عدم جدوى المسلمات الألمانية. فهذه المدرسة التى فرضها زيته [SETHE] لكى يثبت على الأقل أن اللغة المصرية كانت لغة سامية (مما يستبعد مؤقتا الواقع الزنجى لمصر ويرضى الغربيين تماما)، تقرر كحقيقة مُنْزَلة أنه لا توجد حروف متحركة فى اللغة المصرية وأن ما نصادفه من حروف متحركة [a,i,u,é..] يجب اعتبارها حروفا ساكنة، تماما كما لو قلنا إن الشمس ليست شمسا، بل إنها فى الواقع قمرا، أو لو قلنا بنفس الثقة العلمية إن النهار فى الواقع هو الليل ...

وقد تطورت هذه النظرية ووصلت إلى أوج نضوجها وازدهارها فى شكل النظرية «الحامية - السامية» لكونها تلبى حاجة معنوية فى الغرب.

بالمصرية		بالوُلوف
(سام)	= مَدَح، مديح	(دام) = امتدح كذا، مدح ، مديح
(سامو)		(دامو) = امتدح نفسه
(كيپ)	خبَّأ ، تخفى	(كيپ) = قرص
(كيپو)		(كيپو) = قرص نفسه

(كيسْر) تستخدم من أجل صوت مرتفع بل والصراخ أيضا
(كيسْرو) رجل يضع يده أمام فمه

(كانو) = تصايح؛ يتم التحديد بشخص يستعرض نفسه بحركة إيقاعية

(سن)
(سنو) = رفع ، نقل

ويجب ألا يغيب عن بالنا أن (السين) فى بداية الفعل باللغة المصرية لها معنى سببى

(كسام)
(كسامو) سقط

(كسن)
(كسنو) = دخل ، توغل

(سنّو) = دورة ، محيط
(سنتو) = زار ، راقب

(سرْ) = صرخ بقوة
(سرو)= صاح بكل قواه . وفى هذه الحالة، يضع المرء فى افريقيا يده أمام فمه، لكى يحمى نفسه من الأرواح التى يمكن أن تتسرب إلى جسده عن هذا الطريق. وينطبق ذلك على التثاؤب لأن عدم اتخاذ هذا الإجراء قد يدفع أحد الأرواح إلى صنع الشخص، مما يتسبب فى «التواء» الفم
(كآن) = مجّد
(كانو) = تفاخر؛ وهو فعل لا يمكن تصوره بدون كلمات إيقاعية مصحوبة بالرقص كلما كان ذلك متاحا
(يان) = ساعد على الحمل
(يانو) = حَمَل

(دان) = أسقط ، هزم
(دانو) = وقع
(چن) = خرج
(چنو) = المكان الذى يتم الخروج أو الانسحاب منه.
(سن)= رأى
(سنتو)
(سنو) = تفحص المكان بناظريه

وهذه الملاحظات حول مصدر الفعل المنتهى بـ (أو)، وما جاء من قبل حول صيغة المستقبل المنتهية بـ (إ) ، لا يسمحان باعتبار هذين الحرفين المتحركين حروفا ساكنة ضعيفة، كما يُزعم، بل كإضافتين تقومان بدور محدد تماما.

الحروف المُلزِنة (*)

لما كانت اللغات الزنجية - ومنها لغة الوُلُوف بالأخص - لغات مُلْزِنه، فإنه يتعين أن نشير إلى أن تلك السمة مشتركة بينها وبين اللغة المصرية القديمة.

ولنذكر بهذا الصدد الكلمات المصرية التالية التى لا يمكن التعبير عنها بالفرنسية إلا باستخدام عدة كلمات :

(ديدو) = التى تم إعطاؤها

(دچديدى) = الذى قيل له

(دچديت) = ما جرى قوله

(هيِّرو) = الذين عاشوا

ولنقارن ذلك بالوُلُوف:

(أبْ) = استعار

(أباتا لاتاليتى)	(لو)	(أبوديكوڤو)
راح يستعير للمرة الثالثة لشخص	شيئا ...	من النوع الذى لا يمكن إعارته

الإعـراب

إذا كان هناك مجال يتجلى فيه التشابه بين اللغتين المصرية والولوف، فهو مجال الإعراب :

«فى الجمل الفعلية، يكون ترتيب الكلمات كما يلى:الفعل، الفاعل أو الضمير المشير إلى الفاعل، المفعول به، المفعول المتعدَّى اليه بحرف، المفعول المسبوق بجملة أو عبارة ظرفية» (د. ديرون، ص٨٦).

وهذا الترتيب يماثل ترتيب الجملة الوُلُوف ، ويعود فى رأيى الى التصريف الذى يتم عن طريق إضافة لاحقة:

(يوت)	(نا)	(نانجام)	(ديڤ)	(هاراپ)	(سان جام)
أحضر	تُ (أنا)	الشئ الفلانى	الى فلان	فى المكان	الفلانى
(الفعل)	(الفاعل)	(مفعول به)	(مفعول متعدَّى اليه)	(مفعول فيه)	

ومن المهم أن نعيد الى الأذهان أن التعبير عن الماضى لا يتم عن طريق تعديل الشكل الأصلى للفعل ولكن من خلال أسبقية وضع الفعل بالنسبة للفاعل.

(سيمى)	(سيش)	(سيشيتا)	(پن نى نايڤ)	(م نيوت پن)
ذكر	الكاتب	هذا السر	لرئيسه	فى تلك المدينة
(الفعل)	(الفاعل)	(مفعول به)	(مفعول متعدى اليه)	(مفعول فيه)

(*) ويُقصد بها الحروف التى يلتصق اللسان عند نطقها بسقف الحلق.

النوع الثانى من الإعراب

(ساخيرك)	(دچيدف)	(سيش)	(هابك)
ماهو قصدك	لكى يقول .	الكاتب	أرسل (تَ) (أنت)

وها هى ترجمة تلك الجملة بالولوف :

(سوهلا)	(سا)	(ڤاه)	(مو)	(بينداكات - بى)	(لجا)	(يونى)
مقصدُ	كَ	يقول	هو	الكاتب	تَ	ارسل

وهكذا يتبين لنا أن اللغتين المصرية والولوف تستغنيان أو يمكنهما الاستغناء عن الاسم الموصول حيثما يكون ضروريا فى اللغات الهندو - اوروبية حتى يكون المعنى مفهوما، وذلك فيما عدا اللغة البريتانية. غير أن هذا الاستثناء يؤكد فى نهاية المطاف كل ما نعرفه عن تاريخ بريتانيا والأحجار الضخمة المنصوبة (الميجاليت) وتأثير الفينيقيين - وهم شعب زنجوى - فى هذه المنطقة فى العصر الإيجى.

النوع الثالث من الإعراب

يتم تغيير ترتيب كلمات الجملة باللغة المصرية «عندما يكون الفاعل ضميرا مستقلا، يتضمن دائما استخدامه قدرا من التفخيم، ولكن بالأخص عندما يسبق الفعل ضمير المتكلم أو المخاطب أو الغائب» (د. ديرون، ص ٨٨)

وتنطبق هذه القاعدة بحذافيرها على الولوف، وهى تغنينا عن التكرار. فلننتقل إذن إلى أمثلة لذلك لكى نقتنع:

بالمصرية		*بالولوف*	
(اينوك)	(پيريه - نى)	(مان)	(چن - نا)
أنا	خرجتُ	أنا	خرجتُ

كما أن ترتيب الكلمات يؤدى الى نفس التغبيرات النحوية فى اللغتين.

فالخبر يسبق المبتدأ فى كلتا اللغتين ولكنه يأتى بعده فى الجمل الوصفية:

بالمصرية		*بالولوف*	
(نوفر)	(إيبى)	(رافت)	(بير)
جميل	قلبى	جميل	قلبى (حرفيا : جوفى)
(نوفر)	(اوڤى)	(رافت)	(نا)
جميل	أنا (أكون)	جميل	أنا (أكون)
(ماك) (وى) = ها أنا ذا		(مان - چى) = ها انا ذا	

(ماك) (وى) (مباهيك) = أنا ذا أمامك	مان چى نى تى سا كانام = ها أنا ذا أمامك
(چيمينى سو) (ريخ) (ست)	هامون - نا يج ناكو
اكتشفتُ (أنه) كان يعرف ذلك	كنت أعرف (أنه) على علم

التعبير عن المؤنث

كما لاحظنا ذلك من قبل ، كان المؤنث بالمصرية عن طريق إضافة حرف التأنيث فى آخر الكلمة فى طريقه الى الزوال بعد قيام الدولة الجديدة؛ فلم يعد العديد من الكلمات يحمل أى علامة تشير الى الجنس. وهكذا تم اللجوء الى كلمتى «رجل» و«امرأة» لتحديد المذكر أو المؤنث.

وقد تواصلت تلك الطريقة فى الإشارة الى الجنس بأن عمت فيما بعد فى اللغات الزنجية المنحدرة عن اللغة المصرية.

وقد سبق أن أشرنا الى أن أدوات التأنيث التى كانت تحدد الجنس فى اللغة المصرية ظلت قائمة فى لغة الولوف. وقد فاتنا أن نقول إن أدوات التأنيث هذه كانت لا تلحق فقط بالأفعال فى كل من اللغتين المصرية والولوف، بل وأيضا بمقاطع أخرى، ومنها أدوات الجر .. الخ. ففيما يتعلق بـ (إس) و(إف) ، لدينا بالوُلوف:

(ك - إس دور) = من الذى (أو التى) ضَرب (أو ضُربت) ؟ - و (ك) مشتقة من (كان) = مَن.

(ك - إف دور) = نادرة الاستخدام

وامتدادا لذلك النهج، وتعميما له نجد:

(ف - إس دم) (ف - إف دم)	إلى أين نذهب ؟ - و (ف) مشتقة من (فان)= أين
(ل - إس ڤاه) (ل - إف ڤاه)	ماذا قيل ؟ - و (ل) مشتقة من (لان) = ماذا

وكذلك بالنسبة لتكوين الأسماء :

(بينْد) = كتب (وهذا المصدر المحلى يثبت أن الكتابة لم تفد الى افريقيا مع العرب أو الاستعمار الحديث).

(مبينْد - إف) = ما كتبه الله أو أملته الطبيعة = الخليقة = الشكل الذى خُلق.

ويوسعنا أن نتكهن ، من شكل تلك الكلمة الولوف أن المعبود الذى ترجع اليه أصلا هذه الخليقة لابد أن يكون مذكرا وذلك بمقتضى الإضافة (إ)ف المتفقة مع حالات التذكير باللغة المصرية.

وانطلاقا من نفس هذا المصدر لدينا الصورة التالية :

(مبينْ - أ -ف - أون) وهى تعنى نفس الشئ ولكن مع التأكيد بدرجة أكبر على الماضى.

ونلاحظ هنا تجاور اللاحقة (إف) والإضافة (أون) التى تشير الى الماضى

وهناك أيضا:

(ڤاه) :تكلم

(ڤاه – ت – إف) = الذى لا يذكر اسمه من باب التطيُّر.

(سدچم– ت –إف) = ساحر ، آكل البشر.

وأداة النفى يمثها هنا حرف التاء (*).

وكما سبق أن قلنا فإن هذه الصيغ، التى يتفق كل اثنين منها مع أشكال من الحشو، كانت تتميز أصلا بجنسها، كما هو الحال فى اللغة المصرية.

وهكذا نجد أن كافة العناصر الدالة على المذكر أو المؤنث فى اللغة المصرية موجودة فى لغة الولوف، فيما عدا ما يتعلق بالمخاطب المفرد المؤنث الذى تلاشى.

وهناك بالأخص تمييز الجنس باستخدام كلمة الذكر أو الأنثى، فهو لا يشكل اختلافا بين اللغتين، بل إنه على العكس سمة قرابة أخرى بينهما. وهكذا جانب التوفيق من أرادوا أن يستنتجوا من ذلك اختلافا فى أصل اللغتين.

ملاحظات حول بعض الكلمات المصرية القديمة المتميزة

تعنى كلمة (كير) بالمصرية، مكان إقامة إيا كان، وفقا لأميلينو (*تمهيدات لدراسة الديانة المصرية*) أو جناحا لأوزيريس أو قمرة فى مركب شمس.

وتعنى كلمة (كير) بلغة الولوف ، مسكنا، منزلا ، بيتا.

ومن المعروف أن (كير) تعنى كذلك مسكنا باللغة البريتانية، ولكننا نعلم أيضا مدى النفوذ الفينيقى (الزنجوى) على هذه المنطقة فى العصر الإيجى.

وتعنى (پير) بالمصرية سياجا (سياج ذو اربعة أضلاع فى أغلب الأحوال) «مجدول،أى أنه يقام بتشابك أعشاب أو فروع أشجار»، يحيط بالمنزل، ويحدد بذلك نطاقه. ولذا كثيرا ما تترجم كلمة (پير) الى منزل، دون أن يكون ذلك غير دقيق الى حد كبير.

وبلغة الولوف تعنى (پير) ما يتم صنعه بالأعشاب المجدولة، على أن يكون جيدا سواء من حيث نوع الأعشاب أو الحبك، من أجل إقامة سور حول مسكن ملك أو شخصيات عالية المقام، أو تشييد ما يمكن أن يسمى «حوائط» غرفهم الخاصة. وهناك نوعان من الـ (پير) : ما يتم صنعه عن طريق تشابك البوص ويشكل بذلك مربعات أو مستطيلات أو معينات، حسب زوايا تداخل الأعشاب؛ وفى

(*) للمقارنة مع الصيغة المصرية سدچم– ت – إف (فى صفحة ١٩٥)

هذه الحالة لا يحتاج الأمر الى لحاء النخيل أو السعف لتثبيت الاعشاب. وهناك السياج المكون من بوص مثبت بطريقة فنية بواسطة سعف النخيل، وهو يسمى (ندْون) بالولوف. والنبات المفضل لإقامة الـ (پير) نوع من البوص الرفيع (السمار) المجفف (هات) والمنزوع منه غلافه الورقى. ولونه أصفر، لامع فى ضوء الشمس ولكنه يفقد لمعانه مع هبوب الرياح وهطول الأمطار.

وهناك سياج أكثر خشونة، يقام من سيقان الدُخن، يسمى (ساكِت).

ولذا فإن التعبير المصرى «پير يا» الذى يترجم عادة الى «البيت الكبير»، أى منزل فرعون، يعنى حرفيا بالولوف: سياجا رحبا، علما بأن المقصود بالسياج ما جاء منذ قليل حول كلمة (پير).

وعلى العكس، فإن البيت الكبير بمعنى منزل فرعون أو أى رئيس آخر، لم يعد يتم التعبير عنه بهذه الطريقة، إذ يقال (كير جو ماك) وهو تعبير مكون من كلمتين سبق أن صادفناهما. فكلمة (كير) هى أول ماورد فى بداية هذا القسم، ومعناها واحد باللغتين المصرية والولوف، و(ماك) معناها كبير، راشد، متمرس، باللغة المصرية (قاموس پيبريه ، ص ٢٠٢).

ومن المعروف أن :

(پير – إيا) و (پير – وى – إيا) = الدار المزدوجة، ومنها جاءت كلمة فرعون.

وبالولوف ، فإن (پ)(مفرد) = ف (جمع) ، ومثال ذلك (پير مى)و (فير يى)

(پير)
(فير) – (يو) – (إيا) = السياج ، المساكن الرحبة.

كما أن الملك المعظم والامبراطور، يحملان لقب (فارى) بالولوف. ومثال ذلك:

(بور فارى) = الملك المعظم.

ولا يوجد أى استخدام آخر لكلمة (فارى) بالولوف. ولا يمكن استخدامها للإشارة الى شكل آخر من أشكال العظمة المعنوية أو الجسدية. ولذا يفرض علينا ذلك الرجوع الى مصطلح (فرعون) الذى كان ينطق بالمصرية (فارى) ، نظرا لأن فرعون ليس إلا التحوير الإغريقى لتلك الكلمة(*).

و(فارى) اسم شخص بالولوف.

ولننتقل الى الكلمة المصرية ذات الأهمية بعيدة المدى لأنها عنصر مشترك فى كافة البحوث ، دون أن يتم التوصل حتى الآن الى التعرف على هوية العلامة الهيروغليفية المستخدمة فى كتابتها. إنها كلمة (مَن) التى تكتب بالهيروغليفية على الوجه التالى:

وقد تمت حتى الآن محاولات للتعرف على هذه العلامة الهيروغليفية عن طريق رسمها فقط، لا معناها: ولذا فقد تم تشبيهها تباعا «بلعبة الطاولة أو رقعة الضامة» (د.ديرون، ص١٨) وبتاج من الزهور (ك . ديروش – نوبلكور) ، والسيجة.

ولكن، هل يمكن أن نستخلص من فحص لغة زنجية، وبالأخص الولوف، معلومات دقيقة تتيح لنا

(*) يبدو إذن أنه كانت هناك صيغة للجمع باللغة المصرية عن طريق تغيير الحروف الساكنة الأصلية، كما هو الحال فى اللغات الزنجية.

إمكانية التعرف على تلك العلامة الهيروغليفية؟

نعم. ويكفينا هنا أن نضع الوقائع التالية فى عين الاعتبار لكى نقتنع بذلك:

إننا نجد فى قاموس پيبريه أن معنى هذه الكلمة بالمصرية (مَن) -(ت) = ضرع، ثدى، علما بأن التاء هنا للتأنيث.

(من - تى) = الضرعان ، الثديان

و(تى) تميز المثنى الذى اختفى من اللغة المصرية ولانجده بالتالى فى اللغات الزنجية التى جاءت بعدها. وينطبق نفس الأمر على تاء التأنيث.

والكلمة التى يعرف بها الثديان أو الضرعان لا تترك أى مجال للشك فى المعنى الأصلى لكلمة (مَن).

كما أننا نجد فى قاموس پيبريه أن (مَن) = بقرة حلوب، وهى تكتب بنفس العلامة التى لن نكررها حتى لا نثقل النص. وهكذا يمكننا أن نفهم أن الماشية يمكن أن تسمى بالمصرية (مَن - مَن) -(ت) (د.ديرون، ص ٢٧).وهذا التكرار أو التشديد على مصدر الكلمة تم استخدامه لكتابة: بقرة حلوب. ولذا فلا عجب فى أن تكون كلمة ماشية مؤنثة وتنتهى بتاء التأنيث.

وأخيرا، إذا كانت كلمة (مَن) تعنى ضرعا أو ثديا، فبوسعنا أن نفهم أنه فى ظل مجتمع أمومى يستخدم لغة يكون فيها اسم الموصوف فعلا، فإن هذه الكلمة إذا تقدمتها (س) سببية، فإنها يمكن أن تكتسب معنى: «إحلال ملك محل أبيه، تثبيت، تعزيز، إدامة، تأسيس» . (قاموس پيبريه، ص ٤٩١).

ولايجوز أن تتسبب كلمة أب هنا فى أى بلبلة، لأن تولى الرجال السلطة لا ينفى انتقال الحقوق السياسية عن طريق الأم : فالأمير يخلف إذن أباه، على أساس توفر شروط الخلافة عن طريق الأم ، اللهم إلا فى حالة اغتصاب العرش بالقوة أو باللجوء الى خديعة.

وهذا التوسع فى معنى كلمة (مَن)يؤكد الطابع الأمومى للمجتمع المصرى، والمجتمع الزنجى بوجه عام.

وهكذا فإننا لا نتفهم الصلة المنطقية التى تتيح لنا الارتقاء بفكرة الثدى الى فكرة التعاقب على العرش، إلا بالاستناد الى المفهوم الاجتماعى لدى المصريين.

ويقدم لنا پيبريه أيضا (ص ٥٠٢): (من)، (سن) = جزء من البقرة. والواقع أن المؤلف عاجز عن أن يحدد لنا ما إذا كان الأمر يتعلق ببقرة أو ثور.

وبعد أن أوردنا هنا مختلف المعانى التى تتخذها كلمة (من)، هل هناك مرادف لها بلغة الولوف؟

توجد كلمة (مَن) فى لغة الولوف بنفس المعنى. (مَن) = النسل عن طريق الثدى، النهد؛ الذين

رضعوا من نفس الثدى،النسب عن طريق الأم، الضرع، الثدى بالمعنى العام للكلمة (الحضن).

وهناك صورة أخرى لنفس الكلمة بالولوف وهي (ڤن) = ثدى ، ضرع ، حلمة.

وهكذا نجد أن لغة الولوف تؤكد تماما معنى هذه الكلمة باللغة المصرية.

وبناء على ذلك، ماذا يمكننا أن نقول بخصوص التعرف على هوية هذه العلامة؟

يحق لنا أولا أن نفترض أن المصريين ما كانوا يكتبون بشكل يناقض التفكير السليم: ولما كانت كتابتهم تعتمد على تثبيت الأفكار عن طريق الصورة، كان لابد وأن تمثل حدا أدنى من التوافق المباشر أو غير المباشر، والقريب أو البعيد، بين الفكرة المراد التعبير عنها والواقع المصور، لكي تكون الفكرة مفهومة.

ومع افتراض أن هذا الشرط الأولى أمر لا غنى عنه، فهل هو متوفر على أى صعيد كان من خلال مختلف التفسيرات الرسمية، حتى لو تقصينا أبسط جوانب المجتمع المصرى فى أدق تفاصيلها؟ لا بالطبع، إذ أننا لا نستطيع أن نؤكد وجود أى علاقة اجتماعية أو منطقية بين لعبة الطاولة ورقعة الضامة، والتاج المصنوع من الزهور، والسيجة ... والضرع ، والثدى، والتواصل، والتوارث.

ولذا ، يتعين أن نبحث عن مصدر آخر.

ويستدعى الأمر بالضرورة أن يتضمن الجزء الواقعى المستعار علاقة مع فكرة الثدى المشتركة فى كافة معانى كلمة (مَن)، والتى يجب أن نعتبرها المعنى الأول لها.

ولذا يدفعنا ذلك الى الاعتقاد بأن العلامة الهيروغليفية (مَن) التى نحن بصددها تصور ضرع بقرة يمكن أن تتغير تفاصيلها فى الكتابة لاعتبارات متعلقة بالتبسيط. فعدد النتوءات فى هذه العلامة يتراوح بين العدد البسيط وضعفه، أى بين ٤ و٨، بغية التأكيد على الفكرة أو لأى سبب مشابه: غير أن هذا العدد يكون أحيانا ٧، ولذا يهمنا أن نتأكد من صحته وتكراره باستمرار. ولعل العدد الأصلى الحقيقى قد تعرض لتذبذبات حسب أهواء الكتبة.

وهذا التفسير الذى ما كان يمكن التوصل اليه إلا بفضل تأكيد معنى الكلمة بالمصرية القديمة عن طريق الوُلوف، يتميز بتوافقه مع كل ما نعرفه عنها. وهو يتيح بالأخص إمكانية تصوير البقرة الحلوب بخاصيتها الأساسية. وهذا أمر يتفق تماما مع الواقع والمنطق.

ريبو، ليبو

لم تظهر هاتان الكلمتان فى اللغة المصرية (وفى التاريخ) إلا مع التدفق المفاجئ لشعوب البحر فى ظل الأسرة التاسعة عشرة، عندما وقعت الغزوات الهندو-اوروبية الأولى فى الألف سنة الثانية قبل الميلاد. وكانت هذه الجحافل البربرية التى راحت تجتاح - كل افريقيا تسمى: (ريبو) - (ليبو).

والبلد القفر الذى ردهم المصريون اليه، غرب مصر، كان يسمى (ريبو)، وكلمة (ليبو) ليست سوى صورة أخرى لريبو، عن طريق تبديل أحد الحرفين الانسيابيين للانتقال من كلمة إلى أخرى.

وهكذا كان المصريون يشيرون بكلمة (ريبو)، الى ما أصبح بعد ذلك ليبيا. وجاءت كلمة ليبى من (ليبو).

ولا جدوى من محاولة العثور على أصل هاتين الكلمتين فى اللغات الهندو- اوروبية والسامية.

ولنبحث مرة أخرى فى إمكانية الاستفادة من لغة زنجية مثل الولوف، للتوصل الى استنتاج منطقى.

يتعين أن نلاحظ أولا أن الشاغل الرئيسى للجحافل المشار اليها كان القنص.

ونجد من جهة أخرى فى قاموس پيبريه:

(ريبو) = ليبيا

وجذر هذه الكلمة موجود فى الوُلوف ويعنى هو أيضا:

(رِ)= قَنْص، قناص، صاد.

(ريبو) = مكان يتم فيه القنص، بلاد القنص؛ وذلك على غرار ما يجرى نحويا:

(دانج) = دراسة ، دَرَس

(دانج - و) = مكان تتم فيه الدراسة، مدرسة ...

وبفضل هذا التوضيح الذى توفره لنا لغة الوُلوف، تكون لدينا أسباب قوية تدفعنا الى الاعتقاد بأن مصدر كلمة ليبى هو بلاشك (ليبو) - (ريبو) التى تعنى أصلا قناصا.

وقد استخدم هيرودوت هذه الكلمة فى مؤلفه *التواريخ* للإشارة الى كافة الشعوب الهندو- اوروبية الهمجية التى كانت تعيش على الشواطئ الشمالية لأفريقيا بعد أن قضى على تحالفهم فى عهد فرعون مصر مرنفتاح (الأسرة التاسعة عشرة).

وأصبحت كلمة ليبيا تشير أكثرفأكثر فى أذهان الاغريق الى افريقيا باستثناء مصر.

ويجدر بنا أن نذكر أن سكان شبه جزيرة الرأس الاخضر المنحدرين من السيرير لا يزالون يحملون اسم (ليبو)، مما يدفع الى الاعتقاد بأن الأمر يتعلق باسم نوع يشير الى كل الشعوب القناصة فى المنطقة.

كِسى° [xai]

نجد فى قاموس پيبريه (ص ٤٠٦- ٤٠٧) أن :

(كِسىْ) = أداة، ماعون، معدات

(كسىْ) = حلية

بيد أن (كْيِ) (التى كان بوسعى أن أكتبها (كسْى) حسب مصطلحات پيبريه فى التدوين) لاحقة بلغة الولوف تُكسب اسم الموصوف معنى مكان أو أداة:

(ليجىْ) = عمل

(ليجىْ - و - كاى) = مكان العمل، موقع، اداة عمل، حسب المضمون

(ليجىْ - أو - كِىْ بى) = الموقع

(ليجى - أو - كِىْ چى)= الأداة، الماعون المستخدم فى العمل

(داج) = قطع

(داج - أو - كِىْ بى) = المكان الذى يتم فيه القطع

(داج - أو - كِىْ بى) = الأداة التى تستخدم فى القطع

(توج - أو - كِىْ بى) = المكان الذى يتم فيه الطهى

(توج او كِىْ جى) = أداة المطبخ

كما نجد أيضا فى اموس پيبريه :

(كِىْ) = حلية

وفى الولوف :

(تاك) = حَمَل

(تاك - كِىْ) = حلية

بيد أننا قد نتساءل ما إذا كان الأمر يتعلق فى تلك الحالة الأخيرة باللاحقة (كِىْ) أو (إىْ) التى تشير إلى ميزة أو عيب جسدى أو معنوى أو الى كينونة:

(رافت) = جميل

(رافت -إىْ) = جمال

ملحوظة : آخر الكلمة (كِىْ) له معنى أقوى من (أو) الذى يشير هو أيضا الى اسم مكان أو أداة. ولذا يتم دعم الأخير بإضافة الأول اليه:

(دِب) = طعن، أصاب بشدة بسكين مدبب.

(دِبو) = كل أداة مدببة تستخدم فى الطعن أو فى التحقق من حصانة البشرة المكتسبة على أثر تجرع مشروب خاص مكون من مسحوق وجذور وقشور .. الخ.

ساه

(ساه) = بلد، قرية، نبيل، وجيه (من الأعيان) باللغة المصرية.

(ساه ساه) = مجلس كبار السن فى القرية، مجلس القدامى، وظيفة إدارية تواجدت منذ بداية الدولة المصرية حتى نهايتها؛ وكانت تلك المجالس أقدم الديمقراطيات الريفية التى عرفتها البشرية، ولقنتها مصر لليونان في العصر الإيجى وتولدت عنها مختلف الدول - المدن فى اليونان.

(ساهو) = القدامى، الأسلاف.

وهناك تطابق تام فى ذلك مع السيرير:

(ساه) = بلد.

(ساه ساه) = رئيس قرية، وهى وظيفة إدارية لاتزال قائمة حتى الآن.

(سار) = اسم علم مميز عند السيرير؛ ويبدو أن التوكولور استعاروه وهم يدفعون السيرير نحو الجنوب ويحتلون وادى نهر السنغال؛ وهناك بعض التجمعات من أصل سيرير تحمل اسم (سار) ولاتزال تعيش فى منطقة السنغال، البلد الحالى للتوكولور.

(ساهو) = اسم علم زنجى يبدو أنه مأخوذ عن (ساهو).

(ساتيه) = قرية (بالسيرير)

ولكننا نعلم أيضا أن :

(ساتى) = مسكن، منزل باللغة المصرية (ديرون،ص٨١).

كا

نجد فى قاموس پيبريه(ص ٦٥،٦٦،٦٧):

(كا) ويمثلها ذراعان مرفوعتان للدلالة على الفكرة العامة عن الارتفاع، السمو، التدرج = جوهر الانسان، الخالد، الذى يعيش فى السماء، بعد المرور على محكمة العالم الآخر، الزوج، الذكر، الثور، كبير، مرتفع، طويل، ارتفاع، سمو، البومرانج (بصحبة علامات التعريف المناسبة).

كا (و) كا(و) = مرتفع، علو، تل، مبنى مرتفع

(كاو كاو) = شعب من أعالى النيل

ونظرا لما لدينا من معرفة بالولوف، فإنه يحق لنا أن نفترض أن (الواو) أغفلت فى نسخ الكلمتين المصريتين الأوليين.

فنحن نجد فى الواقع حرف (الواو) المتحرك بشكل متطابق تقريبا فى الوُلُوف:

(كاو) أو (كاوْ) = مرتفع، ارتفاع، علو، مناطق السنغال الداخلية، وإن كانت مناطق سهلة.

(كو كو)أو (كوُ كوُ) = ارتفاع، علو، سكان مناطق مرتفعة.

والكلمة الأخيرة التى تعنى سكان مناطق مرتفعة، تستخدم مع ذلك فى الوقت الراهن للإشارة إلى سكان السهل الداخلى فى السنغال: كايور، باؤول .. الخ. ويعود هذا التناقض الظاهرى الى الذكريات الجغرافية لشعب هاجر من منطقة جبلية، مثل وادى النيل الأعلى.

ولنذكر فى نهاية الأمر أن كلمة كاوُ هى اسم قبيلة تقيم حاليا فى أعالى النيل.

خِتْ

بالمصرية:

(خِتْ) = غصن، شئ، خشب.

(خِتِّبِ) = كل الأشياء، كل أنواع الأشياء.

بالولوف : (هِتْ) = شئ، نوع، خَلَف عن طريق الأم، شجرة النسب من فرع الأم، ومنها فكرة التفرع وبالتالى فرع أو غصن. وهكذا يتم الالتقاء مع المعنى المصرى. وإذا قال أحد عن شخص ما إنه (هِت) ى، فمعنى ذلك أنه قريبى، أنه مرتبط بى بصلة غير وثيقة، غير مباشرة، بعيدة ولكنها قائمة على أى حال، وأنه من جنسى.

(هِت) = قَشَط - الخشب أساسا.

(هِتْ يِب) = كل الأشياء

تِفْ

بالمصرية :

(تِف) = بصق

(تِفنوت) = الربة التى لفظها رع

بالولوف :

(تِف) أو (تِيف) = البصق

(تيفليت)
(تيفلى) = البصاق

ويتأكد من الشكلين الأخيرين (تيفليت) و(تيفلى)، اللذين يعنيان نفس الشئ، أن التاء فى (تفنوت) المصرية تميل الى التلاشى فى الولوف، بينما تصبح (النون) المصرية (لام) بالولوف، كما هو الحال بالنسبة لـ :

(نِبت) = لت = ضَفَر، شبك

(نه) = (لذ) = حمّى

.. الخ

وهكذا تم الانتقال من المصرية الى الولوف بالأشكال المتتابعة التالية:

تفنوت .. تفلوت .. تفليت ..تيفلت .. تيفلى .

سا

بالمصرية :

(سا) = ربة العلم، الذكا، التثقيف

بالولوف :

(سا) = عَلّم، ثقّف، تعلّم القراءة، علّم نصا.

تِستِسْ

بالمصرية :

(تِستِسْ) = اوزيريس وهو فى هيئة هامدة(پيبريه، ص٦٨٢).

ومن المعروف أن هيئة اوزيريس هذه، قام أخوه سِت بتقطيع أوصالها ونثرها

بالولوف :

(تاس) = بعثَر، تبعثُر، فكّ نظام شئ

(تاستاس) = مُفكك

توم

بالمصرية :

(توم) = إله (پيبريه، ص٦٧٢)

والواقع أن المقصود بذلك الشمس عند الغروب والتى يعتبرها المصريون ربا «لم يعد له وجود».

(أتوم) = رع «اللذى لم يعد له وجود»

بالولوف :

(تول) = لاحقة تضاف للفعل وتضفى عليه معنى «لم يعد»، الكف عن فعل أو عن حالة:

(دوندا) = يعيش

(دوندا - تول) = لم يعد حيا

ساتى

بالمصرية :

(ساتى) = أطلق سهاما ، نبَّال، أسيوى،آسيا (پيبريه، ص٥٥٨).

ومن المحتمل أن تكون ترجمة (ساتى) نبَّال خاطئة وأن السهام التى تظهر فى العلامة الهيروغليفية للكلمة ليست سوى دلالة على عصابات اللصوص المتمثلة فى الاسيويين الذين كان المصريون يتحفونهم بالعديد من النعوت والصفات ومنها الموبوئين .. الخ.

بالولوف :

(ساتى) : لص : وهو ما يتفق مع مدى تقييم المصريين للأسيويين الذين كانوا يطلقون على بلادهم: أرض (الساتى)

وفيما يتعلق بفعل أطلق، فهو بالولوف:

(سانى)= أطلق.

سنتا

بالمصرية، حسب ما جاء فى قاموس پيبريه (ص ٥٠٢):

(سِنْ) = شمّ الأرض، سجد، ومنها:

(سِن - تا) = سجد

بالولوف:

(سنتا)= شكر بكل تواضع

سيرير

بالمصرية:

(سيرير) = الذى يرسم حدود المعابد

بالولوف :

(سيرير) = جنس زنجوى قديم، يعيش حاليا فى السنغال.

تاب

بالمصرية:

(تاب) = تسمية معيار وزن بقرة (پيبريه، ص٦٨٦)

قد يكون هناك خطأ فى ذلك. فقد يتعلق الأمر -على الأرجح - بالتقدير العادى لقيمة بهيمة، أو بالتمييز بين كونها أو عدم كونها عِشارا، وذلك لأن:

بالولوف :

(تيب) = فعل متميز يشير إلى التزاوج، وكان معناه أصلا: قفز فوق.

راميتو

بالمصرية :

(راميتو) = الإنسان أو الكائن المثالى

بالولوف

(راميتو) = طائر مقدس يقال عنه إنه مزود بروح بشرية، وهو الطائر الوحيد الذى تعترف له التقاليد بهذه الصفة.

(رامو) = بلوغ النعيم، الوصول الى الجنة.

يوما

بالمصرية :

(يوما) = بحر، ويبدو أن الترجمة الشائعة لتلك الكلمة ناجمة عن خلط لأن :

(يوما) = أم، بالتوكولور والپول.

وكان المصريون يعتبرون النيل أمهم ويسمونه أيضا (يوما).وبالطبع فإن النيل يفترض توفر المياه، مما قد يكون سببا فى هذا الخلط. (ويطلق المصريون المحدثون كلمة البحر على النيل فى حديثهم بالعامية).

تاه

بالمصرية :

(تاه) = الوحل، سكان المستنقعات، صياد

(تاهو) = الغوص فى الوحل

(تاهوا) = الوحل، حثالة البشر (پيبريه، ص٦٦٤)

بالولوف :

(تاه) = اتّسخ، تلوث، وتستخدم هذه الكلمة أساسا بمعناها الحقيقى، للتعبير عن فكرة الاتساخ بمادة لزجة مثل الوحل. وتعنى بالمعنى المجازى، وصمة .. الخ

وقد يوحى الينا معنى هذه الكلمات برأى المصريين فى الحياة فى المستنقعات؛ وهو ما يجعل من المستبعد أن تكون حضارتهم قد قامت أصلا فى منطقة الدلتا العامرة آنذاك بالمستنقعات، علما بأنه لا توجد أصلا أى وقائع ذات بال تؤيد ذلك الافتراض.

كِم

بالمصرية :

(كِم) = أسود ، اسوَدَّ، وبالتالى خشب ثمين لونه داكن، الأبنوس

(كام) = حجر كريم داكن اللون

(كِم - ت) = مصر (پيبريه، ص٦١٨)

(هِم) = أسود ، حرارة

بالولوف :

(هِم) = فَحَّم، وتستخدم هذه الكلمة لكل ما يصبح فاحم اللون لتجاوز حدود النضج.

بيد أن الانتقال من كلمة (كِم) المصرية إلى كلمة (هِم) بالولوف لا يحتاج إلا إلى إحلال الحرف الاحتكاكى الحلقى (هـ) محل الحرف الانغلاقى (ك)، وهو ما يتفق مع القاعدة العامة لتطور الصوتيات التى تتحول بمقتضاها الحروف الانغلاقية إلى حروف احتكاكية نتيجة للميل إلى بذل أدنى قدر من المجهود. ولذا فمن الطبيعى أن تتحول (كِم) فى لغة الولوف المتفرعة من اللغة المصرية الى (هِم).

وهكذا يتبين لنا أن (كِمـ - ت)، وهو اسم مصر، يعنى: السوداء، علما بأن التاء فى نهاية الكلمة هى أداة التأنيث باللغة المصرية القديمة، وهى السوداء بمعنى أنها بلاد الزنوج، وهم ذرية حام، سلف السود كما جاء فى التوراة. وحام أبو كل من مصرايم، وهو اسم آخر لمصر لا يزال ساريا حتى الآن لدى كافة الشرقيين (خلافا لإيجيبت الشائعة فى الغرب)؛ وكوش سلف الأثيوبيين كما جاء فى التوراة؛وفوط، سلف الزنوج، حسب التوراة أيضا، الذين كانوا يعيشون فى الجزيرة العربية قبل غزو القبائل المنتمية إلى الجنس الأبيض فى الألف الثانية قبل الميلاد وامتزجوا مع بنى عاد الزنوج، فاندرج منهم من أطلق عليهم فيما بعد الفرع السامى الثانى، أى العرب؛ وكنعان، سلف الفينيقيين، ولقا للتوراة، وهم عائلة أخرى من الزنوج،أبناء عم المصريين، شأنهم فى ذلك شأن أهالى بلاد بونت، الذين

امتزجوا فى نفس تلك الحقبة مع قسم آخر من القبائل الهندو- اوروبية، وقد نشأ عن هؤلاء الفرع السامى الأول، أي اليهود.

وعليه فإن (كِمـ - ت) لا تعنى الأرض السوداء بالمعنى الأصلى للعبارة، لأن الأمر لا يتعلق بلون الأرض ولكنه يشير إلى البلد عن طريق لون الجنس الذى عاش عليها بلا انقطاع، وذلك بنفس المعنى الذى يستخدم اليوم عندما يقال: إفريقيا السوداء، وإفريقيا البيضاء. وهناك تفسير مستنبط من التقاليد الزنجية يؤكد ذلك:

فلا تزال هناك رواسب أحد التقاليد التى تعتبر أن الأبيض شخص لم تتم عملية إنضاجه بعد، بينما الأسود تم إنضاجه بقدر زائد عن اللازم، لأن الخالق سها عليه وقف الإنضاج فى الوقت المناسب، فأصبح الزنجى بذلك (هِم).

وبوسعنا أن نجد فى ذلك الأصل التاريخى لكلمة "(حام)، سلف الزنوج، حسب التوراة. وقد استعار اليهود حتما هذه العبارة التى تشير إلى سلف المصريين من المصريين أنفسهم، عندما كانوا أسرى فى مصر؛ ولا يمكن أن يكون عكس ذلك صحيحا.

وهكذا يمكن أن نتفهم أن هذه الكلمة تعنى حتى الآن بلغة اليهود: أسود، وحرارة.

ولننظر فيما يمكن أن نصل إليه من تفسير بالرجوع إلى كلمة (هِم) بالوُلُوف.

فمن المعروف أن المصريين كانوا مشهورين بكونهم الكيميائيين الوحيدين فى العهود القديمة. ولم يعرف هذا العلم فى أوروبا إلا فى القرن الثالث بعد الميلاد. ومن هنا جاء اسم علم الكيمياء، المشتق من اسم مصر نفسها ولكن المصريين ابتكروا كافة العلوم، فلماذا أطلق اسم مصر على هذا العلم وحده؟

ويتبدى لنا السبب جليا عندما نعرف أن الكيمياء نشأت وتطورت حتى القرون الوسطى على يد ممارسى التجارب الكيميائية القدامى الذين كانوا يحاولون التوصل إلى حجر الفلاسفة، عن طريق عمليات تقطير وتعريض للحرارة طوال أيام بل وشهور. أوليس من الطبيعى أن تطلق على عمليات الإنضاج لمدد طويلة للغاية كلمة (هِم)أو (كِم)، أى التعريض للحرارة إلى حد تجاوز الإنضاج؟

فياله من أمر مثير بالنسبة لفرد من الوُلُوف عندما يكتشف أن أقدم وأعرق جذور ثقافة البشرية كانت جزءا من تقاليده!

ولنا أن نتساءل بالطبع كيف أن (حام) و(حاميين)، اللتين تعنيان حسب علم الاشتقاق: فحْم، قد انقلبت بعملية سحرية على يد إخصائيين الى الإشارة إلى أجناس بيضاء - خيالية - ليتخذ من ذلك أصحاب اليد الطولى ذريعة لتبرير أبسط مظاهر ثقافة عالم السود وإسنادها إلى أجناس بيضاء. إنها محاولة مريحة للغاية وساذجة، لا تصمد أمام الفحص الموضوعى للوقائع التاريخية، لينتزعوا منا المكسب المعنوى للحضارة المصرية وتسجيله لحساب التامهو (البيض)، كما لجأ إلى ذلك شامبليون -

فيچاك. وفشل كافة تلك المحاولات، بالرغم من الجهود الضخمة للتوصل إلى حلول مقبولة (الصالح الريبو) لهو من الأدلة التى تؤكد استحالة منازعة الزنجى فى دوره كأول مرشد للبشرية فى طريق الحضارة، وهو ما اعتبره كافة الفلاسفة والمؤرخون القدامى أمراً مفروغا منه.

دچادچنوت

بالمصرية :

(دچادچنوت) = أحد الآلهة، ويقول عنه اميلينو: «فى الفصل الخامس والعشرين (من كتاب الموتى) يتم الابتهال على الوجه التالى إلى أحد الآلهة الدچادچنو الجالسين بجوار اوزيريس، وهو الواحد والأربعون فى الترتيب ويسمى الرأس المقدس ويتخذ شكل الثعبان: «يا أيها الرأس المقدس الخارج من خلوته، أنا لم أعمل أبدا على التوسع فيما أملك، ولم أضم إلىّ أبدا ما كان يخص الإله» (*تمهيدات لدراسة الديانة المصرية القديمة*، ص١٧ و ١٨).

وتتكون (دچادچنوت) من (دچدچ) و(نوت).

وإذا جمعنا بين المقطع الأول (دچا) من الكلمة الأولى والحرف الساكن الأول من الكلمة الثانية المكونة أصلا من مقطع واحد، لحصلنا على كلمة (دچان)، ومعناها الثعبان بالوُلوف.

وهكذا تكون المقاطع غير البارزة فى الكلمة المصرية قد أسقطت وفقا لقاعدة شهيرة، بينما انضمت لبعضها العناصر البارزة لتتكون منها الكلمة الوُلوف.

ومما يؤكد تلك الملاحظة ما نعرفه عن دور الثعبان فى الميثولوچيا الزنجية. فالثعبان هو الإله -السلف عند الدجون، الذى قُتل ودُفنت رأسه تحت سندان الحداد. ولذا يتعين أن يخرج الثعبان من عزلته وأن يتقدم عبر الظلمات وهو يرقص على إيقاع الضربات فوق السندان.

بيد أننا نعلم أن الإله - الثعبان يسمى فى كتاب الموتى «الراقص فى الظلمات».

والفعل الوُلوف المستخدم للإشارة إلى علمية الارتداء، سواء تعلق الأمر برجل أو امرأة هو فعل (ڤودو) الذى يعنى حرفيا ارتداء مئزر، ويخص النساء وحدهن. بيد أن ما نعلمه عن العادات المصرية يلغى ذلك التناقض الظاهرى. فقد كان المصريون، رجالا ونساء، يرتدون المئزر، وذلك على غرار ما كان يفعل العديد من الأفارقة حتى عهد قريب.

ولنورد هنا بعض الكلمات المصرية التى تستحق التعمق فى دراستها :

(پتاح) = الإله المصرى، المتسبب فى تحويل المادة.

(تاه) = تسبب فى ، *بالولوف*

وقد لا تكون (پ) أو (پا) إلا أداة التعريف الـ...*بالمصرية*.

(هپ) = النيل باللغة المصرية

(هپ) = مغمور فى الماء، مُبْتل للغاية، تشبعع بالماء، بالولوف

(هور)= اسم نوع يدخل فى تكوين أسماء أغلب الكواكب باللغة المصرية. وهو يستخدم فى الإشارة إلى حورس (وهى تسمية لاتينية)، باعتباره كوكبا يشرق.

(هور) = نجم، بالسيرير.

(سوتن) = تترجم هذه الكلمة فى أحوال كثيرة إلى حفيد باللغة المصرية، وفقا لپيبيريه.

(ست) = إله المنطقة الجنوبية التى كان يسكنها أحفاد حام.

(ست) = حفيد بلغة الوُلوف.

ويرى پدرال أن اسم «السودان» قد يكون مصدره (سوتن). وبناء على هذا الاحتمال يكون السودان مرادفا لبلد الأحفاد ومشتقا من (سوتن).

وعبارتا (ست بيتى) و (نى – ست – بيتى) وهما تسجيلان بالهيروغليفية يتصدران الأطر المزخرفة التى تحمل أسماء كافة فراعنة الأسر الاثيوبية، تعنيان حرفيا بلغة الوُلوف: «حفيدا من الخارج بالنسبة للعبارة الأولى»، و«يكون حفيدا من الخارج بالنسبة للعبارة الثانية». ولذا يبدو أنه من الخطأ اعتبار الحروف الهيروغليفية المستخدمة فى كتابة هذه العبارة: البوص، رمز الصعيد؛ والنحلة، رمز الوجه البحرى. وقد لا تكون تلك الحروف الهيروغليفية سوى تسجيل لفكرة مرتبطة بتقليد مشترك قديم للغاية يربط بين مصر والسودان المروى، مسقط رأس الملوك المسمين «أثيوبيين»، وبلد الحفيد الملكى لكوش، وهو لقب آخر من ألقاب الملك النوبى.

وهذه القرابة التى تجمع بين اللغتين المصرية والوُلوف، بل وبوسعنا أن نقول هذا التماثل شبه التام بين اللغة المصرية واللغات الزنجية بوجه عام، هو فى الواقع أمر فريد من نوعه.

وبقدر ما تمثل اللغة المصرية وحدة لغوية طبيعية مع اللغات الزنجية يستحيل تجاهلها، بقدر ما تشكل اللغة المصرية من جهة، واللغات المسماة سامية وهندو-اوروبية من جهة أخرى،عالمين مختلفين نسبيا، إذا ما استثنينا بعض الاستعارات السامية من اللغة المصرية.

وقد باءت بالفشل المحاولات اللغوية التى بذلت للتقريب بين لغتى المصريين والبربر. واذا كانت الكلمات البربرية مكونة من ثلاثة مقاطع واذا كانت لغة البربر تتجاهل الحروف المتحركة مثل اللغة العربية،فإن ذلك لا ينطبق على اللغة المصرية.

وقد يكون من المفيد أن نذكر فى ختام هذه الدراسة رأى ادوار نافيل حول طريقة تدوين مدرسة برلين للغة المصرية.

«لقد لاحظنا فى مختلف الأجروميات التى لخصنا نتائجها أن جميعها لم يكن سوى تحليل لأشكال اللغة، وأنه بالرغم من الجهود التى بذلها بروخ [BRUGSCH] لتقديم عمل متناسق فى إطار هندو – اوروبى أو سامى، إلا أنه لم يتوصل إلى ذلك، خاصة وأن تركيبة قواعد النحو والصرف التى تحكم

هذه اللغات لا يمكن تطبيقها إطلاقا على اللغة المصرية التى لا تتوفر فيها صيغ خاصة تميز بين مختلف فئات الكلمات». *(تطور اللغة المصرية واللغات السامية*، باريس، مطبوعات پول جوتنر، ١٩٢٠، ص٥٤).

«ومن الفروق الرئيسية بين اللغة المصرية من جهة، واللغات الهندو-اوروبية والسامية، من جهة أخرى، أن التمييز بين المصدر والكلمات والعبارات المشتقة منه، يكاد لا يمكن التعرف عليه، كما هو الحال فى المجموعات اللغوية الأخرى. فالمصدر الصرف الذى يتواجد، إذا جاز القول، تحت السطح فى العائلات اللغوية الأخرى ولا يتم الكشف عنه إلا من خلال تطوراته، يظل دائما مماثلا للكلمة المستخدمة فى اللغة المصرية، بلا أى تبديل تقريبا. فالكلمة المصرية الحقيقية ليست فى حد ذاتها جزءا من سياق التكلم، ولكنها تستطيع أن تكون اسما أو فعلا أو نعتا أو ظرفا .. الخ، وذلك فى حدود الفكرة التى تمثلها» (نافيل، *نفس المرجع*، ص ٥٦ ، نقلا عن رينوف).

ويستشهد المؤلف برينوف [RENOUF] فيما يتعلق بطريقة تدوين المدرسة الألمانية التى تغفل الحروف المتحركة فى اللغة المصرية:

«إن الادعاء بأن الأصوات المتحركة a,i,u، وغيرها غير ممثلة فى الحروف الهيروغليفية، ليس حقيقة مفروغا منها، بل خطأ نجَم عن الجهل، شاركتُ فيه شخصيا منذ ثلاثين سنة قبل أن أتفهم الوقائع». (*نفس المصدر*، ص٥٧).

ويستطرد رينوف قائلا:

«إنه (يقصد مقاله عن «النطقيات المصرية»، ١٨٩٩) يفسر فورا كيف أنه يستحيل لمن تجاوز مفاهيم الهاوى فى مجال علم الصوتيات، أن يقبل نظام التدوين الجديد الذى تبنته برلين».

«وقد حال الموت دون رينوف وإنجاز المهمة التى كان قد أخذها على عاتقه، ألا وهى تفنيد النظريات التى كان يعتبرها غريبة على اللغة المصرية ولا تقوم على أساس من الوقائع».(نافيل، *نفس المصدر*، ص ٥٨).

«فاللغة المصرية سامية إذن. هذا ما تفيدنا به آجروميتا إرمان وزيته. ولكن إذا ما تمعنا فى هذا المجهود في مجموعه، مع إعجابنا بالقدر الضخم من العمل الذى تطلبه والألمعية التى تبدت فيه فى أغلب الأحوال، إلا أن مايثير الدهشة أن هذا الابتكار المصمم بحذق وذا المظهر الجميل للغاية، مصطنع تماما. إنها ليست آجرومية بمعنى الكلمة، بل آجرومية سامية مفصلة فى أشكال مصرية. وأنا لا أفكر، ولو للحظة واحدة، فى إنكار كل العلم الذى تتضمنه تلك المجلدات، ولكن ليسمح لى زملائى العلماء فى برلين بأن أكرر هنا ما سبق أن قلته فى مواضع أخرى، وهو أن ما قاموا به هو نتاج مختبر للفقه اللغوى. إنها لغة مصرية تم تركيبها بمناهج سامية. وهذا واضح بالأخص فى كتاب زيته. فهو ينطلق من الفكرة القائلة بأن اللغة المصرية لغة سامية، وبالتالى يتعين بالضرورة أن نجد فيها بعض الصيغ

التى تتميز بها تلك اللغات. وإذا كانت هذه الصيغ لا تتفق مع ما كان متوقعا فإن الاختلاف ليس إلا ظاهريا، ومن المؤكد أنها كانت متفقة فى الماضى. وهكذا فإن التأكيد بأن اللغة المصرية لغة سامية ليس نتاجا لما توصلت اليه دراسة هذه اللغة، بل نقطة الانطلاق والأساس الذى يتعين أن يعاد تركيب اللغة المصرية القديمة عليه. ولدينا هنا مثال للمنهج الذى نجده فى العديد من الأعمال الخاصة بما وراء نهر الراين، خاصة فى مجال التاريخ. فالواقعة التى يمكن أن تقدم تفسيرا تؤدى إلى فكرة عامة. وسرعان ما يعتبر ذلك التفسير أو الفكرة العامة حقيقة واقعة لا مجال للمجادلة فيها. وهكذا تنقلب الأوضاع،إذ لا مجال لتغيير التفسير أو الفكرة العامة وفقا للوقائع،بل يجب أن نكيف الوقائع بحيث تتفق مع الفكرة المقررة مسبقا. وسيتعين تشذيب النصوص وتهذيبها بحيث تتفق تماما معها» (*نفس المصدر*، ص ٦٦و٦٧).

«ومن الواضح أنه ليس من الصعب أن يعاد تركيب كل الكلمات بهذه الطريقة لتصبح مصادر من ثلاثة مقاطع، إذ يكفى أن نسمى ما لا يمكن أن يكون جرسها إلا حرفا متحركا، حرفا ساكنا، أو أن نفترض أنه تم حذفه». (*نفس المصدر*، ص ٦٨).

«وعلى الرغم من كل المزاعم المضادة، لم يتم التوصل حتى الآن إلى اكتشاف أى أثر للحروف المتحركة سواء فى اللغة المصرية القديمة أو الحديثة». بهذه الجملة تبدأ آجرومية زيته، التى قال لنا عنها ارمان إنها أرست ركائز العلم على أرض صلبة وأثبتت بطريقة نهائية أن المصادر مكونة من ثلاثة مقاطع، مما يؤكد بالتالى الطابع السامى للغة. ولو طلبنا الآن من السيد زيته علام يعتمد فى ذلك التأكيد القاطع إلى هذا الحد، لقال لنا إن كل مقطع يجب أن يبدأ بحرف ساكن كما هو الحال فى اللغات السامية، وإنه لا توجد فى اللغة المصرية مقاطع تبدأ بحرف متحرك، وإن كل كلمة قبطية تبدأ بحرف متحرك فقدت حرفها الساكن الأصلى. إننا نواجه دائما هذه الطريقة فى التفكير التى ننكر تماما قيمتها فى البرهنة.لا توجد حروف متحركة فى اللغة المصرية، وعليه فإنها تكون لغة سامية، ومما يثبت فى الواقع أنه لا توجد بها حروف متحركة، هو أن اللغة المصرية بصفتها لغة سامية، يجب ألا تكون بها حروف متحركة». (*نفس المصدر*، ص٨٠).

«وهنا أيضا نجد إحدى الوسائل الدارجة فى الأسلوب الالمانى، خاصة فى مجال الدراسات التاريخية. وردود الفعل هذه ضرورية لاستكمال النظرية. فالأمر لا يتطلب هنا وثائق أو مؤلفين، بل مجرد حروف يقال إنها اختفت فى القبطية وإن كان يتعين الاعتراف بوجودها، لأن النظام الذى تم

وضعه لا يمكن أن يستغنى عنها » (*نفس المصدر*، ص٨١)(*).

وقد قدم لنا ناڤيل الجدول التالى الذى استكملناه بعمود بالوُلُوف:

تدوين المدرسة الالمانية	*التذوين الجارى*	*الولوف*
إك أوسى	كوسى	كوسو (تل فى نجيريا)
إيفروورت	ايرث (حليب)	رات (حَلَبَ)
ايمنودج	مينيت (الثدى)	مِن (الثدى)
ڤيسيريف	اوزيريس	سيريه

(نقلا عن ناڤيل، ص ٧٦)

وهذه الأمثلة القليلة تبين لنا أن التعرف على الكلمات المصرية يصبح عسيرا بعد تعرضها لمثل تلك المعالجة، كما أن المقارنة الممكنة بين العمودين الثانى والثالث تصبح مستحيلة بين العمودين الأول والأخير.

وفيما يتعلق بتدوين الحروف المتحركة، بوسعنا أن نلاحظ أن وسيلة التعريف المصرية التى تُمكِن من التمييز بين كلمتين تنطقان تقريبا بنفس الطريقة - وإن كان معنى كل منهما مختلف - كان لابد وأن تكون معتمدة أساسا على النغمة، إذا ما استندنا فى ذلك إلى الوُلُوف.

فالكلمتان الولوف (باج) = الذهاب والعودة، و(بآج) = أداة لاستقاء الماء، لا تختلفان إلا عن طريق تنغيم الحرف المتحرك فى الكلمة الأخيرة. ولو تم تدوين الكلمتين بالهيروغليفية لما أمكن التمييز بينهما إلا بفضل وسائل تحديد مناسبة ذات طابع تنغيمى.

ولكن فيما يتعلق بالعبرية والمصرية فما أيسر التعرف على تشكيل الكلمة، أى التعرف على الحروف المتحركة التى تمكننا من قراءة الكلمة التى لم تكتب سوى حروفها الصامتة: فهناك قواعد محددة لذلك. وعلى هذا الأساس يقال إن هذه اللغات لا تستخدم الحروف المتحركة، إذ يمكن الاستغناء عن هذا المجهود الإضافى فى التدوين نظرا لتوفر وسيلة منتظمة للتعرف على الحرف المتحرك الصحيح المصاحب لكل حرف ساكن.

ولا يوجد شئ من هذا النوع فى اللغة المصرية القديمة. والعالم الذى يتسلى بإلغاء الحروف المتحركة لكى يثبت أنه بصدد لغة سامية، لا تتوفر لديه أى قاعدة للعثور عليها، كما هو الحال فى اللغات السامية. وفى حدود هيكل الكلمة المصرية على أساس الحروف الساكنة، لا توجد أى وسيلة

(*) ندد ناڤيل أيضا بمحاولة الإيهام بأن اللغة المصرية لغة سامية، إذ يكفى أن يطلع المرء على كتاب نحو قبطى للتأكد من ذلك. ولو رجعنا بهذه المناسبة الى آجرومية ستيندورف لوجدنا أنها تقول: القبطية لغة سامية، فبما أن اللغة المصرية سامية فإن اللغة القبطية تكون هى أيضا سامية.

لتشكيلها اللهم إلا إذا اعتمدنا على لغة مشتقة من اللغة المصرية ولا تزال مستخدمة، مثل اللغات الزنجية واللغة القبطية.

ولو كان شامبليون قد افترض أن اللغة المصرية سامية وأنها لا تدوّن أبدا الحروف المتحركة، وصمم على التمسك بذلك الافتراض، لما تمكن أبدا من قراءة الكتابة الهيروغليفية. فعندما عكف شامبليون على حل رموز اسمى بطليموس وكيلوباترا، كان لابد له من التعرف على هيروغليفيات مقابلة للحروف المتحركة الإغريقية أ، إ، آ ... التى تمثلها على التوالى ما يشبه «القلب المقلوب»، و«ريشة» و«نسر»، ثم تعرف بعد ذلك على الـ (أو)الممدودة عن طريق «فرخ السمان» وعلى (إيه) عن طريق «الذراع المطوية». وليس هناك ما يدعو أبداً لأن نكرر أن هذه العلامات تتفق فعلا مع حروف متحركة فى النص الإغريقى. وهكذا تم فك رموز نص حجر رشيد المسجل بلغتين. (حجر رشيد، المتحف البريطانى، لندن، ١٩٥٠).

ولذا لم يكن فى إمكانهم أن يستبيحوا لأنفسهم تحويل الحروف المتحركة إلى حروف ساكنة أو حروف ساكنة ضعيفة إلا بعد أن تعرف عليها شامبوليون، وذلك بقرار أصدره العلم الألمانى الرسمى.

وقد يتبادر إلى الأذهان أن ما نشره ناڤيل منذ عام ١٩٢٠ قد تم تجاوزه الآن، وأنه تم تحقيق تقدم ملموس منذ ذلك الوقت. ولكن ذلك لم يحدث، فعلم الآثار المصرية كان قد أوشك أن يكون قد مضي عليه قرن من الزمن، بفارق عامين تقريبا، وعليه فإن هذه المدة لم تكن فترة تَعَثّر، بل فترة تَمَكّن: وبوسعنا أن نقول إن الأعمال الكلاسيكية التى يتم الاعتماد عليها حتى الآن تعود إلى ذلك التاريخ. وعليه، إذا كانت أعمال ناڤيل قد أصبحت قديمة، فإن أعمال معاصريه - وبالأخص المنتمين منهم إلى المدرسة الالمانية - أصبحت هى أيضا قديمة. ومع ذلك فإن أعمال هؤلاء لا تزال رائجة على أوسع نطاق: وقد استشهد ناڤيل فى ذلك بجاردينر، وهو من أكبر مناصرى المدرسة الألمانية. فقد ترك لنا آجرومية لا تزال أساس التعليم الرسمى. ولا يوجد بالكاد سوى رد فعل مائع يعلن أن اللغة المصرية لغة إفريقية. واصطلاح «إفريقى» فى مجال علم الآثار المصرية معروف بمضمونه الريائى: ففى مواجهة المصاعب العديدة التى تنشأ، يتم اللجوء إلى حيلة جديدة لا تنطلى على أحد، لأن صفة «إفريقى» يقصد بها هنا «غير زنجى».

الفصل الخامس

حجج مضادة لفكرة الأصل الزنجى لمصر

هل هو انتكاس ثقافى؟

إذا كان الزنوج هم الذين أقاموا الحضارة المصرية، فكيف يمكن تفسير انتكاستهم الراهنة؟

هذا السؤال لا معنى له، لأن بوسعنا أن تقول نفس الشئ سواء فيما يخص كلاً من الفلاحين والأقباط الذين يعتبرون السلالة المباشرة للمصريين، وهم يواجهون نفس حالة الانتكاس شأنهم شأن الزنوج الآخرين، إن لم يكن بدرجة أكبر بالمقارنة مع ماضيهم.

غير أن هذه الملاحظة لا تعفينا من تفسير عملية التحول التى طرأت على الحضارة التقنية والعلمية - الدينية فى مصر عبر تكيفها مع الظروف الجديدة فى إفريقيا.

لقد نمت الدول مبكرا حول الوادى الأم، دون أن نتمكن حتى الآن من تحديد تاريخ ظهورها بدقة.

فقد تغلغل الزنوج ببطء فى قلب القارة، عبر الزمن، عن طريق حركات هجرة متتالية، وانتشروا فى كافة الاتجاهات، وهم يبعدون الأقزام من طريقهم. وقد أسسوا دولا نمت وأقامت علاقات مع الوادى الأم إلى أن قضى الأجانب على تلك الدول. فهناك من الجنوب إلى الشمال: النوبة ومصر؛ ومن الشمال إلى الجنوب: النوبة وزمبابوى؛ ومن الشرق إلى الغرب: النوبة، وغانا، وإيله - إيفه؛ ومن الشرق إلى الجنوب الغربى: النوبة، وتشاد، والكونغو؛ ومن الغرب إلى الشرق: النوبة وأثيوبيا.

ولانزال نجد حتى الآن كمّاً ضخما من الآثار المقامة بالحجارة فى اثيوبيا والنوبة، ومنها المسلات والمعابد والأهرامات.

وتوجد المعابد والأهرامات فى السودان المَرَوى وحده؛ وقد تم التأكيد على الدور الأساسى الذى قام به هذا البلد فى انتشار الحضارة فى إفريقيا السوداء، حتى أنه لا يوجد ما يدعو الى التعرض لذلك من جديد.

ويشير اسم أثيوبيا، فى تصورات العقول الحديثة، إلى أديس أبابا، مما يستدعى أن ننوه هنا بأنه لم يتم العثور فى هذه المنطقة إلا على مسلة واحدة وقاعدتى تمثالين. فحضارة أكسوم اصطلاح لفظى أكثر مما هو حقيقة واقعة تشهد على قيامها آثار تاريخية.

فالمعابد والأهرامات متواجدة بكميات وفيرة فى السودان المَرَوى، فى سنار.

وهكذا يتم تزييف أسماء المواقع، لكى تنسب الحضارة الزنجية - المصرية - الإفريقية إلى أصل

شرقى إلى حد ما، وأسيوى، ولكن على استحياء، وذلك عن طريق باب المندب. والواقع أنه يتعين أن نتصدى لتلك المصطلحات.

فالحاميون، الشرقيون والأثيوبيون، بل والأفارقة يوفرون لعلم التاريخ الحديث تعبيرات مخففة تتيح التحدث عن الحضارة الزنجية السودانية المصرية مع تجنب النطق ولو مرة واحدة بكلمة «زنجية» أو «سوداء».

ففى زمبابوى – التى يمكن أن تكون امتدادا لبلاد الأحباش المردة الذين تحدث عنهم هيرودوت – توجد أطلال منشآت ومدن بنيت بالحجارة وعليها صور صقر «فى دائرة مركزها بحيرة فيكتوريا، يتراوح نصف قطرها بين مئة أو مئتى ميل»، كما كتب د.ب. پدرال (*آثار افريقيا السوداء*، ص١٦٦). وبعبارة أخرى تنتشر هذه الأطلال فى دائرة قطرها حوالى ٨٠٠ كيلو متر، أى ما يعادل تقريبا قطر فرنسا.

ويتحدث پدرال أيضا عن مدينة قوقيا (ص٦١)، فى منطقة غانا، والتى جاء فى كتاب *طريق السودان* لمؤلفه عبد الرحمن بن أمير السعدى أنها «كانت قائمة منذ زمن الفراعنة». ويرى ديسپلانى[DESPLAGNES]، الذى أجرى عمليات تنقيب فى هذه المنطقة، أنه عثر فيها على مخلفات تلك المدينة. ويتحدث نفس المؤلف عن موقع كومبى، الذى عثر فيه بونيل دى ميزيير[BONNEL DE MESIERE]، من خلال حفرياته، على مقابر كبيرة الحجم و«توابيت من الصخر الرسوبى المنضد ومحارف للتعدين وبقايا أبراج ومبانٍ مختلفة».

«ويوسع المرء أن يميز بكل وضوح حتى الآن أثر تخطيط طريق توجد على جانبيه بيوت ترتفع جدرانها مترا فوق الأرض أو مترا ونصفاً. وقد تداعت الأسقف. وعلى مسافة من ذلك موقع ساحة حيث توحى الجدران بأنها كانت تحمل طوابق. وتكون المبانى مصانة أحيانا الى حد يجعل سكنها ممكنا من جديد بمجهود بسيط. ويوسع المرء أن يرى بوضوح تتابعها نظرا لوجود قطع الحجارة المشذبة. وهناك حولها بقايا موقع مسور، جدرانه منخفضة على أى حال، وخارجه مقابر، وفى كل مكان بقايا أوانٍ فخارية وخرز وحتات نحاس أحمر. وعلى مسافة من هناك، فوق هضبة تربتها صلبة حمراء اللون، توجد آثار محرف للتعدين.

«والمبانى الأخرى معقدة. ويشمل أحدها خمس غرف مهيأة على عمق أربعة امتار، وبها دهاليز للاتصال. وأعمال البناء ممتازة ويبلغ سمك الجدران ٣٠ سنتيمترا». (پدرال، *نفس المرجع*، ص ٦٢)

وفى منطقة بحيرة ديبو، توجد أيضا أهرامات عنّ لهم أن يسموها «ركاما» كما كان متوقعا. وتلك أساليب معهودة ترمى الى الانتقاص من القيم الافريقية؛ ويوسعنا أن نجد نقيض هذه الأساليب فى بلاد ما بين النهرين، حيث يُستخلص من ركام من الصلصال – وهو حقا ركام – أكمل معبد يستطيع العقل الإنسانى أن يتصوره،مع أن عمليات إعادة البناء هذه ليست بصفة عامة سوى محض نظريات لا تمت للواقع بصلة.

وعلى العكس من ذلك، اليكم ما يقوله پدرال عن اهرامات السودان:

«إنها كتل متراصة من الصلصال والحجارة، فى شكل أهرامات مبتورة قمتها من الآجر والطوب الأحمر، وجميعها مقامة فى نفس الدورة الزمنية ومن أجل نفس الغرض ... ويبلغ ارتفاعها ما بين ١٥ و ١٨ مترا ومساحة قاعدتها ٢٠٠ متر مربع ... وقد قام ديسپلانى باستكشاف أحد تلك الركامات فى موقع الوليدى، عند التقاء نهرى عيسى بر ويارا عيسى. واكتشف فى وسطه غرفة جنائزية متجهة من الشرق إلى الغرب يبلغ أقصى طولها ٦ أمتار وأقصى عرضها ٢,٥متر. وهناك صفوف من جذوع الأشجار تكون بطانة سمكها حوالى ثلاثة أمتار، والسقف مكون من عروق خشبية متراصة فوق بعضها، ويتضمن فتحة تؤدى إلى الجزء العلوى عن طريق بئر قطرها ٠,٨٠ مترا، مملوءة بأوان تحتوى على عظام حيوانات. وقد وجد ديسپلانى فى الغرفة ذاتها مرقداً من الرمل حوله جرة كبيرة والعديد من الأوانى الفخارية وهيكلين عظيميين مبعثرين، وحليا، وأسلحة، ونصال سيوف وسكاكين، وأسنة رماح ومزارق، وحبات قلادات من الخرز، ولألئ، وتماثيل صغيرة من الطين تمثل حيوانات، وأخيرا أختام، وإبر مصنوعة من العظم. وكان الخرز مصنوعا من عجينة زجاجية زرقاء مكسوة إما بزخرفة على شكل عيون أو بشرائط بيضاء متخذة شكلا حلزونيا أو مرصعة بالميناء، تذكرنا بالزجاج المصرى فى الدولة الوسطى (تل العمارنة). وتدل الفخاريات على صناعة خزفية متقدمة للغاية بالمقارنة مع صناعة السكان الحاليين. فالأوانى ذات السطح المزخرف بنقط أنيقة التكوين لم يعد لها وجود فى المنتجات الحديثة. وكان شغل المعادن متقدما هو أيضا، كما يتبين ذلك من المجوهرات المصنوعة من المعدن النفيس، والدقيقة الزخارف أحيانا» (پدرال .. *نفس المرجع* ص ٥٩ و٦٠).

ولايمكن أن نصف هنا كل ثروات حضارة ايله - ايفه : فقد كانت من الثراء الى درجة أن فروبينيوس حاول عبثا أن يبحث لها - كما هى القاعدة - عن أصل أبيض. (*ميثولوجيا الاتلنتيد*، الناشر پايو، ١٩٤٩).

لقد نشأت الحضارة فى وادى النيل عن تأقلم الإنسان مع هذا الوسط المتميز. ووفقا لشهادات الأقدمين والمصريين أنفسهم، فقد كان أصلها فى النوبة، وانحدرت نحو البحر مع مجرى النيل. ومما يؤكد هذا الواقع بالذات أن العناصر الأساسية للحضارة المصرية لا توجد، لا فى الوجه البحرى، ولا آسيا، ولا أوروبا، ولكن فى النوبة، فى قلب القارة الافريقية، حيث نجد بالأخص الحيوانات والنباتات التى استخدمت فى ابتكار الكتابة الهيروغليفية.

وأدت الظاهرة الطبيعية المتمثلة فى الفيضان السنوى لنهر النيل إلى تطور التنظيم الاجتماعى، إذ أنها تطلبت القيام بأعمال جماعية مثل إقامة السدود. كما أن الهندسة والحساب، أى الرياضيات،

جاءت نتيجة لفيضان النهر، إذ كان يتعين حل النزاعات حول حدود الحقول. وهكذا نشأت الهندسة، وهى أصلا قياس أبعاد الأراضى.

وكانت من عادات المصريين تحديد مدى ارتفاع الفيضان «بمقياس النيل» وكانوا يستخلصون من ذلك الحجم السنوى للمحاصيل وذلك بالحسابات الرياضية.

كما أن التقويم وعلم الفلك هما أيضا نتاج لتلك الحياة المستقرة والزراعية.

وقد تولدت عن التكيف مع الوسط الطبيعى بعض الإجراءات الصحية مثل تحنيط الجثث (لتجنب وباء الطاعون فى الدلتا)، والصوم، والحمية، الخ .. وظهر الطب شيئا فشيئا.

وتطلب تطور الحياة الاجتماعية والتبادلات ابتكار الكتابة واستخدامها.

كما نشأت عن الحياة المستقرة الملكية الفردية وقواعد أخلاقية راقية تلخصها الأسئلة التى توجها إلى المتوفى أمام محكمة أوزيريس. وتتناقض هذه الأخلاقيات مع قيم الغزو والسلب والنهب عند الرُحل الأورو - آسيويين(*).

وقد تحولت فأس العصر الحجرى الزنجوى القديم الى محراث، بإطالة ذراع الفأس. وكان الناس يجرونها فى البداية ثم بعد ذلك استخدمت الحيوانات فى جرها ولم تطرأ على هذا المحراث التحسينات الأخرى مثل العجلة (فى اوروبا، فى العصور الوسطى)، إلا فى أزمنة متأخرة للغاية.

وعندما تغلغل زنوج النيل أكثر فأكثر فى قلب القارة، نتيجة لتزايد أعداد سكان الوادى والتقلبات الاجتماعية، واجهوا ظروفا طبيعية وجغرافية مختلفة. فلم تعد بعض الممارسات والآلات والتقنيات والعلوم، التى كان لا غنى عنها على ضفاف النيل، ذات أهمية حيوية عند مصب نهر النيجر وضفاف نهر تشاد وشواطئ المحيط الأطلسى وضفاف نهرى الكونغو والزامبيز.

(*) اليكم النص الشهير فى كتاب الموتى الذى يتقدم فيه المتوفى الحساب عما فعله فى الحياة الدنيا للمحكمة التى يرأسها الإله أوزيريس. وسيتبين لنا بوضوح أنها على غرار عقيدة يوم الحساب فى الأديان الثلاثة، اليهودية والمسيحية والإسلام:

«لم أرتكب خطيئة ضد البشر .. ولم أفعل شيئا يكرهه الآلهة. ولم أكدر أحدا أمام رئيسه، ولم أترك أحدا جائعا. ولم أدفع أحدا إلى البكاء، ولم أقتل ولم آمر بالقتل. ولم أتسبب فى آلام لأحد. ولم أقلل من الغذاء فى المعابد، ولم آكل من خبز الآلهة. ولم أسرق قرابين الموتى، طوبى لهم ... ولم أطفف مكيال الحبوب، ولم أنقص مقياس الطول أو أطفف الميزان أو أحرِّف مؤشره. ولم أنتزع اللبن من فم الطفل. ولم أحرم الماشية من مرعاها .. ولم أحتجز ماء الفيضان فى موسمه، ولم أقم حاجزا أمام الماء الجارى .. ولم أتسبب فى خسائر فى القطعان الموقوفة على المعابد ... المجد لك يارب ... إننى قادم اليك بلا خطيئة وبلا شرور ... لقد نفذت ما يرضى الآلهة ... فاعطيت الخبز للجوعان، والماء للعطشان، والملابس للعارى، ومعبرا لمن ليس لديه قارب. لقد قدمت القرابين للآلهة وهدايا جنائزية للموتى، طوبى لهم. أنقذنى واحفظنى. إنك لن تتهمنى أمام الإله الأعظم. أنا إنسان فمه نقى ويداه طاهرتان، ومن يرونه يقولون: مرحبا بك» (انظر الصورة رقم ٥٢).

وهكذا يمكننا أن ندرك أن بعض عناصر الحضارة الزنجية فى وادى النيل تلاشت داخل القارة، بينما ظلت عناصر أخرى أساسية قائمة حتى الآن.

وساهم غياب نبات البردى فى بعض المناطق المذكورة أعلاه فى ندرة الكتابة فى قلب القارة وإن لم تكن غائبة تماما فى إفريقيا السوداء كما يزعمون ذلك جهارا. ففى ديوربل، مركز دائرة بوال فى السنغال، فى حىّ ندونكا، توجد شجرة مغطاة بالكتابات الهيروغليفية من الجذع حتى الفروع. وكانت مكونة، بقدر ما أتذكر من رموز لأيدٍ وقوائم حيوانات - لم تكن نفس الرموز المستخدمة فى مصر - ومنها قوائم جمال ورموز تشير إلى أقدام وأدوات أخرى ... وكان يجب نقل تلك البصمات ودراستها. وفى الفترة التى كنت أراها فيها لم يكن لدىّ لا السن ولا التكوين الضرورى لكى أهتم بها. ومن الممكن أن نكّون فكرة عن العهد القديم أو الحديث لتلك الرموز المحفورة على قشور تلك الأشجار، بتحليل سمك طبقات تلك القشور وطبيعة الرموز والأشياء التى تمثلها، وانتقال تلك الرموز بطول الجذع نتيجة لنمو القشور. ويتعين أن نشير الى أن تلك الأشجار مقدسة ونادرا ما ينتزع لحاؤها لصنع الحبال. كما يجب أن نقول أيضا إنها ليست نادرة فى البلد.

ولما كان باطن الأرض فى إفريقيا لا يزال بكرا إلى حد كبير، فمن المتوقع أن توفر لنا الحفريات المنتظمة فى المستقبل، وثائق مكتوبة لا تحوم حولها أى شكوك، وذلك رغم المناخ والأمطار الغزيرة التى لا تساعد على الحفاظ على مثل هذه الوثائق.

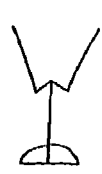
ولنذكر أن هناك كتابات هيروغليفية أصلية فى الكامرون، والتى تسمى النديبويا [NDYOUJA] ومن المهم إن نعرف ما إذا كانت أقدم مما يقال عنها. وهى من نفس طراز الكتابة الهيروغليفية المصرية بالضبط.

واخيرا، توجد فى سيبرا ليون كتابة أخرى خلاف كتابة البامون (الكامرون)، وهى كتابة الڤاى المعتمدة على المقاطع اللفظية وكتابة الباساس المختزلة وفقا للدكتور چيفرى.

وكتابة النسيبيدى [NSIBIDI] تعتمد على حروف أبجدية (بومان ووسترمان: *شعوب وحضارات إفريقيا* وملحق بها : *اللغات والتعليم*، الناشر پايو، ١٩٤٨، ص ٤٤٤).

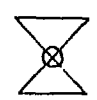
فبوسعنا أن نقول إذن إن إفريقيا السوداء لم تفقد حضارتها أبدا حتى القرن الخامس عشر، كما يؤكد ذلك النص التالى لفروبينيوس:

«لقد أبدى البحارة الأوروبيون الأوائل فى نهاية العصور الوسطى ملاحظات هامة للغاية فى هذا المجال. فعندما وصلوا إلى خليج غينيا ورسوا فى ڤايدا، أبدى القباطنة دهشتهم عندما وجدوا شوارع حسنة التخطيط يحف بها على الجانبين، على امتداد عدة فراسخ، صفان من الأشجار؛ وقد عبروا

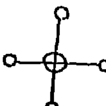


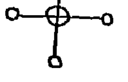
هذا الرمز اليوروبا
مماثل لرمز مصرى

الحرف الأول من اسم ست. وهو
يعنى فى مجموعه: ست حاكم
جزء من مصر



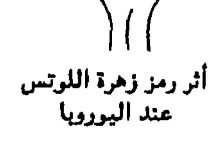
دائرة تمثل ضفتى النيل



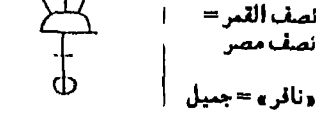


الآلهة الأربعة الأساسية فى مصر
الذين ظلوا باقين عند اليوروبا

هذا الرمز يُنطق
حسب، وهو اسم مصرى



أثر رمز زهرة اللوتس
عند اليوروبا



ثالوث الأهى

نصف القمر =
نصف مصر

«نافر» = جميل

٤٣ - كتابة باليوروبا : رموز مشتركة مع الرموز المصرية، نشرها لوكاش

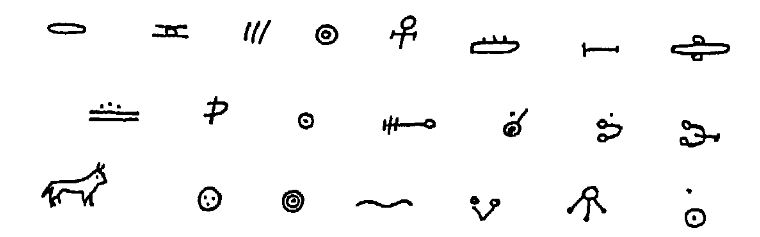
lu ru du ndu ju yu iu fa fe fo fi fo fo fu

٤٤ - كتابـــة فـــاى

a b c d e f g h i k l

٤٥ - كتابـــة نزيبيـــدى

٤٦ - كتابة باسا (نقلا عن وسترمان)



٤٧ - رموز مشتركة بين الكتابتين البامون والمصرية

mot moum	sens	1907 1°	1911 2°	1916 3°	1919 4°	valeur phonet.
pwō	bras					pwō p
mı	visage					mı m
na	cuire					na n

٤٨ - التواريخ المسجلة فى هذا الجدول لا تمت للواقع بصلة، وتحديدها بدقة دليل على عدم صحتها. وهى وليدة الرغبة المحمومة فى تحديث كل ماهو افريقى حتى لا يستدعى الأمر ربطها بالتاريخ المصرى القديم. لقد احتاج الأمر الى أكثر من ألف عام للانتقال من الهيروغليفية الى مرحلة الكتابة الهيراطيقية، أى الانتقال من الخانة الأولى الى الخانة الثانية.

خلال عدة أيام ريفاً به حقول رائعة، يسكنه أناس يرتدون ملابس ذات ألوان زاهية، نسجوا أقمشتها بأنفسهم! وفى جنوب هذه المنطقة، فى مملكة الكونغو وجدوا جموعا غفيرة تتدثر «بالحرير» و«المخمل»، ودولاً كبيرة منظمة جيدا فى كافة التفاصيل، وملوكا أقوياء وصناعات مزدهرة. إنهم متحضرون حتى النخاع! وكانت ظروف السواحل الشرقية، فى موزنبيق مثلا مماثلة لذلك تماما.

«وتقدم شهادات البحارة من القرن الخامس عشر حتى القرن الثامن عشر الدليل الأكيد على أن إفريقيا الزنجية الممتدة حتى جنوب المنطقة الصحراوية، كانت فى أوج تألقها، بروعة حضاراتها المتناسقة والجيدة التنظيم. وقد قضى الغزاة الأوروبيون على ذلك الازدهار شيئا فشيئا مع زحفهم، إذ كانت بلاد امريكا الجديدة فى حاجة إلى عبيد وكانت إفريقيا توفر لهم ذلك بالمئات والآلاف فى شحنات مكتظة بالعبيد! غير أن النخاسة لم تكن مسألة مريحة للضمير، وكان لابد من إيجاد تبرير لها، ولذا صوروا الزنجى على أنه نصف حيوان وسلعة تباع وتشترى. وابتكروا لذلك فكرة الوثنية كرمز للديانة الإفريقية، التى أصبحت علامة مسجلة اوروبية ! أما أنا فلم أر أبدا فى أى من أنحاء افريقيا الزنجية، أهالى يعبدون أصناما.

«وفكرة " الزنجى البربرى " ابتكار أوروبى سيطر فى أوروبا كرد فعل حتى بداية هذا القرن». (فروبينيوس، *تاريخ الحضارة الافريقية*، ترجمة باك وارمون، الناشر جاليمار، باريس، ١٩٣٨، الطبعة الخامسة، ص ١٤ و ١٥).

وتتفق أقوال الرحالة البرتغاليين فى القرن الخامس عشر حتى القرن الثامن عشر، والتى أوردها فروبينيوس ، مع ما كتبه المؤلفون العرب من القرن العاشر حتى القرن الخامس عشر. وقد وصف لنا رحالة عربى زار امبراطورية مالى فى تلك الحقبة، التنظيم الاجتماعى للدول الزنجية فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر، الذى أشار اليه فروبينيوس، كما وصف الأبهة الملكية التى سادت فى تلك الحقبة، وهذا الرحالة هو ابن بطوطة الذى حدثنا عن الجلسات العامة التى كان يعقدها الملك الماندينجى سليمان مَنْسا، علما بأن ابن بطوطة زار السودان فى ١٣٥٢ - ١٣٥٣، أثناء حرب المئة عام فى أوروبا.

ذكر جلوس سلطان مالى سليمان مَنْسا، بقبته

«وله (أى السلطان) قبة مرتفعة بابها بداخل داره، يقعد فيها أكثر الأوقات. ولها من جهة (المشْوَر) طيقان ثلاث من الخشب، مغشاة بصفائح الفضة، وتحتها ثلاث مغشاة بصفائح الذهب، أو هى فضة مذهبة، وعليها ستور ملف، فإذا كان يوم جلوسه بالقبة، رُفعت الستور فَعُلِم أنه يجلس. فإذا جلس أخرج من شبّاك أحد الطيقان (شرابة) حرير، قد ربط فيها منديل مصرى مرقوم. فإذا رأى الناس المنديل ضُربت الأطبال والأبواق. ثم يخرج من باب القصر نحوثلاثمائة من العبيد، فى أيدى

بعضهم القِسى، وفى أيدى بعضهم الرماح الصغار والدَرَق. فيقف أصحاب الرماح منهم مَيمْنة ومَيْسَرة. ويجلس أصحاب القِسىّ كذلك، ثم يؤتى بفرسين مُسْرجين مُلجْمين ومعهما كَبْشان، يذكرون أنهما ينفعان من العين. وعند جلوسه يخرج ثلاثة من عبيده مسرعين، فيدعون نائبه قَنْجا موسى. وتأتى (الفَراريّة)، وهم الأمراء. ويأتى الخطيب والفقهاء، فيقعدون أمام (السلحداريّة) يَمْنة ويَسْرة فى (المشور). ويقف دُوغا الترجمان على باب (المشور)، وعليه الثياب الفاخرة، وعلى رأسه عمامة ذات حَوَاش، لهم فى تعميمها صنعة بديعة، وهو متقلد سيفا غِمْدُه من الذهب، وفى رجليه الخُفّ والمهاميز. ولا يلبس أحد ذلك اليوم خُفًا غيره، ويكون فى يده رمحان صغيران، أحدهما من ذهب والآخر من فضة، وسِنَّاهما من الحديد.

«ويجلس الأجناد والولاة والفتيْان وغيرهم فى خارج (المشور)، فى شارع هنالك متسع فيه أشجار. وكل (فَرارىّ) بين يديه أَصحابه بالرماح والقسى والأطبال والأبواق، وأبواقهم من أنياب الفيلة، وآلات الطرب المصنوعة من القصب والقرع، ولها صوت عجيب. وكل فَرَارى له كنانة قد علقها بين كتفيه، وقوسه بيده، وهو راكب فرسه، وأصحابه بين مُشاة وركبان. ويكون بداخل (المشور) تحت الطيقان رجل واقف: فمن أراد أن يكلم السلطان كلّم دُوغا، ويكلم دوغا ذلك الواقف، ويكلم الواقف السلطان».

ذكر جلوس السلطان فى المشور

«ويجلس أيضا فى بعض الأيام (بالمشور). وهنالك مِصْطَبة تحت شجرة، لها ثلاث درجات يسمونها (البَنْبى)، تفرش بالحرير وتجعل المخَاد عليها، ويرفع (الشطر) وهو شبه قبة من الحرير، وعليه طائر من ذهب على قدر البازى. ويخرج السلطان من بابٍ فى ركن القصر، وقوسه بيده، وكنانته بين كتفيه. وعلى رأسه (شاشيّة) ذهب، مشدودة بعصابة ذهب، لها أطراف مثل السكاكين رِقَاق، طولها أزيد من شبر. وأكثر لباسه جُبّة حمراء موبرة من الثياب الرومية التى تسمى المُطَنْفَس. ويخرج بين يديه المغنون بأيديهم قنابر الذهب والفضة. وخلفه نحو ثلاثمائة من العبيد أصحاب السلاح ويمشى مشيا رويدا، ويكثر التأنى. وربما وقف ينظر إلى الناس. ثم يصعد برفق كما يصعد الخطيب المنبر. وعند جلوسه تضرب الطبول والأبواق والأنقار. ويخرج ثلاثة من العبيد مسرعين، فيدعون النائب و (الفرارية)، فيدخلون ويجلسون. ويؤتى بالفرسين والكبشين معهما. ويقف دوُغا على الباب، وسائر الناس فى الشارع تحت الأشجار.

«والسودان (أى السود) أعظم الناس تواضعا لملكهم وأشدهم تذللا له ويحلفون باسمه» (ابن بطوطة، *تحفة الأنظار، فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار*، المطبعة الاميرية ببولاق، ١٩٣٤، الجزء الثانى، ص ٣٠٣ الى ٣٠٥).

وقد أفادنا ابن بطوطة بعد ذلك أن قنجا موسى سلف سليمان منسا أعطى أبا إسحاق الساحلىّ الذى بنى له جامعا فى جَاوُ،أربعة آلاف مثقال أى ما يعادل تقريبا ١٨٠ كيلو جرام من الذهب، مما يدل

على مدى ثروة هذا البلد فى العهد السابق على الاستعمار.

وهناك نص آخر لإبن بطوطة يعرى تماما أسطورة سيادة الفوضى فى إفريقيا السوداء قبل الاحتلال الأوروبى، وأنه (أى الاحتلال الأوروبى) هو الذى جلب معه السلام والحرية والأمن .. الخ.

ذكر ما استحسنته من أفعال السودان

«فمن أفعالهم الحسنة قلّة الظلم، فهم أبعد الناس عنه. وسلطانهم وهو ملك زنجى لا يسامح أحدا فى شئ منه. ومنها شُمول الأمن فى بلادهم، فلا يخاف المسافر فيها ولا المقيم سارقا ولا غاصبا(*). ومنها عدم تعرضهم لمال من يموت ببلادهم من البيض، ولو كان القناطير المقنطرة، وإنما يتركونه بيد ثقة من البيض حتى يأخذه مستحقه». (*المرجع السابق*، ص ٣١٢).

وقد أخبرنا ابن بطوطة من قبل أنه عندما قرر أن يزور مدينة مالى، اكترى دليلا من مَسُّوفة ليرشده فى الطريق لأنه ليس مضطرا إلى السفر فى قافلة نظرا للأمن السائد فى الطرق.

ولكن كيف كان السود يتصرفون مع البيض أو مع الأجناس التى كانوا يعتبرونها من البيض؟ هذا ما يفيدنا به أيضا ابن بطوطة فى النص الذى يصف لنا فيه استقبال القافلة التى أوصلته الى إيوالاتن حيث كان فاريا حسين يتولى منصب نائب ملك مالى :

«ولما وصلناها جعل التجار أمتعتهم فى رَحَب، وتكفّل السودان بحفظها. وتوجهوا إلى الفَرْبا، وهو جالس على بساط فى سَقيف، وأعوانه بين يديه بأيديهم الرماح والقسىّ، وكبراء مَسُّوفة من ورائه. ووقف التجار بين يديه، وهو يكلمهم بتُرجمان على قربهم منه احتقارا لهم. فعند ذلك نَدِمتُ على قدومى بلادهم، لسوء أدبهم واحتقارهم للأبيض». (*نفس المرجع*،ص ٢٩٨).

وقد كتب ديلافوس الذى يعتبر مالى من أكبر الأمبراطوريات التى ظهرت فى العالم، كتب يقول بهذا الخصوص:

«غير أن جاوُ كانت قد استعادت استقلالها فى الحقبة الواقعة بين موت قنجا موسى وتولى سليمان مانسا، وبعد ذلك بحوالى قرن، بدأت الأمبراطورية المادينجية فى الأفول تحت ضربات سونْجوى، مع احتفاظها بما يكفى من القوة والمكانة لكى يتعامل سلطانها مع ملك البرتغال تعامل الند مع الند، بينما كان الأخير فى أوج مجده» (ديلافوس، *سود افريقيا*، الناشر بايو، ١٩٢٢، ص ٦٢).

وهكذا يتبين لنا أن أباطرة إفريقيا لم يكونوا مجرد ملوك صغار، بل كانوا يتعاملون على قدم اا

(*) تؤكد شهادة ابن بطوطة هذه ما أفادنا به القدامى (هيرودوت، وديودور... الخ) حول فضائل الأحباش.

المساواة مع أقوى معاصريهم فى الغرب. بل إنه بوسعنا أن نذهب إلى أبعد من ذلك، استنادا الى الوثائق المتوفرة لدينا، فنؤكد أن الإمبراطوريات السودانية الجديدة سبقت بعدة قرون قيام امبراطوريات مماثلة فى أوروبا. فقد قامت امبراطورية غانا على أقل تقدير بعد حوالى ٣٠٠ سنة من مولد المسيح وظلت قائمة حتى عام ١٢٤٠؛ علما بأن شارلمان، مؤسس أول أمبراطورية غربية بعد غزوات البربر تم تتويجه فى عام ٨٠٠.

وكانت عظمة غانا تعادل عظمة أمبراطورية مالى فى كافة النواحى بل وتفوقها فى رقيها. فهكذا كان حال دول إفريقيا عندما بدأ اتصالها مع الغرب فى الأزمنة الحديثة.

وبوسعنا أن نبدى هنا ملاحظة هامة للغاية: ففى هذه الحقبة، حيث كانت لا توجد فى العصور الوسطى الغربية سوى ملكيات مطلقة، كانت الملكيات فى إفريقيا السوداء دستورية، فكان هناك مجلس شعب يعاون الملك أعضاؤه المختارون من مختلف الفئات الاجتماعية. وهذا الطراز من التنظيم السياسى كان ينطبق أيضا على غانا، ومالى، وجاو، وياتنجا، وكايور ... الخ. ولم يكن ذلك سوى نهاية لتطور طويل المدى ظهرت بداياته فى النوبة ومصر: وتلك هى الوسيلة الوحيدة لتفهم تواصل تلك السلسلة.

فأيا كانت الزاوية التى ننظر من خلالها إلى تاريخ إفريقيا، فإننا نجد أنفسنا أمام السودان المَرَوى ومصر.

وعندما تم الاتصال مرة أخرى بين أوروبا وإفريقيا السوداء، عن طريق المحيط الأطلسى، كان تفوق أوروبا يعود الى بحريتها التى تقطع مسافات طويلة، والأسلحة النارية، وذلك بفضل تواصل التقدم التقنى فى شمال حوض البحر الأبيض المتوسط. وقد أتاح لها ذلك السيطرة على القارة وتزييف شخصية الزنجى. ولا نزال حتى الآن فى ذلك الوضع. وقد ترتب عليه كل ذلك التزوير اللاحق للتاريخ المتعلق بأصل الحضارة المصرية.

وعلاوة على الوحدة السياسية، كانت الوحدة الثقافية تتدعم فى إفريقيا السوداء فى ظل مختلف الإمبراطوريات. فبعض اللغات، التى أصبحت لغات رسمية لأن الامبراطور كان يستخدمها، كان يتم التعامل بها كلغات إدارية وبدأت تسود على اللغات الأخرى التى مالت إلى التحول الى لهجات إقليمية، على غرار تحول البريتون والباسك والاوسيتان فى فرنسا إلى لهجات محلية، عن طريق تطور مماثل.

واعتمادا على الكلمات القليلة الواردة فى رواية ابن بطوطة (المذكورة أعلاه) يخيل لنا أنه كانت هناك، فى كافة أنحاء المنطقة السودانية لغة قريبة للغاية من الوُلوف، قد تكون السراكوله، وذلك فى الحقبة التى قام فيها المؤلف برحلة، بل وفى الحقبات السابقة عليها فى عهد غانا. فعندما نجد تعبيرات

مثل *فاريا*؛ *وكيل* = قرع ؛ *وغيرتى* = فول سودانى؛ *وكى - ماجان* التى تعنى الملك؛ وين - بى، يتكون لدينا انطباع بأننا نجد أمامنا القواعد الصوتية للوُكوف (بنت - بى) = عصا ، ونميل إلى الاعتقاد بأن لغة الوُكوف الراهنة، حتى وإن لم تكن لغة الحديث آنذاك، إلا أنها منحدرة منها.

وإذا كان الأمر كذلك، فإن تعبير *توندى - دارو* الذى سيتم فحصه فى صفحة ٢٦٥ والصفحات التالية، والذى يشير الى مدينة فى منطقة غانا، لن يكون حدثا يثير الدهشة؛ ولكن ذلك سيعنى أن مهد الوُكوف انتقل نحو الشرق، اللهم إلا اذا كانت هذه اللغة قد انتشرت على نطاق أوسع مما تصورت.

وقد قضى الاستعمار على تلك العلاقات الثقافية وغيرها، فأعاد إلى السطح اللهجات الإقليمية وشجع على نمو تنوع اللغات. وكان من الممكن التوصل إلى نتائج مماثلة بعد عدة قرون من الاحتلال الألمانى الذى كان سيشجع على نمو اللهجات المحلية المذكورة أعلاه، على حساب اللغة الفرنسية التى كانت قد أصبحت من قبل لغة قومية.

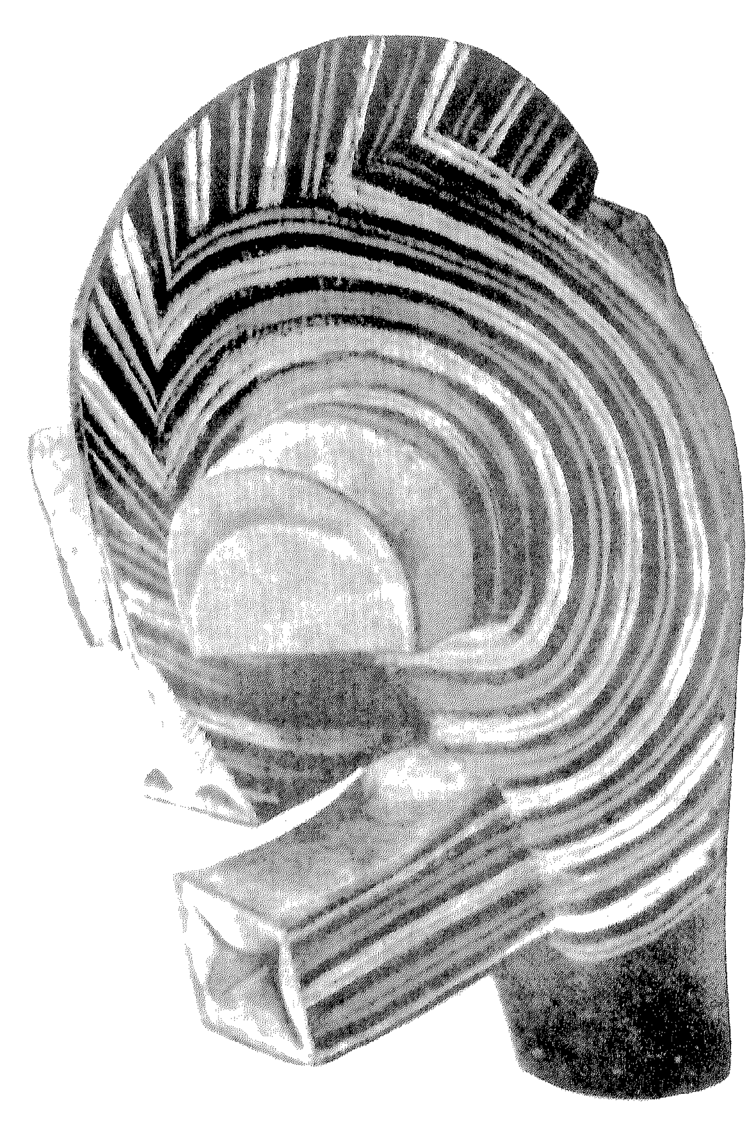
وهكذا نرى أنه قد حدثت انتكاسة فى إفريقيا السوداء، خاصة على الصعيد الشعبى، غير أنها ناجمة عن الاستعمار. وبوسعنا، بكل تأكيد، أن نعزو إليه تقهقر بعض القبائل التى تم الحط من شأنها تدريجيا، ودفعها داخل الغابات. ولذا فإن التعلل اليوم بأوضاع الشعوب التى أصبحت بدائية نوعا ما، للادعاء بأن إفريقيا السوداء لم تعرف الحضارة أبدا فى ماضيها، وأن عقلية الزنجى بدائية وغير رشيدة، لا تستجيب للتحضر، لهو ادعاءٌ باطل بشكل مزدوج.

فهذا الارتداد فى حد ذاته يمكن أن يفسر لنا احتفاظ تلك الشعوب بتقاليد تنم، فى ظل دولة بدائية نسبيا، عن مستوى من التنظيم الاجتماعى ومفهوم للعالم لا يتفقان مع المستوى الراهن لثقافتهم.

وبوسعنا أن نذكر فى الواقع ظاهرة مماثلة فى أوروبا، ألا وهو ارتداد السكان البيض الذين يعيشون اليوم فى أودية تعزلها الثلوج فى سويسرا، مثل وادى لوتشنتال. فهؤلاء السكان البيض من المتوحشين اليوم بالمعنى البورشمان أو الهوتنتو للكلمة: فهم يصنعون أقنعة مكشرة ومعذّبة تنم عن خوف كونى، لا مثيل له إلا عند الإسكيمو. وتوجد مجموعة جميلة من هذه الأقنعة فى متحف جنيف (الصورة رقم ٤٩). وعلى عكس ذلك، سنلاحظ أن صفاء الفن الزنجى يعكس اعتدال المناخ الطبيعى ويكشف أيضا عن استئناس، روحى على الأقل، لقوى الكون. فلم تكن تلك القوى بالنسبة لهم ظواهر لا يمكن تفسيرها تثير الهلع فى النفوس، بل جزءا لا يتجزأ من نظام عام لتفسير الوجود، كان له قيمتة الفلسفية بالنظر إلى ذلك العهد. كان الزنجى قد سيطر على الطبيعة، جزئيا بواسطة التقنية، وبالكامل ذهنيا، ولذا لم تكن تخيفه.وكان لابد وأن يعكس فنه راحته النفسية. وهكذا لن يكون الفن التعبيرى الزنجى (دان فى كوت ديفوار والكونغو - الصورة رقم ٥٠) معبرا عن القلق والعذاب، بل سيبدو كضرب من التكوينات التشكيلية.



٤٩ - قناع سويسرى مُكشِر



٥٠ - قناع تكعيبى كونغولى
تكوين تشكيلى حقا ، للمقارنة مع الصورة رقم ٤٩

المشاكل التى يثيرها الشعر الناعم والتقاطيع «المنتظمة»

يتعين أن نقول هنا إن كلا من الشعر الناعم والتقاطيع المنتظمة ليس حكرا على الجنس الأبيض. فهناك جنسان أسودان متميزان فى الوقت الراهن: أحدهما بشرته سوداء، وشعره أكرت، والثانى بشرته سوداء هو أيضا، بل وحالكة السواد بشكل استثنائى فى الكثير من الأحوال، وشعره ناعم، وأنفه معقوف، وشفاهه رقيقة، وزاوية أوداجه حادة. ولدينا نموذج أصلى لهذا الجنس فى الهند، متمثل فى الدراڤيديين. كما أننا نعرف أيضا أن بعض النوبيين ينتمون إلى نفس هذا الجنس كما أشار إلى ذلك الجغرافى العربى المعروف الإدريسى، ونقله لنا پدرال:

«النوبيون أجمل السود وشفاه نسائهم رقيقة وشعرهن ليس مجعداً». (پدرال ، *المرجع السابق*،ص٧).

ولذا فإن إجراء بحوث انترويولوجية والتوصل إلى نوع دراڤيدى ثم استخلاص من ذلك غياب النوع الزنجى، غير صحيح ومناقض للعلم. وذلك هو موقف الدكتور ماسولار، استنادا إلى دراسات الآنسة ستوسيجر، حول الجماجم المنتمية إلى حضارة البدارى. ومما يجعل ذلك التناقض صارخا أن تلك الجماجم تتميز بطول الفكين وبروز الأسنان، وهى صفات لا توجد إلا لدى الزنوج أو الزنجويين - وأقصد بزنجوى كل عنصر منحدر من الزنوج.

«لا تختلف الجماجم البدارية إلا قليلا عن الجماجم الأخرى المنتمية إلى عصر ما قبل الأسرات، الأحدث منها : فكل ما فى الأمر أنها طويلة الفكين وبارزة الأسنان بقدر طفيف. وهى تشبه بقدر أكبر، بعد الجماجم البدارية، الجماجم الهندية البدائية - الدراڤيدية والڤيداء - وهناك بعض الجوانب الزنجوية فيها، ترجع إلى اختلاط بالدم الزنجى، منذ عهد قديم للغاية بالتأكيد». (د. ماسولار، *المرجع السابق*، ص ٣٩٤).

ولم يتم التوصل إلى «تبييض» الجنس المصرى إلا عن طريق تعارضات مختلفة من هذا النوع، علما بأن الجنس المصرى كان لا يزال زنجيا حتى فى عهود ما قبل التاريخ، كما يشير إلى ذلك هذا النص، وعلى نقيض المزاعم التى لا تستند إلى أى أساس علمى، والتى تريد أن يكون المصريون أولا بيضا تهجنوا فيما بعد مع الزنوج.

ويتم الاستناد عادة إلى شعور بعض المومياوات الناعمة، وهى المومياوات المختارة بعناية، والوحيدة التى نصادفها على أى حال فى المتاحف، للتأكيد على أنها تمثل نموذجا للجنس الأبيض، على الرغم من استطالة الفكين وبروز الأسنان. وتعرض تلك المومياوات جهارا لمحاولة إثبات أن المصريين كانوا من البيض. وسمك الشعر الذى يتم الاعتماد عليه، لا يسمح بقبول فكرة الجنس الأبيض. فعندما توجد مثل هذه الشعور على رأس مومياء، فإنها لا تقربنا فى الواقع، لا من النوع

الدراڤيدى، بينما يقضى تماما على فكرة الأصل الأبيض كل من استطالة الفكين، وبروز الأسنان، وسواد البشرة، الذى لا يرجع إلى القطران أو غيره من المستحضرات. واختيار هذه المومياوات بدقة، دون الإشارة إلي ذلك، يلغى تماما فكرة اعتبارها نموذجا. فقد قال لنا هيرودوت بكل وضوح، بعد أن رأى المصريين بعينى رأسه إن شعرهم أكرت؛ ولذا يحق لنا طبعا أن نتساءل لماذا لا تعرض علينا المومياوات التى تتميز بتلك السمات. فمع أن عدد هذه المومياوات لابد أن يكون أكبر إلا أننا لا نجد لها أثرا فى الوقت الراهن، وعندما يتم العثور على إحداها فإنهم يحاولون إقناعنا بأنها تمثل شخصا أجنبيا.

وهذه الوقائع خطيرة للغاية.

وهناك ملاحظة تؤكد ما أفادنا به هيرودوت بخصوص شعر المصريين الأكرت: وهى لجوء النساء المصريات إلى استخدام الشعر المستعار الذى نجد حتى الآن مثيله تماما فى إفريقيا السوداء فى شكل دبيره ودجمبى. ولنا أن نتساءل بالطبع ما الذى يمكن أن يدفع امرأة بيضاء ذات شعر طبيعى مسترسل وجميل إلى إخفائه بشعر مستعار غليظ على غرار المصريات؟ فعلى العكس، يجب أن نستخلص من ذلك أن مشكلة الشعر كانت دائما من الهموم التى تشغل بال المرأة السوداء.

وعلى أى حال، فإننا نرى أنه لا يمكن الاعتماد على نعومة الشعر لكى نستخلص من ذلك أننا بصدد جنس أبيض، لأنه يوجد شعر ناعم مختلف عن الشعر الأوروبى بقدر اختلافه عن الشعر الأكرت.

هل هو جنس أسود مُسَخَّر؟

تحاول بعض المؤلفات الترويج لفكرة تعايش جنس أسود مُسَخر طوال العصور القديمة مع جنس أبيض، مما أدى تدريجيا إلى تغيير سمات ذلك الجنس الأخير.

ويعتبر الاتصال بين الجنسين منذ ما قبل التاريخ حقيقة واقعة، دون أن نقرر مع ذلك مدى حجم ذلك الاتصال فى مختلف المناطق التى جرى فيها. غير أن الدراسة الموضوعية للوثائق المتوفرة لدينا عن تلك العهود القديمة تجبرنا على قلب العلاقات التى أرادوا أن يقيموها مبدئيا بين الجنسين انطلاقا من عيلام حتى مصر. وتكشف لنا حفريات ديولافوا عن أن الأسر الأولى فى عيلام كانت زنجية. وتبين لنا مجموعة التماثيل العمرية جنسا أبيض أسيرا فى مصر، إلى جانب جنس أسود يتجول فى الطبيعة بحرية. ولم يتحرر تماما العالم الأبيض من العالم الأسود الذى كان مسيطرا عليه آنذاك، إلا فى العهد الإيجى الذى كان بداية لظهور شمال البحر الأبيض المتوسط على مسرح التاريخ.

لون المصريين الأسمر المائل للاحمرار !

من المحتمل إلى حد كبير، أن يكون تغلغل هذا الجنس المهزوم والأسير الممثل فى مجموعة التماثيل العامرية، قد ساهم مبكرا، منذ ما قبل التاريخ، فى جعل لون بشرة المصريين أفتح. ومعنى ذلك بعبارة أخرى، أنه من المرجح أن يكون عنصرا أبيض، أقل تعدادا قد تطعم بالأساس الزنجى الأصلى، وذلك نتيجة للإغراء المستمر الذى مارسه الوادى على الرعاة الآريين والساميين الخشنين. ولكن الأمر المؤكد تماما هو غلبة العنصر الزنجى منذ بداية التاريخ المصرى القديم حتى نهايته. فحتى التهجن المكثف فى العصر المتأخر لم ينجح فى زعزعة السمات الزنجية للجنس المصرى. وقد تم ذلك التهجن بين الزنجى المصرى والأبيض السامى أو الآرى عبر التاريخ المصرى وانتشر عن طريق التيارات التجارية.وجسد ذلك فى العهد الإيجى،اختطاف الفينيقيين لإيو [10]. والواقع أن الفينيقيين، وهم شعب زنجوى، وأبناء عمومة المصريين على نحو ما ، عملوا لحساب المصريين كبحارة طوال تلك الحقبة. ومن بين ضروب التجارة التى مارسوها بين مصر المتحضرة واوروبا البربرية آنذاك، تجارة النساء البيضاوات. فإيو، التى تم اختطافها فى اليونان وبيعها لفرعون مصر الذى دفع لذلك ثمنا غاليا بسبب ندرة لون بشرتها، ليست إلا رمزا لتلك التجارة التى يصعب إنكار مدى انتشارها أو التقليل من شأنها.

وهكذا يمكن تفسير لون المصريين الأسمر المائل إلى الاحمرار، بينما ظلت شفاههم غليظة - بل ومتدلية أحيانا - وظلت «أفواههم عريضة إلى حد ما» و«أنوفهم لحيمة» كما يقول ماسبيرو.

وهكذا نرى أن المصريين ظلوا دائما من الزنوج. واللون الخاص الذى يريدون أن يضفوه عليهم يوجد لدى ملايين من الزنوج المنتشرين فى كافة أرجاء إفريقيا السوداء اليوم.

وكثيرا ما يشيرون إلى رسوم المصطبات ويميزون بين *النّحاسى والراميتو*، أى بين الزنوج والمصريين، وهو ما يعادله التمييز بين أفراد من الوُلوف والبامبارا والموسى والتوكولور على لوحة جدارية واعتبار الآخرين من البيض أو من جنس مختلف عن الجنس الأسود الذى يمثله الوُلوف. وتعطى هذه الملاحظة فكرة سليمة للأفارقة عن قيمة التمييزات التى تذكر عادة على أساس التصاوير المصرية. بيد أنه يتعين تحديد تواريخها بدقة . فصور المصطبات كانت معروفة تماما قبل شامبوليون، ولوحظت آنذاك تدرجات ألوان الأنواع التى تمثلها. وكانوا يقررون أن الأمر يتعلق بجنس زنجى لأن مصر كانت تعتبر حتى ذلك الوقت، بلدا سكنه الزنوج دائما. كما أن الفن المصرى نفسه كان معتبرا من الفنون الزنجية التى لا أهمية لها.

ولم تتغير هذه الآراء إلا فى اليوم الذى تبين لهم، وقد أدهشتهم الحقيقة، أن مصر كانت أم الحضارة بأسرها. وبدا لهم أنهم يرون بشكل أفضل لأنهم استطاعوا أن يميزوا فى تلك النقوش الجدارية

التى كانت تمثل بالإجماع زنوجا، تدرجات «جنس أبيض ذى بشرة حمراء» و«جنس أبيض ذى بشرة حمراء داكنة» و«جنس أبيض ذا بشرة سوداء».

ولكنهم لم يميزوا أبدا من بين المصريين «جنسا أبيض ذا بشرة بيضاء» ليس إلا.

فالحجة المتمثلة فى اللون «الأسمر المائل للاحمرار» تؤكد فى حد ذاتها الأصل الزنجى للجنس المصرى.

نقوش نُصُب فِيَلَه

كثيرا ما اعتمدوا على هذه النقوش التى كانت تحدد الحدود بين السودان المَرَوى ومصر بعد الاضطرابات التى شهدها عهد الأسرة الثانية عشرة لكى يؤكدوا أنها تتعلق بالتمييز بين جنسين مختلفين، وأن هذا النُصُب كان يحظر على السود دخول مصر.

وهذا الاستنتاج تزوير خطير لأن كلمة «أسود» لم يستخدمها المصريون أبدا للتمييز بينهم وبين السودانيين المَرَويين، فكلاهما ينتمى الى نفس الجنس. ولذا كانوا يشيرون الى بعضهم البعض بأسماء قبائل أو مناطق ولم يستخدموا أبدا نعوتا ترتبط باللون، كما لو كان الأمر يتعلق باتصالات بين جنس أسود وآخر أبيض.

ولو قضت اليوم كارثة ذرية على الحضارة الحديثة، تاركة المكتبات سليمة، فإن الناجين من الكارثة سيلاحظون فورا عند اطلاعهم على أى كتاب أدبى أن سكان المناطق الواقعة جنوب الصحراء يشار اليهم بأنهم «سود» وأن تعبير «إفريقيا السوداء» سيكون بمثابة إشارة ثمينة لتحديد موقع إقامة الجنس الأسود. ونحن لا نجد شيئا مماثلا فى النصوص المصرية. وفى كل مرة يستخدم فيها المصريون النعت «أسود»: كم، يكون ذلك للأشارة لأنفسهم، ولبلدهم، بلاد السود كميت، لا الأرض السوداء كما يفترض أصحاب الخيالات البارعة.

ولا يوجد أى نص أصلى يشير جهارا إلى كلمة «السود» كتعبير يستخدمه المصريون لتمييز أنفسهم عن الزنوج. ولا يوجد شئ من هذا القبيل إلا فى النصوص العديدة الواردة فى الأدب الحديث التى تشير عمدا إلى «السود». ففى كل مرة يحدثوننا عن هذا الحدث أو ذاك نقلا عن المصريين حول «السود» يكون ذلك تزييفا. وهم يترجمون كلمة *نحاسى* المذكورة أعلاه إلى «السود» لصالح أطروحاتهم. ومن الأمور الملفتة حقا للأنظار أن نجد فى نفس المؤلف، وبنفس قلم المؤلف، أن كلمة كوشيين ذاتها تصبح غير متوافقة مع فكرة «السود»، بمجرد أن يكون ذلك إشارة إلى السكان الأوائل الذين أقاموا حضارتهم فى الجاهلية، أو إلى بلاد الشام قبل اليهود (فينيقيا) أو بلاد ما بين النهرين قبل الأشوريين (عصر الكلدانيين) أو الى عيلام والهند قبل الآريين. ويشكل ذلك أحد التناقضات

العديدة التى تكشف عن خوف المتخصصين من إظهار الوقائع التى يعثرون عليها، بحد أدنى من حسن الإدراك. ولا يمكننا أن نفهم موقفهم إلا من خلال منطقهم التالى: نظرا لأن لدى فكرة مسبقة عن الزنجى (عن طريق التربية)، فإن تواجد وثائق تثبت موضوعيا أن هؤلاء الزنوج (الكوشيون والكنعانوين والمصريون.. الخ) هم الذين خلقوا الحضارة، فلا يمكن أن يكون ذلك سوى خطأ لابد من التوصل بكل تأكيد إلى عكسه، عن طريق البحث الدؤوب. وتتمثل الوسيلة الأكيدة التى لا غنى عنها للتوصل إلى الحقيقة التى تتضمنها تلك الوثائق، مع تجاوز المظاهر، فى تفسير تعبيرات: كوشى وكنعانى .. الخ، على أنها لا يمكن أن يقصد بها أنهم من الجنس الأسود. ولذا فلنقل إن الأمر يتعلق بأى جنس كان، ماعدا أن يكون جنسا أسود، أو أن يكون جنسا أسود ولكنه ليس مع ذلك جنسا أسود، بل أسمر .. الخ.

ويتم اللجوء إلى تزييف مماثل عندما يرد ما ذكره مؤلفون قدامى مثل هيرودوت، وديودور، والمسافرون القرطاجنيون الأوائل .. الخ. فهم يوحون إلينا فى الكتب التى تذكر هؤلاء المؤلفين أنهم كانوا يميزون بين المصريين من ناحية، والزنوج من ناحية أخرى. وينطبق ذلك على ديلافوس (وهو ليس الوحيد بالطبع) عندما قال فى كتابه *زنوج افريقيا* (الناشر بايو، ١٩٢٢):

«هناك فقرة بهذا الخصوص لها دلالتها فى مؤلف هيرودوت *التاريخ*. فقد حدد لنا تقريبا المؤرخ الإغريقى فى الكتاب الثانى من مؤلفه (الفقرتين ٢٩ و ٣٠) التخوم الشمالية التى توصل إليها الزنوج فى زمانه فى وادى النيل، وهم أولئك الذين يسميهم «الأثيوبيين». فهذه الحدود مماثلة إلى حد كبير لتلك التى وصلوا إليها فى أيامنا هذه. وهو يقول لنا إنه كان يوجد هناك سود «شمال فيلة»، أى أعلى الشلال الأول، بعضهم مستقر والبعض الآخر من الرحل، يعيشون جنبا إلى جنب المصريين». (ص ٢٠ و ٢١).

وعندما نرجع إلى هيرودوت، يتضح لنا التزييف الذى جاء فى نص ديلافوس المذكور أعلاه، فهو يريد أن يوحى إلينا أن السود والمصريين كانوا، حسب هيرودوت، متميزين بل ومتعارضين. (للمقارنة مع ما ذكره هيرودوت فى الصفحة الأولى).

والكتاب الثانى من مؤلّف هيرودوت الذى ذكره ديلافوس يفيدنا بأن لون بشرة المصريين كان أسود وأن شعرهم كان أكرت (الكتاب الثانى، الفقرة ١٠٤). وتتضح لنا هنا الوسيلة التى تم اللجوء اليها لجعل المؤلفين القدامى يقولون عكس ما دونوه، وذلك فى الحالات النادرة التى لا يسدل فيها بكل بساطة ستار الصمت على شهاداتهم المزعجة. وهكذا يتصورون أن بمقدورهم الحط من مصداقية هؤلاء المؤلفين القدامى. وهذه النصوص المبتورة والمزيفة خطيرة للغاية لأنها توهم غير المتخصص بأنه بصدد معلومات أفادتنا بها مصادر موثوق بها.

وفقا للوثائق المصرية ذاتها، كان السودان المرّوّى، منذ أربعة آلاف سنة قبل الميلاد؛ بلدا مزدهرا يقيم علاقات تجارية مع مصر. وكان الذهب فيه وفيرا بشكل خاص. ومن المفترض أنه نقل لمصر فى حوالى تلك الحقبة الرموز الهيروغليفية الاثنى عشرة التى كانت على ما يبدو الجنين الأول للأبجدية.

وبعد عدة محاولات للغزو، أصبح السودانيون والمصريون حلفاء ينظمون معا حملات على شواطئ البحر الأحمر: حملة بيبى الأول، من الأسرة السادسة. وكان يحكم النوبة فى ذلك الوقت ملك يدعى أورانا، وقد أصبح حاكما لصعيد مصر فى عهد خليفة بيبى الأول. واستمر ذلك التحالف حتى الأسرة الثانية عشرة، عندما نجح سنوسرت الأول فى فرض وصايته على النوبة.

«غير أنه تم التخلص من النير فى عهد سنوسرت الثانى فى ظل أوضاع جعلت مصر مهددة بالتعرض بدورها للغزو. وقد أقيمت متاريس وقلاع بين الشلالين الأول والثانى لوقف زحف النوبيين. واشتد قلق مصر إلى حد جعلها تستدعى قبائل بدوية بقيادة المدعو أبشاى الذى جاء من سوريا. وقد تخلص سنوسرت الثالث من هذا التهديد بشن أربع حملات، وتم نقل الحدود نحو أعالى النيل حيث شيدت قلاع أخرى وأقيم نصب جديد يحظر مرور السود». (د.پ.دى پدرال، *الموجز العلمى لإفريقيا السودا*.، الناشر پايو، ١٩٤٩، ص ٤٥).

وباستثناء عدم صحة كلمة «السود» التى تنتهى بها تلك الفقرة، والتى لا تقع مسئوليتها على المؤلف المعروف بنواياه الحسنة، فإنها تدلنا على طبيعة الأحداث التى يرجع إليها السبب فى إقامة نصب فيلة. ويتبين لنا من خلال تلك الوقائع أن الحليف السودانى كان فى مرحلة معينة على وشك فتح مصر التى نظمت لذلك دفاعاتها، وأقامت نصب فيلة. وعليه فإن هذا النصب لا يمكن أن يفسر بالمعنى الذى أرادوا إضفاءه عليه.

وابتداء من معركة دانكى حتى معركة جويلة، كانت علاقات كايور ودچولوف على غرار علاقات التضاد الدورية بين مصر والنوبة. فهل حال ذلك دون أن يكون الكايوريون والدچولوف - دچولوف من نفس الجنس الأسود؟

الفصل السادس

إعْمار إفريقيا انطلاقا من وادى النيل

إن الحجج التى تساق للدفاع عن الأطروحة التى تعتبر أن إعمار إفريقيا تم عن طريق المحيط الهندى، انطلاقا من اوقيانوسيا ،لا تستند على أى أساس. ولم تتوفر لدينا حتى الآن أى وقائع أثرية أو غيرها تسمح لنا بأن نعثر على مهد للزنوج خارج إفريقيا. وقد تم الاعتماد على الأساطير التى جمعت من إفريقيا الغربية ومفادها أن الزنوج قدموا من الشرق من ناحية المياه الكبرى. وارتأى ديلافوس، مقدما، أن «المياه الكبرى» التى ورد ذكرها فى الأساطير هى المحيط الهندى، دون أن يكون هناك أى دليل آخر، وربما اعتبرها فرضية تكون منطلقا للمزيد من الدراسة، خاصة وأنه كان من المعتقد آنذاك أن مهد الحضارة كان فى أسيا، نتيجة لاكتشاف إنسان جاوه وإنسان بكين وما جاء فى التوراة بخصوص آدم وحواء.

وقد تبلورت الأفكار حول ذلك، ونسى المتخصصون أن الأمر كان مجرد افتراض مبدئى، أصبح ينظر إليه على أنه نظرية أقيم عليها البرهان.

واعتمادا على مانعرفه حول آثار جنوب إفريقيا حيث يبدو أن البشرية نشأت هناك، وعلى كل ما نعرفه عن الحضارة النوبية، أم الحضارة المصرية على الأرجح، وعلى كل ما نعرفه عن ما قبل التاريخ فى وادى النيل، يكون من المشروع أن نفترض أن «المياه الكبرى» ليست إلا مياه النيل.

وأيا كانت الجهة التى نستجمع منها الأساطير التى تقص علينا أصل أى شعب فى إفريقيا، نجد أن الاتجاه المشار إليه يعيدنا إلى وادى النيل باعتباره نقطة الانطلاق. وهكذا نجد أن شعوب إفريقيا الغربية التى لا تزال تتذكر حتى الآن أصولها، تقول إنها قدمت من الشرق وأن أسلافها وجدوا أقزاما فى البلاد(*). ووفقا لأساطير الدوجون والبوروبا، فقد قدموا هم أنفسهم من الشرق، وتقول أساطير الفانج إنهم جاءوا هم أيضا من الشمال الشرقى. وحتى القرن الماضى، لم يكن الفانج قد وصلوا بعدإالى ساحل المحيط الأطلسى، وقدم الباكوبا، حسب ما ورد فى أساطيرهم من الشمال. وعندما يتعلق الأمر بمناطق تقع جنوب وادى النيل فإن أساطيرهم تفيدنا بأنهم جاءوا من الشمال. وينطبق ذلك على الباتوتسى فى رواندا - أوروندى.

(*) كلمة كربدرونج التى تعنى القزم الذى يقيم فى الغابة (ويضع على رأسه إناء يحلب الحظ السعيد) تتضمن ذكرى مشاركة المعيشة مع الأقزام فى منطقة الغابات، قبل استقرار الزُلرل فى سهول كابرو - باوُول، حيث لا يوجد أقزام أو غابات.

وعندما وصل البحارة الأوائل إلى جنوب إفريقيا ورسوا عند الكاب منذ بضعة قرون، لم يكن الزولو المهاجرون من الشمال نحو الجنوب قد وصلوا بعد إلى الكاب.

ويتفق هذا الافتراض مع أساطير الزنوج المستقرين فى وادى النيل، إذ لا تشير أساطيرهم إلا إلى أصل محلى لهم. ولم يحدث طوال الأزمنة القديمة أن أرجع النوبيون والأثيوبيون أصولهم إلى جهة غير محلية، اللهم إلا اذا كانت تلك الجهة تقع جنوب موضعهم. وقد قدم لنا م. داثزاك ملخصاً لأساطير القدامى هذه المتوافقة بالإجماع حول اتجاهات الهجرات، يتهكم لا ينتقص من جدواها:

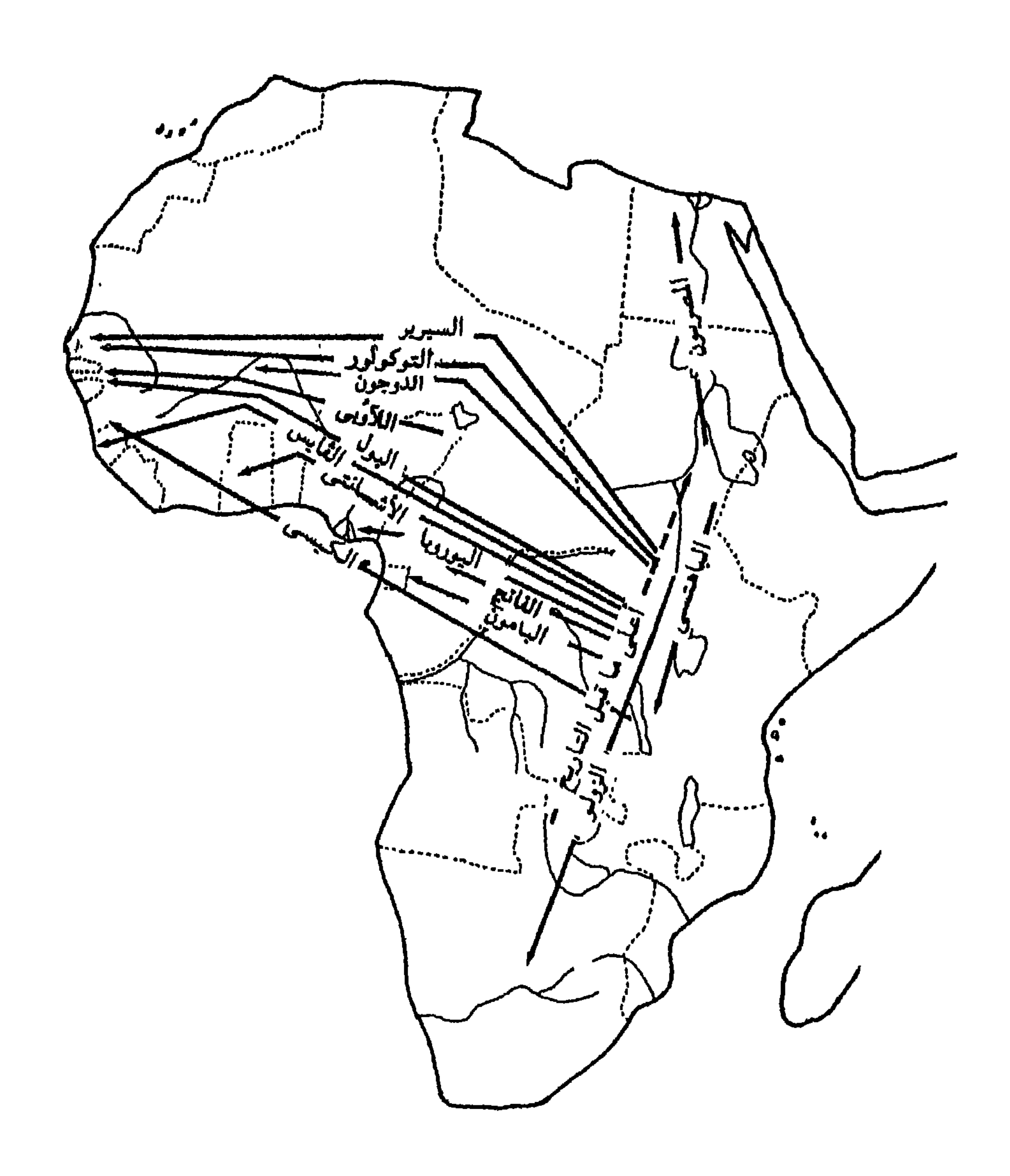
«وهناك آخرون، من المتبحرين الحالمين أو من المتخصصين المهرة فى علم وظائف الأعضاء، لم يلجأوا إلى التاريخ البدائى للأفارقة وتقاليده التى تبددت تقريبا، بل فضلوا البحث عنه فى افتراضات مغامرة، وهكذا فإن رواياتهم المبنية على التخمينات تفيدنا بأن الزنجى، النجل البكر للخليقة، وابن الأرض والمصادفات، نشأ فى جبال القمر المغطاة بالثلوج (إفريقيا الوسطى) حيث وجد فيما بعد مهده الإنسان الذى هبط من هناك إلى سنار وأنجب المصرى والعربى والاتلانطيد. وكان الجنس الزنجى أكثر عددا لمدة طويلة فأخضع الجنس الأبيض وسيطر عليه، غير أن الجنس الأخير تكاثر تدريجيا وتخلص من نير أسياده وتحول بدوره من عبد إلى سيد، وحكم على الجنس الأول بأن يرسف من الآن فصاعدا فى القيود الحديدية الجائرة التى كان قد حطمها. وقد انقضت قرون، ولكن غضبة هذا الجنس الأبيض لم تهدأ بعد». *إفريقيا القديمة*، سلسلة الكون، الناشر ديدو، ١٨٤٢، ص ٢٦).

وتلخص هذه الأسطورة تاريخ البشرية فى بضعة سطور(*). ويتعين أن نستبقى من ذلك الأصل الجنوبى لأهالى وادى النيل من نوبيين ومصريين كما أكد الأخيرون ذلك دائما، وكذلك أسبقية الزنجى

(*) نقل الينا شرريه بطريقة شيقة، هو أيضا، جانب تلك الأساطير المتعلق بسيطرة السود فى العهود البدائية:

«بعد الجنس الأحمر، سيطر الجنس الأسود على العالم ... فقد اجتاح السود جنوباًأوروبا فى مرحلة ما قبل التاريخ ... وقد امحت ذكراهم تماما من رواياتنا الشعبية. غير أنهم تركوا بصمات من المحال إزالتها ... كانت للسود فى زمن سيادتهم مراكز دينية فى صعيد مصر والهند. وكانت مدنهم الضخمة ترتفع فوق جبال إفريقيا والقوقاز وآسيا الوسطى. وكان تنظيمهم الاجتماعى يتمثل فى حكم ثيوقراطى مطلق ... وكانت لدى كهنتهم معارف عميقة، منها مبدأ الوحدة الإلهية للكون وعبادة الكواكب، الذى تغلغل عند الشعوب البيضاء تحت اسم الصابئية ... وكانت لديهم صناعة، ومنها بالأخص فن قذف كتل الحجارة الضخمة وصهر المعادن فى أفران هائلة حيث كان يتم تشغيل أسرى الحرب ...

... واستيقظ الجنس الأبيض آنذاك على هجمات الجنس الأسود الذى راح يجتاح جنوب أوروبا. وكان الصراع غير متكافئ فى بدايته. فلم يكن لدى البيض نصف المتوحشين، والمتسللين من غاباتهم ومساكنهم المقامة على أوتاد فى البحيرات، أى مورد سوى أقواسهم وحرابهم وسهامهم ذات السنون الحجرية. وكانت لدى الزنوج أسلحة من الحديد ودروع من البرونز، وكل موارد حضارة ماهرة لها مدنها الضخمة وقد سُحق البيض فى الصدام الأول، وتحول من أسر منهم بالجملة إلى عبيد للسود الذين أجبروهم على قطع الأحجار ونقل الركاز الى أفرانهم. بيد أن الأسرى الذين هربوا إلى أوطانهم جلبوا معهم عادات وفنون من قهروهم، وكذلك بشذرات علمهم. وقد تعلموا من السود شيئين أساسيين: صهر المعادن والكتابة المقدسة، الهيروغليفية ... وكانت الغابات مأمن البيض، حيث كان بوسعهم الاختباء مثل الوحوش، والانقضاض منها فى اللحظة المواتية». (*كبار الملمين على الأسرار*، ص ٦ إلى ١٣، باريس ١٩٠٨).



٥١- هجرات الشعوب الزنجية الإفريقية
ابتداء من أعالى النيل ومنطقة البحيرات الكبرى

فى طريق الحضارة، وسيطرته القديمة، والانقلاب الراهن للأوضاع. إنه أيضا الإنسان الذى هبط الى سنار، وهو بلا شك السهل الواقع بين النيلين الأبيض والأزرق، ونقطة انطلاق الحضارة السودانية المَرْوية. بيد أنه من المعروف أنهم ينسبون نفس هذه التسمية إلى السهل الواقع مابين النهرين: دجلة والفرات. فأىّ من تلك التسميتين صحيح وأصلى؟ يبدو أن التسمية الثانية منقولة عن الأولى. وسيؤدى تصحيح هذا الخطأ إلى قلب اتجاه التاريخ مرة أخرى. وهكذا يصبح من الطبيعى أن يكون إعمار مصر قد تم انطلاقا من سهل سنار، مما يجعل الأسطورة متطابقة مع التاريخ.

وعلاوة على الأساطير الراهنة للشعوب الإفريقية التى تذكر كلها تقريبا حوض النيل والعنصر القزم الذى كان يسكن أعماق البلاد قبل تشتت الزنوج، فلنذكر فقرتين من هيرودوت تؤكدان ذلك.

يتعلق الأمر بشباب من الناسامون، انطلقوا من سرت (برقة حاليا) وساروا باتجاه الغرب بمحاذاة شاطئ البحر الأبيض المتوسط، ثم اتجهوا نحو الداخل بعد اجتياز الصحراء ووصلوا إلى شواطئ نهر حيث كان لا يقيم سوى أقزام سود.

«وهؤلاء الشبان الذين أرسلهم زملاؤهم مزودين بمخزون جيد من الماء والغذاء، مروا أولا ببلدان مأهولة ثم وصلوا بعد ذلك إلى بلد يزخر بوحوش مفترسة؛ وواصلوا من هناك طريقهم إلى الغرب عبر الصحارى، وشاهدوا، بعد أن ساروا طويلا فى بلد كثيف الرمال، سهلا به أشجار. وعندما اقتربوا منه أكلوا من ثمار تلك الأشجار. وبينما كانوا يأكلون انقض عليهم رجال صغار الحجم يقل طول قامتهم عن المتوسط، وساقوهم قسرا. وكان هؤلاء الناسامونيون لا يعرفون شيئا عن لغتهم، كما أن هؤلاء الرجال الصغار الحجم كانوا لا يفهمون شيئا من لغة الناسامونيين. وقد ساروا بهم فى منطقة مستنقعات، ووصلوا بعد احتيازها إلى مدينة جميع سكانها من السود، لهم نفس قامة من اقتادوهم إليهم. وكان هناك نهر كبير به تماسيح، يجرى من الشرق نحو الغرب، بمحاذاة المدينة». (هيرودوت ٢ - ٣٢).

ويبدو إذن أن داخل البلاد كان يسكن فى فترة معينة، أقزام فقط. والنهر المقصود قد يكون نهر النيجر، لأننا نعلم الآن، على عكس اعتقاد هيرودوت، بأن النيل فيما بعد الحبشة لا يتخذ منحنى لكى يتدفق من الشمال إلى الجنوب، بعد أن يجتاز إفريقيا من شمالها الغربى إلى جنوبها الشرقى.

وتتعلق الفقرة الثانية برحلة ساتاسب، ابن تياسپيس، الذى كان على وشك أن يُصلب بناء على أمر قورش، فخُفف الحكم الصادر ضده إلى سياحة فى مجاهل إفريقيا بناء على طلب والدته، أخت دارا. وقد عبر ساتاسب أعمدة هرقل (جبل طارق) وأقلع متجها إلى الجنوب. وهو لم يستكمل رحلته، ولكنه أبدى مع ذلك الملاحظات التالية حول أهالى الشواطئ الأطلسية لإفريقيا فى ذلك الزمن:

«وقد حكى أنه رأى فى أقصى الشواطئ التى طاف بها أناسا صغار القامة يرتدون ملابس من

خوص النخيل، تركوا مدنهم والتجأوا إلى الجبال بمجرد أن رأوا سفينته ترسو، وأنه عندما دخل مدنهم لم يتسبب فى أى ضرر يلحق بهم واكتفى بأخذ مواش». (هيرودوت، ٤ - ٤٣).

فهناك إذن توافق بين الأساطير الزنجية الراهنة والوقائع التى نقلها إلينا هيرودوت منذ الفين وخمسمئة سنة (*).

وبناء على ذلك يكون الأقزام أول من سكن داخل القارة، على الأقل لحقبة معينة، وكانوا يعمرونها وحدهم فى غياب الزنوج الطوال القامة. ويمكننا أن نفترض أن الأخيرين كانوا متناثرين حول وادى النيل وانتشروا فى كافة الاتجاهات مع مرور الزمن، نتيجة للإعمار والاضطرابات الاجتماعية التى تتخلل تاريخ أى شعب.

وهذه الفكرة ليست فقط مجرد نظرية لم تتأكد أو فرضية عمل بسيطة. فمعلوماتنا عن اتنوجرافيا إفريقيا تسمح لنا بالانتقال من حالة الافتراض إلى الواقع التاريخى المحقق. فهناك أساس ثقافى مشترك بين كافة زنوج إفريقيا، وبالأخص أساس لغوى لهم جميعا يبرهن بصفة عامة على سلامة تلك الفكرة.

ولكن هناك بالأخص التشابه اللغوى بين الأسماء وتحليل الأسماء الطوطمية للعشائر التى يحملها

(*) لا تفيدنا رواية رحلة هانون المقتضبة إلا بمعلومات قليلة حول الزنوج الذين كانوا قد وصلوا إلى الشاطئ فى القرن الخامس قبل الميلاد، عندما تراجع القرطاجنيون نحو إفريقيا بعد أن بات يهددهم التقدم السريع للدول الهندو - أوروبية فى شمال البحر الأبيض المتوسط، وأرادوا إقامة مستوطنات على امتداد الساحل. بيد أن بعض الروايات تقول إن جزءا من ذلك الساحل كان لا يزال غير مأهول. ووفقا لتفسير اوجست مير، البحار الذى يدعى أنه يعرف هذه السواحل تماما، فإن القسم الخالى الذى أشار إليه هانون يتكون من شريط الساحل الممتد من سان لوى دى سنجال حتى داكار. وهو يؤيد أيضا رأى الذين يعتقدون أن ثيون اوشيما (مركبة الآلهة) التى تحدد الموقع الأقصى الذى بلغه هانون، هو جبل الكامرون. واليكم جزءا من رواية هانون:

«أصدر القرطاجنيون أمرا بأن يجتاز هانون أعمدة هرقل بحرا، لكى يؤسس مدنا ليبية - فينيقية. وقد أقلع هانون على رأس أسطول مكون من ستين سفينة يحرك كلا منها خمسون مجدافا وتقل ٣٠ الف فرد، من الرجال والنساء والمؤن وغير ذلك من الأدوات الضرورية.

«وبعد أن أبحرنا وواصلنا رحلتنا فيما وراء الأعمدة لمدة يومين، أسسنا مدينة سميت ثيماتريون ... وأقمنا المدن التالية على شاطئ البحر: كاريكوم، وتيخرس، وغيت، واكرا، وميلتا، وارامبا ... وبعد أن أخذنا مترجمين من عند الليكسيين واصلنا رحلتنا لمدة يومين بمحاذاة شاطئ مهجور كان يمتد جنوبا ثم يعرج نحو الشرق لمدة يوم من الملاحة، وعثرنا فى عمق خليج على جزيرة صغيرة محيط دائرتها خمس ستادات (الستاد مقياس طولى إغريقى يبلغ حوالى ١٨٠ مترا)، أطلقنا عليها تسمية سيرنى، وأقمنا فيها مستوطنة» (رحلة هانون، القائد القرطاجنى، على امتداد سواحل ليبيا إلى ما بعد أعمدة هرقل، والتى أودعها بنفسه فى معبد ساتورنوس).

وهذا النص الخاص برحلة هانون مأخوذ عن *مذكرة حول رحلة هانون* لأوجست مير، باريس ١٨٥٥. فما هو مصير تلك المستوطنات؟ وما القول فى مدينة أكرا هذه، على خليج غينيا ؟.

كافة الأفارقة، إما بشكل جماعى أو بشكل فردى وفقا لمدى التشتت، وتحليل هذه الأسماء بارتباطها بالتحليل اللغوى المناسب، مما يسمح لنا بالانتقال من صعيد الاحتمال إلى صعيد التأكد.

ففى مصر ذاتها نجد الأسماء التالية المشتركة بينها وبين السنغال :

مصر	السنغال
أتوم	*أتو*
سيك - مت	*سيك*
كيتى	*كيتى*
كابا	*كابا* ، *كيبا* ، *كيبيه*
أنتف	*أنتا*
فارى = الفرعون	*فارى* = اسم علم، لقب للامبراطور
مرى	*مرى*
ميرى	*ميرى*
سابا (كوش)	*سيبى*
كارا ، *كاريه*	*كاريه*
با - *را*	*بارا* - *بارى* (پول)
رمسيس؛ *رياما*	*راما*
باكارى	*باكارى*

ويذكر پدرال فى الفصل العاشر من كتابه (*أثار افريقيا السوداء*) ، *البوروم* الذين نجدهم فى أعالى النيل وفى منطقة بينوية فى نيجيريا؛ *والجا* - جان - جانج الذين نجدهم فى منطقة البحيرات الكبرى وساحل الذهب وڤولتا العليا وكوت ديڤوار؛ *والجولا* - *جوليه* - جولاى الذين نجدهم على نهرى النيل والشارى؛ كما يتعين أن نضيف أن جيلاى اسم سنغالى من أصل سارا.

كارا كاريه - كريكاريه

ووفقا لما كتب پدرال، يشكل *الكارا* نواة تعيش على تخوم السودان وأعالى *نهر* أوبانجى. ويعيش *الكاريه* على مقربة من نهر لوجون؛ *والكاراكاريه* فى شمال شرق نيجيريا.

وكاريكاريه ليست سوى تكرار *لكاريه*، وهى كلمة مكونة أصلا من *كا* + *را* أو *كا* + *ريه*.

وهناك *الكيپسيجوى* - *كاپسيجوى* فى منطقة البحيرات الكبرى وشمال الكامرون؛ *والكيسى* فى شمال شرق بحيرة نياسا ومناطق الغابات فى غينيا العليا؛ *والكوندو* فى الكونغو(بحيرة ليوبولد) وجنوب الكامرون ومصب *نهر* وودى؛ *واللاكا* عند النوير فى أعالى النيل وعند السارا فى لوجون

وشمال الكامرون؛ *والماكا* – *ماكُوا* على نهر الزامبيز وفى الكامرون؛ *والسالجو* فى شمال شرق نياسا وضفاف نهر الأوبانجى؛ *والسومبا* – سوْمبوا فى منطقة البحيرات الكبرى وشمال داهومى.

ويوسعنا أن نواصل هذه القائمة إلى ما لا نهاية، وأن نحدد بذلك موقع المهد الأول لكل الشعوب الزنجية التى تعيش اليوم مشتتة فى مختلف أنحاء القارة: إنه وادى النيل ابتداء من البحيرات الكبرى.

وهذا التماثل فى أسماء الأعلام يقف فى صف الهجرة الحديثة. ولذا يكون من الأفضل التعمق فى دراسة أصل عدد من الشعوب مثل *اليوروبا*، *والسيرير*، *والتوكولور*، *والپول*، *والآلاوُيى*، وإثبات أن وادى النيل كان بالفعل نقطة انطلاقهم.

وسنبدى قبل ذلك ملحوظة حول *البا* – *فور* الأسطوريين، والذين يقال عنهم تارة إنهم كانوا حمرا وطورا إنهم كانوا سودا. ولفظ *با* أداة تصدير مشتركة تسبق أسماء كل الشعوب فى افريقيا، ويمكن مقارنتها بالـ *وا* المصرية والقبطية والوُلوف التى تعنى: الذين من، هؤلاء من ... الخ. وفى اللغات التى تستخدم فيها تلك الأداة فى الجمع، – لا كأداة تصدير ولكن كإضافة – تفسر لنا أصل الجمع فى اللغة المصرية:

باك – و = خدم (بالمصرية)

سومب – *وا* = السومبيون

زمباب – *وى*

وعليه فإن *با* – *فور* هى أيضا مكونة على غرار :

با – پنده = الپانديون

با – *لوبا* = اللوبيون

وهكذا يمكننا أن نتصور أن *البا* – *فور* هم الفور .

ومن الجدير بالملاحظة، دون أن نتجاسر ونستخلص من ذلك استنتاجا، أن پور بالوُلوف تعنى أصفر. وقد تشير *با* – *فور* لا إلى قبيلة من أناس حمر أو سود، يشكل السيرير سلالتهم، بل إلى قبيلة من الجنس الأصفر، وهو ما قد يفسر لنا ليس فقط السمات المنغولية التى نجدها فى إفريقيا الغربية، بل وربما أيضا الصلات الثقافية بين إفريقيا وامريكا التى تشهد عليها كلمات مشتركة مثل:

لوتو = قارب بالوُلوف، وأيضا فى لغات هنود امريكا الشمالية (وكذلك بلغتى السارا والباجويرمى).

تول = اسم مدينة فى السنغال،

توله = اسم بلد للإسكيمو،
تولا = اسم مدينة فى المكسيك.
اينويت = الناس بلغة الاسكيمو (انظر جيسان : *الاسكيمو من جرويلاند حتى الألسكا* ، ص٥)،
إى - نيت؛ آى - نيت = الناس بالوُلوف.

وفى القرن الماضى، وصف بورى دى سان ڤانسان الإسكيمو الذين كان سوادُ بعضهم يكاد يعادل أشد الأفارقة سوادا، وذلك رغم المسافة الشاسعة بين خطوط العرض:

«وعلى أى حال فإن الجنسين أكثر سمرة من بقية شعوب أوروبا وآسيا الوسطى، بل وأدكن من أى من الامريكيين الآخرين، كما أنهم يزدادون سوادا كلما اتجهنا أكثر فأكثر نحو الشمال؛ مما يقدم دليلا آخر على أن شدة حرارة الشمس ليست السبب فى أن يكون الناس زنوجا فى بعض المناطق المدارية، كما هو معتقد عموما. ولا يندر أن نجد اسكيمو وجرويلانديين وساموييديين فى خط عرض ٧٠، لونهم داكن أكثر من الهوتنتو الموجودين فى أقصى الطرف المقابل فى القارة القديمة، ويكاد لونهم يكون بنفس سواد الوُلوف والكافر فى خط الاستواء». (*تاريخ ووصف جزر المحيط*، سلسلة «الكون»، باريس، الناشر ديدو، ١٨٣٩).

أصل اليوروبا المصرى

يتعرض ج. اولوميد لوكاس، فى كتابه *ديانة اليوروبا* (لاجوس، ١٩٤٨) للأصل المصرى لهذا الشعب بالعبارات التالية:

«العلاقات مع مصر القديمة: بينما توجد شكوك حول صحة الأصل الأسيوى لليوروبا، ليس هناك أى للشك فى أن أنهم كانوا فى إفريقيا منذ حقبة قديمة للغاية. وهناك سلسلة من الوقائع الجلية تدفع إلى الاستنتاج بأنه لابد وأن يكونوا قد استقروا لمدة طويلة فى هذه البقعة من القارة المعروفة بمصر القديمة. ومن الممكن جمع الوقائع التى تؤدى إلى ذلك الاستنتاج فى المجالات التالية :

أ - تشابه اللغة أو تماثلها.
ب - تشابه المعتقدات الدينية أو تماثلها.
ج - تشابه الأفكار والممارسات الدينية أو تماثلها.
د - بقاء عادات وأسماء أشخاص ومواقع وأدوات .. الخ ».

وبعد أن ذكر لوكاس العديد من الأسماء المشتركة باللغتين المصرية واليوروبا مثل :
ران = اسم
بو = اسم موقع
امون = خفى

ميرى = ماء

ها = بيت كبير

هور = أن يكون كبيرا

فاها كا = سمك فى اللون

نابريت = حبة

الخ ... انتقل إلى تماثل المعتقدات الدينية وذكر لنا عدة وقائع مثيرة حقا، فقال :

«هناك أدلة وافرة على العلاقات الوثيقة بين المصريين واليوروبا، يمكن تقديمها فى هذا المجال. فأغلب الآلهة كانوا معروفين جيدا فى فترة معينة لدى اليوربا. ومن بين هؤلاء الآلهة اوزيريس، وايزيس، وحورس، وشو، وسوت، وتحوت، وحبرو، وآمون، وآنو، ،وخونسو، وخنوم، وخوپرى وحتحور، وسوكاريس، ورع، وسب، والآلهة الأربعة الرئيسيين وغيرهم. ولايزال أغلب الآلهة باقين بنفس أسمائهم أو خصائصهم، أو بكل من أسمائهم وخصائصهم». (الصورة رقم ٥٢).

ولا يزال الإله رع عند اليوروبا باسمه المصرى *رارا*. ويذكر لوكاس كلمة *إى -را - ور* التى تشير إلى النجم الذى يصحب شروق الشمس، وهو مكون من الحرف المتحرك، كأداة تصدير تتميز بها لغة اليوروبا، باعتبارها لغة صوتية أساسا، كما يقول المؤلف (وفى رأينا أن شأنها فى ذلك شأن كافة اللغات الافريقية) *ورا*، وهى كلمة مصرية معناها استيقظ .

ويرى المؤلف أن كلمة *رارا* التى تعنى: إطلاقا، باليوروبا، تجعلنا نفترض أنهم كانوا يقسمون فيما مضى باسم هذا الإله.

كما أن اسم الإله القمرى خونسو نجده لدى اليوروبا تحت اسم *اوسر*= القمر. وهو يذكرنا بأن *الخاء* ليس لها وجود فى اليوروبا، وأنه إذا تواجد هذا الحرف الساكن فى كلمة أجنبية، فلابد أن يخضع للمعالجة التالية قبل أن يُقبل فى اللغة: فإذا كانت *الخاء* مصحوبة بحرف ساكن، يتم إدخال حرف متحرك ليتكون مقطع وفقا لقاعدة الحرف الساكن - الحرف المتحرك، الحرف الساكن - الحرف المتحرك فى اليوروبا. واذا كانت الخاء مصحوبة بحرف متحرك فى كلمة ليست من مقطع واحد، فإن *الخاء* تستبعد، وهذا هو حال كلمة *اوسر*.

ويوجد اسم *امون* فى اليوروبا بنفس معناه بالمصرية القديمة، أى خفى. والإله آمون من أوائل الألهة المعروفين عند اليوروبا، وكلمتا مون، وميِمُون = تديس، مقدس، باليوروبا مشتقتان على الأرجح من اسم هذا الإله، وفقا للوكاس. *وتحوت* أعطت *تو* باليوروبا.

وقد أجرى المؤلف بعد ذلك تحليلا اشتقاقيا ثاقب القريحة بخصوص كلمة *يوروبا*. فهو يلاحظ أن الكلمة التى تعنى تواجداً، فى إفريقيا الغربية - مع تغيير بسيط فى الحرف المتحرك هى *يه*. ولذا

فإن تكرارها *يه يه* = التى تجعلنى موجودا، ومنها *يه يه مى* = أمى، أى من هى أصل وجودى فى الدنيا. ويجب أن نلاحظ بهذه المناسبة أن *يايه* = أم، فى كل من الوُلوف والسارا والباجويرمى .. الخ.

وكثيرا ما تدغم *يه يه* فى *يه* أو *إيا*؛ *ويى* (باليوروبا : خالقى) تستخدم للإله الأعظم.

ومن جهة أخرى، فإن الكلمة المصرية *ربا* هى اسم ولى عهد الآلهة، الذى كان يعرف به سب فى مصر فى العهد الإقطاعى (حسب المؤلف). وهو يرى أن *ربا* أعطت *روبا* بمقتضى قاعدتين فى لغة اليوروبا: إدخال حرف متحرك بين حرفين ساكنين، وتحويل پ إلى ب. وإذا اعتبرنا أن يو ليست سوى تحوير لـ *يه* لأدركنا أن *يه* + *ربا* أعطتنا *يوروبا* التى تعنى *ربا* الحى (*) ...

ويقدم المؤلف تحليلا شيقا أيضا للاسم الذى يشير إلى الخروف باليوروبا. فهو يعتمد على أن الكلمة اليونانية/*ايجوپتوس* تعتبر عادة اشتقاقا من الكلمة المصرية *خى - جو - پتاح*، أى معبد روح پتاح. وكانت جدران هذا المعبد مغطاة بنقوش تمثل الكباش وغيرها من الحيوانات. وعليه فإن اسم هذا المعبد كان من الممكن أن يستخدمه الشعب للإشارة إلى الحيوانات الممثلة فيه.

فكلمة *أ* - جو - *تو* = خروف باليوروبا، تستوجب المقارنة مع *ايجوپتوس* عند الإغريق.

ويبدو أن هذا المثل الأخير يثبت أن هجرة اليوروبا تمت بعد اتصال مصر بالإغريق.

ونصادف أيضا فى لغة اليوروبا الكلمات المصرية *روتى* = الناس، و *كوبيتى* التى جاءت منها الكلمة الإغريقية قبطى.

وأخيرا، يذكر المؤلف فى مجال تماثل المعتقدات الدينية :

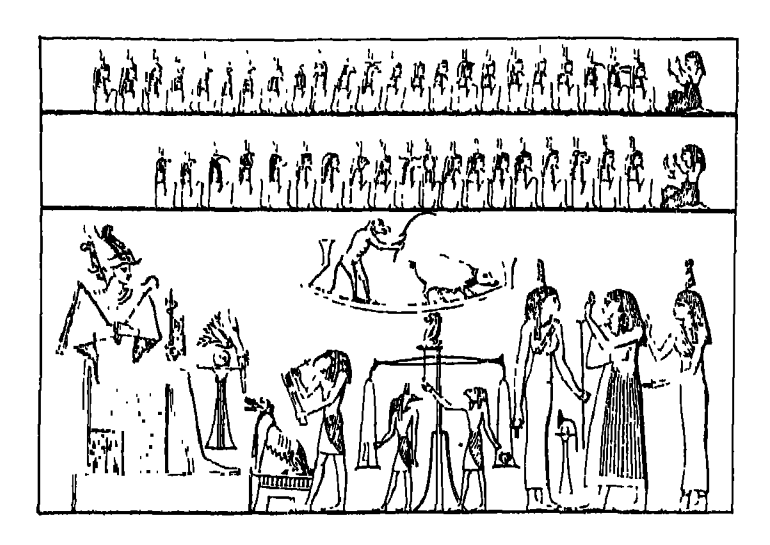
- فكرة الحياة الأخرى والحساب بعد الموت،
- تأليه الملك،
- الأهمية المولاة للأسماء،
- رسوخ الإيمان بالحياة الآخرة،
- الإيمان بوجود روح حارسة، ليست إلا مظهرا *للكا*.

ويلفت المؤلف أنظارنا هنا إلى أن كافة المفاهيم المتعلقة بالكائن فى مصر القديمة، مثل *الكا*، *والآخو*، *والخو*، *والساهو*، *والبا* نجدها عند اليوروبا. ويجدر بنا أن نلاحظ فى هذا الصدد أن هذه المصطلحات موجودة حرفيا بلغتى البول والوُلوف، كما سنرى فيما بعد.

(*) *روم* = الإنسان (باللغة المصرية)

با - *رام* = جسم (بلغة الوُلوف)

وإذا استرحينا الاشتقاق الذى أعطاه المؤلف لـ *با*، لكانت كلمة *با* - *رام* تعنى أصلا، جسما حيا أو الإنسان الحى.



٥٢ - محاسبة المتوفى أمام محكمة أوزيريس

الإله أنوبيس يزن أعمال المتوفى على كفة الميزان بينما يسجل هذا الحساب الآله تحوت على لوحة.

ويتوسع المؤلف بعد ذلك فى دراسة تلك المعتقدات ويواصل تبيان تماثلها فى التفاصيل مع المعتقدات المصرية، وذلك فى حدود ٤١٤ صفحة. وهو يختتم ذلك بالإشارة إلى وجود حروف هيروغليفية باليوروبا وتقديم بعض من رموزها.

وتماثل محفل الأرباب المصرية مع قرينه اليوروبا، يكفى فى حد ذاته لإثبات وجود اتصالات قديمة.

ويفيدنا ما نعلم عن الشعب اليوروبا - بما فى ذلك أساطيرهم - أنهم استقروا فى موطنهم الحالى منذ زمن قريب نسبيا، بعد هجرة من الشرق إلى الغرب. ولذا يكون بوسعنا أن نعتبر، مع لوكاس، أن المهد المشترك الأول لليوروبا والمصريين، حقيقة تاريخية.

والصيغة ذات التحوير اللاتينى لاسم حورس، والتى يبدو أن كلمة اوريشا عند اليوروبا جاءت منه، تدفع إلى الاعتقاد بأن هجرتهم لم تتم فقط بعد اتصالهم بالإغريق بل وأيضا بعد اتصالهم بالرومان.

ولنذكر فى نهاية الأمر أن پدرال يشير فى صفحة ١٠٧من كتابه المذكور آنفا إلى تل كوسو بالقرب من ايله - ايفه وإلى وجود تل باسم كوسو أيضا فى النوبة، على مقربة من مَرْوى القديمة، غرب النيل «فى قلب بلاد كوش (*خريطة افريقيا لكورونيللى*،١٦٨٩)، وهذا الاسم يتكرر أيضا فى الحبشة».

أصل اللاَوُبي

من أين جاء اللآوُبي؟ إنهم يشكلون في رأيي قسما تبقى من شعب *الساو* الأسطوري.

والواقع أن معلوماتنا عنهم جاءتنا من مخطوطات بورنو، وحفريات السيدين جريبول ولوبوف، وهي تفيدنا بأن:

١- اسمهم : *ساو أو سو*

٢- وأنهم كانوا عمالقة.

٣-وأنهم كانوا يقضون ليالي بطولها في الرقص

٤- أنهم تركوا عددا لا يحصى من التماثيل الصغيرة المصنوعة من الآجر

٥ - وأن هذه التماثيل الصغيرة تصور نموذجا عرقيا تتخذ جمجمته شكل الكمثرى .

وهذه السمات الخمس نجدها بالضبط لدى اللآوبي..

ويحمل الآوُبي، شأنهم شأن *الساو*، اسما طوطميا واحدا متميزا، ألا وهو سو الذي أعتبر خطأ أنه اسم پول. والأداة المقدسة الوحيدة التي بقيت لديهم، وهي التي يستخدمونها في النحت، تسمى *ساو- تا* .

وجميعهم - رجال ونساء - من العمالقة، ويبلغ طولهم، بكل يسر ١,٨٠ مترا وأكثر، عندما يكونون أنقياء عرقيا (اذا جاز لنا أن نتحدث عن عرق). كما أن أطرافهم جميلة للغاية وأجسامهم رياضية.

وجمجمتهم كمثرية الشكل، تشبه في ذلك النموذج العرقي الذي تجسده التماثيل *الساو* الصغيرة.

ومهنة اللآوُبي الوحيدة هي نحت أدوات الطهي من الخشب لكل طوائف المجتمع الإفريقي الأخرى، لا للپول وحدهم، ويستخدمون في ذلك جذوع الأشجار. وتسهم هذه الحقيقة، إلى جانب قاماتهم الطويلة، في تحديد موطنهم الأصلي على مقربة من منطقة جبلية عامرة بالأشجار.

ومن أشغال المرأة اللآوُبي الأساسية صنع تماثيل صغيرة من الطين المجفف أو الآجر لأطفال الطوائف الأخرى.

ويقضي اللآوُبي - وبالأخص نساؤهم - وقتهم في الرقص، ورقصتهم الرئيسية هي *الكومبا لأوُبي ايه جاس*.

وقد تم اعتبار اللآوُبي خطأ أنهم طائفة من النحاتين من الپول والتوكولور. وقد نجم هذا الخطأ جزئيا من كونهم يتحدثون بالپول والتوكولور، مما دفع الى الاعتقاد بأنها لغتهم الأصلية. وهذا ليس

صحيحا، فمن الملاحظ أن اللاَّوبي يستخدمون دائما لغتين - على الأقل في السنغال. وهم يتحدثون بالولُوف بنفس اليسر كما يتحدثون بالپول، ولكن لكنتهم في التحدث بالولُوف لا تماثل لهجة شخص من الپول أو التوكولور.

ويبدو أن اللاَّوبي شعب فقد ثقافته وأن عناصره المتناثرة تتأقلم حسب الظروف والأحوال، يتعلم لغات المناطق التي يقيم فيها.

وقد سبق أن أشرنا إلى أن اسمهم الطوطمي سو. والأسماء الطوطمية الأخرى التي يحملها اللاَّوبي تعكس تهجنهم مع الپول والتوكولور وغيرهما من الجماعات العرقية.

وعكس ذلك صحيح: وهذا ما يفسر لنا أن الپول قد يحملون اسم سو الى جانب *با* و *كا*، وهما الاسمان الخاصان بهم، في رأينا (*با* + *ريه* = *بارى*).

وتؤكد عاداتهم المنحلة أنهم شعب فقد ثقافته وأنه لم يعد مرتبطا بأي تقاليد.

ومن المشاغل الرئيسية للاَّوبي أيضا سرقة الحمير لجمع المهر اللازم للزيجات العديدة التي يعقدونها، ولا يهم كثيرا مصدر الحمير التي يسلمونها لأسرة المرأة بمناسبة الزواج. وعلى أي حال فإن هذه الأسرة لا تراودها أي شكوك حول مصدرها. ويتمثل تكتيكها بمجرد حصولها على الحمير في التخلص منها في غضون ٤٨ ساعة ببيعها أو بمحاولة تغيير معالم تلك التي لم تبع - وإن لم تنجح في ذلك دائما - بتغيير لونها بالدخان. وإذا توصل ضحاياهم إلى التعرف على حميرهم رغم كل الاحتياطات «المشروعة» التي اتخذت، فإنهم يستردونها على الرغم من المقاومة الشفوية الشديدة التي يبديها اللاَّوبي، ولكن الزواج يظل بنفس القدر من المتانة التي تسمح بها عادات اللاَّوبي، ذلك أن الزوج أدى واجبه على أكمل وجه ولا يقع عليه أي لوم.

وعلى أي حال فإن المرأة اللاَّوبي تعلم أن النحت ليس سوى حجة يتم التذرع بها، وأن الثروة الاقتصادية الرئيسية هي قطيع الحمير. ولذا فإن بالها لا يهدأ إلا اذا تزوجت لصا موهوبا. واذا لم يبرع الأخير في هذا المجال، فإن زوجته تعتب عليه هذا التقصير باستمرار، مما يحد من فترة الزواج.

ولكل هذه الأسباب مجتمعه، فإن التمييز المعتاد بين فئتي اللاَّوبي النحاتين وغير النحاتين لم تعد لها أهمية كبرى.

واللاَّوبي شرسو الطبع وإن كانوا لا يتعاركون إلا قليلا: والمشهد الكلاسيكي في هذه الحال يتمثل في توجه الخصمين، كل منهما نحو الآخر بخطوات تتيح فرصة كافية للجمهور لكي يعترض سبيلهما، بينما يجر كل منهما وراءه عصا طويلة تزن عدة كيلوجرامات، وهو يقسم ويسب بملء فيه. وبمجرد أن يتم الفصل بينهما، يعتبر كل خصم أنه قد أدى مهمته، ويكف عن الشجار، على أن يواصل السباب.

واللاَّوُبي أكثر الناس إثارة للضجيج والتحرر من كل انضباط اجتماعي من بين كافة الأفارقة الذين أعرفهم. وتقضي المرأة اللاَّوُبي وقتها في إثارة المشاحنات وخداع زوجها. بيد أننا يجب أن نستثني *التوليه* و *النْجالكاج*، رذ أنهم أكثر تحررا من اللاَّوُبي من أي انضباط اجتماعي.

ويقال إنه كان يتعين على رئيس ناحية في *باؤول* أن يحاكم عددا من اللاَّوُبي الذين تشاجروا، ولكن لما كان من عاداتهم التحدث جميعا في وقت واحد فقد اضطر إلى ملء أفواههم بالماء حتى يتمكن من الاستماع إلى كل منهم بدوره، وعندما كان يستمع إلى شاهد، كان يسمح له بسكب الماء من فمه. غير أن قذف المياه من أفواه المقاطعين أشاع الفوضى في الجلسة. ومع أن هذه الوسيلة محدودة الفاعلية، عندما يتعلق الأمر الأمر بطباع اللاَّوُبي، إلا أن ذلك الرئيس لم يكف بعد ذلك عن اللجوء اليها.

ويحكى أن رئيس قرية سمح للاَّوبي أن يقيموا حيا لهم *(اج لآوبي)* في قريته، ولكن بشرط أن يمتنعوا تماما عن الشجار. وقد أدرك اللاَّوُبي بعد تجربة وجيزة أنهم عاجزون عن الوفاء بهذا الشرط، فقدموا هدايا لرئيس القرية بغية أن يرفع ذلك الحظر. ولما كان الأخير مصمما على موقفه، فقد ترك اللاَّوُبي القرية لأنهم لا يطيقون الحياة بلا شجار.

وحتى لو كانت هذه النوادر حول اللاَّوُبي مختلقة جملة وتفصيلا إلا أن ذلك لا يغير شيئا من الأمر؛ فهناك فعلا عقلية لآوُبي، لولاها ما كان يمكن أن يتصور أحد تلك النوادر.

وهكذا يعيش اللاَّوُبي مشتتين في مختلف قرى السنغال وغيره. فليس لهم موطن ثابت، ومن الخطأ القول بأنهم مقيمون في *فوتا تورو* أو *فوتا دجالون* وهما بلدا التوكولور والپول، فهم يكَوِّنون جماعات متفرقة وسط المجموعات العرقية الكبيرة. ولا يستطيع لأوُبي السنغال تحديد مهدهم، وتنظيمهم الاجتماعي مفكك تماما، ولا يقودهم رؤساء تقليديون. والشخص الذي يتمتع بينهم بأكبر تقدير يركب بغلا بينما تخصص الحمير للآخرين. وهكذا فإن مدسو *وديام*، وهو لآوبي كان واسع النفوذ، ما كان يمكن اعتباره حقا رئيسا تقليديا، كما أن نفوذه كان راجعا بالأخص إلى انضمامه إلى الطريقة المريديه وكان قطبها أحمدو بمبا.

ويبدو أن اللاَّوُبي اقتبسوا الختان من أهالي السنغال الآخرين.

وهم يقسمون *بالساوُتا*، الأداة التي يستخدمونها في تفريغ جذوع الأشجار بعد قطعها بالبلطة. كما يستخدمون هذه الأداة نفسها في الختان.

وكثيرا ما يفرط اللاَّوُبي في استخدام عبارة *سوما كو ناريه دف* : فليجعلني الله أهرب أمام الساوُتا، اذا كان يتعين عليّ أن أفعل كذا. وكثيرا ما يحنث في يمينه هذه بعد ذلك فورا.

ويسمح لنا كل ما جاء من قبل بأن نعتبر اللآوْبى فرعا مشتقا من الساو بعد تحلل ثقافتهم، بينما انصرفت أقسام أخرى منهم إلى غير ذلك من الجهات.

وقد اكتشف شامبوليون فى وادى حلفا بالنوبة، لوحة تمثل *ماندو*(*)، الإله النوبى وهو يقدم لأوسرتا سون، وهو فرعون من الأسرة السادسة عشرة، شعوب النوبة، ومن بينها قبيلتان تحملان اسمى *اوساو* و *شوات*. وهذان الاسمان يعيدان إلى الأذهان اسم شعب *ساو* الأسطورى الذى نعلم أنه كان يقيم حول بحيرة تشاد. ولا نزال نجد حتى الآن شوات (**) على ضفاف نهر لوجون (انظر بومان).

أصل البول

قد يعتقد المرء للوهلة الأولى أن البول قد نشأوا فى منطقة افريقيا الغربية التى ظل المور الساميون فيها على اتصال بالزنوج(ديلافوس: سود *إفريقيا*).

واذا كان يتعين القبول بهذا الافتراض، فإن المهد الذى تم فيه ذلك يجب البحث عنه، رغم المظاهر، فى موقع آخر.

وقد قدم البول على الأرجح من مصر، شأنهم شأن شعوب إفريقيا الغربية الأخرى. ويمكن دعم هذا الافتراض بحقيقة رئيسية، قد تكون أهم حقيقة يمكن إيرادها حتى الآن، وهى تتعلق بتماثل اسمى عَلَم طوطميين يتميز بهما البول، مع تصورين متميزين أيضا للمعتقدات الميتافيزيقية المصرية، ألا وهما *الكا* و*البا*.

فما هو الموقع الذى يحتله كل من *الكا* و *البا* فى المعتقدات المصرية؟

« *الكا* الذى يتحد مع *الزت* كائن إلهى يعيش فى السماء ولا يظهر إلا بعد الموت. وقد أخطأنا فى تعريفه، مع مسبيرو، على أنه صنو جسم الإنسان يعيش معه ويفترق عنه فى لحظة الموت، ويعود إلى المومياء عن طريق الطقوس الأوزيرية. ويتضح من تعويذة روحنة الملك ما يلى: فبينما يطهَّر حورس *الزت* ويخلصه من ماديته فى حوض ابن آوى، فهو يطهر *الكا* فى حوض آخر، حوض الصباح... وهكذا يكون *كا* و *زت* منفصلين أصلا ... ولم يعيشا أبدا معا على الأرض ... وفى نصوص الدولة القديمة كان يستخدم تعبير «انتقال الشخص إلى *الكا* الخاص به» للقول إنه مات. وهناك نصوص أخرى توضح أنه يوجد *كا* أساسى فى السماء .. وهذا *الكا* يتحكم فى القوى الذهنية والمعنوية، وهو الذى يجعل فى آن واحد لحم الإنسان صحيحا، والاسم جميلا، ويمنح الحياة الجسدية والروحية ...

(*) ماندو معناها بالولوف قديس يمارس طقوس الدين بحذافيرها.

(**) غير أن ديلافوس يعتبر أن الشوات عرب.

«واتحاد العنصرين *الكا والزت* يكونان الكائن المتكامل الذى يبلغ حد الكمال. ويكتسب هذا الكائن صفات جديدة تجعله أحد سكان السماء، وهو يسمى *البا* (الروح؟)، *وآخ* (النَّفس؟). والروح *با* الممثلة بالطائر *با* ذى الرأس البشرى، تعيش فى السماء .. وبمجرد أن ينضم الملك إلى *الكا* الخاص به، فإنه يصبح *با* ...» (موريه: *النيل*، ص ٢١٢).

وبصرف النظر عن مدى صحة تفسير موريه *للكا* و *البا* المصريين، إلا أن أهم ما فى الأمر هو أن هذين المفهومين يقومان بدور لا يمكن إنكاره فى التصور المصرى للكائن. غير أن *الكا* و *البا*، هما الإسمان الطوطميان النموذجيان الوحيدان عند البول. ووفقا لما جاء منذ قليل حول اللأوُبى، فإننا نعتقد أن البول استعاروا منهم اسم سو الذى لا نتردد فى اعتباره متطابقا مع التعبير المصرى الثالث: *زت*. وهناك اسم طوطمى آخر بول: *بارى*، وهو ليس إلا جمعا لـ *با* + *را* .

أما التعبير الرابع *آخ* فى نص موريه، فهو لا يتطابق فى حدود علمى مع اسم *طوطمى*، غير أنه ذو معنى أنتولوجى (مرتبط بعلم الكائن) واضح فى لغة الوُلُوف. فحتى الآن لا تزال كلمة *آخ* بالوُلُوف تعنى ما يتعين على المرء أن يعيده إلى الغير عند محاسبته عقب الوفاة، وذلك قبل أن يحظى بالنعيم الأبدى فى الآخرة. وهو يتوافق مع الجزء من شخصية الغير التى سلبها منه المرء بشكل مباشر أو غير مباشر.

زت ، باللغة المصرية = الجثمان المُطهَّر والمتخشب.

سد ، باللغة المصرية = الوفاة الرمزية للملك المتقدم فى السن، واعادة الشباب اليه بالطقوس.

سِت ، بالوُلُوف = نظيف

سد ، بالوُلُوف = بارد، حالة الجثمان، وهى تعنى: التوقف عن الحياة، عندما تستخدم كفعل.

و *الكا* ، باللغة المصرية : هو باختصار جوهر الكائن الموجود فى السماء، ومن هنا جاء تصويره على شكل ذراعين مرفوعتين إلى السماء، وجاءت كذلك المعانى التالية: مرتفع، فوق، كبير، معيار ... ارتفاع. وقد سبق أن أوضحنا أن *كا* المصرية تُقرأ *كار* عند الوُلُوف وتعنى : مرتفع، فوق، عال .. الخ.

ويمثل *البا* عند المصريين بطائر له رأس بشرى،يعيش فى السماء. غير أن هذه الكلمة تعنى أيضا باللغة المصرية طائرا بريا ذا عنق طويل. وبالوُلُوف *با* = نعامة.

وهكذا يتبين لنا أن تلك المفاهيم المتعلقة بالميتافيزيقيا المصرية قد تنوعت معانيها وفقا للشعوب التى نقلتها عنها. وبينما ظل المعنى المصرى لهذه التصورات قائما فى لغة الوُلُوف، إلا أن بعض هذه

المفاهيم تحول عند البول الى أسماء طوطمية ومنها *الكا والبا* ، اللتين تحولتا إلى اسمين طوطميين، أى عرقيين تقريبا.

ولذا يتعين أن نفترض أن البول كانوا من بين القبائل العديدة التى خرج منها فراعنة فى مجرى التاريخ، وهو أيضا الوضع بالنسبة للقبائل السيرير من السار والسن ... الخ.

ومن المعروف أنه حتى الأسرة السادسة (التى قامت فيها الثورة «البروليتارية») كان الملك وحده يحظى بحق الوفاة الأوزيرية، وكان يتمتع تماما بالتالى *بالكا* و *البا* الخاصين به؛ كما أنه من المعروف أيضا أن عدة فراعنة حملوا هذا الاسم ومن بينهم الملك *كا* ، فى عهد ما قبل الأسرات، الذى اكتشف اميلينو مقبرته فى العرابة المدفونة. ويتفق ذلك مع وجود فرع بول يسمى *كارا* .

والأسماء الأخرى التى يحملها البول، مثل *ديالو* ... الخ، هى أسماء علم تم اكتسابها فيما بعد عن طريق أوساط أخرى، أما لغة البول فهى تكون وحدة طبيعية مع كافة اللغات السنغالية الأخرى، بشكل خاص، واللغات الزنجية على وجه العموم.

وعلاقة لغة البول بلغتى الوُلُوف والسيرير (التى تعرضنا لها فى الجزء الخاص باللغات) لا تترك مجالا للشك حول وحدة تلك اللغات الوثيقة.

وكان البول فى الأصل زنوجا تهجنوا فيما بعد مع عنصر أبيض جاء من الخارج.

ويتعين أن نحدد تاريخ نشأة الفرع البول فى الفترة التاريخية المصرية الممتدة من الأسرة الثامنة عشرة حتى العصر المتأخر فى الوجه البحرى، حيث شهدت تلك الحقبة امتزاجا واسع النطاق مع الأجانب (انظر غطاء رأس حتحور فى اللوحة الموجودة فى اللوفر، والتى تمثل تلك الربة مع سيتى الأول).

أصل التوكولور

نزح التوكولور من حوض النيل فى السودان، شأنهم فى ذلك شأن السكان الآخرين الذين يتكون منهم الشعب الزنجى.

ومما يؤكد ذلك أننا نجد حاليا فى هذه المنطقة، عند النوير، بلا أى تغيير، الأسماء الطوطمية الخاصة بالتوكولور الذين يعيشون حاليا على ضفاف نهر السنغال، على مسافة تبعد آلاف الكيلومترات :

السودان	السنغال (فوتا تورو)
كان	كانّ
وان	وانّ
سى	سى
ليه	لى
كاو	كا (پول)

وتوجد فى نفس هذه المنطقة، فى الموقع المسمى تلال النوبة، قبيلتا *النيورو والتورو*.

كما توجد أيضا فى منطقة اوغاندا – رواندا قبيلة *الكارا* .

وهناك فى الوقت الراهن، فى الحبشة، قبيلة تسمى التكرورى، مما يدفع إلى الاعتقاد باحتمال أن يكون التوكولور فى السنغال جزءا من تلك القبيلة، وأن منطقة تكرور لم تعط اسمها للتوكولور، بل حصلت عليه عندما استقر هؤلاء فيها.

كما أن هناك أيضا موقعا يسمى نيورو (ماسينا) فى السودان الفرنسى (مالى حاليا) حيث أقام التوكولور قبل أن يصلوا إلى المنطقة التى سيصبح اسمها تكرور، فى شمال نهر السنغال، ونزلوا تدريجيا مع مجراه حيث أصبحت ضفافه تسمى على أثر ذلك فوتا – تورو.

غير أن القارئ قد يرى مع ذلك أن كل تلك الالتقاءات غير مقنعة بما فيه الكفاية. وإليه نسوق التقاء آخر :

من المعروف على وجه التأكيد أن التوكولور الذين كانوا قد أسلموا، تركوا ضفاف نهر السنغال فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر وتوغلوا فى أعماق البلاد واستقروا فى سينى *سالوم* لهداية الأهالى السيرير فى تلك المنطقة. وكان المرابط الأكبر التوكولور الذى حاول القيام بذلك، يسمى *ما با دياخو* ، وكان معاصرا *للات* ديور . وكانت المنطقة التى نجح التوكولور فى كسبها الى الدين الإسلامى قد سميت *نيورو* على يدّ أسلاف *مابا* : *نيورو دى ريپ* .

وتقول روايات التوكولور أنفسهم الذين يعيشون اليوم على ضفاف نهر السنغال، إنهم أقاموا فى الماضى فى المنطقة المسماه نيورو فى السودان.

وهكذا يبدو السنغال والشواطئ المجاوره له كأحد نهايات المطاف للهجرات التى تعاقبت فيها الموجات العرقية وتراكمت، بعد أن تكسرت عند المحيط فانصهرت معا مع مرور الزمن، وانتشرت من جديد فى اتجاهات ثانوية.

وتوجد فى فوتا – تورو ، عناصر متخلفة من السيرير والولُوف. وتحمل هذه العناصر أسماء، منها سار، وديوپ ، ونّ دياى .. الخ، وجميعها من طائفة التيوبولو، أى الصيادين.

أصل السيرير

جاء السيرير على الأرجح إلى السنغال من حوض *نهر* النيل : والطريق الذى سلكوه محدد المعالم بأحجار منتصبة بنفس خط العرض تقريبا من الحبشة حتى *سينى سالوم* (منطقة تقع بين نهر سالوم ورافده سنى). ويؤكد هذا الافتراض مجموعة من الوقائع المستلخصة من تحليل مقال للدكتور مايس حول الأحجار المنصوبة فى قرية تدعى *توندى* - *دارو* بالسودان الفرنسى (مالى حاليا)، والتى كان ديسپلانج قد اكتشفها.

وقد حاول الدكتور مايس إرجاع أصل تلك الأحجار إلى القرطاجنيين أو المصريين الذين يعتبرهم، حسب مفهومه، من البيض.

وهو يحلل اسم القرية على الوجه التالى :

توندى، جاءت (فى رأيه) من الكلمة الصنهاجية التى تعنى حَجَرة.

دارو، جاءت من الكلمة العربية دار، والواو فى آخر الكلمة إضافة لمساندة المعنى.

وعليه فإن *توندى* - *دارو* معناها البيت الحجرى.

وهذا التحليل لا يكون صالحا ومقبولا إلا لو كانت تلك الأحجار تمثل دارا، أو لو تم العثور بطريقة أو أخرى على مايبدو أنه كان دارا. غير أن الدكتو مايس يعلم أن ذلك مستحيل، والنص الذى عرضه يضم مجموعة من الوقائع التى تستبعد تماما أى فكرة عن مسكن لِقَوم؟

ولكن ماهو الوصف الذى قدمه لتلك الأحجار؟

«إنها نصب من قطعة حجرية واحدة منحوتة على شكل قضيب طرفه محدد بعناية والحزوز متفقة مع مجرى الطرف، كما أن البروزات المكورة ذات الثنيات الطويلة تشير الى الخصيتين. وهناك أحجار أخرى أصغر حجما ليست منحوتة على شكل قضيب ومجردة من البروزات المكورة، يبدو أنها تمثل بالأحرى مع المثلث المرسوم على شكل عانة، عضو الأنثى». (د. مايس، *الأحجار المنتصبة فى توندى - دارو*، النشرة الدراسية لإفريقيا الغربية الفرنسية، ١٩٢٤، ص ٣١).

وكيف يفسرها لنا ؟

«يمكننا أن نسلم، الى حد ما، بأن تلك الأحجار شاهد على موقع جبانة، حيث تمثل كل حجرة فردا ذكرا أو أنثى تم دفنه». (*نفس المرجع*).

ولو تم العثور على بقايا عظام تحت تلك الأحجار لكانت هذه الفكرة تستحق الاهتمام، ولكن الدكتور مايس يستطرد قائلا:

«وعدم العثور إلا على بعض شذرات من العظام ليست له إلا قيمة ضئيلة فى مواجهة هذا الافتراض. فمن الممكن أن يكون قد تم حرق الجثث ودفن الرماد والعظام القليلة التى لم تأت عليها النار». (*نفس المرجع*).

وهذا الاستدلال غير مقبول من أوله حتى آخره، وذلك لأنه لا يمكن أن يكون الأمر متعلقا بمقابر لأنه لم يتم العثور على أى هياكل عظمية؛ والعظام القليلة التى أراد الدكتور مايس أن يعثر عليها تؤكد أنه لو كانت هناك أصلا هياكل عظمية، لما كان أثرها قد زال.

ماذا تمثل هذه الأحجار حقا؟

إنها تتعلق بطقوس زراعية، وهى ترمز إلى الاتحاد الشعائرى بين السماء والأرض (بتصويرها للجنسين المنحوتين فى الحجر)، وذلك لكى تتولد النباتات التى يتغذى بها الإنسان، وبعبارة أخرى لكى تنمو البذور. فمن المعروف حسب المعتقدات القديمة أن المطر يشير إلى تخصيب الأرض (الربة الأم) بواسطة السماء (الإله الأب، رب السماوات بعد اكتشاف الزراعة، وفقا لما أوضحه ميرسيا ايلياد، مؤرخ الأديان القديمة). وكان الزرع الذى ينبت نتيجة لذلك التزاوج،يعتبر نتاجا إلهيا. ومن هنا جاءت فكرة *الثالوث* الكونى التى ستتطور من خلال عمليات تجسيد متتالية انطلاقا من ثالوث اوزيريس، ايزيس، وحورس، إلى الآب والإبن والعذراء مريم، التى حل محلها بعد ذلك الروح القدس.

ولما كانت المتشابهات تنتج متشابهات، فقد نحتوا فى الحجارة عضوى التناسل لدعوة الآلهة إلى الالتحام لكى تنمو النباتات التى تؤمن الحياة للشعب. وهكذا، دفع حرص الإنسان على تأمين وجوده المادى إلى الإقدام على تلك الممارسات. وما كان يمكن أن تتخذ غريزة البقاء والمادية الموغلة فى القدم إلا ذلك الشكل المستعار والمقنع لميتافيزيقيا ستتطور بلا انقطاع لتصل إلى المثالية.

هذا هو فى رأينا مغزى تلك التجسيدات المنحوتة. ويجدر بنا أن نذكر بهذه المناسبة أن تلك الأحجار القضيبية لا تمت بصلة إلى عبادة الشمس (شأنها شأن كافة الحجارة المرفوعة) بقدر ما لا تمت الشمس بصلة للأمطار، ولذا فمن الخطأ اعتبارها عبادة شمسية، أى رعوية مزعومة، وبالتالى حامية - سامية، بما يحمله ذلك الاصطلاح من لا معنى معهود. فهذه العبادة الشمسية التى تخص شعوبا راعية ومحاربة من صنع خيال محض، ولا تعتمد على أى واقع حقيقى.

وعلى العكس من ذلك، فإن الشعب الذى يمارس تلك العبادة يتعين أن يكون من الزراع أساسا، مما يبعدنا أوتوماتيكيا عن السهوب الأسيوية - الأوروبية والمناطق الشمالية، مهد الرعاة البدو، هذا عدا أننا لا نجد أحجارا منصوبة فى تلك المناطق. وهى لا توجد إلا فى بلاد يقطنها زنوج أو زنجويون، أو فى بلاد ارتادها هؤلاء، فى النطاق الذى يسميه سپيسر [SPEISER[1]] «الحضارة الكبرى ذات الآثار الحجرية الضخمة» والتى تمتد من إفريقيا إلى الهند واستراليا وامريكا الجنوبية واسبانيا

وبريتانيا. ومن المعروف أن المنهير (الأحجار الضخمة المنتصبة) والدولمن (الأحجار المبسوطة أفقيا فوق المنهير) تعود فى بريتانيا إلى عهد حضارة زراعية كانت تستخدم النحاس. ومن المعروف من جهة أخرى أن اسبانيا وبريتانيا كانتا مراسى للفينيقيين، وهم شعب زنجوى، وذلك فى طريقهم لجلب القصدير من مناجم انجلترا. كما أن حضارة الأحجار الضخمة المنتصبة فى بريتانيا تعود إلى الألف الثانية قبل الميلاد، وهى الحقبة التى كان الفينقيون يترددون فيها على تلك المناطق. وهذه الوثائق فى مجموعها لا تترك مجالا للشك فى الأصل الجنوبى والزنجى للأحجار الضخمة فى بريتانيا.

ولما كان الطابع الزراعى للمجتمعات التى أقامت تلك الأحجار الضخمة قد تأكد بما فيه الكفاية، فلنبرز تناقضا آخر فيما كتبه الدكتور مايس. فهو يفترض أن الجثث كانت تحرق، ولكن هذه الممارسة كانت تخص البدو الذين ما كانوا يستطيعون تكريس طقوس لمقابر ثابتة نتيجة لترحالهم المستمر. وقد احتفظوا بهذه العادة فى كل مكان، حتى بعد أن أصبحوا مستقرين (الرومان، والآريا فى الهند). فالجثث تحرق، لا لدفن الرماد ولكن لحمله.

والشعب المزارع الذى تعود إليه تلك الأحجار الضخمة فى توندى - دارو لم يكن يحرق موتاه، ولابد أن يكون من الممكن العثور على عظامهم، باتباع التوضيحات التى سنقدمها فيما بعد.

غير أن الدكتور مايس يحدد بدقة فكرته عن الشعب الذى تعود اليه تلك الأحجار فيقول:

«وبالنسبة لمن يدرك سيكولوجية الأسوّد، يمكننا أن نؤكد بشكل قاطع أن هذه المنشآت التى تتطلب كما هائلا من الجهود، بلاأى فائدة مباشرة، وظاهرة، وبلا أى صلة مع الأداء المنتظم لوظيفتى التغذية والتناسل، وهما الوحيدتان اللتان تهمان الأسوّد، لم ينفذها ممثلون للجنس الاسود». *(المرجع السابق)*.

وهذه الفقرة تستلفت الانتباه بشكل خاص لما تتضمنه من تناقضات. والواقع أننا لا يمكن أن نتصور، وفقا للمنطق الذى يقال إنه وَقْف على الغرب البالغ والمتحضر والحديث، أن القلم الذى وصف بالتفصيل وبدقة تلك الأحجار المنتصبة الممثلة للجنسين، هو الذى كتب يقول بعد ذلك ببضعة سطور، إن الجهود الهائلة التى تطلبها ذلك لا تمت بصلة الى «الأداء المنتظم لوظيفتى التغذية والتناسل، وهما الوحيدتان اللتان تهمان الأسوّد».

كما أننا لا نتصور أن الذى حلل منذ قليل كلمة توندى - دارو، واعتقد أنه اكتشف أنها «بيت من الحجارة» هو نفسه الذى يقول لنا فى نهاية نفس المقال، وبخصوص نفس هذه البيوت الحجرية إن «هذه المنشآت التى تتطلب كما هائلا من الجهود، بلا أى فائدة مباشرة ...» لماذا يتعثر الكاتب فى تناقضاته؟ بالذات لكى يتمكن من أن يقول لنا فى النهاية إنه يتعين أن نبحث عن أصل قرطاجنى أو مصرى لتلك الحجارة، أى بعبارة أخرى، لكى يرجع كل ذلك الى أصول يعتقد أنها بيضاء، أو يتمسك بأن تكون بيضاء. وهذا هو الموقف النموذجى للغرب تجاهنا فى الوقت الراهن.

وهو ما يؤكد لنا الضرورة المطلقة لقيامنا بإزالة الركام عن ماضينا،. وتلك مهمة لا يمكن أن يضطلع بها شعب لحساب شعب آخر وذلك بسبب الأهواء والنعرات القومية والنوازع العنصرية المسبقة، الناجمة عن التربية المشوهة أصلا. فإذا تم العثور على أحجار فى إفريقيا - وتلك حالة الدكتور مايس - فلابد من البحث عن أصل خارجى لها على أساس فكرة متحيزة، سواء تم التعبير عنها أو لم يتم، وذلك بمقتضى أنه «بالنسبة لمن يدرك سيكولوجية الأسوَد، يمكن التأكيد بشكل قاطع» أن هذه الأحجار المتراكمة لا يرجع مصدرها اليه.

من هو المسئول إذن عن تلك الأحجار المنتصبة؟

إن حكم المؤلف بهذا الخصوص يقطع بأن سكان منطقة توندى - دارو ليسوا المسئولين إذ «لا توجد أى رواية شفهية بهذا الخصوص عند السكان الحاليين لتوندى - دارو. وعند سؤال أكبرهم سنا أو أكثرهم علما فإنهم يجيبون بأن آباءهم وأجدادهم .. الخ عرفوا تلك الأحجار ولكنهم لا يعلمون شيئا عن الناس الذين نحتوها».

وهذا القول الأخير للمؤلف ليس تفسيرا بل إنه إقرار واقع، بوسعنا إذن أن نستخدمه.

ولكن من هو إذن المسئول الحقيقى عن تلك الأحجار؟

إنه على الأرجح الشعب الإفريقى الذى لا يزال يعيش فى نفس المنطقة، على مسافة قصيرة نسبيا من توندى - دارو ولا يزال يمارس حتى الآن شعائر الأحجار المنتصبة، والمقصود بذلك هم السيرير.

واليكم مجموع الأسباب التى تسمح بافتراض ذلك:

لا يزال السيرير يمارسون حتى الآن شعائر الأحجار المنتصبة فى سينى سالوم. ومن معانى هذه الشعائر، تلك التى ورد ذكرها آنفا.ولا يزال السيرير حتى الآن الوحيدين الذين يلتمسون الأمطار فى شمال السنغال. فهم مزارعون أساسا، يؤدون شعائر تقليدية من أجل الاستسقاء للاعتبارات الزراعية فقط (فى الباوُول، حول شجرة *الباوْباب* الضخمة المسماة *ندومبه* أو *نومبه ديوب* ، *فى ديوربل* ، على مقربة من حلبة سباق الخيل).

وهناك سبب آخر أقوى، يصعب تفنيده لمساندة هذا الافتراض، وهو ناجم عن تحليل اسم *توندى - دارو* ذاته.

توند = تل ، بلغتى الوُلُوف والسيرير

دارو = المعاشرة، بالمعنى الجنسى للكلمة .. فمن الممكن إذن أن يتعلق الأمر باقتران شعائرى.

والياء المصاحبة لـ *توند تعبر* عن المسند الجمع، ولذا فإن *توندى - دارو* = تلال الجماع (بالوُلوف).

ولا يمكن أن نجد اليوم فى لغة الوُلوف عبارة أكمل وأدق من الناحية النحوية للتعبير عن هذه الفكرة : تلال الجماع ؛ وعلى أى حال فإن هذه العبارة مانعة وهى الوحيدة المناسبة. وهى تعبر عن ذلك الجماع الشعائرى الذى يتم فوق التلال.

ولكن لماذا فوق التلال؟

بالذات لأن تلك الشعائر كانت تقام دائما فى مواقع مرتفعة، مثل الجبال والتلال التى تعتبر مقدسة لأنها - على مايبدو - البقعة التى تلتقى فيها السماء مع الأرض (*).

وفى هذه الحالة ولكى يكون البرهان الذى نقدمه صحيحا، وحتى لا يكون تحليلنا لاسم *توندى - دارو* ليس وليد صدفة أو توافقا مضللا فإنه يتعين على الأقل أن نعثر على تلال فى هذه المنطقة. وهذا هو الواقع إذ أنها موجودة فعلا فى توندى - دارو ذاتها :

«تقع توندى - دارو على حافة تلال من الصلصال الأحمر المغطى جزئيا بالرمال». (د. مايس، *المرجع السابق*).

فالأمر يتعلق إذن بتطابق : فاسم القرية يلخص الجمع بين حقيقتين ملموستين تحيطان به، ألا وهما التلال والأحجار القضيبية بمغزاهما الشعائرى.

وهناك حقيقة أخرى لا يمكن إغفالها وهى أن الجمع بين هاتين الكلمتين المعبرتين عن حقيقة واقعة تكتنف القرية، لم يتم باللغة الراهنة المستخدمة فى المنطقة. أوليس مما يدعو للعجب أن تكون هذه الواقعة مجرد صدفة جمعت بين الموقع واسمه المنتمى إلى وسط آخر خارج المنطقة.

ولذا يجب أن نقر - إلى أن يثبت العكس - بأن السيرير هم الذين مروا بتوندى - دارو، بل وأقاموا فيها.

ولو كان ذلك صحيحا، لتعين علينا أن نتمكن من التأكد منه بالبحث عن المقابر عن طريق تنقيب منتظم للأكمات المجاورة. والسيرير يدفنون موتاهم على الطريقة المصرية، علما بأنهم اضطروا إلى التخلى عن التحنيط نتيجة لندرة الأنسجة، وبالأخص اختلاف الاعتبارات الصحية التى كانت قد أملت ذلك فى مصر. ويقام فوق القبر سقف مخروطى مغطى بالتربة بدلا من الهرم. ولما كانت الأحجار نادرة فى سهول هذه المنطقة، فقد استخدموا القش بدلا من الحجارة. وهكذا ينخسف السقف مع الوقت، وقد ينهار أيضا، ولكن يظل هناك بصفة عامة كثيب من التراب فى مكان المقبرة القديمة.

(*) نظرا للأوضاع الجغرافية فى مصر، حيث لا تهطل الامطار عموما، وتأتى الخصوبة مع ماء النيل، نجد أن جنس هذين الزوجين الإلهيين معكوس، فالسماء هى الربة، والأرض هى الإله الذكر.

وكان المتوفى يُكفَّن ويُزيَّن حسب ثروة أهله، وكانوا يضعونه فى القبر مع الأدوات المنزلية ومقتنياته الخاصة التى كان يستخدمها فى حياته، لأن السيرير، يعتقدون، شأنهم شأن المصريين، أن الحياة تجرى بعد الموت، على غرار ما هى عليه فى عالمنا(*).

وهكذا تتضح لنا مدى أهمية تحليل الوقائع المرتبطة بالتقاليد والعادات فى مجال التاريخ الإفريقى والتأكيدات النسبية التى توفرها دائما الاعتبارات اللغوية.

كما يتبين لنا أيضا ما يمكن استخلاصه من الدراسات الاتنوجرافية التى تتم بحصافة.

ويتضح لنا، من الأخطاء الكبيرة التى وقع فيها الدكتور مايس، وعقليته التى تدفعه إلى حرف القضايا قبل معالجتها - وهو شئ لا ينفرد به - يتضح لنا مدى ضرورة أن نعرف أنفسنا بشكل أفضل، وأن نُعَرِّف الآخرين بثقافتنا بدلا من الإصرار على التعرف عليها عن طريق المؤلفات الغربية. ويتعين علينا أن نستبقى كل الوقائع التى تمت إفادتنا بها بكل عناية وموضوعية. أما التأويلات أى محاولات فهم تلك الوقائع وتفسيرها وإيجاد الروابط والعلاقات السببية بينها، فيجب أن نعاملها بكل عناية وحذر.

ومع أن استدلالنا مغر إلا أنه يتضمن تناقضا كان يمكن أن يمر دون أن يفطن إليه أحد لولا إشارتنا إليه. ولكن الحرص على الموضوعية - مادمنا نبحث عن الحقيقة - يفرض علينا فى كل مرة أن نبرز الواقع كلما تطلب الأمر ذلك حتى لا يكون هناك أى مجال للشك. فالسيرير هم الذين يمارسون حتى الآن الشعائر التى تم العثور عليها فى توندى - دارو. ومع أن لغتهم قريبة للغاية للوُلوف، وعلى الرغم من أن الأخيرة نبعت منها، فيما يبدو لى، إلا أن حالها الراهن لم يعد الحال الذى جاءت منه كلمة توندى - دارو. فهذه العبارة وُلوف بالأساس وليست سيرير. وهذا هو الواقع الذى يستحق أن نلفت النظر إليه. فحيث أننا لسنا إزاء ظاهرة جاءت مصادفة، فإن مهد لغة الولوف يجب أن ننقله نحو الشرق باتجاه مصب نهر النيجر، فى الموقع القديم لغانا، أو أن نعتبر أن نطاق انتشار الوُلوف كان أكبر بكثير مما هو عليه اليوم، وكان يشمل ضفاف نهر السنغال ومصب نهر النيجر وبحيرة تشاد، وربما أكثر من ذلك. وهناك وقائع أخرى تقف فى صف أصل السيرير النيلى. فالمدينة المقدسة التى أقاموها بمجرد وصولهم إلى سينى سالوم، مدينة كاوُن، تحمل هى أيضا اسم مدينة مصرية تم العثور عليه فى المتون الهيروغليفية.

(*) الرمز الهيروغليفى الذى يعنى القبر باللغة المصرية يتخذ شكل هرم نوبى (مرتفع فوق قاعدة صغيرة) ويقرأ : مر.

والمقبرة التى تتخذ نفس هذا الشكل عند السيرير تسمى مهانار. غير أن الملوك يدفنون عند الوُلوف والسيرير، فى آبار خفية عميقة للغاية، لا لتحاشى انتقام رعاياهم الذين أساءوا إليهم فى حياتهم، ولكن لكى يتجنبوا لجوء أسرة منافسة إلى أعمال سحرية تقضى نهائيا على أسرة الملوك المتوفين. وكان المصريون يتصرفون بنفس الطريقة ويدفنون ملوكهم فى آبار مماثلة يجهل الناس موقعها. ولذا فإنه بوسعنا أن نتصور أنهم كانوا يلجأون إلى ذلك لنفس الاعتبارات.

وهكذا يتبين لنا كيف أن تفاصيل التقاليد الإفريقية يمكن أن تلقى ضوءا جديدا على التقاليد المصرية القديمة.

والإله السماوى عند السيرير الذى يتمثل صوته فى الرعد، يسمى روج، وكثيرا ما يضاف إليه سِن، وهو نعت قومى نظرا لأن سِن هو الاسم الطوطمى المتميز للسيرير. ويقربنا روج من اسم الإله المصرى را أو رع، وكان هو أيضا إلها للسماء، بينما تذكرنا سِن باسم بعض ملوك النوبة وبعض ملوك مصر، ومنهم *اوسارتا* – *سن* ، *وبريب* – *سِن*. ومن المدهش حقا أن الملك النوبى *طهرقا* كان يعتبر اوسرتا – سن سلفه . كما أن بريب – سن هو الذى أعاد الاعتبار لشعار الصعيد عندما تولى العرش. وعليه فإن الفراعنه الذين كانوا يحملون اسم سن كانوا أساسا من الجنوب. وأخيرا فإن سهل سِن – *نآر* أو سين – *نآر* يذكرنا بسهل سن فى السنغال. ونجد حاليا فى إفريقيا الوسطى شعبا اسمه سيرى، دون أن يكون بوسعنا أن نطابق، من الوهلة الأولى، بينه وبين السيرير. ومن الأفضل أن نحاول أن نستخلص هنا المصدر المشترك لكل تلك الأسماء.

سيرى = إنسان بالسيرى – هوله؛ وتحريفها = سراكوله.

سارا = شعوب تشاد.

سيرى = قبائل فى إفريقيا الوسطى.

سيرير = شعب من السنغال.

وعليه، فقد يكون المصدر المشترك لكل تلك الأسماء اسم نوع للإنسان، كما هو الحال بالنسبة للبانتو، إذ أن *با* – *نتو* = الناس.

ونجد الجذر *نتو* ، الخاص بالبانتو فى الوُلوف، حيث نيت = إنسان.

وباللغة المصرية *نيت* = إنسان، فلان (بيبريه).

وبلغة البول؛ *ندّو* = إنسان.

وهكذا، فإن هذه الطريقة فى الإشارة إلى شعب بعبارة معناها إنسان، عامة فى إفريقيا السوداء، نقلا عن مصر.

وفى جنوب النوير والدنكا، نجد بعد اللوولُو (الذين يذكرون باللولو فى لسنغال) قبيلة من السيرى (بومان ، ص ٢٩٠).

ووفقا لنفس المؤلف نجد الفالى فى جنوب تشاد، وجنوب الكوتوكو والشُوآ. ويذكرنا الاسم الأخير باسم قبيلة شُوآت النوبية (بومان، ص٣١٩، ٣٢٠).

وفال اسم يتميز به السيرير.

وأخيرا، فإن سيرير *تعنى*، حسب بيبريه: الذى يعيّن حدود المعابد، عند المصريين. وهذا المعنى

يتفق فعلا مع ورع السيرير الشديد، وهم من شعوب السنغال النادرة التى لم تعتنق حتى الآن أى ديانة أجنبية حديثة.

ووفقا لشامبوليون، كانت توجد فى مصر طائفة من الكهنة اسمها سن، علما بأن النبلاء ورجال الدين كانوا يحظون بنفس المركز الاجتماعى، ولذا، كثيرا ما كان هناك ملوك - كهنة.

وكان العديد من فراعنة الأسر الأولى من العنصر السيرير، كما يتضح لنا من أسمائهم:

- الفرعون *سار*، من الأسرة الثالثة.
- الفرعون *سار - تيتا*، من الأسرة الثالثة.

(انظر پيبريه :*قاموس الآثار*)

- الفرعون پريب - سن، من الأسرة الأولى (الفرعون الخامس)
- الفرعون *اوسرتا* - سن، من الأسرة السادسة عشرة.

وفى عهود الأسر الأولى (باستثناء الفرعون الأخير المذكور أعلاه)، كان الجنس الزنجى المصرى خالصا عمليا من أى تهجين، كما تثبت ذلك آثار تلك العهود، التى تصور لنا نماذج زنجية صرفة.

وكانت كافة عناصر الحضارة قد توفرت أصلا، بما فى ذلك الكتابة،والعلوم (الرياضيات .. الخ). ومنذ ذلك العهد ظلت الحضارة المصرية، حتى نهايتها، تعيش على مكتسبات تلك الأسر الأولى والحقب التى سبقتها.

ولم يطرأ تغيير على الشكل المصرى إلا فى وقت متأخر للغاية مع غزوات الهكسوس (السكوتيين) والإغريق والفرس والرومان والعرب والأتراك. ومع ذلك فقد احتفظ الشكل المصرى بقسماته الزنجية الأساسية (الفلاحون الحديثون؛ وبعض القبائل البول).

أصل الآنى

ويبدو أن *الآنى* هم أيضا من أصل مصرى إذا ما لاحظنا أن الاسم الأول المصاحب دائما لاسم الملك هو *آمون*، اسم الإله المصرى:

- كان *آمون أزينيا*، ملك *آنى* عاش فى القرن السادس عشر.
- وكان آمون تيفو، ملك *آنى* من القرن السابع عشر، ويقال إن أحد أبناء هذا الملك تمت ترقيته إلى مرتبة الأشراف فى فرساى، على يد لويس الرابع عشر(*).
- آمون أجويى، ملك آنى من القرن التاسع عشر، وقع على معاهدة تحالف مع لويس - فيليب.

(*) ويقال إن الملك لم يعط قبطان السفينة ابنه هو بل أعطاه عبدا.

(انظر: *الموسوعة الشهرية لما وراء البحار*، ابريل١٩٥٢، المجلد الأول، الملزمة العشرون، مطبوعات الاتحاد الفرنسي، ص ١١٣).

ويوسعنا المقارنة بين *آنى واونى*، اسم ملك إيفه، و *أوتى*، اسم أوزيريس، و *آنو*، اسم أحد العروق الزنجية فى مصر، فى حقبة ما قبل الأسرات.

وفى *كتاب الموتى* توجد عدة فقرات يذكر فيها اسم أوزيريس مصحوبا بالنعت العرقى *آنى* : النشيد التمهيدى لكتاب الموتى؛ الحساب .. الخ؛ نشيد لرع عندما تشرق الشمس.

وفى الفصل الخامس عشر نجد نشيداً لأوزيريس، نقلا عن بردى آنى (المتحف البريطانى، رقم ١٠٤٧٠ - الورقة رقم ١٩)، كما نجد فى نفس الفصل : أوزيريس آنى، كاتب الملك فى الحق. (*كتاب الموتى*، ترجمة واليس بودج، لندن، ١٨٩٨).

أصل الفانج والباموِن

جاء فى مقال ليدرال نشر فى موسوعة *فرنسا لما وراء البحار* (ديسمبر ١٩٥١، ص ٣٤٧، ٣٤٨، ٣٤٩) أن الأب تريلز توصل بعد سلسلة من الدراسات إلى الاقتناع بأن الفانج «كانوا على مقربة من أثيوبيا المسيحية خلال هجرتهم القديمة»؛ وهو شعب قلنا عنه من قبل إنه لم يكن قد بلغ بعد الشواطئ فى القرن الماضى، فى هجرته من الشمال الشرقى إلى الجنوب الغربى.

وهناك دراسات مماثلة لـ د.و.چيفرى، تؤدى الى التقريب بين الباموِن والمصريين :

«قد لاحظ د.و.چيفرى فى مختلف مؤلفات علم المصريات، الرابطة بين النسر - الفرعون، والثعبان - الفرعون، ثم ما أورده ديودور الذى أفاد بأن كهنة أثيوبيا ومصر كانوا يحتفظون بصِلٍ ملفوف تحت غطاء رأسهم، كما أنه لاحظ أمثلة مختلفة لأشكال حيوانية ذات رأسين، خاصة فى *كتاب الموتى*، بردى آنى، الورقة رقم٧، فأعلن أنه مقتنع بأن الطقوس الملكية عند الباموِن مشتقة من الطقوس المصرية المماثلة».

ويمكننا أن نقرب بين ما توصل إليه د.و.چيفرى وما جاء فى الأسطورة وهو أن دامل كايور كان لديه نسر يُطعم فقط بلحم عبيد. وقد بالغت الأسطورة على الأرجح فى وصف الواقعة بأن زعمت أنه كلما أطلق النسر صرخات الجوع نحو السماء، كان يُقتل عبد ليقتات من أحشائه. وكان نسر ملك كايور (السنغال) يسمى جِب.

وجِب تعنى باللغة المصرية: الأرض، الإله المتمدد.

أصل المور

المور عرب جاءوا من اليمن مع الفتوحات الإسلامية (القرن السابع). ولديهم مخطوطات عديدة يحتفظون بها، وهى تسجل بعناية شجرة أنسابهم، وتاريخ هجرتهم من اليمن، مما يؤكد ذلك بما فيه الكفاية.

ويعتمد المور على تلك المخطوطات فى كافة المناسبات، وهم يعرفون تماما أصولهم بكافة تفاصيلها، وشهادتهم بهذا الخصوص أساسية.

فلا جدوى من محاولة العثور على أصول أخرى أو أسبقية لتواجدهم فى القارة الإفريقية، لا لسبب سوى محاولة جعلهم قسما من عنصر أبيض مفترض كان قد استوطن مصر فى الأصل واختفى تدريجيا، من خلال عملية تهجين طويلة المدى.

الفصل السابع

إسهام أثيوبيا-النوبة ومصر في الحضارة

وفقا للشهادة الإجماعية لكافة القدامى، أوجد الأثيوبيون أولا ثم المصريون من بعدهم كل عناصر الحضارة، وارتقوا بها إلى حد مدهش، بينما كانت الشعوب الأخرى، وبالأخص الشعوب الأسيوية الأوروبية، لا تزال مستغرقة فى البربرية.

ويعود ذلك إلى الظروف المادية التى وفرتها الأوضاع الجغرافية منذ أقدم الأزمنة. فقد تطلبت تلك الظروف من الإنسان أن يخترع العلوم التى استكملتها الفنون والديانة، لكى يتأقلم معها.

ولسنا فى حاجة إلى التأكيد على فضل الحضارة المصرية على بقية العالم، وبالأخص العالم الإغريقى. وقد اقتبس الإغريق اختراعات المصريين وطوروها إلى حد ما فى بعض الأحوال، مع تجريدها فى الوقت نفسه من درعها الدينى «المثالى»، نظرا لميولهم المادية. ويبدو أن قسوة الحياة فى السهول الأسيوية الأوروبية قد قامت من ناحية بدورها فى تنمية الغرائز المادية عند الشعوب التى كانت تعيش فيها، وصاغت من ناحية أخرى قيما معنوية مناقضة للقيم الأخلاقية المصرية الناتجة عن الحياة الجماعية المستقرة، السهلة نسبيا، والهادئة منذ أن نظمتها بعض القواعد الاجتماعية. فبقدر ما كان المصريون يستفظعون السرقة وحياة الترحُّل والحرب، بقدر ما كانت تلك الممارسات تعتبر من القيم الأخلاقية التى تحتل المقام الأول فى السهول الأسيوية الأوروبية. فالفردوس الجرمانى، الواهالا، لا تطؤه إلا أقدام المحارب الذى استشهد فى ساحة الوغى، بينما لا يحظى بالنعيم فى العالم الآخر عند المصريين، إلا المتوفى الذى يثبت أمام محكمة أوزيريس (الصورة رقم ٥٢) أنه لم يرتكب خطايا وكان رحيما بالفقراء، وهو ما يتعارض تماما مع عقلية الغزو والاحتلال المميزة بصفة عامة لشعوب الشمال التى كانت بلادهم التى غبنتها الطبيعة، تطردهم على نحو ما. وعلى العكس من ذلك كانت الحياة فى وادى النيل، ذلك الشريان الذى يؤمن حياة سهلة للغاية بينما تحف به الصحارى من الجانبين، كانت تدفع المصرى إلى الاعتقاد بأن نعم الطبيعة تهبط إليه من السماء. ولذا فقد عبدها فى شكل كائن قدير، خالق لكل ما فى الوجود وواهب للنعم. وعليه فقد تحولت ماديته الأولية - القائمة على مبدأ الحيوية المستقلة عن المادية - إلى مادية انتقلت إلى السماء، أى مادية ميتافيزيقية، اذا جاز لنا القول.

وعلى النقيض من ذلك، لن تتجاوز آفاق الإغريق أبدا الإنسان المادى والمرئى، قاهر الطبيعة التى تناصبه العداء؛ وكل ما فى العالم يدور حوله، والهدف الأسمى عنده هو أن يصنع نسخة منه تكون طبق الأصل. ومن مفارقاته أن «السماء» التى لن يتواجد فيها أحد سواه بعيوبه ونواقصه فى عالمنا، تحت درع الآلهة الذين لا يتميزون عن الكائن البشرى العادى إلا بقوتهم الجسدية. ولذا عندما استعار الإغريق الإله المصرى، وهو إله حقيقى بكل ما للكلمة من معنى، له كافة صفات الكمال الأخلاقى، التى يولدها الاستقرار، فإنه لم يستوعبه ويحتفظ به إلا بإنزاله إلى مستوى الإنسان ورده إليه. ولذا فإن محفل الأرباب الذى تبناه الإغريق ليس إلا بشرية أخرى. وهذا التصور للصفات الإلهية على غرار صفات الإنسان، ليس فى تلك الحالة الخاصة، سوى مادية صارخة تميزت بها العقلية الإغريقية. والواقع أن المعجزة بمعنى الكلمة لا وجود لها عند الأغريق، لأننا لو أردنا التحدث عن عملية أقلمة القيم المصرية فى اليونان، وهو ما تطرقنا اليه منذ قليل، لوجدنا أنه ليست هناك أى معجزة فى ذلك، بالمعنى «الفكرى» للكلمة، فأقصى ما يمكن أن نقول هو إن ذلك التوجه المادى الذى تميز به الغرب كان مواتيا لتطوير العلوم.

فعبقرية الإغريق الدنيوية الناجمة أساسا عن تأثير السهوب الأسيوية الأوروبية وضعف مزاجهم الدينى، ساهما، بمجرد استعارتهم للقيم المصرية، فى إيجاد علوم دنيوية، يقوم بتدريسها على الملأ فلاسفة علمانيون هم أيضا، بدلا من أن تكون تلك العلوم وقفا على الكهنة الذين حرصوا تماما على كتمانها وعدم نشرها بين العامة لتضيع وسط الانقلابات الاجتماعية.

«كانت قوة الفكر ، والهالة التى تحيط به ، تمارس فى كل البقاع الأخرى سلطتها اللامرئية ،إلى جانب قوة السلاح، ولكنها لم تكن عند الإغريق فى أيدى كهنة أو موظفين، بل فى إيدى الباحث والمفكر. وكان بوسع هذا الباحث أو المفكر أن يكون - كما هو الحال بكل وضوح بالنسبة لطاليس وفيثاغورس وامبكلوديس - مركزا لحلقة تتراوح بين المجْمَع المدرسى أو الأكاديمية، وبين الحياة المشتركة لمجتمع منظم، وتقترب بدرجة أكبر نحو هذه أو تلك، وتحدد لنفسها أهدافا علمية وأخلاقية وسياسية، وتجمع بينها لتكوِّن منها تراثا فلسفيا» .(ارنست دستر: *تاريخ الفلسفة* ،الناشر بايو،١٩٥٢، ص ٤٨).

وكان التعليم العلمى والفلسفى يتم على أيدى أناس غير متبحرين فى الديانة ولا يتميزون عن بقية أفراد الشعب إلا بمستواهم الفكرى أو مرتبتهم الاجتماعية بوصفهم من الأرستقراطيين. ولم تكن تحيط بهم هالة من القداسة. ويحكى لنا بلوتارخوس فى مؤلفه *الإيزيس والأوزيريس*، أنه وفقا لشهادة كافة العلماء والفلاسفة الإغريق الذين تتلمذوا على أيدى المصريين، كان هؤلاء لا يحبون أن يمتهن علمهم: وقد صادف سولون، وطاليس، وأفلاطون، ولوكورجوس، وأكزودوس، وفيثاغورس، مصاعب جمة قبل أن يلقنهم المصريون معارفهم.ويقول بلوتارخوس أيضا إن المصريين كانوا يفضلون

فيثاغورس، من بين كل طالبى العلم منهم، لمزاجه الروحانى. وبالمقابل، كان فيثاغورس من الإغريق الذين يوقرون المصريين للغاية.وقد تم استنتاج ذلك من فقرة أشار فيها بلوتارك الى المعنى الباطن لاسم *آمون*، وهو الخفى، اللامرئى ...

وكما لاحظ اميلينو، فإنه من الأمور التى تدعو للدهشة أنه لم يتم التنويه بقدر أكبر بإسهام المصريين فى الحضارة :

«ورأيت عندئذ، ورأيت بوضوح، أن أشهر المذاهب فى اليونان، وبالأخص مذهبى أفلاطون وأرسطو، كان مهدهما فى مصر. وتبين لى أيضا كيف أن عبقرية الإغريق الجميلة أكسبت الأفكار المصرية رونقا لا مثيل له خاصة عند أفلاطون؛ ولكننى أعتقد أن ما أحببناه لدى الإغريق ما كان يجب أن نزدريه أو نستخف به ببساطة لدى المصريين، فعندما يتعاون معا مؤلفان فى أيامنا هذه، فإن أمجاد عملهما المشترك تعود إليهما، بلا تفرقة؛ وأنا لا أرى لماذا تستأثر اليونان القديمة وحدها بالأفكار التى اقتبستها من مصر». (اميلينو: *تمهيدات لدراسة الديانة المصرية*، المقدمة، ص ٨ و ٩).

ويوضح لنا اميلينو أنه إذا كانت بعض أفكار أفلاطون قد أصبحت غامضة فذلك لأنهم كفوا عن الرجوع إلى مصدرها المصرى، وهذا هو الحال مثلا بالنسبة لأفكار أفلاطون حول خالق الكون. ومن المعروف من جهة أخرى أن فيثاغورس، وطاليس، وسولون، وارشميدس، وارِاتوستين قصدوا مصر لتلقى العلم، ولا تقتصر قائمة طالبى العلم على هؤلاء وحدهم. لقد كانت مصر حقا الموطن الكلاسيكى الذى تردد عليه ثلثا العلماء والفلاسفة الإغريق لتلقى العلم. والواقع أن الاسكندرية كانت فى العصر الهلنستى المركز الفكرى للعالم حيث اجتمع كل العلماء الإغريق الذين يحدثوننا عنهم اليوم. ولسنا بحاجة إلى التأكيد بأن هؤلاء العلماء حصلوا على معارفهم، خارج اليونان، وفى مصر بالذات.

بل إن فن العمارة الإغريقى تعود أصوله إلى مصر. فنحن نشاهد منذ الأسرة الثانية عشرة أعمدة فى مقابر بنى حسن كانت النماذج الأولى للطراز الدُورى.

والآثار الإغريقية والرومانية ليست سوى تصميمات مصغرة بالمقارنة مع الآثار المصرية : ومن المعروف أن كاتدرائية نوتردام فى باريس يمكن أن تدخل بأبراجها ، وبكل يسر، فى قاعة الأعمدة بمعبد الكرنك، ومن باب أولى البارثينون الإغريقى(*).

(*) الوجه الجامد للتمثال الإغريقى يبتعد عن الواقعية اللاتينية المتأخرة، بالرغم من الصفات التشريحية للجسم، ويقترب من صلاء الفن المصرى.

والحكايات الزنجية أصلا - أو الكوشية كما كتب يقول لينورمان - والتى تتمثل فى أحداث تدور بين الحيوانات، وصلت إلى اليونان عن طريق مبتكرها الزنجى المصرى إيزوب. وقد استوحى منها لافونتين حكاياته.

وفى كتابه *الحكايات العجيبة الجديدة* يقدم لنا ادجار بو فى «مناقشة قصيرة مع مومياء» فكرة رمزية عن مدى اتساع المعارف العلمية والتقنية فى مصر القديمة.

وكان هيرودوت قد حصل من الكهنة المصريين على معلومات تكشف عن الجوهر الحسابى لهرم خوفو. وقد خصص العديد من علماء الرياضيات والفلك مؤلفات لدراسة هذا الهرم كشفت عن معلومات مدهشة أثارت - كما كان من الممكن أن نتوقع - موجة من المنازعات التى لم تعرض بشكل علمى مترابط. غير أنه بوسعنا أن نذكر هنا الأرقام، دون أن نقع فيما قد يعتبر افراطا فى «علم الأهرامات».

لاحظ علماء الفلك أن هناك إشارات للسنة الفلكية ولتقدير سعة انحراف اتجاه الشمس عند الاعتدالين الربيعى والخريفى محسوبا لفترة تمتد ستة آلاف سنة، بينما لا يعرفها علم الفلك الحديث إلا لفترة ٤٠٠٠سنة (وفقا لريفرت : *الهرم الاكبر*، لندن، ١٩٣٢).

كما عثر علماء الرياضيات فيه على النسبة الصحيحة لمحيط الدائرة مع قطرها ومتوسط المسافة الصحيحة بين الشمس والأرض وقطر الأرض بين القطبين .. الخ.

ومن الممكن مدّ القائمة بذكر أرقام أكثر إثارة للإعجاب. فهل يمكن ان تكون كل تلك التوافقات بنت الصدفة؟ هذا ما لا يمكن تصوره، كما كتب ماتيلا غيكا يقول:

«قد تكون كل من تلك الخواص محض صدفة، ولكن تواجد مجموعة تلك المصادفات معا أمر لا يمكن تصوره، شأنه شأن الارتدادات المؤقتة للمبدأ الثانى للديناميكا الحرارية (تجمد الماء وهو فوق النار) التى تخيلها الفزيائيون، أو معجزة القرود التى تستخدم الآلة الكاتبة، الأثيرة لدى السيد اميل بوريل». (*جماليات النسب فى الطبيعة والفنون*، الناشر جاليمار، باريس، ١٩٢٧، ص ٣٤٥).

ويستطرد نفس المؤلف قائلا (ص ٣٦٧ - ٣٦٨).

«بيد أن فرضية فيوليه لودوك التى تم استكمالها وضبطها بفضل أبحاث ديولافوا، وأ.مال، ولون، حول انتقال بعض الرسوم المصرية إلى العرب ثم الكلوسنيين عن طريق المدرسة الاغريقية النسطورية فى الاسكندرية، أقرب الى المعقول. فالهرم الأكبر يمكن أن يكون من الناحية الفلكية «المزولة الشمسية للسنة الكبرى»، كما قد يكون «البندول» الذى تترد ذبذباته المتسقة فى الفن الإغريقى، والعمارة القوطية، والنهضة الأولى، وفى كل فن يجد فى «التناسب الرائع» نبض الحياة ذاتها».

ويشير المؤلف أيضا الى رأى الأب مورو، الذى يرى أن الهرم الأكبر ليس «بداية للحضارة والعلوم المصرية التى تتحسس طريقها، بل تتويجا لثقافة بلغت ذروتها، وباتت على وشك الزوال، فأرادت أن تترك للحضارات التالية، شهادة مترفعة عن مدى تفوقها، وذلك، بالاقدام على تلك الخطوة التى تنم عن أوج الزهو». (ص ٣٤٥).

وهذه المعلومات الفلكية والرياضية، لم تتلاش تماما فى إفريقيا السوداء، بل تركت آثارا يعود إلى السيد مارسيل جرييول الفضل فى اكتشافها عند الدوجون، حتى وإن بدا ذلك أمرا يثير الدهشة الآن.

فقد تمت الإشارة عدة مرات إلى اقتباس الإغريق الآلة من مصر، وإليكم الأدلة على ذلك :

«جاءت أسماء كل الآلهة تقريبا إلى اليونان من مصر. ومن المؤكد تماما أنها وصلت الينا عن طريق البرابرة، وأنا مقتنع بذلك من خلال بحوثى. ولذا أعتقد أننا أخذناها من المصريين أساسا». (هيرودوت، ٢ - ٥٠).

والبرابرة هنا معناها الأجانب، دون أن تحمل هذه التسمية أى معنى ينم عن التقليل من شأنهم.

فالأصل المصرى للحضارة والاستعارات الإغريقية الواسعة النطاق من هذه الحضارة حقيقة تاريخية جلية، ولذا يحق لنا أن نتساءل مع اميلينو، لماذا يتم ابراز الدور الذى قامت به اليونان، بالرغم من تلك الحقائق، مع اسدال ستار الصمت على دور مصر.

ولا يمكننا أن ندرك منطق ذلك الموقف إلا بالرجوع الى أصل القضية.

فبما أن مصر كانت بلد شعب زنجى وكانت الحضارة التى تطورت فيها تعود الى زنوج، فإن كل أطروحة ترمى إلى اثبات العكس لن يكون لها مستقبل؛ وأصحاب تلك الأطروحات يدركون ذلك. ولذا فإن تجريد مصر بكل بساطة من كافة ما خلقته لصالح شعب من أصل أبيض حقا، يكون تصرفا أكثر أمانا تمليه الحكمة.

ويكشف هذا الاسناد الزائف لقيم مصر إلى اليونان البيضاء، - مع تبيض مصر أيضا - عن تناقض يثبت فى حد ذاته أن حضارة مصر من أصل زنجى.

وكما نرى، فإن الرجل الملون أبعد من أن يكون عاجزا عن التوصل الى التقنية، على عكس ما يعتقده اندريه سيجفريد، بل إنه كان أول من أوجدها، فى شخص الزنجى، فى حقبة كانت لا تزال فيها كافة الأجناس البيضاء مستغرقة فى البربرية، وتكاد لا تكون خليقة بالحضارة.

وعندما نقول إن أسلاف الزنوج الذين يعيشون أساسا الآن فى إفريقيا السوداء، كانوا أول من اخترع الرياضيات، والفلك، والتقويم، والعلوم بوجه عام، والفنون، والديانة، والزراعة، والتنظيم

الاجتماعى، والطب، والكتابة، والتقنيات، والعمارة، وإنهم أول من شيدوا صروحا من ستة ملايين طن من الحجارة (الهرم الأكبر)، كمعماريين ومهندسين، وليس كعمال فقط، وإنهم بنوا معبد الكرنك الهائل، بقاعة أعمدته الشهيرة التى يمكن أن تستوعب كاتدرائية نوتردام بأبراجها، وإنهم أول من نحت التماثيل الهائلة (تمثالا ممنون. الخ)، عندما نقول كل ذلك فإننا لا نذكر سوى الحقيقة المجردة والمتواضعة، التى لا يمكن أن ينكرها أحد الآن أو أن يدحضها بحجج جديرة حقا بأن تطلق عليها تلك التسمية.

وعليه، يجب أن يكون الزنجى قادرا على استعادة قدرته على مواصلة ماضيه التاريخى القومى، وأن يستخلص منه الزخم المعنوى لكى يسترد مكانته فى العالم الحديث دون السقوط فى تطرفات نازية عكسية، ذلك لأن الحضارة التى ينتسب إليها كان من الممكن أن يخلقها أى جنس آخر، لو أنه تواجد فى مهد موات وفريد إلى هذا الحد.

إفادة حول المصطلحات الأثرية المستخدمة فى هذا المؤلف

على الرغم من أنه قد تم شرح عدد كبير من تلك المصطلحات فى النص، إلا أننا نجمعها هنا معا لتيسير القراءة. وهذه الملاحظات المختصرة مأخوذة عن مختلف المصادر ومنها بالاخص:

1. Palmer & Lloyd: *Archaeology A to Z* [Frederick Warne & Co. Ltd., London & New York, 1968).
2. Bray & Trump : *A Dictionary of Archaeology* [Penguin, London, 1970).
3. Charles Winick : *Dictionary of Anthropology* [Philosophical Library, New York, 1956].
4. Leakey & Goodall : *Unveiling Man's Origins* [Schenkman Publishing Co., Cambridge, Mass., 1969].
5. Michael H. Day : *Guide to Fossil Man* [World Publishing Co., Cleveland & New York, 1968].

AMRATIEN (الحضارة العمرية) : وهى «حضارة مصرية من عصر ما قبل الاسرات تميزت بادواتها المصنوعة من العظام والحجر المقصوب بعناية» (انظر : وينيك).

AURIGNACIEN (الحضارة الأورينياسية) : وهى «حضارة متطورة للغاية من العصر الحجرى القديم الأعلى ينسب اسمها إلى مغارة أورينياك (فرنسا) حيث تم العثور على أدوات مُصنعة (...). وقد ساهم كل من إنسان كرو - مانيون، وإنسان كومب - كاپيل، وإنسان جريمالدى فى الحضارة الأورينيسية». (انظر : پالمر ولويد).

BADARIEN (الحضارة البدارية) : حضارة مصرية أولى فى صعيد مصر مشهورة بصناعة الأوانى

الفخارية، وهى سابقة على العصر العمرى والعصور اللاحقة له.

CULTURE NATOUFIENNE (الحضارة الناتوفية) : الحضارة الرئيسية فى العصر الحجرى الأوسط بفلسطين (انظر: *الأجناس البشرية الحية*، كنويف، نيويورك ١٩٦٥).

DATAGE ABSOLU (الترتيب الزمنى المطلق) : «لا تستخدم عادة سوى طريقة واحدة مباشرة للتحديد الزمنى المطلق. فالنتروجين الموجود فى الأجواء العليا يتعرض لقذائف النيوترونات الناجمة عن الإشعاع الكونى. ويؤدى ذلك الى تكوين جرعة معروفة من الكربون المشع الذى يندمج مع أنهدريد الكربون، الذى تمتصه النباتات وأنسجة الحيوانات. وعندما تدفن العظام تحت الأرض يتناقص الكربون المشع (ك ١٤) بمعدل معروف. وقياس محتويات المواد العضوية المدفونة من الكربون ١٤ يمكن ترجمته حسابيا لتحديد العمر النسبى للعينة. ولا يمكن الرجوع إلى أكثر من الحد النظرى المتراوح بين ٦٠ و ٧٠ الف سنة نظرا لأن كمية الكربون ١٤ المتبقية تكون ضئيلة للغاية بحيث يستحيل قياسها.

«وهناك طريقة أخرى لقياس الإشعاعات (البوتاسيون / الأرجون) تعتمد على احتواء البوتاسيوم الطبيعى على نظير مشع يتناقص بمعدل ثابت وينتج غاز الأرجون المتواجد فى بللورات بعض المركبات البوتاسية. وحساب محتوى عينة من هذه المركبات من الأرجون فى طبقة من العظام المطمورة، هو الذى يحدد بشكل غير مباشر عمر تلك المركبات...» (انظر : داى، ص ١٢).

GUERZEEN (حضارة جرزة) : «الحضارة المصرية فيما قبل الأسرات التى تطورت انطلاقا من الحضارة العمرية فى عام ٣٦٠٠ ق.م. ويرجع اسمها إلى جرزة، بمنطقة الفيوم، وتمثلها بشكل جيد مدافن نقادة بصعيد مصر» (انظر : براى وترومب).

HOMME D'ASELAR (إنسان أسيلار) : اكتشفه تيودور مونو فى الصحراء.

HOMME DE CHANCELADE (إنسان شانسيلاد) : نموذج للجنس الأصفر، هياكله شبيهة بهياكل الاسكيمو الحديثين.

HOMME DE COMBE - CAPELLE (إنسان كومب – كابل) :هيكل عظمى أورينياسى تم اكتشافه فى دوردونى (فرنسا) فى عام ١٩١٠، وموجود فى متحف برلين (انظر : داى).

HOMME DE CRO - MAGNON (إنسان كرو – مانيون) : من العصر الحجرى القديم الأعلى كان يعيش فى أوروبا فى الحقبة الأورينياسية – المجدلية. وقد جرى وصفه على الوجه التالى: «ضخم وقوى، جبهته عريضة ومرتفعة، وذقنه يدل على الحزم». وقد جاء على الأرجح فى آسيا. ويرجع

اسمهاإلى المغارة الموجودة، فى قرية ايزى (فرنسا) (انظر : پالمر ولويد).

MAGDALENIEN (الحضارة المجدلية) : حضارة من العصر الحجرى القديم الأعلى بدأت فى أوروبا الغربية قبل التقويم الميلادى بـ ١٥ الف سنة. ويرجع اسمها إلى مغارة المجدلية (فى دوردونى، على مقربة من ڤيزير فى فرنسا) حيث تم اكتشاف هياكل بشرية.

MERINDE (مريندة) : موقع على حدود الصحراء الليبية. ويسميها جوردون تشايلد «نموذجا لحضارة العصر الحجرى الجديد».

MÉSOLITHIQUE(العصر الحجرى الأوسط) الذى يقع بين العصرين الحجرى القديم والحديث.

NEGROIDES DE GRIMALDI(زنجويو جريمالدى) : جنس بشرى فيما قبل التاريخ تم اكتشاف بعض جثثه فى مغارة جريمالدى (بايطاليا) على مقربة من منتون (فى فرنسا). وجثث هذه المغارة موجودة فى طبقات أدنى من طبقات إنسان كرو - مانيون، أى أنهم زنجويون كانوا سابقين على انسان كرو - مانيون. ويقول ڤيرنو إن الزنجويين كانوا ضخام الأجسام وكانت جمجمتهم مرتفعة للغاية. وقد تم العثور على هياكلهم فى أوروبا الغربية والوسطى ولكنهم من أصل إفريقى على الأرجح. وقد اشتهروا بتماثيلهم الصغيرة ذات الأرداف العريضة. (انظر ر. ڤيرنو : *مغارات جريمالدى*، المجلد الأول، الجزء الأول، من «*انتروبولوجيا*»، موناكو، ١٩٠٦- ١٩١٢، مجلدان).

NÉOLITIQUE (العصر الحجرى الحديث) : «حلت الزراعة محل جنى الثمار، وقل شأن القنص والصيد. وكان انسان العصر الحجرى الحديث أول من عمد إلى البذر والحصاد، وتربية الحيوان والغزل والنسج، وصنع الأوانى الفخارية... » (انظر : پالمر ولويد).

PALÉOLITIQUE (العصر الحجرى القديم) : «فى بداية دراسة ما قبل التاريخ، تم تقسيم الحقبة الحجرية إلى العصرين الحجرى القديم والحديث. وقد اتضح فيما بعد أن العصر الحجرى القديم امتد حقبة طويلة للغاية، فتم تقسيمه إلى العصر الحجرى القديم الأدنى، والعصر الحجرى القديم الأوسط والعصر الحجرى القديم الأعلى. وكل من تلك الأقسام تتفق تقريبا مع التقسيمات الزمنية المسلم بها، وهى البليستوسين الأدنى والبلستوسين الأوسط والبليستوسين الأعلى.

PÉRIODES GLACIÉRES (العصور الجليدية) : كانت العصور الجليدية الأربعة للحقبة البليستوسينية كما يلى : الجُونْز (GRUNZ)(منذ أكثر من ٧٩٠ الف سنة وامتدت ٢٥٠ الف سنة)، والمِيندل (MINDEL)(منذ ٤٨٠ الف سنة وامتدت ٥٠ الف سنة)، والرِيس (RISS)(منذ ٢٤٠ الف سنة وامتدت ٦٥ الف سنة)، والوُرْم (WURM)(منذ ١١٥ الف سنة وامتدت ٩٠ الف سنة) (انظر :

بالمر ولويد).

PLÉISTOCENE (بداية العصر الجليدى الرابع): «تم تحديد البليستوسين فيما مضى بنصف مليون سنة، ولكنه يحدد اليوم بثلاثة ملايين سنة» (انظر : ليكى وجودول).

QUATERNAIRE (الحقبة الجيولوجية الرابعة، التى تلت الحقبة الثالثة) وهى التى نجتازها حاليا: وهى مقسمة إلى حقبتين: البليستوسين والهولوسين، والحقبة الأخيرة تشمل السنوات العشر آلاف الأخيرة (انظر : بالمر ولويد).

SINATROPE : «اسم نوع أطلق فيما مضى على رتبة من البشريات والقرود ترجع إلى الحقبة البليستوسينية المتوسطة، تم العثور عليها على مقربة من بكين» (انظر : داى).

TASIEN (الحضارة التاسية) : «ويرجع اسمها إلى ديرتاسا فى صعيد مصر وكانت مأوى لمزارعين أوائل. وهى تعتبر حاليا، وفى أحسن الاحوال، صورة مقاربة للحضارة البدارية». (براى وترومب).

ZINJANTROPE : ويسمى أيضا «الانسان كسّار البندق»، نظرا لحجم أسنانه الكبير، وقد اكتشفت جمجمته السيدة ليكى فى يوليو ١٩٥٩ فى اولدوڤاى (تانزانيا). وهى تقدر أنه يعود إلى أكثر من مليون ونصف مليون سنة.

موجـز سـير

نقدم فيما يلى للقارى غير المتخصص موجزاً لسير عدد من المؤلفين.

AMELINEAU : الأب اميل اميلينو (١٨٥٠ - ١٩١٥) عالم أثرى فرنسى وأستاذ تاريخ الأديان بالمدرسة التطبيقية للدراسات العليا فى باريس. أجرى حفريات فى العرابة المدفونة، وإليه ينسب اكتشاف مقبرة أوزيريس.

ARAMBOURG : كاميل ارامبورج (١٨٨٥ - ١٩٦٩)،عالم فى أشكال الحياة فى العصور الجيولوجية القديمة وفى أصل الجنس البشرى، أستاذ فى المتحف القومى للتاريخ الطبيعى فى باريس.

BACHOFEN : جوهان جاكوب باشوفن (١٨١٥ - ١٨٨٧)، قانونى و «فيلسوف تاريخ» سويسرى.

BAUMAN : هرمان بومان (١٩٠٢ - ‏)، عالم ألمانى فى أصل الجنس البشرى.

BORY DE SAINT VICENT : جان - باتيست - مارسلان، بارون بورى دى سان فانسان (١٧٧٨ - ١٨٤٦) عالم طبيعيات، وأحد المساهمين فى تأليف *القاموس الكلاسيكى للتاريخ الطبيعى* (باريس ١٨٢٢ - ١٨٣١).

BOULE : مارسيلان بول (١٨٦١ - ١٩٤٢)، عالم فرنسى، مدير معهد أشكال الحياة البشرية، وأستاذ بالمتحف القومى للتاريخ الطبيعى.

BREASTED :جيمس هنرى بريستد (١٨٦٥ - ١٩٣٥)، عالم امريكى فى الآثار المصرية، استاذ علم المصريات بجامعة شيكاغو ابتداء من عام ١٨٩٥ ، ومدير المعهد الشرقى ابتداء من عام ١٩١٩، كاتب غزير الانتاج.

BREUIL : الأب هنرى بروى (١٨٧٧ - ١٩٦١)، عالم آثار فرنسى متخصص فى علم أشكال الحياة فى العصور الجيولوجية القديمة. «درس كل المغارات المهمة فى أوروبا وانتقل إلى الصحراء لاكتشاف مغارات أخرى. وقد استكشف صخور قرن إفريقيا المزخرفة ...» (انظر : ل.أ.ماير): *متعة الآثار*، الناشر اثينوم، نيويورك، ١٩٧١، ص ٣٧).

BRION : مارسيل بريون (١٨٩٥ - ‏)، ناقد فنى وروائى فرنسى، ألف كتبا حول الآثار،

والتصوير الألمانى، والفن الرومانسى .. الخ. عضو الاكاديمية الفرنسية (١٩٦٤).

BRUGSCH :كارل هنرنغ بروش(١٨٢٧ - ١٨٩٤)، عالم ألمانى فى الآثار المصرية. مدير مدرسة الآثار الأميرية بالقاهرة (١٨٧٠ -١٨٧٩)، أستاذ بجامعة جوتنجن (١٨٦٨)، له عدة مؤلفات من بينها *القاموس الجغرافى لمصر القديمة* (لايبزيج، ١٨٧٩ - ١٨٨٠).

BUDGE : سير ارنست الفريد واليس بودج (١٨٥٧ -١٩٣٤)، عالم بريطانى، تخصص فى جمع الأثريات لحساب المتحف البريطانى، موظف بالمتاحف.

CAILLIAUD :فردريك كايو (١٧٨٨ - ١٨٦٩)، متخصص فى علم المعادن ورحالة فرنسى زار مصر للمرة الأولى فى عام ١٨١٥ حيث كُلف باكتشاف مناجم الزمرد التى وصفها المؤرخون العرب. زار البلاد من جديد فى ١٨١٩، واستكشف أعالى النيل فى ١٨٢١، حيث اكتشف أطلال مَرَوى.

CAPART : چان كابار (١٨٧٧ - ١٩٤٧)، عالم آثار بلجيكى متخصص فى الفن المصرى. مدير المتحف الملكى فى بروكسل، مستشار متحف بروكلين.

CHAMPOLLION : چان فرانسوا شامبوليون، الملقب بالصغير (١٧٩٠ - ١٨٢١)، سمىّ «مؤسس علم الآثار المصرية» لأنه كان أول من فك رموز الكتابة الهيروغليفية. عالم لغوى موهوب، نضج مبكرا، وأصبح متمكنا من ست لغات شرقية إلى جانب الإغريقية واللاتينية وهو فى السادسة عشرة من عمره. قام بالتدريس أولا فى جرينوبل، ثم عين أستاذا بجامعة باريس فى عام ١٨٣١.

CHAMPOLLION -FIGEAC : چاك - جوزيف شامبوليون - فيچاك (١٧٧٨ - ١٨٦٧٩)، لغوى فرنسى اهتم بالآثار المصرية، وأشرف على تربية أخيه الأصغر الشهير. أستاذ فى اللغة اليونانية وأمين مكتبة جرينوبل، تم تعيينه فيما بعد مديرا لإدارة المخطوطات بالمكتبة الوطنية فى باريس.

CHERUBINI : سلفادور شيروبينى (١٧٩٧ - ١٨٦٩)، فنان ايطالى، ابن المؤلف الموسيقى لويجى شيروبينى. صاحب شامبوليون فى مصر فى عام ١٨٢٨. حصل على الجنسية الفرنسية وعين مفتشا للفنون الجميلة.

CHILDE : ف. جوردون تشايلد (١٨٩٢ - ١٩٥٧)، متخصص بريطانى فى حقبات ما قبل التاريخ، أستاذ آثار ما قبل التاريخ فى جامعة ايدنبورج، ومدير معهد الآثار بجامعة لندن (١٩٤٦ - ١٩٥٦). ومن بين مؤلفاته : *الإنسان يصنع نفسه* (١٩٥١)، *وماذا حدث فى التاريخ* (١٩٥٤).

CONTENAU : چورج كونتنو (١٨٧٧ - ١٩٦٤)، مستشرق فرنسى، متخصص فى الدراسات الفارسية والبابلية، موظف بمتحف اللوفر.

DELAFOSSE : موريس ديلافوس (١٨٧٠ - ١٩٢٦)، اخصائى فرنسى فى الشؤون الإفريقية،

صاحب مؤلف عن السود فى إفريقيا ومؤلفات أخرى تتعلق بافريقيا الغربية «الفرنسية».

DESPLAGNES : لويس ديسپلانى (١٨٧٨ - ١٩١٤)، عالم آثار فرنسى.

DIEULAFOY : مارسيل اوجوست ديولافوا (١٨٤٤ - ١٩٢٠)، عالم آثار فرنسى أجرى حفريات فى سوزا.

DIODORE DE SICILE : ديودور الصقلى، مؤرخ إغريقى (١٠٠ سنة ق.م.) من جزيرة صقلية أصلا، عاش فى الاسكندرية وروما.

FRAZER : سير جيمس چورج فريزر (١٨٥٤ - ١٩٤١)، عالم انتروبولوچيا اسكتلندى. مؤرخ للديانات البدائية والميثولوچيا، مؤلف كتاب *الغصن الذهبى*.

FROBENIUS : ليو فروبينيوس (١٨٧٣ - ١٩٣٧)، عالم ألمانى فى الأجناس البشرية قام باثنتى عشرة رحلة إلى إفريقيا بين ١٩٠٤ و ١٩٣٥.

FURON : ريمون فورون (١٨٩٠ -) عالم چيولوچيا فرنسى، الرئيس السابق للمعهد الجغرافى القومى، وأستاذ بجامعة باريس. ألف العديد من الكتب حول چيولوچيا إفريقيا، وعلم الكائنات المتحجرة، وإيران، ومشكلة المياه ... الخ.

GOBINEAU : چوزيف - ارتور،كونت جوبينو (١٨١٦ - ١٨٨٢)، كاتب ودبلوماسى فرنسى، تأثر النازى بأطروحاته العنصرية.

GRIAULE : مارسيل جرييول، (١٨٩٨ - ١٩٥٦)، عالم اتنولوجيا فرنسى كرس أغلب أبحاثه حول الدوجون.

HADOON : الفريد كورت هادون (١٨٥٥ - ١٩٤٠)، عالم انتروبولوجيا بريطانى أستاذ علم الحيوان فى دبلن (١٨٨٠). عين فى عام ١٨٩٥ أستاذاً محاضراً للانتروبولوچيا الطبيعية فى كامبردج. «وحياة هادون، تشكل إلى حد كبير تاريخ الانتروبولچيا الحديثة» (انظر أ.هـ. كيجين، *هادون، قناص الرؤوس*، مطبعة جامعة كمبردج،١٩٤٢).

HAMY : ارنست تيودور هامى (١٨٤٢ - ١٩٠٨)، عالم انتروبولوچيا فرنسى استاذ فى المتحف الوطنى للتاريخ الطبيعى، باريس. كتب عن العصر الحجرى فى مصر وعن الأجناس البشرية المصورة على الآثار. عضو معهد فرنسا (المكون من خمس أكاديميات).

HARTMAN : ادوارد ڤون هارتمان (١٨٤٢ - ١٩٠٦)، فيلسوف وعالم ألمانى.

HERODOTE : (٤٨٤ - ٤٢٥ ق.م.؟)، مؤرخ إغريقى، سمّى «أبو التاريخ»

HOEFER : فرديناند هوفر (١٨١١ - ١٨٧٨)، عالم فرنسى ومؤلف العديد من الكتب المتعلقة

ببلاد الكلدانيين، وأشور، وميديا، وبابل، وبلاد ما بين النهرين، وفينيقيا. كما ألف كتبا حول جنوب القارة الافريقية، والكيمياء، وعلم النباتات، والرياضيات.

HOUSSAYE : فردريك – ارسين هوساى (١٨٦٠ – ١٩٢٠)، عالم فرنسى متخصص فى العلوم الطبيعية.

IBN BATOUTA : أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن بطوطه (١٣٠٤ – ١٣٧٧)، كاتب ورحالة عربى ولد فى طنجة. زار امبراطورية مالى القديمة فى عام ١٣٥٢. «وتظل روايته الأفضل من نوعها» وفقا لما قال بازيل دافيدسون (انظر : *الماضى الافريقى*، ص٨٠).

IBN KHALDOUN : أبو زياد عبد الرحمن بن محمد بن خلدون (١٣٣٢– ١٤٠٦)، مؤرخ وفيلسوف عربى، صاحب المقدمة (مقدمة ابن خلدون) الشهيرة التى جعلته عن حق رائد علم الاجتماع.

LARREY : دومينيك – چان، بارون لارى (١٧٦٦ – ١٨٤٢)، جراح عسكرى فرنسى، جاء إلى مصر، فى صحبة نابوليون، ورافقه فى كافة حملاته ومعاركه.

LEAKEY : لويس سيمور بازيت ليكى (١٩٠٣ – ١٩٧٢)، عالم آثار بريطانى ولد فى كابيته (كينيا)، ابن مبشر انجليزى، محافظ *متحف كوريندون التذكارى* فى نيروبى (١٩٤٥ – ١٩٦١). اشتهر بحفرياته الهامة واكتشف انسان زنياتروب (كسار البندق) فى كينيا (اولدوڤاى)، عضو الاكاديمية البريطانية، وحاصل على «الوسام الملكى» للجمعية الجغرافية الملكية.

LENORMAND : فرانسوا لينورمان (١٨٣٧ – ١٩٣٣)، عالم آثار فرنسى، عضو اكاديمية المسجلات والآداب، أستاذ بالمكتبة القومية، ومؤسس جريدة الآثار *[La Gazette Archéologique]*.

LEPSIUS : كارل ريشار لبسيوس (١٨١٠ – ١٨٨٤)، عالم المانى فى الآثار المصرية، محافظ المقتنيات المصرية فى برلين ابتداء من عام ١٨٦٥.

LEVY - BRUHL : لوسيان ليڤى – برول (١٨٥٧ – ١٩٣٩)، عالم اجتماع فرنسى، نشر مؤلفات حول العقلية والروح البدائيتين.

LINNÉ : كارل ڤون لينّى (١٧٠٧ – ١٧٧٨)، عالم طبيعيات (نبات، حيوان، معادن) سويدى الجنسية.

LLOYD : ستون لويد(١٩٠٢ –)، عالم آثار بريطانى. قام بحفريات فى مصر (١٩٢٩ – ١٩٣٠) والعراق (١٩٣٠ – ١٩٣٧) وتركيا (١٩٣٠ – ١٩٣٧). مدير المعهد البريطانى فى أنقره (١٩٤٩-١٩٦١)، وأستاذ آثار غرب آسيا بجامعة لندن (١٩٦٢ – ١٩٦٩). وأستاذ شرف بعد ذلك.

MAES : چوزيف مايس. انثنولوچى بلچيكى، نشر عدة دراسات حول الجماعات العرقية فى الكونغو البلچيكى، وحول السيرير.

MANETHO DE SEBENNYTOS : مانيتو السمنودى (٣٠٠ سنة ق.م.) كاهن مصرى، كتب حوليات باليونانية عن فراعنة مصر منذ الحقب الأولى حتى الإسكندر الأكبر.

MASPERO : سير جاستون - كاميل شارل ماسبيرو (١٨٤٦- ١٩١٦)، عالم آثار فرنسى. مدير مصلحة الآثار فى مصر (١٨٨١ - ١٨٨٦) و(١٨٩٩ - ١٩١٤). استاذ علم الآثار المصرية فى باريس ابتداء من عام ١٨٦٩، كاتب غزير الإنتاج، منحه الملك ادوارد السابع لقب فارس، عضو الاكاديمية الفرنسية (١٨٨٣).

MONOD : تيودور مونو (١٩٠٢ -)، چيولوچى فرنسى. المدير السابق لمعهد فرنسا لإفريقيا السوداء. كان من اوائل مستكشفى الصحراء.

MORET : الكسندر موريه (١٨٦٨ - ١٩٣٨). عالم فرنسى فى الآثار المصرية، تلميذ ماسبيرو. مدير المدرسة التطبيقية للدراسات العليا (١٨٩٩ - ١٩٣٨). استاذ بكوليج دى فرانس (١٩٢٣) وعضو الأكاديمية الفرنسية ١٩٢٧).

NAVILLE : هنرى - ادوار ناڤيل(١٨٤٤ - ١٩٢٦)، عالم آثار سويسرى، تلميذ ليبسيوس. قام بحفريات فى مصر (١٨٨٣ - ١٩١٣).

PEDRALS : دنيى - پيير دى پدرال (١٩١١ -)، عالم آثار فرنسى.

PETRIE : سير ويليام ماتيو فلندرز پترى (١٨٥٣ - ١٩٤٢)، عالم انجليزى فى الآثار المصرية، مؤلف غزير الانتاج، بدأ أعماله فى مصر فى عام ١٨٨٠. مدير المدرسة البريطانية للآثار فى مصر، ثم فى فلسطين. استاذ علم الآثار المصرية فى جامعة لندن.

QUATREFAGES DE BRÉAU : چان - لوى أرمان دى كاترفاچ دى بريو (١٨١٠ - ١٨٩٢)، عالم طبيعيات فرنسى. أستاذ بالمتحف القومى للتاريخ الطبيعى (باريس)عضو معهد فرنسا.

QUIBBELL : چيمس ادوارد كيبل (١٨٦٨ - ١٩٣٥)، عالم آثار بريطانى، اشتهر بحفرياته فى صقارة. عمل بمصلحة الآثار المصرية ومتحف القاهرة. مساعد پيترى (١٨٩٤) ومكتشف لوحة نعرمر.

REISNER چورج اندرو ريسنير (١٨٦٨ - ١٩٤٢): عالم امريكى فى الآثار المصرية، لُقب «بأفضل المنقبين». أصبح ابتداء من عام ١٩١٠ محافظ الآثار المصرية فى متحف بوسطن للفنون الجميلة. استاذ المصرولوچيا بجامعة هاڤارد (١٩١٤)، ومدير «معسكر هاڤارد» الخاص بالأهرامات.

SCHURÉ : ادوار شوريه (١٨٤١- ١٩٢٩)، طالب حقوق، ترك دراسته وأصبح مؤرخا وناقدا موسيقيا. وكتابه [*LES GRANDS INITIÉS*] يتناول النظريات الباطنية عند مؤسسى مختلف الديانات.

SELIGMAN : شارل جبريل سليجمان (١٨٧٣ - ١٩٤٠)، عالم انتروبولوجيا بريطانى شارك فى رحلة هادون فى مضيق توريس وغينيا الجديدة (١٨٩٨). وقد كلفته الحكومة السودانية بإجراء دراسة حول الاجناس البشرية.

SERGI : چوزيبه سيرجى (١٨٤١ - ١٩٣٦)، عالم انتروبولوچيا ايطالى.

SIEGFRIED : اندريه سيجفريد (١٨٧٥ - ١٩٥٩)، اقتصادى وأستاذ فرنسى. صاحب مؤلفات عن البلاد الأجنبية، بما فى ذلك الولايات المتحدة. وقد زعم فى محاضرة ألقاها فى عام ١٩٥٢ حول الإفريقى أن «الأسود قد يكون تابعا جيدا، ولكنه سيكون مديرا سيئا».

SMITH : سير جرافتون ايليو سميث (١٨٧١ - ١٩٣٧)، اخصائى تشريح بريطانى. أستاذ علم التشريح بمدرسة الطب فى القاهرة (١٩٠٠ - ١٩٠٩)، تخصص فى التحنيط.

TEMPELS : الأب بلاسيد تمپلز (١٩٠٦ -). مبشر بلچيكى فى الكونغو (البلچيكى سابقا). نُشر مؤلفه الشهير *الفلسفة البانتو* فى انفرس فى ١٩٤٦.

VALLOIS : هنرى - ڤكتور ڤالو (١٨٨٩ -١٩٧٩)، عالم انتروبولوچيا فرنسى. مدير معهد الحجريات البشرية (متحف الإنسان) بباريس.

VENDRYES : چوزيف ڤيندريز (١٨٧٥ -)، أستاذ فرنسى فى اللغويات أكد على أهمية هذا الفرع الدراسى «كتمهيد للتاريخ». ومن مؤلفاته : *دراسات كلتيه*.

VOLNEY : الكونت كونستانتان - فرانسوا دى شاسبوف ڤولنى (١٧٥٧ - ١٨٢٠)، مثقف فرنسى، ممثل عامة الشعب وعضو الجمعية الوطنية التأسيسية (١٧٩٠)، والاكاديمية الفرنسية، وجمعية أصدقاء السود. ويعتبر كتابه *رحلة فى مصر وسوريا*، «من روائع أدب الرحلات». وقد كتب أشهر مؤلفاته *الأطلال أو تأملات فى ثورات الامبراطوريات* فى عام ١٧٩١. أودع السجن فى عهد الإرهاب، ثم عين أستاذا للتاريخ فى مدرسة المعلمين (بباريس) فى ١٧٩٢. وقد زار الولايات المتحدة فى عام ١٧٩٥ حيث استقبله چورچ واشنطن بحفاوة شديدة. وعاد الى فرنسا فى عام ١٧٩٨ حيث اتهمه چون ادامز بأنه عميل سرى يعمل من أجل استعادة مقاطعة لويزيانا. وقد نشر *جدول مناخ وتربة الولايات المتحدة* (١٨٠٣)، ومنحه نابوليون لقب كونت بعد ذلك بخمس سنوات. وفى عام ١٨١٤ عينه لويس الثامن عشر عضوا فى المجلس التشريعى الأعلى (المكون من ١٢ عضو).

WOOLLEY : سير ليونارد وولى (١٨٨٠ - ١٩٦٠)، عالم آثار بريطانى قام بحفريات فى مصر والعراق وسوريا. وقد أسره الأتراك أثناء الحرب العالمية الأولى، كتب مجلدا حول الشرق القديم فى إطار *تاريخ العالم*، الصادر عن اليونسكو.

قائمة بالصور والأشكال

ص

فهرست

ص

ملاحـــق



الأصول الزنجية للحضارة المصرية

رقم الايداع	٩٥/٣٧٧٤
رقم دولـــى	٣ - ١٣ - ٥٢٢٢ - ٩٧٧

مطابع روزاليوسف الجديدة



هذا الكتاب

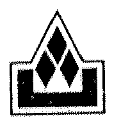




كان أسلاف البشر الأوائل يقطنون القارة الأفريقية ، وكان لون بشرتهم أسود . وعندما عمّروا وادى النيل ، أسسوا فيه الحضارة المصرية النوبية القديمة .

عندما طرح المؤرخ السنغالى الأفكار الثورية التى يتضمنها هذا الكتاب سنة ١٩٥٤ ، تلقاها المجتمع العلمى الدولى باستنكار بل واستهتار ، إذ كان تاريخ مصر وأفريقيا ـ وقتذاك ـ مايزال يُكتب بأقلام بيضاء تنظر إلى « القارة السوداء » باعتبارها نموذجاً للتخلف الحضارى ، وإلى صناع الحضارة المصرية القديمة باعتبارهم من « البيض » : فهل يُعقل أن يأتى أناس سود بمثل هذه الحضارة ؟

والآن ، وقد مرت على صدور هذا الكتاب أربعون سنة أصبح خلالها العديد من أفكاره الثورية من المسلمات العلمية [مع أن البعض مايزال يثير حولها جدلاً ساخناً] . تقدم دار العالم الثالث رسالة « شيخ أنتا ديوب » إلى جمهور القراء المصريين ، وهو المعنىّ الأول بها ، حتى يشرع ـ هو الآخر ـ فى إعادة النظر فى جذوره الأفريقية وفى انتمائه إلى هذه القارة .



دار العالم الثالث

٢٢ (أ) شارع حسين حجازى ، القاهرة
تليفون ٣٥٥٥٥٠٢ / ٣٩٢٢٨٨٠ فاكس ٣٥٥٠٨٧١

كتاب العالم الثالث

تصميم الغلاف: محيى الدين اللباد